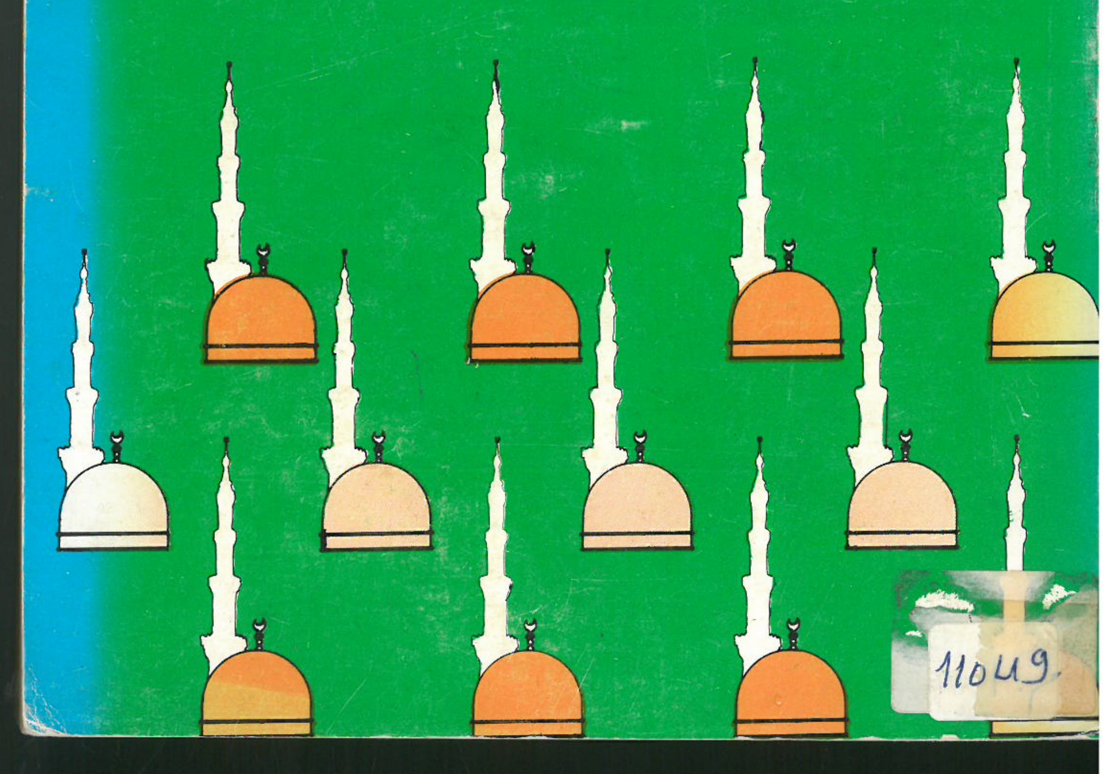
الدكتور مصطفى الشكعة

اسلام بلا مذاهب



إسلام

بلا مذاهب

تأليف

الدكتور مصطفى الشكعه

الطبعة الثالثة
حزيران (يونيو) ١٩٧٩

إهداء

إلى روح أبي في الرحاب الكريم

فإن جوهر ما في هذا الكتاب ليس إلا ثمرة لغرس باكر في سنوات اليفاع ، ثم ما لبث أن فارق .

مصطفى محمد الشكعه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

قبل عام أو أقل قليلا صدرت الطبعة الثالثة من « إسلام بلا مذاهب » وقد ضمنتها فصلا جديداً عن الصوفية ، وكنت قد أجريت تعديلات جذرية في بعض الفصول في الطبعة السابقة فضلا عن الاضافات التي رأيتها ضرورية آنذاك حسبما أشرت في مقدمة الطبعة الثانية .

أما هذه الطبعة الرابعة فإني أعترف أن إضافة ذات شأن قد جرى بها قلمي بغية إلقاء مزيد من الضوء على جماعة إخواننا العلويين، وكانت هذه الإضافة — من وجهة نظرنا — ضرورية كي يتنبه العقلاء من إخواننا إلى العاة التي قد تخفى على بعضهم ، ومن ثم يقومون على علاجها بطريق الحكمة والتعقل الذي يكاد ينحصر في مزيد من العطف والألفة والعناية ، وقدر أكبر من التعليم وربط القوم بوشائج المعاني الإسلامية السليمة، وإن أنجع الوسائل تكمن في قول الله عز وجل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

لقد حاولنا أن نقدم دراسة موضوعية قدر الاستطاعة على الرغم مما يصادف الباحث في مثل هذا الموضوع من صعاب لعل أهمها قلة المراجع ، فإن وجد بعضها تاه الفكر في بحر رموزها وتعب الوجدان في محاولة تأويلها تأويلا صحيحا صادقا . الحق أنها كانت رحلة شاقة عمليا ووجدانيا ، لأن الهدف منها لم يتعدّ الغاية النبيلة التي تهدف إلى تقريب البعيد وتذليل أسباب الغلو ابتغاء العودة إلى رحاب سماح العقيدة ويسرها وصفائها ونقائها وبالتالي إلى تجميع الصف الاسلامي وتوحيده .

والله سبحانه يهدينا إلى سواء السبيل

سوق الغرب : لبنان في ٩ شعبان ١٣٩٢ هـ
١٧ سبتمبر « أيلول » ١٩٧٢ م

مصطفى محمد الشكعه
أستاذ الأدب والإسلاميات بجامعتي
عين شمس وبيروت العربية .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

قبل عام من الزمان صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب وقد حفلت بمزيد من الموضوعات التي لم نعرض لها في طبعتنا الأولى ، فعقدنا فيها فصلاً عن مكانة المرأة في الإسلام مع مقارنة لوضعها في الشرائع السابقة والحضارات القديمة ، كما أضفنا فصلاً عن أئمة أهل السنة الأربعة المشهورين أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، معرّفين بأفكارهم ومسالكهم في سبيل التحصيل واستنباط الأحكام ، وإلقاء مزيد من الضوء على شخصياتهم الفذة الجليلة الفريدة ، ثم وجدنا أن ضرورة الأمانة العلمية ومثالية البحث تقتضينا أن نعيد النظر في الفصل الذي خصصنا به المذهب الدرزي فأعدنا كتابته من جديد في ضوء المباحث والمؤلفات التي صدرت عن شخصيات درزية تناولت البحث في عقيدتهم وقدمتها لقراء العربية ربما لأول مرة في تاريخ الدروز أنفسهم ، بل إن الأمر تعدى حدود مجرد

العرض والتأليف في نطاق المذهب ، فسلك سبيل النقاش والمحاجة والمجادلة في الفكر والرأي والاستنتاج بين هذه الصفوة من مفكري الدروز .

تلك كانت موضوعات أساسية حفلت بها الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، فلما حان موعد إصدار هذه الطبعة الثالثة كان قد استقر في خاطري أن أضمنها بحثاً عن التصوف في الإسلام لارتباط الموضوع ارتباطاً وثيقاً بأهل السنة من ناحية وللصورة المهتزة عن هذا المسلك الجليل في أذهان كثير من الذين يلتمسون الحقيقة ويبحثون عنها بعد أن تعددت الآراء واختلفت الأحكام واختلت الموازين بشأنهم . ليس من شك في أن تعدد التناول للصوفية عن طريق أصحاب الثقافات المختلفة فضلاً عن أنماط من السلوك عمد إليها بعض الصوفية أو نسبت إليهم قد أسهمت في خلق هذه الصورة المضطربة غير الثابتة ، ثم زاد الصورة اضطراباً واهتزازاً ما رددته الروايات عن الخلافات الحادة والصراعات الشديدة التي جرت بين الفقهاء والمتصوفة الأمر الذي يضع المسلم على حافة الحيرة حين يحاول الانتهاء إلى رأي في شأنهم ، فكان أن انتهزت مناسبة مثول هذه الطبعة إلى الصدور وقدمت من خلالها دراسة عن الصوفية منشأ وفكرا ومسلكا عمدت فيه قدر الاستطاعة إلى الإيجاز المبين في غير ماخلل بالقصد ولا غلوّ في الرأي مستهدفاً الغرض الأسمى الذي رُضْتُ عليه نفسي منْذ أن خططت الكلمة الأولى في هذا الكتاب قبل أعوام تزيد على العشر ،

وهو توحيد صف المسلمين وجمع كلمتهم ولمّ شملهم وتصفية قلوبهم بعد أن صنع بنا الخلاف ماصنع وبعد أن جنى التفرق علينا ماجنى .

والله سبحانه يهدينا بفضله إلى سواء السبيل .

بيروت في ١٤ شوال سنة ١٣٩١هـ.

٢ ديسمبر (كانون الثاني) ١٩٧١م.

مصطفى محمد الشكعه
أستاذ الأدب والدراسات الإسلامية
بجامعة عين شمس وجامعة بيروت
العربية

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل سنوات تسع أتيح للطبعة الاولى من هذا الكتاب أن تأخذ طريقها إلى قراء العربية والمسلمين عامة ، وكان الهدف من إصداره - ولا يزال - توحيد الكلمة وجمع الشمل ورأب الصدع بين جمهور المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، وتعريف الشباب بقضايا دينهم التي حاول بعض الدارسين من غير بني الإسلام أن يجعلوا منها موضوعاً للغمز أو هدفاً للنيل أو سبيلا للتشهير فأوردنا الأمور على وجهها الصحيح ودحضنا بالحجة العادلة كل فرية أو تحامل ، ودفعنا بالمنطق الصادق كل زيف أو كيد أو خطأ جاء نتيجة لقصور في الفهم .

على أن واحدا من الأهداف الأساسية لهذا الكتاب كان ولا يزال تثقيف الشباب المسلم في كل أرض وصقع ومن كل مذهب ومشرب . ثقافة مذهبية تكون سبيلا إلى السماحة ودرعا ضد التعصب والعصبية اللذين يشكلان عقبة صعبة التخطي في سبيل التقدم والتجمع على حد سواء .

لقد نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب بعد فترة قصيرة من صدوره ، وكان عليَّ أن أسارع إلى إصدار طبعة ثانية منه إتماماً للفائدة وتيسيراً على من فاتهم اقتناء نسخة من الطبعة الأولى ، ولكن اغترابي بعيدا عن الوطن العربي لفترة امتد طولها الى ست سنوات حال دون تحقيق تلك الرغبة العزيزة عليَّ وعلى القارئين في أوانها .

لقد جرت عادة المفكرين على أن يضيفوا شيئاً جديداً إلى أفكارهم المدونة المطبوعة حينما يعيدون نشرها ، ذلك أن الأمر لا يخلو من فكرة جديدة تطرأ أو خاطر مقتحم يرد أو تدارك لأمر قد يحتاج الى تدارك . وعندما فكرت في إضافة أبواب جديدة إلى هذه الطبعة تريثت بعض الشيء ، ذلك أن الطبعة الأولى كان قد شرفها الإمام الأكبر شيخ الإسلام المرحوم الشيخ محمود شلتوت بمقدمة طويلة نوعا تحمل في ثناياها موافقة كاملة على كل ما جاء بالكتاب من موضوعات وأفكار ، فهل يستباح لي ولا زلت احتفظ بالمقدمة في صدر الكتاب أن أضيف جديدا لم يره الشيخ وقد انتقل إلى جوار الله منذ سنوات . لقد ساءلت نفسي طويلا أكان الشيخ الإمام يمانع في أن أضيف فصلا عن مكانة المرأة في الإسلام ، أو أن أضيف فصلا آخر عن أئمة أهل السنة ، أو أن أجري إضافات جديدة إلى الفصل الخاص بالمذهب الدرزي بعد ما ظهر فيه من تآليف لاحقة للطبعة الاولى من هذا الكتاب ؟ وانتهيت بيني وبين نفسي بميزان من العدالة والاقتناع إلى أن الأمر ما كان ليصل بالشيخ الجليل عند مقام الموافقة أو الترحيب وحسب ، بل إن الأمر كان

سيصل إلى مرحلة دفعه إياي دفعا إلى الكتابة في هذه الموضوعات وتناولها بما يتفق ومسيرة منهج الكتاب .

والحق أني رأيت استكمالا لهدف الكتاب وسدًّا لثغرة عامة في نطاق مفهوم الناس عن المرأة في ظل الإسلام أن أكتب فصلا عنها أوضح فيه مكانتها في الإسلام ووضعها قبل الإسلام عند مختلف الأمم والأديان ، وأن أكشف عن التصور الكريم لفكرة الإسلام للمرأة ولشريعته تجاهها ، وإكرامه لها ، مستمدًّا ذلك من الكتاب العزيز وسنة الرسول الكريم ضاربا الأمثال لثمرة التربية الإسلامية للمرأة فخاضت المعارك وحاجّت الخلفاء وناقشت العلماء وخطبت وشعرت وجاهدت وضحت وتجلدت .

والموضوع الثاني الذي أضفته إلى هذه الطبعة يتعلق بدراسة عن أئمة أهل السنة ، إن الكتاب يشتمل على فصل عن أهل السنة اشتماله على فصول أخرى للمذاهب الإسلامية المختلفة ، ولقد اكتشفت أن فصل أهل السنة لكي يكون مكتملا أسباب الفائدة يحسن أن يزدان بسيرة مفصلة في حدود القصد لكل من الأئمة العظام المشهورين أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل مع عرض أفكارهم واجتهاداتهم وثقافاتهم ومواقفهم ومؤلفاتهم بالقدر الذي يفي بالغرض من غير ما إيجاز مخل ولا إطناب ممل .

والموضوع الثالث الذي أجريت القلم فيه هو الفصل المتعلق بالمذهب الدرزي ، ذلك أنه حتى عصر صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب لم يكن المتخصصون من إخواننا الدروز قد دخلوا

الى ساحة الكتابة عن مذهبهم والتأليف فيه ، وكانت الكتابات التي ظهرت في هذا الميدان إما من أبناء غير المذهب ، أو من أبنائه الذين ليست لهم دراية كاملة به . فكانت كتابتهم أقرب إلى أن تكون تاريخية اجتماعية منها إلى أن تكون مذهبية دينية ، أمـــا وقد ظهرت بعض الكتب التي تتناول القضايا الدينية من خلال المفهوم الدرزي فلم يكن هناك مفر لكاتب يحترم نفسه ويحتفي بقرائه من أن يعرض لما كتب سابقا ويراجعه في ضوء ما ألفه غيره لاحقا ، ويعيد النظر فيه ، ولا يهم بعد ذلك أن غيّر أو صحح أو أبقى الشيء على ما هو عليه في نطاق وزنه للأمور وتقييمه للجديد من الأفكار . إن من العدل أن أقرر أنني استفدت من الكتب الحديثة التي ألفت في نطاق الدراسات المذهبية الدرزية وبالتالي أعدت النظر في فصل الدروز وأضفت اليه بعض المعلومـــات والنصوص .

هـــذا وأحب أن أقرر أن عددا قليلا من المفكرين الذين ينتسبون الى مدارس إسلامية انتهجت في عقيدتها شيئاً من الغلو قد جرت بينهم وبيني أحاديث تتعلق بما ورد عن مذهبهم في الطبعة الاولى فطلبت إليهم — ان كان ثمة شيء لم يرضوا عنه — أن يوافوني بخواطرهم مكتوبة ووعدتهم وعد صدق بنشر ملاحظاتهم كاملة في هامش الفصل المتعلق بمذهبهم . غير أن ردا واحدا لم يصل إليّ ، الأمر الذي يجعل كل ما كتب عن كل مذهب من المذاهب كامل الصدق صرف الصواب ما لم يكن هناك زلل غير المعصوم وخطأ غير القاصد .

والأمر كله رغم الجهد الطويل الذي بذل في هذا الكتاب لا يعدو ان يكون دعوة إلى الصواب ، واستنهاضا للهمم ، وتنقية للعقيدة من الأوشاب التي علقت بها على مر الزمان ، وتطهيرا لها من البدع والمستحدثات وتخليصا من الزيف وتخطيا للجمود ، في إطار من نبل الغاية وسلامة القصد ، واستهداف الخير ، واستجلاب النفع ونشدان السلام والسعي إلى العزة والأمان .

والله يوفقنا جميعا إلى طريق السداد ونهج الصواب .

بيروت في ٣ ذي القعدة سنة ١٣٩٠هـ

أول يناير سنة ١٩٧١ م

مصطفى محمد الشكعه
استاذ الأدب العربي والدراسات الاسلامية
بجامعة عين شمس وجامعة بيروت العربية

تقديم الكتاب
بقلم صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر

الشيخ محمود شلتوت

شيخ الجامع الازهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، والصلاة والسلام على هذا الرسول الكريم الذي جمع الله به القلوب المتنافرة ، وألف به بين النفوس المتباينة ، وعلى آله وصحبه مصابيح الهداية ودعاة الوحدة وعلى كل من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

أمة واحدة :

فإن الله سبحانه طلب من هذه الأمة أن تتوحد كلمتها ،وأن لا تكون شيعا واحزابا يضرب بعضهم أعناق بعض «وأنَّ هذه أمّتُكُمْ أُمّةٌ واحِدَة» فكل عامل على لم شملها ، ساع إلى تأليف

قلوب أبنائها فهو مؤمن حقا مجاهد في سبيل آنبل غاية عني بها الإسلام وهي تأليف القلوب وتوحيد الأهداف ، وأما أولئك الذين يورثون العداوات ، ويبعثون العصبيات ، ويفرقون بين الأخ وأخيه ، ويصطنعون العداوة والبغضاء فهؤلاء هم الذين يسعون في الأرض بالفساد ، وواجب المسلمين المخلصين أن يقفوا لهم بالمرصاد وأن يبصروا الأمة بهم ويكشفوا لهم أهدافهم وسوء غاياتهم .

تفرق المسلمين :

ولقد فهم المسلمون الأولون روح هذا الدين الحنيف واختلفوا في فهم نص من كتاب الله أو سنة رسول الله ولكنهم — مع هذا الخلاف — كانوا متحدين في المبادىء والغايات ، لم يكفر بعضهم بعضا ، بل كانوا يدا واحدة على من عداهم . ثم خلف من بعدهم خلف جعلوا دينهم لأهوائهم فتفرقت الأمة إلى شيع وأحزاب ومذاهب وعصبيات ، واستباح بعضهم دماء بعض وكان بأسهم بينهم شديدا فطمع فيهم من كان لا يستطيع أن يدفع عن نفسه . فذهبت ريحهم وتجرأ عليهم أعداؤهم وانتقصوا بلادهم من أطرافها ، كل هذا ودعاة الفرقة سادرون في غيهم ماضون في طريقهم لا يدفعهم إلى هذا الطريق الشائك إلا أحد أمرين إما الجهل بمبادىء الإسلام الصحيح أو الكيد لهذا الدين الحنيف ، لقي الإسلام على يد هؤلاء وأولئك ما لقي من نكبات ومصائب ولولا قوة تعاليمه وصفاء منبعه واتساق عقيدته مع الفطرة الإنسانية لحرمت الإنسانية من مزاياه وفضائله .

الاستعمار يشجع الفرقة :

ولقد استغل المستعمرون أسباب الفرقة بين المسلمين أسوأ استغلال فراحوا يبعثون من قبور التاريخ أسباب العداوة والبغضاء وينفخون في نار قد خمد أوارها وانطفأ لهيبها ، لأن أكثر هذه الأسباب قد أصبحت غير ذات موضوع ، كل هذا لتبقى لهم الكلمة النافذة في بلاد الإسلام التي حباها الله بخيرات لا تكاد توجد في غيرها من بلاد الله .

الأزهر ودراسة المذاهب :

ولقد تنبه المصلحون من المسلمين إلى الأضرار التي تحيق بدينهم وبلادهم من جراء هذه الفرقة فقاموا ينادون بوجوب وحدة الصف الإسلامي واطراح أسباب النفرة بين أبناء الملة الواحدة والقبلة الواحدة والعقيدة الواحدة ، واتخذت هذه الدعوة طريقها على يد بعض الأفراد الذين باعوا أنفسهم لله فكانت دعوة فردية في أول امرها تزعمها في العهد الحديث امثال : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما ، ثم بعد ذلك أخذت شكلا جماعيا فكانت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي جمعت نخبة من فضلاء الأمة الغيورين على وحدتها الحريصين على رأب الصدع بين صفوفها ، وكان من أثر ذلك أن قررت مشيخة الأزهر أخيرا أن تتوسع في دراسة الفقه المقارن في كلية الشريعة الإسلامية الأزهرية بحيث تتناول دراسة المذاهب المختلفة ومعرفة وجهة نظرهم في الأمور الفرعية ، وهذه خطوة طيبة نحو الغاية النبيلة التي يهدف إليها الإسلام وهو أن يكون

معتنقوه أمة واحدة قد تختلف في أفهامها ولكنها لا تختلف في أسسها وغايتها .

تقريب المذاهب تنقية للعقيدة وقوة للإسلام :

وليست الدعوة إلى تقريب المذاهب الإسلامية دعوة إلى لقاء مذهب على حساب مذهب ولكنها دعوة الى تنقية المذاهب من الشوائب التي أثارتها العصبيات والنعرات الطائفية وأذكتها العقلية الشعوبية .

وإن السبيل الوحيد إلى إعادة الصف الإسلامي إلى وحدته وقوته أن لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، وأن نطرح وراء ظهورنا تلكم التأويلات البعيدة للنصوص الشرعية من كتاب الله والسنّة الصحيحة وأن نفهمها كما فهمها المعاصرون للتنزيل وأن نجعل أهواءنا تبعا لديننا ولا نجعل ديننا تبعا لأهوائنا وأن نحارب احتكار فرد أو أفراد تعاليم الدين . فما كان الاسلام دين أسرار وأحاجى لا يعرفها إلا طائفة خاصة تطلع عليها من تشاء وتمنعها عمن تشاء ، فما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى حتّى بلغ الرسالة وأدى الأمانة وطلب من أتباعه وأصحابه أن يبلغوا ما علموه . وأخذ عليهم العهد والميثاق في أكرم موضع وأكرم يوم وأكرم جمع أن يبلغوا ما علموا فرب مبلغ أوعى من سامع .

كتاب الله وسنة رسوله هما مصدر العقيدة :

والمسلمون جميعا مسئولون عن أداء رسالة الإسلام ، ولا

يتفاوتون فيما بينهم إلا بقدر فهمهم لكتاب الله وسنة رسول الله ، وليس لأحدهم بالغا ما بلغ أن يحرم ما أحل الله أو يحل ما حرم الله : «ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون».

وإن الانحراف عن جادة الطريق المستقيم لا تجد استجابة إلا في بيئة جاهلة بأحكام دينها فعندئذ تجد المستجيبين لصيحة كل ناعق ، وكلما انتشر العلم وكلما دق النظر قلّت فرص النجاح أمام دعاوى العصبية الحمقاء والانحراف الشديد .

الأمانة العلمية وسلامة العرض والبعد عن التعصب في هذا الكتاب :

هذا وقد كان أكثر الكاتبين عن الفرق الإسلامية متأثرين بروح التعصب الممقوت فكانت كتاباتهم مما تؤرث نيران العداوة والبغضاء بين أبناء الملة الواحدة وكان كل كاتب لا ينظر إلى من خالفه إلا من زاوية واحدة هي تسخيف رأيه وتسفيه عقيدته بأسلوب شرُّه أكثر من نفعه ، ولهذا كان من أراد الإنصاف لا يكون رأيه عن فرقة من الفرق إلا من مصادرها الخاصة ليكون هذا أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ . وكان ممن حاول هذه المحاولة الكريمة السيد الاستاذ الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه «إسلام بلا مذاهب» فقد اطلعت على هذا الكتاب فوجدته :

أولا : عرض العقيدة الإسلامية عرضا بينا واضحا ميسرا يتفق مع ما جاء به القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وأبان بأسلوب سهل موافقة هذه العقيدة للفطرة الإنسانية السليمة وملاءمتها لحكم

العقل الناضج المفكر ومجانبتها للتعقيد الفلسفي الناشيء من خطأ الفكر وفساد الرأي .

ثانيا : تعرض لدفع بعض الشبه التي كثر حولها الجدل في الأيام الأخيرة كتعدد الزوجات ومسألة الرق ، فأبان وجهة نظر الإسلام في هذه الموضوعات وقارن بين ما جاء به غيره من الأديان وما عليه العمل الآن في بعض الدول التي يظن أنها بلغت من الحضارة ما لم تبلغه أمة . وكان عرضه هذا عرضا جميلا ورده قويا يقنع كل من طلب معرفة الحق ورغب فيه .

ثالثا : وهو المقصود الاصلي من كتابه وهو الكلام على الفرق الإسلامية الغلاة منهم والمعتدلين ، فقد تكلم عن كل فرقة وكيف نشأت وكيف تطورت ، وقد أعجبني منه أنه عالج هذا الموضوع الشائك بأسلوب المؤرخ الأمين ، ولكن في هوادة ولين لا تثير فتنة ، ولا تورث ضغينة ولا تبعث عصبية ، ولم ينس عند الكلام على فرق الغلاة أن يبين سبب غلوهم في رقة من يخشى على وحدة الأمة أن تتصدع ولا سيما أنه إنما تعرض للفرق التي ارتبط ولا يزال يرتبط تاريخها بجمهوريتنا العربية المتحدة ، ولم ينس أن يشيد بالمواقف النبيلة الكريمة التي وقفتها الفرق المتعددة لرفعة هذا الوطن العزيز ، وما بذلوه من دماء وأرواح في محاربة المستعمرين وأذناب المستعمرين . ولقد طرز كتابه هذا بشيء من آداب المتأدبين من أبناء الفرق المختلفة . فكان كتابه هذا كتاب علم وتاريخ وأدب لا يرى العالم فيه انحرافا عن الجادة ، كما لا يرى فيه المؤرخ تحاملا

على فريق لمصلحة فريق بل هو سجل للأحداث من غير تحيز ولا تعصب كما يرى فيه الأديب صورة وأفكار المتأدبين وأسلوبا معبرا عن خلجات نفوسهم في عصور مختلفة وبيئات متعددة .

محاولة كريمة :

وإن كتاب «إسلام بلا مذاهب» هو محاولة من تلكم المحاولات التي اضطلع بها المصلحون أخيرا للم الشعث وتأليف القلوب وتوحيد الصف الإسلامي .

أكثر الله تعالى من أمثال الدكتور مصطفى الشكعة ممن يدعون إلى الله بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والأسلوب الصادق المهذب الجميل ، كما أدعوه تعالى أن يهيىء له من أسباب التوفيق ما يعينه على خدمة دينه على هذا المنهج القويم .

إنه — تعالى — على ما يشاء قدير .

محمود شلتوت

١٩ من شوال سنة ١٣٧٩ هـ
١٤ من أبريل سنة ١٩٦٠ م

مقدمة الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

كلما نظرت إلى أحوال المسلمين في حاضرهم راعني ما هم فيه من اضطهاد واستعمار ، فخيرات بلادهم مسلوبة وأرزاقهم حرام عليهم حلال لغيرهم ، وديارهم نهب مباح لشذاذ الآفاق من كل مكان ، والتعصب الغربي الأعمى بما يحمل في أنيابه من هلاك لا يجد من بين شعوب الأرض ما ينفث فيها سموم الأذى والبوار إلا الشعوب المسلمة ، فأصبح المسلمون في حاضرهم غرباء عن أوطانهم ، مضطهدين في ديارهم ، محرومين مما تنبت أرضهم من خيرات كثيرة وفيرة حلالا طيبا .

وإذا أنعمنا النظر فيما يغتال من أوطان ، لم نجد بين ذلك إلا أراضي المسلمين وحدها دون غيرها ، فالأندلس الأرض الإسلامية العربية التي وعت الحضارة وحفظتها وعلمت الأوربيين ألف باء المدنية قد اغتيلت في ظروف حالكة السواد تستنكرها الشرائع سماويها وأرضيها لما ارتكبت فيها من قتل المسلمين جملة ، رجالا ونساء وعجائز وأطفالا ، وفلسطين الوطن العربي الإسلامي قد حل به ما

حل بالأندلس ، بل أشنع مما حل بالأندلس ، فقد جمع الغرب الصليبي الصهيوني حثالات من أجناس مختلفـــة تدين باليهودية المتعصبة واغتصب لهم وطنا من أرض المسلمين غير عابىء بما حل بهم من تشريد وجوع وفاقة ومجاعة وأمراض ، وكأن دماء المسلمين وأوطانهم وأرزاقهم قد أصبحت حلا مباحا لمن هب ودب حتى حتى ولو كان من أحط أجناس البشر . وما حل بالأندلس قبل ستة قرون وما حل بفلسطين قبل اثنتي عشرة سنة ، يحاول بعض المستعمرين الغربيين اليوم أن يحدثوه في وطن مسلم عربي آخر هو الوطن الجزائري ، ولا زال الصراع قائما على أشده بين قوى الحق المسلمة وشياطين الباطل الصليبية والصهيونية . (١)

ولم يقف الأمر بامتهان ديار المسلمين وأوطانهم عند هذا الحد، بل إننا قبل عشر سنوات كنا إذا نظرنا إلى خريطة الأقطار الإسلامية شرقا وغربا لم تكد تقع أعيننا على قطر واحد يعيش في ظل الحرية والاستقلال ، بل إن جميع بلاد المسلمين كانت تئن تحت نير استعمار الدول الغربية كبيرها وصغيرها ، فمراكش والجزائر وتونس وسوريا ولبنان وجزء من الوطن السوداني وجزء من الوطن الصومالي وجزء من افريقية الغربية وجزء من الهند الصينية ، كل هذه الاقطار الإسلامية كانت تستعمرها فرنسا ، ومصر وفلسطين والعراق وسواحل الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية ، وجزء من الوطن السوداني وآخر

(١) انتصر الشعب الجزائري المسلم بعد ذلك ونال استقلاله بعد أن قدم في ساحة الجهاد مليون شهيد .

من الوطن الصومالي وأوغندا وتنجانيقا وشبه القارة الهندية والملايو كانت — ولا زال بعضها — تخضع للاستعمار البريطاني . وليبيا وجزء من الوطن الصومالي وارتيريا والحبشة كانت تخضع للاستعمـــار الإيطالي. والكنغو وجزء كبير من افريقية المسلمة يخضع لبلجيكا . وجزء كبير من أفريقية وبعض سواحل الهند يخضع للاستعمار البرتغالي ، وإندونيسيا كانت تخضع للاستعمار الهولندي . وهكذا يبدو الأمر شاذا نابيا مخجلا ، فجميع تلك الأوطان والشعوب المستعبدة أوطان وشعوب إسلامية ، وجميع الدول الغاصبة دول أوربية متعصبة

ولم يقف الأمر بهذه الدول الغاصبة عند اغتيال خيرات بلاد المسلمين وسلبها ، بل كانت دماء المسلمين أنفسهم من سكان تلك البلاد رخيصة غاية الرخص تسفك لأقل سبب ولأتفه غاية ، والمجازر التي سفكت فيها دماء عشرات بل مئات الآلاف من المسلمين في السنوات الماضية القريبة أكثر من أن تحصى في مثل هذه المناسبة ، فمكان ذلك كتاب آخر ، ومن عجب ان دولة أوربية من الدرجة الثالثة أو الرابعة لا يزيد سكانها على اثني عشر مليونا من الأنفس كانت تستعبد وطنا إسلاميا يزيد تعداده على خمسة وثمانين مليونا من البشر ، الدولة الاوربية الغاصبة هي هولندا ، والأرض الإسلامية المغصوبة هي إندونيسيا .

إننا نشك في أن هولندا بتعدادها القليل — والمســـافة بينها وبين اندونيسيا تبلغ الآلاف العديدة من الأميال — قادرة على إخضاع إندونيسيا خلال تلك المئات من السنين التي استعمرتها ،

ولكن الأمر يخفي عصابة متعصبة من الدول الاستعمارية يساعد بعضها البعض الآخر في استعباد الشعوب الإسلامية ، فكلما قامت انتفاضة في وطن من هذه الاوطان الإسلامية تطالب بالاستقلال سارعت الدولة الغاصبة مستعينة بزميلاتها الى القضاء على تلك الثورة ، والأمر واضح بين في حرب الجزائر حيث تستعين فرنسا في حربها هناك ضد المسلمين أصحاب البلاد بأسلحة حلف الاطلنطي الأوربي الامريكي ، وكان الأمر نفسه واقعا في إندونيسيا وهي تخوض معارك الاستقلال ضد هولندا ، فقد كانت كل من انجلترا وفرنسا تمد هولندا بالسلاح والعتاد والأساطيل البحرية والجوية .

لقد سقط من المسلمين عشرات الآلاف بل مئات الآلاف من القتلى في محاولاتهم السلمية التي قاموا بها لاسترداد استقلال أوطانهم ، لأن المستعمر الغربي كان يستحل دماءهم ويلتذ بمنظرها ، فإذا نظرنا في نفس الوقت إلى بقعة غير اسلامية مستعمرة — وما اندر البلاد غير الإسلامية المستعمرة — مثل قبرص مثلا وجدنا ان ضحايا الاستقلال من القبارصة لا يبلغ عددهم بضع عشرات ، وهكذا بضع عشرات من غير المسلمين يقتلون حين يطالبون باستقلالهم ، وقد يكون قتلهم حدث عن طريق الخطأ ، يقابلهم عشرات بل مئات الآلاف من المسلمين يحصدون حصدا وتسيل دماؤهم أنهارا لمجرد أن يفكروا في طلب الاستقلال .

وليت الامر وقف عند هذا الحد ، فان اليهود المشاغبين الذين كانوا يعيشون في فلسطين قبل المحنة ، كانوا في تمردهم

ضد الإنجليز يأسرون ضباط الأمبراطورية ويجردونهم من كل ثيابهم ويجلدونهم بالسياط ثم يعلقونهم في أغصان الاشجار حتى يعثر عليهم زملاؤهم ، ولم يكن هذا العمل يقابل من الجيش المحتل بأدنى عقاب ، فإذا ما قام أقل تمرد بين الفلسطينيين العرب المسلمين ولو كان سلمي الطابع حصدتهم المدافع الرشاشة وأطاحت برقابهم المشانق دون أدنى تحقيق .

المسألة اذن مسألة حرب مبيتة مقصودة مرسومة على المسلمين وأوطان المسلمين وديارهم وأرواحهم ومتاعهم

أعلق طرفي بهذا الحاضر القاسي فيقشعر بدني لهذا الاستضعاف لنا والاستباحة لحمانا . ثم أسرح بطرفي بعيدا إلى الماضي الذي يرجع الى ألف سنة أو أكثر أو أقل قليلا فأجد دنيا واسعة تظلها سماحة الإسلام ، يعيش في حماها المسلم وغير المسلم في حصن من الأمان وحال من الرضى تحت حكم المسلمين ، لا ظلم ولا تعصب ولا ولا عسف ولا اغتصاب ، بل عدل وسماحة وأمان وسلام .

وأضيف الى ذلك تلك الموجات المتلألئة من نور العلم وضياء المعرفة وإشراق الثقافة ، في شكل مجالس علم وندوات أدب في أرجاء دولة المسلمين في الري وأصبهان وبغداد ونيسابور وغزنه وبخارى وسمرقند ودمشق وحلب والموصل او في شكل جامعات مكتملة أسباب المعرفة من أساتذة وطلبة ، يؤمها طلاب العلم من جميع بقاع عالم ذلك الزمان قائمة في القاهرة والقيروان وقرطبة ، جامعات أسبغت حمايتها على العلوم والآداب والرياضيات والفلسفات ،

ولولاها لما تألق للغرب المعاصر نجم ولا التمعت له معرفة ولا سطع له نور ولا بزغت له شمس .

هذا من ناحية سماحتنا ومعرفتنا وأمننا وثقافتنا ، كل أولئك فاض على العالمين نورا وهاجا يضيء ولا يحرق وسماحة كريمة تنشر العدل ولا تميل الى العدوان ، تبسط السلام ولا تجنح للحرب .

فإذا ما حاول معتد أثيم ان يبغي علينا زحفت إليه الجيوش الإسلامية في لمح البصر وجعلت ميدان المعركة في أرضه ولقنته درسا في أدب الجوار ثم عادت أدراجها ، ولا زال أولو الذكر منا حيثما يستطلعون تاريخنا يذكرون حروب السلام التي شنها المعتصم في عمورية ، وخاضها سيف الدولة في أراضي البيزنطيين ، وأبلى فيها صلاح الدين ضد الصليبيين ، وواجهها بيبرس ضد التتار .

هو إذن ماض مشرق مضيء قوي عزيز ، وهو أيضا حاضر خاب ضعيف مستذل معتدى عليه لولا تلك الجذوة الوهاجة التي بدأت تلتمع في سماء العرب والمسلمين منذ بضع سنوات ، وكان علي أن أتأمل الأسباب التي أدت إلى هذه المفارقات الضخمة المؤسفة بين موقف المسلمين وحالهم في أمسهم ويومهم ، ولم يطل بي التفكير طويلا ، فسرعان ما اهتديت إلى أن ضعف المسلمين جاء من تفرق كلمتهم وشتات شملهم نتيجة لتفرق المذهب والعقيدة ، فمذاهب المسلمين المختلفة كانت الباب الذي دخل منه الخلاف ، واستغل الاستعمار سذه الثغرة فوسعها وباركها كما يبارك الشيطان فعل الكبائر ، وأصبحنا نرى السني يخاصم الشيعي ،

والشيعي يلعن السني ، بل إن الشيعة أنفسهم متفرقون ، هذا إمامي ، وذاك زيدي ، ومنهم من غلا في مذهبه غلوا كبيرا ، فهذا إسماعيلي ، وذاك درزي ، والآخر علوي ، ثم نلتفت مرة أخرى فنجد بعض رجال السنة يختلفون فهذا حنفي أو شافعي والآخر وهابي أو سلفي ، ونجيل الطرف بعد ذلك فنجد هذا إباضيا والآخر يميل إلى الاعتزال ، وننظر إلى الاسماعيلية نفسها فنجد فيها النزارية الأغاخانية والمستعلية البهره ، ثم لا نكاد نلتقط أنفاسنا حتى نلمح بعيدا في الهند جماعة الأحمدية أو القاديانية ، وهي تنسب نفسها إلى الإسلام ويصلح فريق منهم ويضل فريق .

مذاهب مختلفة وعقائد متعددة في ظل دين واحد ورسول واحد يستغلها ذوو النيات السيئة وأصحاب المقاصد الدنيئة في ضرب المسلمين بعضهم ببعض ، فوقفنا من هذه المذاهب جميعا — ما درس منها وما بقي — موقف الدارس المستأني ، وقدمناها الى القاريء في يسر وبساطة ولين ، وعرضنا لها تاريخيا وأدبيا وعقائديا ، ناظرين نظرة علمية سمحة ، بعيدين عن التعصب المذهبي ، مستهدفين النصفة ما وسعنا إلى ذلك السبيل ، حتى يتعرف المسلمون على اختلاف مذاهبهم وفرقهم وطوائفهم الموقف الذي ينبغي أن يكونوا فيه ، وسوف لا يكون الفارق واسعا بين كثير من المذاهب المشار اليها وسوف يكون اللقاء أيسر مما يظن الكثيرون ، وفي اللقاء قوة ، وفي جمع الشمل عزة ومنعة وسيادة .

ولما كان الإسلام — ولا يزال — هدفا للتهجم من بعض

الحاقدين عليه في الشرق حينا وفي الغَرب حينا آخر ، الأمر الذي استشرت عدواه الى فئة قليلة من ناشئتنا ، فقد قدمنا للكتاب فصلا عن ماهية الإسلام وعظمته ، وما ضم من تشريعات سماوية دونها أية تشريعات سابقة أو لاحقة . وما حوى من ديموقراطيـــة حقة واشتراكية مثالية وتكافل اجتماعي عادل وشورى وحرب على التمييز العنصري .

ولما كان بعض أعداء الإسلام قد اتخذوا من بعض الأمور — عن جهل وقصور — ذرائع لمهاجمة هذا الدين فقد كتبنا عدة موضوعات تتناول موقف الإسلام من حكمة تعدد الزوجات ، ومن خرافة انتشاره بالسيف ، ومن الرق ، فالذي لا شك فيه ان التعدد أبيح — ولم يفرض — لحكمة اجتماعية سامية ، والذي لا شك فيه أيضا ان الاسلام انتشر بالعقيدة والتبشير والسماحة . ومسلمو إندونيسيا والفلبين جنوبا وفنلندا ولتوانيا في أقصى الشمال أكبر شاهد على ذلك ، والإسلام بعد ذلك محرر العبيد وليس داعية عبودية او استرقاق ، دين لا يفرق بين أبيض وأسود فالكل عنده سواء لا فضل لمسلم على آخر إلا بالعمل الصالح .

كل ذلك تناولناه في بسطة ضاربين الأمثلة متمثلين الأحكام التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ورأينا ان يكون هذا الفصل التعريفي أولى بالتقدم والصدارة بين صفحات الكتاب .

هذا وكان شيخ الإسلام صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الازهر على صلة بمولد هذا الكتاب وفكرته وهدفه ، وكان لا يفتأ — حياه الله — يدفعني الى إتمامه والانتهاء منه ، غير وانٍ عن بذل النصح وحسن التوجيه ، فلما آتى

البحث ثماره تفضل بتقديمه إلى جمهور القراء بالكلمة الرائعة الطيبة التي شرفني وشرف الكتاب بها فلفضيلته جزيل الشكر مني ومن القراء ، وحسن الجزاء من الله ، وكتب الله له الصحة الوافرة والعافية السابغة .

ولما كان الفضل ينبغي أن ينسب إلى ذويه فإني أشكر كل من تفضل بتقديم المساهمة بالفكرة أو المساعدة بالتوجيه ، وأخص بالشكر الاستاذ الجليل محمد المبارك عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق ، والزعيم العربي اللبناني السيد كمال جنبلاط ، وسماحة الشيخ محمد أبو شقرا شيخ عقل الدروز ، والأستاذ الاديب محمد المجذوب .

وبعد فاني أرجو أن أكون قد أصبت جانبا من التوفيق في هذا العمل الذي ما ابتغيت من ورائه غير السعي بالإسلام إلى مدارج العزة وتنقيته من الأوشاب ولمِّ الشمل وضمِّ الجمع ورأب الصدع وتوحيد الصف في ظل من نبل الغاية وسلامة القصد واستهداف الخير واستجلاب النفع وتقوية صفوف المسلمين الذين إن اجتمعوا على الخير نشروا راية العدل والسلام على ربوع العالمين ، وعاشوا سادة أعزة في بلادهم يصلون الماضي بالحاضر ويربطون الحاضر بالمستقبل ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، والله الموفق لما فيه السداد .

مصطفى محمد الشكعه

الدقي في ٢٧ رمضان سنة ١٣٧٩ هـ .
٢٤ مارس سنة ١٩٦٠ م .

القسم الأول

ماهية الإسلام

الإسلام دين الفطرة دون منازع . أي أنه الدين الذي يتلاءم كل الملاءمة مع الخليقة ، ومن هنا صح لنا ولغيرنا أن نسميه دين البشرية وما كان الإسلام ليسمى دين البشرية اعتباطاً أو تحمسا ، ولكن ما جاء به هذا الدين من دستور يقبله العقل ، وهداية يستنير بها القلب ، وعمق يرتكز عليه الإيمان ، وتطور يصلح لكل زمان ومكان ، وشريعة تنظم أحوال المجتمع ، ومساواة تربط بين جميع الناس ، وتأمين للنفس البشرية يجعلها تطمئن إلى حياة أخرى تلقى النعيم بقدر ما قدمت من خير ، كل ذلك وغيره جعل الإسلام أقرب الى طبيعة النفس البشرية دينا ترتضيه ، وسراجا تستهدي به ، وصمام أمان يرد على النفس طمأنينتها إذا هزها ريب أو اعتورتها شكوك .

فالاسلام عقيدة بوحدانية الخالق وايمان برسالة محمد إلى الناس كافة ، تلك الرسالة التي أخرجتهم من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الرشاد ومن الفوضى إلى النظام والاستقرار .

ويمتاز الاسلام عن غيره من الأديان بأن النفس متى ارتضته

وآمنت بروحه واطمأنت إلى تعاليمه لا تحيد عنه أو ترتضي غيره بديلا ، ذلك لأنه أقرب إلى طبيعة النفس البشرية ، ولذلك فإننا لم نجد مسلما خرج عن إسلامه إلى غير الاسلام إلا في حالات نادرة لا يكاد يحسب لها حساب ، فهذه فرنسا على سبيل المثال قد استعمرت «الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ حتى الآن ، أي حوالي ١٣٠ سنة حاربت فيها الإسلام حربا لا هوادة فيها ، وبثت المبشرين في جميع أصقاع تلك البلاد فما استطاعوا أن يخرجوا غير مسلم واحد عن دينه ، أي أن مائة وثلاثين سنة من هدم الإسلام والتبشير بالمسيحية لم تستطع أن تخرج من الإسلام الا مسلما واحدا وهو فضلا عن كونه ثمنا باهظا ، يدل دلالة واضحة على أن المسلم لا يخرج من دينه أو عليه إلا في النادر جدا ، وما ذلك إلا لأنه أوفق دين للخليقة وأنسب عقيدة للانسان ، بينما نرى كل يوم عشرات من أبناء الديانات الأخرى إلى يومنا هذا يدخلون في الإسلام راضين متحمسين .

ومن هنا كان فضل الإسلام على الشعوب عظيما ، لقد مدن الإسلام كثيرا من الأمم ، بل ما من شعب اعتنق الإسلام الا وسار في مدارج الحضارة، وآية ذلك واضحة في جزيرة العرب نفسها التي انتقلت بعد إسلام أهلها إلى أمة تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتنشر راية العرفان والإيمان خفاقة في جميع أنحاء الارض ، ولم يعرف للعرب من الانتصارات الخاطفة والفتوحات الرائعة ما قد عرف لهم في إسلامهم ، ومعنى ذلك أن الاسلام صهرهم ونظم صفوفهم وصقل وحدتهم وجدد إيمانهم بأنفسهم فانطلقوا الى ميدان

الظفر والسيادة ، ينتقلون من نصر الى نصر ويفتحون مصرا بعد مصر ، وما من شعب دخل في الإسلام أو ذهب الإسلام إليه إلا أصبح شعبا راقيا مفكرا ، زالت عنه غمة الجهل واستضاءت عقول أبنائه بنور الثقافة والمعرفة .

وجود الإله الواحد وخلق الكون :

والإسلام يقول بوجود الإله ويدعو إلى الاعتقاد به إلها واحدا لا شريك له ، خلق الكون وفطر السموات والأرض .

والعقل السليم لا يستطيع أن ينكر وجود الخالق ، فالبديهيات الأولى تقول بأن لكل معلول علة ، وقياسا على ذلك كان لكل مخلوق خالق ، ولقد لجأ المفكرون إلى إثبات وجود الله بوسائل شتى عديدة ، لعل أيسرها طريقة الفيلسوف ديكارت الذي توصل الى معرفة الله عن طريق نفسه «الأنا» فحاول أن يكتشف مصباح «الأنا» وعلى نور هذا المصباح اكتشف كل «اللاأنا».

وتتخلص فكرة ديكارت في أن كلا من المؤمن والكافر والشاك يقيم إيمانه أو كفره أو شكه على رأي صادر من عقله وفكره ، وما دمت أفكر أنا اذن موجود ، واذا كنت موجودا فاما أن أكون أوجدت نفسي أو أوجدني غيري ، فإذا كنت أنا الذي أوجدت نفسي فان في عيوبا ونقائص لا بد من تلافيها كي أصل إلى الكمال ، ولكني رغم شوقي إلى الكمال فاني لا أستطيع تحقيقه ، وما دمت لا أستطيع تحقيقه فأنا عاجز ، وما دمت عاجزا عن تحقيق الكمال

لنفسي فأنا من باب أولى أشد عجزا عن خلقي نفسي ، وإذن فقد خلقني غيري ، وهذا الغير لا بد أن يكون أكمل مني لان الناقص لا يخلق ما هو أكمل منه ، ولا يمكن أيضاً أن يكون مماثلا لي ، فلم يبق إذن الا المطلق وهو الواحد الخالق الأحد .

هذا التسلسل في إثبات وجود الله عن طريق النفس موجود في كتاب الله في قوله تعالى :

« ... ... وفي أَنْفُسِكُمْ أفلا تُبْصِرُون[1]» كما وجد في آيات أخر كثيرة كقوله تعالى : « وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ ترى الأَرْضَ خاشِعَةً فإذا أَنْزَلْنا عليْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إنَّ الذي أَحْيَاها لمُحْيِي المَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قدِير » وقوله تعالى في سورة النحل : « هُو الذِّي أَنْزلَ مِن السَّماءِ ماءً لكُمْ مِنْهُ شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تُسِيمُون ، يُنْبِتُ لكُمْ بِهِ الزَّرْعَ والزيْتُونَ والنخيلَ والأَعْنابَ ومِنْ كلِّ الثَّمَراتِ ، إنَّ في ذلك لآيةً لِقَوْمٍ يتفكَّرُون ، وسَخَّرَ لكُمُ اللَّيْلَ والنهارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ والنجوم مسخَّراتٍ بأَمْرِه ، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلُون[2]» .

وما دام العقل قد توصل إلى معرفة الخالق الأعظم فإن الإنصاف يقضي بالإيمان به ، ومتى تم الإيمان به انتقل الإيمان إلى مرحلة أخرى وهي أن الكون جميعه من صنعه ، ولا يمكن أن يكون قد وجد بطريق

(١) الذاريات : الآية ٢١ — (٢) فصلت : الآية ٣٩

المصادفة كما يذهب بعض من يعتبرون أنفسهم من المفكرين . ذلك لان المصادفة أمر أقرب الى الخرافة ، وإن وجدت في حياة الناس في أمور يسيرة فلا يمكن أن تحدث في خلق الكون ، ذلك أن حدوثها في حياة الناس يكون في ظل الإيمان بوجود الله ، هذا لو ضربنا صفحا عن الرأي الذي ينكر المصادفة في جميع حالاتها إنكارا كليا .

والعقل السليم الذي توصل إلى معرفة الله لا يعجز أبداً عن الوصول إلى أن الكون هو المعلول الأكبر للخالق الأعظم ، إذ لا يمكن وجود شيء بدون صانع .

والقرآن الكريم يضرب المثال إثر المثال في هذا الموضوع بما يسكن كل نفس جائشة ويهدي كل عقل به قصور أو شكوك ، فيقول تعالى في سورة البقرة :

« إنَّ في خَلْقِ السَّمواتِ والأَرْض واختلافِ اللَّيلِ والنهارِ والفُلْكِ التي تجري في البحرِ بما يَنْفَعُ الناس وما أنزلَ اللهُ من السَّماءِ من ماءٍ فأحيا بهِ الأَرضَ بَعْدَ موْتِها وَبثَّ فيها مِن كلِّ دابَّةٍ وتَصْريفِ الرياحِ والسحابِ المسخَّرِ بين السماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يعقلون[1]» . أو قوله تعالى في سورة ق : « أفلَمْ ينظروا إلى السَّماءِ فوقَهُمْ كيف بنَيْنَاها وزيَّنَّاها وما لها من فُرُوجٍ ، والأَرضَ مَدَدْناها وألقَيْنَا فيها رواسِيَ وأنْبتنا فيها مِنْ كلِّ زوجٍ بهيجٍ تَبْصِرَةً وذكرى لكلِّ عبدٍ مُنيبٍ[2]» .

(١) البقرة : الآية ١٦٣ — (٢) ق : الآية ٦

كل ذلك فضلا عن الآيات الكونية التي لم تكن معروفة التفسير حين نزل القرآن الكريم لأن العلم لم يكن قد ارتقى إلى مستوى هذه الأيام . ولم يكشف عن معاني تلك الآيات إلا التقدم الباهر الذي أحرزه العقل البشري في عالمنا الحديث . فمن تلك الآيات قوله تعالى :

« وتَرى الجِبالَ تحسَبُها جامِدَةً وهْي تمرُّ مرَّ السحابِ ، صُنْعَ اللهِ الذي أتْقَنَ كلَّ شيءٍ »(١) . أو قوله تعالى : « أوَ لَم يرِ الذينَ كَفروا أنَّ السمواتِ والأَرْضَ كانتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهما »(٢) .

الحق أن الإيمان بوجود الله الواحد عدل ومنطق ، وكما لا بد للرسالة من رسول فقد اصطفى الله من خلقه أنبياء ورسلا آخرهم محمد بن عبد الله الذي أنزل الله عليه القرآن وأفاء عليه رسالة الإسلام لكي ينشرها على الناس هدى وعدلا وأمانا ونورا .

سماحة الشريعة الإسلامية :

الإسلام عقيدة وشريعة ، فالعقيدة هي الإيمان بالله إلها واحدا خالقا للكون لا شريك له وبمحمد رسولا منه إلى الناس كافة ، والإيمان بالأنبياء والرسل جميعا واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت على النحو المعروف والمذكور مفصلا تفصيلا جميلا في كتب الفقه وأحكام الفرائض وفضائلها .

فالإسلام لسماحته واتساع أفقه لم يقف من الأديان السماوية السابقة له وقفة تحد أو نكران أو جحود ، وما كان له أن يقف

(١) النمل : الآية ٨٨ (٢) الأنبياء : الآية ٣٠

ذلك الموقف لأنه من عند الله الذي أرسل الرسل وأنزل الشرائع السابقة له ، فعقيدة الإسلام شقيقة للعقائد السماوية السابقة ، وكلها تدعو إلى الخير وتنهي عن الفحشاء والمنكر ، وإنما جاء الإسلام فاستكمل ما يحتاجه تقدم الزمن من تطور في الفكرة الأزلية ملائما للزمان الذي نزل فيه والأزمان اللاحقة به ، وقد جمعت الآية الكريمة هذه المعاني في قوله تعالى في سورة البقرة :

« آمنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِلَ إليْهِ مِنْ ربِّهِ والمؤمنون ، كُلٌّ آمنَ باللهِ وملائِكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ، لا نُفَرِّقُ بينَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه »(١) .

هذا والإسلام في كل ذلك لا يدخل الناس إلى حوزته قهرا أو قسرا فيقول تعالى في سورة النحل :

« ادْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكْمَةِ والموعظةِ الحَسَنَةِ ، وجادِلْهُمْ بالتي هِيَ أَحْسن »(٢) وفي سورة البقرة : « لا إكْرَاه في الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ »(٣) .

هذا من حيث الدعوة الموجهة إلى العامة ، فإذا ما كان الأمر متعلقا بأهل الكتاب طلب الإسلام من المؤمنين زيادة من التلطف ومزيدا من إظهار المودة وحسن المجادلة «ولا تُجادِلُوا أهْلَ الكتابِ إلاَّ بالَّتِي هيَ أَحْسَنُ »(٤) .

(١) انظر أيضا الآيات ٤ ، ١٣٦ البقرة – الآيات ١٥٠ ، ١٥٢ النساء .
(٢) الآية ١٢٥ (٣) الآية ٢٥٦ (٤) العنكبوت : الآية ٤٦

وأما شريعة الإسلام وما قد اشتملت عليه من معاملات وربط علاقات الناس بعضهم ببعض ، ونظام الأسرة والمواريث والوصية ، فقد شهد أساطين رجال القانون من الأوربيين أنها أسمى الشرائع جميعا في هذه الناحية ، ومن المعروف أن المشرعين الفرنسيين حينما وضعوا القانون الفرنسي كانوا يستحضرون أمامهم كتب الشريعة الإسلامية يأخذون منها بين الحين والحين ما يطيب لهم من نصوص أو يروق أمامهم من أحكام ، ولولا المكابرة لأخذوا كل مواد قانونهم من الشريعة الإسلامية . على أن المنصفين منهم لا يفتأون يكررون في كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم أن الشريعة الإسلامية هي أم الشرائع وأسماها وأقومها .

وإذا لم يكن هذا الكتاب كتاب شريعة إلا أن طبيعة هذا التمهيد تقتضينا أن نقف مع هذه الشريعة السمحة بعض الوقفات نستشف من خلالها المدى البعيد الذي أثر في بناء المجتمع فجعلها بحق سيدة الشرائع . فنظام التوريث في الإسلام قد بني على أسباب من الحكمة تنظم توزيع تركة المورث تنظيما عادلا منطقيا لا قبض فيه ولا إسراف ، فهو يحول دون تجمع الثروة في أيد قليلة ، كما يحدث في بعض النظم التي تخص الابن الأكبر وحده بكل الميراث ومن عداه من إخوته وأخواته يعيشون في ظل الحاجة والفاقة والحرمان فيكونون معاول هدم في جسم المجتمع ، ومن أجل ذلك أيضا هذب الإسلام نظام الوصية فمنع المورث من أن يوصي لأحد من ورثته .

وقد توخى الإسلام في نظام التوريث العدل بالنسبة للرجل

والمرأة ، وراعى أثر كل منهما في حياة الأسرة والمجتمع ، فلما كانت أعباء المرأة ونفقتها ومطالب أولادها كلها محمولة على عاتق الرجل ، كان من العدل أن ينال الرجل من الميراث ضعف ما تناله المرأة « ولِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ » أما بقية التوزيع ونعني به المستحقين من أفراد الأسرة الآخرين فانه قد تم وفقا لدرجة القرابة ومدى قربها أو بعدها بالنسبة إلى المورث .

ولعل من الأمور التي تنفرد بها شريعة الإسلام دون بقية الشرائع مسألة نظام المحارم في الزواج ، فالإسلام لا يبيح الزواج من الأقربين الا الذين يعدون في حكم الغرباء ، وقد أثبت العلم حديثا أن الزواج من الغرباء فيه فائدة محققة للنسل فضلا عن اتساع نطاق الأسرة حينما ترتبط برابطة النسب بأسرة أخرى بعيدة ، وإن أروع تجميع للمحارم هو ما قد تضمنته هذه الآية الكريمة من سورة النساء(1) :

« حُرِّمَتْ عليكُمْ أُمَّهاتُكم وبَنَاتُكُمْ وأَخَوَاتُكُمْ وعمَّاتُكُمْ وخَالاَتُكُمْ وبناتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وأُمَّهاتُكُمْ اللاتي أَرْضَعْنَكُمْ وأَخَوَاتُكُم مِنَ الرَّضَاعةِ وأُمَّهاتِ نِسائِكُم ورَبَائِبُكُمْ اللاتي في حجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ اللاتي دخلتُمْ بِهِنَّ ، فإن لم تكونوا دَخلْتُمْ بِهِنَّ فلاَ جُناحَ عليكُمْ ، وحَلائِلُ أبنائِكُمْ الذينَ مِنْ أصلابِكُمْ ، وأَنْ تَجْمَعُوا بينَ الأُخْتَيْنِ إلاَّ ما قدْ سَلَفَ ، إنَّ اللهَ كانَ غفوراً رحِيماً » .

(1) الآية ٢٣

إن مثل هذا التدرج في درجات المحارم لا يمكن أن يرتفع إلى مستواه ترتيب يأتي من بشر ، إنها رسالة السماء وترتيب السماء ، والخروج عنه حيوانية أو أقرب إلى الحيوانية ، أو بعبارة أخرى وثنية أو أقرب إلى الوثنية ، فإن من الوثنيين من قد تزوجوا أخواتهم مثل تحتمس فرعون مصر الذي تزوج من أخته حتشبسوت أو مثل بعض اليهود الذين يتزوجون من بنات أخواتهم .

ولعل دينا لم يقدر للوالدين حقهما ويرعى حرمتهما كما فعل الإسلام ، فهو يوصي برعاية ذمامهما حتى ولو كانا مشركين ، ويفصل أفضالهما تفصيلا فيه تذكير بما قدماه من رعاية في عهد الطفولة والصبا ، وحق لهما أن يرد إليهما الجميل فأوصى بهما في سورة لقمان [1] :

« ووصَّيْنا الإنسانَ بوالديه حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وهْناً على وَهْنٍ وفِصَالُهُ في عامين أنِ اشْكُرْ لِي ولِوالِدَيْكَ إليَّ المصِير . وإنْ جاهَدَاكَ على أنْ تُشْرِكَ بي ما ليس لَكَ بهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما وصاحِبْهُمَا في الدُّنْيَا معْرُوفاً » . وقوله تعالى في سورة الإسراء :
« وقَضَى ربُّكَ ألاَّ تعبدُوا إلاَّ إيَّاهُ وبالوالدَيْن إحْساناً ، إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبرَ أحَدُهُمَا أوْ كِلاهُمَا فلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيما ، واخْفِضْ لَهُمَا جناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كما رَبَّيَاني صغيرا » .

(١) الآية ١٥ (٢) الاية ٢٤

بهذه الوصايا الإلهية الخالدة وغيرها من آيات القرآن وأحاديث رسول الإسلام أوصى الإسلام وألح في وصايته بمعاملة الوالدين أكرم معاملة وأمثلها .

مرونة الإسلام

ويتميز الدين الإسلامي بمرونة تحببه إلى النفس البشرية العاقلة ، وإذا كانت بعض فترات من التاريخ نسب الإسلام فيها — ظلما — إلى الجمود ، فان ذلك لم يكن للإسلام ذنب فيه وإنما الذنب كان ذنب بعض المسلمين الذين جمدوا وتحجروا فالتصقت التهمة بالإسلام دون الجامدين من المسلمين ، وكيف يكون الإسلام جامدا وهو الصالح لكل زمان ومكان ! ! وآية ذلك اعترافه بالعقل وتقديسه له ، وهو في ذلك وحيد بين الأديان جميعا سماويها وأرضيها ، ففي الحديث الصحيح :

« ما اكتسب رجلٌ مثلَ فضلِ عقلٍ يَهْدِي صاحِبَهُ إلى هُدى ، ويرُدُّه عنْ ردىً ، وما تَمَّ ايمانُ عبدٍ ولا استقام دينُهُ حتى يكْمُلَ عَقْلُه » ، وفي الحديث الصحيح أيضا « لِكلِّ شيءٍ دعامة ، ودعامةُ المؤمنِ عَقْلُه ، فبقْدر عَقْلِهِ تكونُ عِبادَتُه ، أمَا سمِعْتم قولَ الفُجَّار في النار : « لو كنَّا نَسْمَعُ او نَعْقِلُ ما كُنَّا في أصْحابِ السعِير » .

وفي الحديثِ أيضاً : أوّلُ ما خَلَقَ اللهُ العقلَ ، فقال لَهُ أَقبِلْ فأَقْبَل . ثم قال له أَدبِرْ فأَدْبَر ، ثم قال له عزّ وجلّ وعزّتي وجَلاَلي ما خَلَقْتُ خلْقاً أكرم عليَّ مِنْك ، بكَ آخذ ، وبك أُعْطِي ، وبكَ أُثِيب ، وبكَ أُعاقِب » .

والعقل المقصود هنا هو عقل الإنسان بطبيعة الحال ، ومن هنا كان الإسلام معظما للعقل حافظا له قدره باعتباره محققا للعدالة السماوية منفذا للإرادة الالهية .

وفي الوقت الذي يحتفظ فيه الإسلام للعقل الإنساني بمكانته السامية لا يفتأ يذكره بقوة الخالق وعظمته موجها إليه الخطاب في سورة ابراهيم[1] :

« اللهُ الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْض وأَنْزَل مِنَ السماءِ ماءً فأَخْرَجَ بهِ من الثَّمراتِ رِزْقاً لكمْ وسَخَّرَ لكُمُ الفُلْكَ لتجْرِيَ في البحْر بأَمْرِهِ وسَخَّرَ لكُمُ الأَنْهارَ ، وسَخَّرَ لكُمُ الشَّمْسَ والقمرَ دائِبين ، وسَخَّر لكُم اللَّيْلَ والنهار وآتاكُمْ مِنْ كلِّ مَا سأَلْتُموهُ ، وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها » .

لا تفريط ولا إمراط ، لله ملكه وعظمته ، وللعقل الإنساني تقديره ومكانته .

ولم يقف الإسلام من العلم إلا موقف التقدير والإعظام

(١) الآيات ٣١ – ٣٤

وحض المسلمين على طلبه والاغتراب في سبيل تحصيله ، فالقرآن كتاب الإسلام المجيد يقول :

« قُلْ هلْ يَسْتَوي الذين يعلَمُونَ والذين لا يَعْلَمُون[1] » و « وَقُلْ ربِّ زِدْني عِلْماً »[2] و « وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاّ اللهُ والراسخُونَ في العِلم »[3] وأحاديث الرسول في طلب العلم كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام : « طَلَبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مُسْلم » ومنها « مَنْ سُئِل عنْ علْمٍ فكتمه أَلْجَمَهُ اللهُ يومَ القيامةِ بلجامٍ مِنْ نار » .

والعلم الذي يقصده القرآن والحديث هنا ليس — كما يذهب البعض — العلوم الدينية وحدها ، ولكنها المعرفة بمختلف آفاقها وفنونها وميادينها حتى إن حديثا ينسب إلى الرسول الكريم يحض على طلب العلم ولو في الصين ، ومعروف بداهة أن علوم الدين لا تطلب في الصين ، وإنما العلم المقصود هنا هو العلم بمفهومه العام من فلسفة وطب وهندسة وكيمياء ورياضة وغيرها ، والإسلام يؤمن بالعلم والعلماء حيث كرمهم الله في قوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

وإن المنصفين من المؤرخين والمثقفين الأجانب يعترفون بأن الإسلام في عصوره الذهبية كان الحفيظ الوحيد على تراث الفلسفة اليونانية ، بل إن فلاسفة المسلمين قد أقبلوا على هذه الفلسفة وهضموها

(١) الزمر : الآية ٩ (٢) طه : الآية ١١٤ (٣) آل عمران : الآية ٧

وزادوا عليها من أمثال الفارابي وابن سينا في المشرق وابن رشد وابن الطفيل في الأندلس ، هذا فضلا عن أن الإسلام حافظ على خضارة الفرس وحكمة الهند وانتفع بها المسلمون بعد أن ترجموها عن لغاتها الأصلية وأخذوا منها ما يتلاءم مع عقيدتهم .

والأمر الذي لا شك فيه أن الاسلام قد مدن العرب ووسع مداركهم ، بل مدن كل الشعوب التي استضاءت بنوره وانتفعت بهدايته في أنحاء الأرض من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا إلى الأندلس شمالا ، وقد كان أبناء الأوروبيين يفدون على جامعاته في الأندلس ويتعلمون العربية أولا ثم يتتلمذون على العلماء المسلمين ، في وقت كانت جامعات الإسلام في الأندلس وبغداد منارة العلم وراية العرفان .

والإسلام — وهو دين السماحة — يحترم العلم والعلماء سواء أكانوا مسلمين أو نصارى أو يهودا أو حتى من المجوس : فقد كان جيورجيس بن بختيشوع الفيلسوف الطبيب النصراني من أقرب العلماء إلى قلب المنصور العباسي ، كما كان نوبخت وولده سهل الفارسيين المجوسيين من أقرب الناس إليه ، وكانا منجمين ، وقد أسلمت ذرية سهل فيما بعد . وقد وكل الرشيد إلى يوحنا بن ماسويه ديوان الترجمة وظل في خدمة الخلفاء العباسيين حتى عهد المتوكل ، وأما المأمون فقد ولى يوحنا البطريق أمانة ديوان الترجمة كما قرب إليه سهل بن سابور وابنه سابور ابن سهل وكانا فيلسوفين طبيبين نصرانيين . والأمثلة على تشجيع الإسلام للعلم واحتضان

الخلفاء للعلماء من كل دين وملة كثيرة عديدة يصعب حصرها ، ويقف الإسلام من العلوم المختلفة ويقف العلماء المسلمون منها موقف المحافظ عليها الأمين على كنوزها في الوقت الذي يفتي البابوات في أوروبا بحرمان العلماء حينا وحرقهم بالنار أحيانا أخرى .

التكافل الاجتماعي :

ليس هناك ثمة شك في أن التساوي المطلق من الناحية المالية ممتنع بطبيعته بين الناس ، اذ لا بد من فروق بين الناس تضيق حينا وتتسع أحيانا، وقد جرى الإسلام على تضييق هذه الهوة بقدر الإمكان ، فلا يموت الفقير جوعا ولا يهلك الغني تخمة ، من أجل ذلك فرض الإسلام الزكاة والضرائب على مختلف أنواع الثروات لكي يحول دون تضخم الثروات تضخما يضر بالمجتمع الإسلامي من ناحية ، ويسد حاجات الفقراء والمعوزين من ناحية أخرى : فلا يبيت فقير جائعا ولا يمشي معسر عاريا .

والنظام الضريبي الإسلامي نظام بديع سبق كثيرا من التشريعات الضرائبية الحديثة ، يشمل الخراج وما يخرج من باطن الأرض من المعادن ، والصيد البري والبحري ، والجمارك ، وضرائب الحوانيت والمتاجر وغيرها .

أما الزكاة فهي ركن من أهم أركان الإسلام وهي تأتي في الترتيب بعد الصلاة مباشرة ، فإذا كانت الصلاة آية إصلاح نفس المسلم ووصله بربه ، فان الزكاة آية اصلاح المجتمع الإسلامي ،

لأنها تقلل الفروق بين المسلمين وتقرب الطبقات بعضها من بعض ، وقد تشدد أبو بكر الخليفة الأول في معاملة الممتنعين عن دفعها واعتبرهم مرتدين عن الإسلام ، وأرسل في حربهم وردّ على معارضيه من المسلمين في حرب مانعي الزكاة بقولته المشهورة : « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لحاربتهم عليه حتى يؤدوه » .

وإذا كانت الضرائب تجبى على رؤوس الأموال وحسب ، فإن الزكاة تفرض على الأموال المنقولة نفسها ، أي الأموال المعطلة عن العمل حتى إن هذه الأموال المعطلة إذا لم تستغل يمكن أن تستهلك زكاة في خلال أربعين عاما باعتبار أن الزكاة السنوية تساوي ربع العشر .

وقد اهتم الإسلام بالفقير والشيخ العاجز والمرأة والطفل اليتيم اهتماما كبيرا ، فحرص على كفالتهم فجعل الكفارة عن كثير من الخطايا بالتصدق على الفقراء . كما حتم على الأغنياء أن ينفقوا على أقاربهم من الفقراء والعاجزين ، وهو ما زال معمولا به في قوانيننا للأحوال الشخصية حتى الآن . فالرجل الميسور الحال ملزم بالإنفاق على قريبه الفقير .

والإسلام يلزم الدولة بكفالة العاجز عن الكسب والمرأة المقطوعة من الأهل ، والشيخ الكبير والطفل اليتيم . ولا يقف الأمر عند كفالة الدولة للمسلم بل إن كفالة غير المسلم واجبة ، فقد رأى عمر بن الخطاب شيخا من غير المسلمين يتسول في الطريق فأسف

لحاله وقرر له نفقة من بيت المال ، وقال موجها كلامه إلى الفقير الذمي : « ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية وأنت شاب وتركناك تتسول وأنت شيخ » ولعلنا نفهم من ذلك أنه لم يكن على عهد عمر — أي على عهد انتظام الزكاة واطراد دفعها إلى بيت المال — متسول واحد لا من المسلمين ولا من غير المسلمين ، فأي مجتمع كريم كان ذلك المجتمع ، ولكن السر الكبير يكمن في صلب شريعة الإسلام وروح تشريعه ، فالقرآن الكريم — دستور الإسلام — حافل بالآيات الكريمه الجليلة التي تحبب إلى الإنفاق والعطف على الفقراء :

« مَثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أموالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ »[١] « فآتِ ذا القُرْبَى حَقَّهُ والمسكينَ وابنَ السَّبيلِ ذلك خَيْرٌ للذين يُرِيدُونَ وجْهَ اللهِ وأُولئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ »[٢] « والذين في أمْوالِهِمْ حَقٌّ معلومٌ للسَّائِلِ والمحرُومِ »[٣] « لنْ تنالوا البِرَّ حتَّى تُنْفِقُوا مما تُحِبُّونَ »[٤] « والذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَها في سبيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بعذابٍ أليمٍ ، يومَ يُحْمَى عليها في نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بها جِباهُهُمْ وجُنُوبُهُمْ وظهورُهُمْ ، هذا ما كَنَزْتُمْ لأنْفُسِكُمْ ، فذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ »[٥] .

(١) البقرة : الآية ٢٦١ (٢) الروم : الآية ٣٨
(٣) المعارج : الآيتان ٢٤ ، ٢٥ (٤) آل عمران : الآية ٩٢ (٥) التوبة : ٣٤

فالقرآن الكريم عمد إلى الترغيب كما عمد إلى الترهيب في صدد الإنفاق على الفقراء من ذوي القربى والغرباء ، إذا كان قد حسّن التصدق فإنه قد هدد الممسكين ، ومعنى ذلك أن الصدقة فرض على الغني رغم أنه ليس هناك من الناحية الشكلية ما يلزم بها إلا أن آيات الترغيب بالإضافة إلى آيات الترهيب تكاد تجعلها فريضة في مستوى الزكاة .

حبذا لو طبقنا مبدأ الزكاة كما كان يطبق في عصرِ عمر ، إذن لما رأينا فقيرا ولا بائسا ولا محروما .

الشورى في الإسلام :

ليس من شك أبدا في أن الإسلام دين ودولة . ومهما حاول بعض المتطرفين في أفكارهم التي قد تأثرت بمذاهب تسعى إلى هدم الاسلام باعتباره الخط الدفاعي الأول ضد الاستعمار ، أقول مهما حاول هؤلاء — عن قصد حينا أو غفلة حينا آخر — أن يقللوا من شأن الإسلام في بناء الدولة ، فإن ذلك لا يغير من طبيعة الأمر الواقع شيئا ، فالذي لا شك فيه أن أسمى وسيلة لحكم الرعية كان الإسلام أول محتضن لها ومبشر بها ونعني بها الشورى ، ولعل الإسلام هو الدين الوحيدَ الذي دعا إلى الشورى في الحكم وهو بها يفرض نفسه — في جدارة وعدل — على نظام الدولة وطريقة الحكم فيها ، وقد ردد القرآن الكريم هذا الاتجاه في أكثر من موضع في قوله تعالى :

« وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ »(1) ، « وَشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ »(2) .

(1) الشورى : الآية ٣٨ (2) آل عمران : الآية ١٥٩

فهذه الديمقراطيات المعاصرة جميعا والتي تتغنى الشعوب بها وتمجدها وتحارب في سبيلها قد وطدها الإسلام قبل اليوم بأربعة عشر قرنا من الزمان ، ولذلك فإن نظام الحكم في الاسلام يقوم على انتخاب الخليفة الذي يشترك الناس جميعا في انتخابه انتخابا حرا لا زيف فيه ولا تزوير ، وإن الخلافة لا تكون صحيحة إلا إذا كانت نتيجة لبيعة حرة .

والخليفة رغم أنه بحكم مركزه يعتبر الحاكم الأعلى للمسلمين . إلا أنه لا يظلم ولا يستبد . ولكن عليه أن يستشير عقلاء الأمة ومفكريها وينزل على حكمهم ، ثم هو بعد ذلك يعتبر نفسه خادما للناس لا سيدا على الناس ، فهذا أبو بكر الصديق الخليفة الأول يقول فور انتخابه موجها خطابه إلى المسلمين : « أيها الناس : قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق فأعينوني . وإن رأيتموني على باطل فسددوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم . فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » وفي مقام آخر يقول : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني » .

هذا كلام جميل وتشريع جليل ومنتهى ما يصبو إليه الإنسان في توخي الديمقراطية في الحاكم العادل الذي يدعو الناس إلى اتباعه ما كان الحق رائده . فإن انحرف طلب إليهم أن ينصرفوا عنه .

ولم يكن أبو بكر وحده صاحب مثل هذا القول ، فكذلك كان عمر الخليفة الثاني ، نعم كان عمر كذلك لأن شريعة الإسلام

تقتضي ذلك ، فما كاد يلي أمر المسلمين بعد أبي بكر حتى خطب الناس قائلا : « أيها الناس إلا أن رأيتم فيَّ اعوجاجا فقوموني » فنهض رجل من عامة المسلمين قائلا له : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا » فلا يغضب عمر ولا يرى في هذا القول الجاف ما يخدشه أو يجرحه كخليفة للمسلمين بل يتقبل القول راضيا قرير العين قائلا : « الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم أمير المؤمنين بسيفه » .

ولما كانت الشورى تقتضي أن يختار المسلمون حكامهم فقد انعدم نظام وراثة الحكم في الشريعة الإسلامية وأصبح الخليفة ينتخب طول حياته مع حق المسلمين في عزله أو خلعه فاذا مات تجمع المسلمون لانتخاب غيره ، وظل الأمر كذلك في الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي حتى جاء معاوية بن أبي سفيان وخرج على نظام الشورى في الإسلام وجعل الأمر وراثياً في أبنائه من بعده ، فكان أول محطم لأعظم نظام للحكم وجد على ظهر الأرض، فانتقل النظام من الخلافة الشورية إلى الملك الوراثي الذي لا يتفق مع الإسلام لا في نصه ولا في روحه ، ذلك أن الإسلام لا يعترف بالنظام الملكي ولم يذكر القرآن الكريم الملوك إلا في مناسبات الظلم والفساد :

« إنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً »[1] ، « وكانَ وراءَهُمْ مَلِكٌ يأخُذُ كُلَّ سفِينَةٍ غَصْباً » .

(١) النمل : الآية ٣٤ (٢) الكهف : الآية ٧٩

وهكذا كان الاسلام دين الشورى وكان الخلفاء يستعينون بالعقلاء في حل ما يستعصي من الأمور ، وكان الخليفة إذا أخطأ لا يجد غضاضة في أن يعترف بخطئه ويتبع الصواب ، وليس هناك أدل على ذلك من قولة عمر المشهورة : « أخطأ عمر وأصابت امرأة » .

لا جرم إذن أن يقال إن الإسلام أبو الديمقراطيات .

المساواة في الإسلام :

ولعل من أسمى مبادىء الاسلام تلك المساواة التي قد اشترعها للناس جميعا ، فالكل سواء ، لا فرق بين أبيض أو أسود ، ولا أصفر أو أحمر ، ولا غني ولا فقير ، ولا ملك ولا حقير ، وإنما أفضل الناس أقربهم إلى التقوى وأفعلهم للخير ، ويسجل القرآن الكريم هذا الدستور الرائع في قوله تعالى :

« يا أَيُّها النَّاسُ إنَّا خلقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتقَاكُمْ »[1] وفي قوله تعالى : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجزَ بِهِ ولا يجِدْ لَهُ مِنْ دونِ اللهِ وليًّا ولا نَصِيراً . ومَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنةَ ولا يُظْلَمُونَ نَقِيراً »[2] .

(١) الحجرات : الآية ١٣ (٢) النساء : الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤

ويؤكد الرسول الكريم هذه المساواة المطلقة بين الناس جميعاً من كل لون وجنس في قوله الشريف : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » فالإسلام ممثلا في شريعته السمحة يؤكد احترام الناس وضمان حريتهم وتقديس إنسانيتهم بوقوفهم أمام القانون سواء ، لا يفضل أحدهم الآخر إلا باحترامه للقانون وإقدامه على فعل الخير وبعده عن الشر والإثم .

ويؤكد هذه المساواة ألا شفاعة لمجرم وألا تغاضي عن آثم ، وقد أراد أسامة بن زيد وقد تربى في بيت الرسول وكان قريباً إلى قلبه أن يشفع لفاطمة بنت الأسود المخزومية وكانت قد ضبطت متلبسة بجريمة السرقة فغضب النبي وأنكر الشفاعة ووجه الحديث إلى زيد في غضب : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ » ثم قام النبي بعد ذلك فخطب الناس قائلاً : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » فكانت هذه الحادثة أول تأكيد لتشريع المساواة بين الناس جميعاً ، وليس من شك في أن المساواة أساس العدالة في المجتمع .

وعمر بن الخطاب الخليفة العادل يؤكد هذا المعنى ، أي معنى المساواة ، في أول خطبة خطبها وقد ولي أمر المسلمين ، لانه يعلم أنه حيث تفتقد المساواة تفتقد العدالة ، وحيث تفتقد العدالة ينهار المجتمع . يقول عمر : « أيها الناس : إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه » .

وتطبيقاً لهذه القاعدة العظمى ما حدث لجبلة بن الايهم الملك الغساني وقد دخل الإسلام وجاء إلى مكة في خمسمائة فارس من قومه وقد لبسوا ثياب الوشي المنسوجة من الذهب والفضة ، وفي أثناء الطواف بالبيت العتيق داس رجل من فزارة على إزار جبلة فحله فالتفت إليه جبلة مغضباً فلطمه فهشم أنفه ، فذهب الفزاري إلى عمر بن الخطاب شاكياً فبعث عمر إلى جبلة وسأله عن سر اعتدائه على الفزاري ، فأجاب جبلة قائلاً : إنه وطىء إزاري فحله ولولا حرمة هذا البيت لأخذت الذي فيه عيناه ، فقال عمر : أما أنت فقد أقررت . إما أن ترضيه وإلا أقدته منك . قال جبلة : أتقيده مني وأنا ملك وهو سوقة ؟ قال عمر : يا جبلة ، إنه قد جمعك وإياه الاسلام فما تفضله بشيء إلا بالعافية . قال جبلة : والله لقد رجوت أن أكون في الاسلام أعز مني في الجاهلية ، قال عمر : دع عنك هذا ، قال جبلة : إذن أتنصر ، قال عمر : إن تنصرت ضربت عنقك . قال جبلة : أخرني إلى غد يا أمير المؤمنين ، فأجابه عمر إلى طلبه ، فلما كان الليل هرب هو وفرسانه وظلوا يضربون في الأرض حتى دخلوا القسطنطينية فتنصروا وعاشوا في حماية هرقل وبعد مدة من الزمان حن جبلة إلى الإسلام الذي سوى بين الناس وندم على فعلته وبكى قائلاً :

تنصرت الأَملاكُ من خَوْفِ لطمة
وما كان فيها لو صبرْتُ لها ضررْ
تكنَّفني منها لِجَاجٌ ونخوةٌ
وبِعْتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعوَرْ

فيا ليتَ أمي لـمْ تلدْنِي وليتـني
رجعْتُ إلى القوْلِ الذي قاله عُمَرْ
ويا ليتني أرعَى المخـاضَ بقفـرةٍ
وكنتُ أسيراً في ربيعةَ أو مُضَرْ
ويا ليتَ لي بالشامِ أدْنَى معيشةٍ
أجالسُ قومي ذاهبَ السمْعِ والبصرْ

وهكذا تسوى العدالة الاجتماعية في الحق بين الملك والصعلوك ، وتصر على إنصاف المظلوم مهما صغر شأنه من المعتدي ولو كان ملكاً .

هذه العدالة المطلقة والمساواة المطلقة مبدأ من مبادىء الإسلام المقدسة ، فأين منها مبادىء الاخلاق في الفلسفة اليونانية عند أرسطو الذي يطلقون عليه اسم المعلم الاول .

أن أرسطو في الكتاب الخامس من الاخلاق يضع مبدأ التفريق الاجتماعي بصراحة وعنده ما يسمى بالعدالة التوزيعية ، وهي التي ترشد الدولة في توزيع الرتب والألقاب والأموال ، وهي عدالة تعتمد على مبدأ التفريق بين الناس ، وتنمي التمييز بين طبقات المجتمع ، وظل هذا التمييز الطبقي قائماً يفرق بين الناس باسم علم الأخلاق لفترة طويلة من الزمان .

وثمة عنصر هام في المساواة في الإسلام لا ينبغي أن نمر عليه مر السحاب ، بل ينبغي أن نقف عنده طويلاً لأنه ينم عن أصالة في

مبدأ المساواة في الاسلام والعدالة العادلة — ان صح هذا التعبير — التي لا يأتيها الظلم من بين يديها ولا من خلفها ، ذلك العنصر الهام هو عنصر المساواة بين المسلمين وغير المسلمين مساواة تامة ، والعيش معهم في سلام ووئام ، والحفاظ على جوارهم ، والمحافظة على أموالهم وأعراضهم وحرماتهم ومقدساتهم . ينتظم هذا المبدأ قوله تعالى :

« لا يَنْهَاكُم اللهُ عن الذينَ لَمْ يقاتِلُوكُمْ في الدِّينِ ، ولَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ » (١) .

وليس التشريع في ذلك آية مكتوبة في كتاب الله وحسب بل ان ذلك نزل إلى ميدان التطبيق العملي ، فقصة ابن عمرو بن العاص مع المصري القبطي معروفة حين اعتدى ولد لعمرو بن العاص إبان حكمه مصر على أحد المصريين فهدده القبطي بشكايته لأمير المؤمنين ، فلم يأبه ابن عمرو لذلك وقال أنا ابن الأكرمين ، فلما كان موسم الحج وقد ذهب عمرو وابنه إلى مكة كان القبطي في إثرهما ، ودخل إلى الخليفة وعنده عمرو وولده ، فشكا إليه ما قد وقع عليه وأعاد على سمع أمير المؤمنين كلمة ابن الأكرمين ، فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً ، ونظر إلى عمرو قائلاً جملته الخالدة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ثم ناول الشاكي سوطاً وقال له اضرب ابن الأكرمين كما ضربك .

(١) الممتحنة : الآية ٨

ومن تقديس الإسلام للمساواة بين المسلم وغير المسلم أن كان يقف الصحابي الجليل على قدم المساواة في مقام الشكوى مع غير المسلم حتى يقضي لأحدهما ، ومن القصص الجليلة تلك التي ذهب فيها يهودي إلى عمر يشكو علي بن أبي طالب لأمر من الأمور ، فلما مثل عليّ أمام الخليفة لاحظ ان الخليفة يخاطبه بكنيته بقوله يا أبا الحسن ، فاكتسى وجه علي بمسحة من الغضب . فقال عمر : أكرهت أن يكون خصمك يهودياً وأن تمثل معه أمام القضاء على قدم المساواة ؟ فأجاب عليّ : لا ، ولكنني غضبت لأنك لم تسوّ بيني وبينه بل فضلتني عليه إذ خاطبته باسمه وخاطبتني بكنيتي .

وهكذا يأبى عليّ وهو المشكوّ منه إلا أن يحافظ على روح المساواة في موقف القضاء ، فلا يرتضي أن يخاطبه أمير المؤمنين بكنيته ، لأن فيها معنى التوقير والتقريب ، لكي يطمئن اليهودي إلى أن الحكم الذي سيصدره الخليفة سيكون خالياً من الهوى .

ولقد مر بنا أن مساواة غير المسلمين بالمسلمين كانت مطلقة حتى في الصدقات حينما وجد عمر ذمياً مسنّاً يسأل الناس ويتسول في الطريق فظهر عليه الأسف وأمر له بمرتب دائم من بيت المال وقال : « ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية وأنت شاب وتركناك تتسول وأنت شيخ » .

أين من هذه المساواة المطلقة الأصيلة المساواة بين المواطنين في الوطن الواحد في الدول التي تتغنى بالتقدم والمدنية والديمقراطية الحديثة .

ان جرائم التفرقة العنصرية في كثير من الدول الكبرى في عصرنا لما يندي له جبين الديمقراطية خجلاً واستحياء ، ففي جنوب افريقيا نجد البيض الوافدين يمتهنون الملونين وهم سكان البلاد الأصليين ، ويحرمونهم من حقوقهم المشروعة في الحياة ولا يسمحون لهم بالتردد على مطاعمهم أو مقاهيهم أو السكن في أحيائهم ، بل ويحرمونهم من حقوقهم الدستورية كمواطنين أصليين في البلاد .

وفي استراليا ونيوزيلندا يعمد الانجليز إلى إبادة السكان الأصليين للقارة لأنهم ليسوا من البيض وقد ظلوا يستعملون سلاح الإبادة والتقتيل بالجملة حتى كاد الجنس الاسترالي يفنى .

وفي إنجلترا قامت في الشهور الاخيرة حركة اعتداء منظمة على أرواح السود ، ففي كل يوم يعثر البوليس على قتيل أو أكثر ملقى في الطرقات ، وكثيراً ما قامت المظاهرات تطالب بالموت للسود تحت سمع « صاحبة الجلالة الملكة الديمقراطية » وتحت سمع حكومتها « العريقة » في الاعتداء على الشعوب .

فاذا ما انتقلنا إلى الولايات المتحدة الامريكية وجدنا أشنع جريمة في حق الإنسانية ترتكب علنا في البلاد التي تضم مبنى هيئة الامم المتحدة التي تتغنى بما يسمى ميثاق حقوق الانسان .

إن الامريكيين في الولايات المتحدة قد أفنوا السكان الاصليين للبلاد المعروفين باسم الهنود الحمر إفناء كاملاً ، ثم التفتوا إلى المواطنين الملونين أو السود وأهدروا مظاهر إنسانيتهم إهداراً كاملاً فالأسود لا يتعلم في مدارس البيض ، ولا يتردد على منتديات البيض ،

وإذا ركب السيارات العامة فإنه يجلس خلف البيض ، وإن ازدحمت السيارة فرض عليه الوقوف لكي يجلس مكانه الرجل الأبيض ، وينص دستور بعض الولايات الامريكية على قتل الرجل الملون أو حرقه أو تمزيق جسمه إذا اتصل بأمرأة بيضاء ولو كان ذلك بموافقتها ، أما الرجل الابيض فله أن يغتصب الملونة متى شاء وأنى أراد دون عقاب أو محاكمة ، وإن حوكم فمحاكمة صورية .

بل هناك ما هو أبشع من ذلك ، فالرجل الملون لا يسمح له حتى بالاحتجاج السلمي ، فقد حدث منذ سنوات قليلة أن كانت امرأة ملونة مسنة تجلس في سيارة عامة « أتوبيس » ثم صعد رجل أبيض وطلب اليها أن تترك له مكانها ، فامتنعت السيدة عن ترك مكانها لرجل أقدر منها على الوقوف وهي المرأة العجوز المسنة في عمر أمه ، فاستعان الرجل الابيض بالشرطة التي ألقت القبض على السيدة المسكينة وقدمتها للمحاكمة ، التي قضت بإدانتها وتغريمها ، وهنا ثارت نفوس الملونين لهذا الظلم والامتهان ، فقرروا مقاطعة السيارات العامة وصاروا يذهبون إلى أعمالهم ويعودون منها سيراً على الاقدام ، ولكن الحكومة « الديمقراطية العادلة » لم تسمح لهم حتى بهذا الاحتجاج الخفيف وقبضت على مائة منهم وقدمتهم جميعاً للمحاكمة بتهمة مقاطعة وسائل المواصلات وقضت بإدانتهم جميعاً .

والصحف الامريكية تطفح كل يوم بحوادث امتهان الإنسان غير الأبيض وتحقيره والاعتداء عليه وحرمانه من حقوقه المشروعة في الحياة لا لشيء إلا لأنه قد خلق غير أبيض .

أين هذه الديمقراطية الزائفة إذن من ديمقراطية الإسلام الصحيحة السليمة الأصيلة التي تحفظ لكل إنسان حقه ولا تفرق بين الناس إلا بالعمل الصالح ، فقد كان « بلال » الأسود خير من كثير من سادة العرب بل سادة قريش نفسها ! ! .

إن الإسلام دين المساواة الحقة والعدالة المطلقة والديمقراطية الصحيحة ولو علم زنوج أمريكا أو الملونون في جنوب افريقيا بهذا الإسلام لسارعوا إلى اعتناقه لأنه سيرد عليهم — على الاقل — إنسانيتهم ويشعرهم بحقهم في الحياة كمجموعة من مجموعات الأجناس الإنسانية .

القوة الرحيمة في الإسلام :

الطابع العام للشريعة اليهودية يميل إلى القوة والعنف ، والطابع العام للمسيحية ينحصر في الرحمة والسلام ، ولما كانت الحياة لا تنتظم الا بالطرفين من كل شيء فقد جاء الاسلام يمجد القوة حيث ينبغي أن تكون القوة ، ويمجد الرحمة حيث ينبغي أن تكون الرحمة ، ولذلك فإن الله يصف ذاته بالقوة في قوله تعالى : « وكانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً » ويصف ذاته بالرحمة في قوله تعالى : « وكانَ اللهُ بالمؤمنينَ رَحيماً » فصفة القوة جاءت حيث ينبغي أن تكون القوة ، وصفة الرحمة جاءت حيث ينبغي أن تكون الرحمة .

والرسول الكريم يدعوه الله إلى الرحمة ولين الجانب والشورى فيقول تعالى في سورة آل عمران :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ »(١) .

ومن سمات الرحمة في الإسلام والدعوة اليها خطاب الله إلى المؤمنين في قوله تعالى في سورة آل عمران :

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »(٢) .

وإذا ما تعلق الأمر بالدين والدعوة إليه فإن ذلك ينبغي أن يكون بطريق الرحمة والتلطف والترغيب لا العنف والإكراه ، ذلك لان طبيعة الدين وسماحته خير داعية له

« لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ »(٣) ، « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ »(٤)

كل هذه الرحمة من صاب الدين الإسلامي وروحه ، ولكن إذا حزب الامر وتعرض المسلم للخطر أصبح من المحتم عليه أن يخلع ثوب الرحمة واللين وأن يركب المراكب الخشنة ، فالمسلم رحيم على قومه وأهله وجيرانه ، ورحيم على أهل الكتاب ما لم يظهر منهم الاعتداء ، ولكن إذا حاول الكفار الاعتداء كانت هذه الآية خير مصور لواقع الحال

(١) الآية ١٥٩
(٢) الآية ٤٠١
(٣) البقرة : الآية ٢٥٦
(٤) النحل : الآية ١٢٥

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ »(١) .

والإسلام يكره الخنوع والمذلة والاستضعاف فهو يدعو إلى الرحمة العزيزة التي لا تنتهي بالمسلم إلى الذل والضعف ، ويطالب المسلم أن يعيش سيداً مستقلاً غير ذليل . وإلا فالهجرة واجبة حتى يستعد ويستعيد أرضه كما حدث للمسلمين الأولين حينما هاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة حتى تجهزوا للنصر فعادوا إلى مكة فاتحين ظافرين فإن الله تعالى يقول في سورة النساء :

« قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ، قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ . قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا »(٢) .

ثم تأتي الدعوة إلى القوة والعزة في قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »(٣) ويحض الرسول على القوة فيقول : « المسلمُ القوي خير عندَ الله من المسلم الضعيف » .

وهكذا جاء الإسلام وسطاً يدعو إلى الرحمة ولا يغفل القوة . وهو حينما يدعو إلى القوة ويدعو إليها بعبارات تخاطب القلب وتنفذ إلى الوجدان فتهز المشاعر هزاً عنيفاً . ولذلك فإن كبير المستعمرين « جلادستون » كان يقول الانجليز لن تستطيعوا أن تستعمروا المسلمين ما دام هذا الكتاب بين ظهرانيهم . يقصد القرآن الكريم ، ولذلك فإن حرب الإنجليز على القرآن ومحاولة محوه من قلوب المسلمين من

(١) الفتح : الآية ٢٩
(٢) النساء : الآية ٩٧
(٣) الأنفال : الآية ٦٠

أخس الحروب وأحط الخطط . لكنهم ليسوا بمستطعين أن يفعلوا به شيئاً لأن الله اتخذ على نفسه عهداً بالمحافظة عليه :

« إِنَّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنَّا لهُ لَحَافِظُون »[1] .

ولذلك فقد حق لنا أن نصف الإسلام بأنه دين القوة الرحيمة .

الإسلام والرق :

ذكرنا قبل قليل ما يتعرض له بعض الملونين من بني الإنسان من اضطهاد وأذى ينصب عليهم بين الحين والحين ، والحرمان والامتهان اللذين يصيبانهم في بعض الدول التي عدت نفسها أو يعدها الناس دولاً متمدينة تعترف بما قد أطلقوا عليه ميثاق حقوق الإنسان .

هذه الدول نفسها التي امتهنت المعاني الإنسانية لا تفتأ تهاجم الدين الإسلامي وتلصق به التهم الباطلة على أنه الدين الذي يبيح الرق ويتجر أبناؤه في الرقيق ، والحق ان هذه الدعوى باطلة من أساسها فإن الذين يتجرون بالرقيق هم الأوربيون والأمريكيون أنفسهم ، اتجروا به في الماضي جهاراً نهاراً حينما كانت أساطيلهم تهاجم الشواطىء الافريقية وتخطف الرجال والنساء والاطفال وتنقلهم إلى أمريكا وأوربا حيث يعرضون في أسواق النخاسة ويباعون بأبخس الأثمان ويلقون من أسباب المهانة والذلة والاهمال ما عرض الملايين منهم للموت في أبشع صورة ، فضلاً عن المعاملة القاسية البشعة التي

(١) الحجر : الآية ٩

كانوا يلقونها ، إلى أن صدرت بعض التشريعات التي تمنع الرق في القرن الثامن عشر .

ومع صدور التشريعات المشار إليها فلا يزال الرق معترفاً به في نفس الدول التي حرمته على الورق ولم تحرمه في ميدان الحياة ، والشاهد على ذلك أولئك الملايين الخمسة عشر[1] من زنوج أمريكا يحيط بهم الاضطهاد من خلف ومن قدام ومن يمين ومن شمال ، وأولئك الملايين من الملونين في جنوب افريقية الذين تحرمهم الدولة من كل حق ، وتطلق عليهم الرصاص كلما تجمعوا اطلب الإنصاف، وتحصد أرواحهم بالآلاف وأصبحت مشكلتهم فضيحة وعاراً في جبين الإنسانية ، وتنظر في كل دورة من دورات الجمعية العامة للامم المتحدة .

وليس عجباً بطبيعة الحال أن تتولى الدول الإسلامية في الامم المتحدة مناصرة هؤلاء المظلومين المضطهدين والسعي لإنصافهم وتحريرهم ، بينما تقف أكثر الدول غير الإسلامية موقف العداء والمناهضة لهذه القضية العادلة .

فهؤلاء الملونون المضطهدون ، أرقاء بالفعل وإن لم يباعوا أو يشروا . وليست المسألة مسألة بيع أو شراء لكي ينطبق معنى الرق على إنسان ما ، وإنما ما يحيط بهؤلاء المضطهدين من ظلم وقسوة وسوء معاملة وحرمان وامتهان ، كل ذلك يجعلهم أتعس حظاً من

(١) زاد عددهم عند ظهور هذه الطبعة إلى ما يناهز الاثنين وعشرين مليونا .

رقيق القرون الماضية ، فلقد كان لبعضهم ، وأعني الارقاء في ظل الاسلام حقوق تنهض بهم إلى مراتب لا تحرمهم من إنسانيتهم وتحول بينهم وبين الأذى والحرمان كما سيأتي بعد قليل .

من عجب أن هذه الدول التي لا زالت تفرض الرق على ملايين الملونين بل تفرض الرق على كثير من الشعوب بالاستعمار والغزو ، هذه الدول نفسها هي التي تهاجم الإسلام بصفة مستمرة وتدعي أنه الدين الذي يبيح الرق ، فإذا حاولنا أن نتمشى مع هذه الأفكار المتعفنة بأن نقول لا بأس ، فإن الاسلام وقد أباح نوعاً من الرق المؤقت فإنما كان ذلك رقاً لافراد . أما هذه الدول المتمدنية فإنها تفرض الرق على الملايين . وفرق شاسع بين من يسيغ استرقاق بعض الأفراد وبين من يسيغ استرقاق الشعوب .

ومع ذلك فالإسلام وهو الدين السماوي الكريم ليس مشجعاً للرق ولا محسناً له ولا دافعاً إليه ، فالإسلام قد ظهر نوره والرق يملأ أوربا كنظام معترف به له جذوره العميقة الكريهة ، والرق كان يسير دائماً وينمو عند الحضر لا في بيئة البداوة التي سطع منها النور الإسلامي .

والحق الصراح أن الاسلام هو الدين الوحيد الذي شرع العتق ولم يدع إلى الرق بينما كل الشرائع السابقة له من وضعية وسماوية قد دعت إليه ، فاليهودية قد دعت إلى الرق في قوة ، اليهودية التي منها الصهاينة الذين يرمون الاسلام — كذبا — بأنه دين الرق ، يأتي العهد القديم فيقول في الاصحاح العشرين ، كتاب التثنية ما نصه :

« حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك » .

فاليهودية تبيح الرق في عنف وقسوة لا يستغربها من يعرف اليهود وما قد تفننوا فيه من ألوان التعذيب وامتهان الإنسانية بما صنعوه في حرب فلسطين الماضية من قتل الأطفال وبقر بطون الحبالى من النساء .

ولما جاءت المسيحية كان الرق مباحاً على النهج الذي مر ذكره فلم تحرمه ولم تبطله ، بل إن بولس الرسول أمر العبيد بإطاعة سادتهم حيث قال في رسالته إلى أهل افسس : « أيها العبيد : أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدمة العين كمن يرضي الناس ، بل كعبيد المسيح ، عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً » .

وهذا اعتراف كامل من المسيحية بالرق ، وليس الأمر في الاعتراف مستمداً من وصية بولس الرسول وحده ، بل إن الرسول

بطرس له وصية أخرى يذهب إلى أن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم .

ويأتي القديس توما الاكويني وكان ذا نزعة فلسفية فيؤيد الرق ويعترف به مسخراً لذلك العقيدة الدينية التي كان أحد أركانها ، والفلسفة اليونانية التي كان أحد مريديها النابهين .

وليست المسيحية ومن قبلها اليهودية وحدهما اللتان أباحتا الرق، بل ان الفلسفة اليونانية التي تعتبرها الطبقة العليا من المثقفين أم الثقافات ومنبع الحضارات وخلاصة ما أنتجه العقل البشري من سمو في التفكير ، هذه الفلسفة تبيح الرق وتدعو اليه في إسراف ، فقد شرعت نظام الرق العام أي خدم الهياكل الموقوفين عليها ، كما شرعت نظام الرق الخاص أي العبيد الذين يخدمون في البيوت ، وهؤلاء وأولئك عليهم واجبات وليست لهم حقوق .

فأفلاطون صاحب « الجمهورية الفاضلة » يحرم العبيد في جمهوريته من حق المواطنة ويشرع لهم نظاماً يجبرهم على اطاعة سادتهم والخضوع لهم خضوعاً كلياً بتشكل مهين حتى أن العبد إذا تطاول على سيد غير سيده أسلمته الدولة إلى هذا السيد الغريب لكي يقتص به .

وأرسطو — المعلم الأول — لا يذهب بعيداً عن أفلاطون ، بل هو يرى بمنتهى البساطة أن هناك فريقاً من الناس قد خلقوا ليكونوا عبيداً ، كأنما المسألة بديهية من البديهيات ، ولا ينبغي أن ننسى أن

أرسطو هو صاحب علم الاخلاق (١)

وإذا انتقلنا من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الهندية وجدناها بدورها تبيح الرق ، ولكنها تطلق عليه أسماً آخر ، فهي تستعبد فئات معينة من الناس وتحرمهم من حقوقهم وتطلق عليهم اسم « المنبوذين » .

وهكذا نجد أن الحضارات الحديثة ممثلة في أمريكا وأوربا وفي الاوربيين الذين يسكنون جنوب افريقيا يبيحون الرق المقنع حتى اليوم فيحرمون غيرهم من حقوقهم الإنسانية وإن كانوا أبطلوا البيع والشراء .

كما نجد أن اليهودية والمسيحية قد أباحتا الرق وشجعتاه ودعتا اليه . وكذلك وجدنا الفلسفة اليونانية تمجده وترى ألا مناص من الاعتراف به ، والأمر كذلك في الحكمة الهندية .

شرائع سماوية وأخرى أرضية كلها تدعو إلى الرق ، وحضارات قديمة سالفة وأخرى حديثة معاصرة كلها تدعو الى الرق ، فما بالهم يهاجمون الإسلام ويحملون عليه ويشنعون به بدعوى الرق ! ! ؟

الشيء العجيب الغريب بعد ذلك كله أن الإسلام لم يدع إلى الرق ولم يشرعه كما فعلت الشرائع السابقة ، بل لقد جاء الإسلام فوجد الرق منتشراً في الجزيرة العربية وفي جميع أنحاء العالم المعاصر له ، فقاومه وهذبه حتى نستطيع أن نقول في غير ما مبالغة أو محاباة إن الاسلام محرر العبيد .

(١) راجع حقائق الاسلام وأباطيل خصومه « فصل الرق » .

بل نستطيع أن نقول إن الاسلام قد ألغى نظام الرق وأبقى على نظام الرق الحالي المعترف به من جميع الدول ، وهو نظام أسرى الحروب فان جاز أن نسمي هؤلاء الاسرى رقيقاً كان الإسلام وغيره مشرعاً للرق الذي لا بدمنه، إذ لا يمكن أن تحدث حروب ولا يسقط معها أسرى ، ومع ذلك فقد ارتضى الإسلام نظام تبادل الأسرى أو فداء الذين لم يجدوا لهم بديلاً بالمال .

ونظام آخر من الرق اعترف به الاسلام ولكنه لم يشرعه ولم يدع اليه بل وجده من قبل فلم يباركه ولكنه حض على إلغائه ، وهو الرق بالوراثة ، وفي الوقت نفسه وضع للرقيق من الحقوق والضمانات ما سيأتي ذكره بعد قليل .

ولكي نوضح نبل موقف الإسلام من الرق والسعي إلى القضاء عليه ينبغي أن نشير إلى بعض أنواع الرق قبل الاسلام وكانت كثيرة جداً نذكر أهمها فيما يلي :

أولاً : أسير الحرب وكان يقتل أحياناً ويسترق أحياناً أخرى .

ثانياً : رقيق الخطف والسبي .

ثالثاً : بعض من يرتكبون الجرائم الخطيرة من سرقة أو قتل كان يحكم عليهم بالرق لمصلحة الدولة أو لمصلحة المعتدى عليه أو أسرته .

رابعاً : المدين الذي كان يعجز عن سداد دينه كان يحكم عليه بالعبودية لصالح الدائن .

خامساً : الآباء الفقراء الذين كانوا يبيعون أبناءهم فيصبحون أرقاء .

سادساً : بعض الأشخاص الذين كانوا يتنازلون عن حريتهم من تلقاء أنفسهم نظير أجر معين كالطعام أو الحماية أو سدّ الدين .

سابعاً : أبناء الإماء كان الواحد منهم يولد عبداً إن كان ذكراً ، وجارية إن كانت أنثى ولو كان الأب من الأحرار أو السادة . فلما جاء الإسلام قضى على هذه الأنواع من الرقّ قضاء مبرماً وأبقى على نوعين منهما فقط هما : أسرى الحرب وأبناء الإماء [1]

وحتى هذين النوعين هذبهما الإسلام فليس كل أسير حرب يعتبر رقيقاً ، فمثلاً الأسير في حرب بين طائفتين من المسلمين لا يعتبر رقيقاً ، وكذلك الأسير في حرب غير شرعية لا يجيزها الإسلام لا يكون رقيقاً .

والحرب الشرعية التي يكون أسيرها رقيقاً لها شروط كثيرة : منها أن معلن الحرب يجب أن يكون الخليفة نفسه ، ومنها أن تكون حرباً دفاعية أو تكون دفعاً للكيد وردّاً على نكث العهد ، أو أن تكون متعلقة بسلامة الدولة كإخماد الفتن والقضاء على الخارجين .

فإذا لم تنطبق كل الشروط سالفة الذكر على الحرب فإن أسيرها لا يسترقّ .

---

(١) راجع حقوق الإنسان في الإسلام فصل (الحرية المدنية) للدكتور علي عبد الواحد .

ولم يقف الأمر بحكمة الإسلام في رقيق الحرب عند هذا الحد الذي يعتبر عادلاً ، بل إن الإسلام لا يجعل الرق نتيجة حتمية للأسر فللخليفة أو الإمام أن يطلق سراح الأسرى دون مقابل أو مقابل فدية أو جزية أو عمل يؤدونه .

وهكذا يكون الإسلام بحكمته وسماحته قد قضى على أحد النوعين من الرق اللذين أبقى عليهما .

يتبقى لون أخير من الرّق هو رق أبناء الإماء ، وهذا النوع قد هذّبه الإسلام ، فبعد أن كان ابن الأمة يولد رقيقاً مهما كان أبوه ، حرر الإسلام أبناء الإماء من سادتهن ، وما دامت الأمة قد أصبحت أما لولد حر فإن ذلك يحسّن وضعها ويقربها شيئاً فشيئاً إلى الحرية .

إلى هذا الحد يكون الإسلام قد قضى في حكمة بالغة على جميع أنواع الرق إلا رق الوراثة فقد هذّبه ، أو كما يقول الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد : أقره في صورة تؤدي هي نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج دون أن يحدث ذلك أي أثر في نظام المجتمع ، بل دون أن يشعر أحد بتغير في مجرى الحياة .

أليس من العدل بعد ذلك أن يكون الإسلام محرر العبيد ؟ إن من يستعرض القرآن الكريم وهو كتاب الله وآيته مهما كان ممن يحاولون أن يفتشوا عن سوءات للإسلام ، لا يستطيع أن يجد آية واحدة تحضّ على الرق كتلك الآيات التي مر ذكرها في الشرائع المتعددة من سماوية ووضعية ، هذا فضلاً عن موقف الإسلام من الرق بصفة عامة .

فأما الذين قضت ظروفهم أن يظلوا في الرق بعض الوقت حتى ترد إليهم حريتهم نتيجة لسياسة الإسلام التي مر ذكرها إزاء تحررهم بالتدريج فهؤلاء لهم حقوق يفرضها الدين فرضاً ولا سبيل إلى إنكارها أو التهاون فيها .

فمن حق الرقيق ألا يجرحه سيده بالحديث عنه بصفة العبد أو الأمة ، بل ينبغي على مالك الرقبة أن يقول فتاي أو فتاتي ، وأن يعاملهم كما يعامل أبناءه ، وكان رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يحضّ على حسن معاملة الأرقاء فيقول : «لقد اوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » وصدق الرسول وصدق جبريل فإن شريعة الإسلام — على ما مر ذكره — تحرر العبيد وتحول دون استعباد الناس ودون استخدامهم ، وقد قال عمر الخليفة الثاني قولته المشهورة : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ فالفلسفة الكامنة في جملة الخليفة الثاني — وهو في مقدمة مجتهدي الإسلام — أن الإسلام لا يسكت على استرقاق الناس ، بل الأصل أن يولد الناس أحراراً وألا يستعبدوا ، ومن قد قضت ظروفه أن يستعبد ، ينبغي أن يبحث له عن طريق الحرية والخلاص من العبودية .

وعمر — الذي آمن بحرية الناس — كان يعامل غلامه أكثر مما يعامل أبناءه ؛ فقد سافر إلى بيت المقدس لكي يتسلمه من البطريرك وكان سفره على ناقة واحدة ومعه غلامه ، فكانا يتناوبان الركوب الواحد بعد الآخر ، ولما اقتربا من بيت المقدس كان الدور للعبد ،

فحاول أن يتنازل لسيده عن الركوب ، ولكن عمر العظيم أصر على أن يأخذ العبد حقه في الركوب ولم يستحي أن يدخل بيت المقدس وهو خليفة المسلمين وعبده راكب وهو راجل يسعى خلفه بقدميه .

وكان عمر يمر بمكة فرأى قوماً يأكلون وعبيدهم بعيدون عنهم ، فغضب وقال مؤنباً السادة : « ما لقوم يستأثرون على خدامهم » ثم دعا العبيد فأكلوا مع السادة في وعاء واحد .

ولقد حفظ الإسلام على العبيد حقوقهم ونهى عن إيذائهم ، فقد أرسل النبي وصيفة إلى أمر فأبطأت في الطريق فقال لها : « لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك ، وحتى لو ضربها النبي بالسواك لما أوجعها ، ولكنه أدب النبوة لكي يقتدي الناس به في معاملة أرقائهم .

ويذكر ابن مسعود البدري أنه كان يضرب غلاماً له بالسوط فسمع صوتاً من خلفه يقول : « اعلم أبا مسعود » فلم يفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا منه إذا هو رسول الله يقول : « اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ، فقال ابن مسعود : لا أضرب مملوكاً بعده أبداً .

ولقد حفظ الإسلام للرقيق حقوقهم كما حفظ عليهم إنسانيتهم ، فلم تكن الشرائع السابقة للإسلام تعترف للرقيق بحق الزواج ولا حق تكوين الأسرة بمعناها المتعارف عليه ، بل كان الاتصال بين الذكور والإناث يتم كما يحدث للبهائم أي برغبة سادتهم لمجرد التناسل والإكثار من عدد الرقيق .

وكانت هذه الشرائع نفسها تحظر على الحر أن يتزوج من جارية ، وتحظر على الحرة أن تتزوج من عبد فإن فعلت حلت عليها عقوبة شديدة تصل أحياناً إلى الإعدام .

أما الإسلام فقد حفظ على الرقيق إنسانيته ، وأباح للرجل العبد أن يتزوج من جارية مثله كما أباح له أن يتزوج من حرة ، وأباح للأمة أن تتزوج من رقيق مثلها كما أباح لها أن تتزوج من حر ، ولكن تحت إشراف السيد على عقد زواج العبد والأمة .

وإذن فقد حمى الإسلام الأرقاء من الإيذاء وحفظ عليهم إنسانيتهم ، ولم يقف الأمر بالإسلام عند ذلك وحسب ، بل إنه يحض دائماً وفي كل فرصة على تحرير العبيد وفك الرقاب ، فجعله كفارة عن كثير من الذنوب كالحنث باليمين أو القتل الخطأ . ففي الكفارة الأولى عن الحنث باليمين يقول الله تعالى في سورة المائدة :

« لا يُؤَاخِذُكُم اللهُ باللَّغْوِ في أَيْمانِكُمْ ، ولكِنْ يُؤَاخِذُكُم بما عَقَّدْتُمُ الأَيْمانَ فكَفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشْرَةِ مساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تحْرِيرُ رَقَبة »[1] وفي القتل الخطأ يقول تعالى في سورة النساء : « ومَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطأً فتحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ودِيَةٌ مُسَلَّمة إلى أَهْلِهِ إلَّا أن يَصَّدَّقُوا . فإنْ كان مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وهُو مُؤْمِنٌ فتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنة . وإنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمةٌ إلى أَهْلِهِ وتَحْرِيرُ رَقَبة مُؤْمِنة »[2] .

(١) المائدة : الآية ٨٩
(٢) النساء : الآية ٩٢

والذي يرتكب واحدة من هذه الأفعال التي مر ذكرها ولا يملك عبداً فعليه أن يشتري عبداً ويعتقه إن كان ذلك في استطاعته .

لقد وسّع الإسلام إذن أسباب العتق وحضّ عليه ولم يترك مناسبة — صغر شأنها أو كبر — إلا استغلها استغلالا طيباً لصالح العتق ، فمن أسباب العتق مثلاً أن يجري على لسان السيد أيُّ لفظ يستفاد منه عتق غلامه أو أمته سواء أكان السيد يعني ما يقول أو لا يعنيه، جاداً أو هازلاً ، متمالكا عقله أو فاقداً رشده بفعل المحرمات ، راضياً مختاراً أو غير راض مكره .

ويبيح الإسلام للعبد أن يشتري حريته من سيده بالمال ، وقد مكن الإسلام لهذا النوع من العبيد أن يتاجر ويبيع ويشتري ويتصرف كما يتصرف الأحرار ، فإذا جمعوا الأموال دفعوها نظير تحرير رقابهم .

والإسلام يمجد عملية فك الرقاب وعتق الرقيق ، ويجعلها مثلاً أعلى للأعمال الطيبة التي يثاب عليها المرء ويعظم أجره عند الله والناس، ففي الحديث الشريف أمثلة كثيرة على ذلك كقوله عليه الصلاة والسلام : من فعل كذا فكأنما اعتق رقبة ، أو يكون ثوابه عند الله كمن أعتق رقبة .

والشريعة الإسلامية قد نظمت عملية فك الرقاب ورتبتها وأحاطتها بالضمانات بشكل يدعو إلى الإعجاب والرضى ، والأمثلة على ذلك كثيرة متعددة ، فمن ذلك أنه إذا صدر من السيد أي لفظ يفيد الوصية بفك رقبة معينة بعد موته ، فإن هناك من الضمانات

ما يجعل هذا العبد في عداد الأحرار فور موت سيده، فلا يباح إطلاقاً أن يتصرف فيه سيده لا بالبيع ولا بالرهن ولا بالهبة ولا بغير ذلك من أنواع التصرف الذي قد يحول بين العبد وحريته ، وكذلك الأمر بالنسبة للجارية ، بل يزيد قليلاً فلو فرض أنها وضعت بعد الوصية لها بالعتق فإنها هي وولدها أو أولادها يتمتعون بحريتهم كاملة .

ومن أمثلة تيسير الإسلام لفك الرقاب أن الجارية إذا أنجبت من سيدها ولداً اعترف السيد ببنوته فإن هذه الجارية نفسها تصبح في عداد الحرائر بمجرد وفاة سيدها ، فلا تورث أو تستذل وهي التي تعرف باسم « أم الولد » . وكما وضع الإسلام الضمانات الكفيلة بتحرير الرقيق الموصى بعتقهم فإنه قد وضع كذلك الضمانات الكاملة التي تكفل تحرير أم الولد .

بعد هذه الجولة مع الرق وموقف الإسلام منه ، وهذه الأمثلة الكثيرة التي ضربناها وأنواع العبوديات المختلفة قديماً وحديثاً ، واعتراف الشرائع كلها بالرقيق والحض عليه دون الإسلام ، وبعد هذه المواقف القرآنية والنبوية والشرائعية الإسلامية من الرقيق ، لا يقول بأن الإسلام اعترف بنظام الرقيق إلا جاهل أو مكابر جاحد ، وعلى الجاهل أن يقرأ ويستقصي لعله يستنير ، وأما المكابر الجاحد فإن الحجة تلجمه والبرهان يصفعه والواقع الحادث الكائن يلقمه حجراً بل أحجاراً .

وهكذا نعلن ونكرّر ونزيد أن الإسلام دين تحرير العبيد ، وأن

غيره من الشرائع بل إن الحضارة الحديثة وديمقراطية القرن العشرين تصر على استعباد بعض الناس وحرمانهم حقوقهم فضلاً عن استعباد الشعوب وسلبها أبناءها حريتهم وأرضهم وأرزاقهم .

الزواج بأكثر من واحدة :

إذا كان المتحاملون على الإسلام قد اتخذوا من مادة الرق وسيلة لمهاجمة هذا الدين القيم ، فإنهم قد اتخذوا من تشريع الزواج بأكثر من واحدة مادة أخرى للهجوم والتطاول ، وقد مر بنا أن موقف الإسلام من الرق أكرم من موقف الشرائع السابقة له بلا استثناء سواء منها السماوية أو الوضعية .

والأمر كذلك بالنسبة لتعدد الزوجات ، فقد ظن كثير ممن لا تربطهم بالإسلام وبلاده روابط قوية أن الإسلام يساوي في نظرهم عدداً من الزوجات يجمعهن بيت المسلم ، كما ظنوا أنه لا يوجد مسلم متزوج بواحدة فقط . والأمر لا يخرج عن دعاية كاذبة رخيصة يروّجها أعداء الإسلام ويشجعونها فيسوّدون الكثير من الصفحات بالتضليل والكذب ، مع أن الدين الإسلامي لم يفرض تعدد الزوجات بل أباحه بشروط خاصة سيأتي ذكرها بعد قليل ، وفرق شاسع بين فرض شيء وإباحته ، فالفرض يحمل معنى الجبر ، والإباحة تحمل معنى الاختيار .

ومع ذلك فالشريعة الإسلامية ليست بدعاً في التعدد بين

الشرائع السابقة لها من سماوية ووضعية ، فليس هناك أي تحديد لعدد الزوجات في الشرائع التي سبقت الإسلام ، فقبل الإسلام كان عدد الزوجات لرجل واحد يصل إلى المائة فضلاً عن الجواري والعشيقات ، فلما جاء الإسلام حدد العدد لمن أراد الزواج بأكثر من واحدة ووضع قيوداً تجب مراعاتها (١) .

فالتعدد معروف في الديانة الإسرائيلية وبخاصة عند سليمان وداود وقد كان لكل منهما زوجات كثيرات يربو عددهن على المائة ، وقصة داوود مع زوجة قائده معروفة حينما أراد ضمها إلى زوجاته التسع والتسعين ، بل إن التلمود والتوراة لم يقف الأمر بهما عند إباحة تعدد الزوجات بل امتد الأمر فيهما إلى التسري أيضاً .

والأمر كذلك بالنسبة للمسيحية ، فليس في الأناجيل نص واحد يحرم تعدد الزوجات وقد حرم بولس الرسول التعدد في حالة واحدة هي حالة الأسقف الذي لا يطيق الرهبنة فإن له أن يقنع بزوجة واحدة .

وكان للكنيسة أكثر من موقف في الاعتراف بتعدد الزوجات فمن المعروف أنها أي الكنيسة اعترفت لشرلمان الملك بعدة أبناء غير شرعيين من عدة نساء (٢) .

وقد أباح « مارتن لوثر » زعيم البروتستانت تعدد الزوجات وحجته أنه لم يرد في المسيحية نص واحد يحرمه ، وكان لملك إيرلندا

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ١٦٨ – ١٧٧ .
(٢) حقائق الإسلام ص ١٧٧ .

« ديرمات » زوجتان شرعيتان وسريتان .

وقد ظل نظام تعدد الزوجات معمولاً به في الشريعة المسيحية حتى القرن السابع عشر ، معترفاً به من الكنيسة مباركاً من رجال الدين . وإذن فقد عرف نظام تعدد الزوجات منذ إبراهيم الخليل ومن أتى بعده من الأنبياء والمرسلين في اليهودية والمسيحية حتى القرن السابع عشر .

الإسلام بريء إذن من تفرده بالتعدد براءته من تهمة تبني نظام الرق بغير تشبيه بينهما ، لأنه ليس هناك ما يدعو إلى ربط موضوع الرق بموضوع تعدد الزوجات إلا من حيث أن خصوم الإسلام حاولوا أن يجعلوا من الموضوعين ثغرة ينفذون منها إلى تجريح هذا الدين الحنيف والتهجم عليه .

ومع ذلك فليس تعدد الزوجات تهمة يتهم بها الإسلام ، فإن للتعدد المنظم المحدد حِكَماً قد تستدعيها طبيعة الحياة ، فإذا افترضنا أن رجلاً قد تزوج من أمرأة عرف فيما بعد أنها عاقر وهو في حاجة إلى الولد ، فأيهما أكرم لها وللإنسانية ، أن يجمع إليها امرأة أخرى تمده بالبنين ، أم أن يطلقها ويلقي بها إلى الطريق العام – وقد تكون بغير أهل – لكي يكون ذا زوجة واحدة ؟ .

وإذا افترضنا أيضاً أن رجلاً له زوجة مريضة طال مرضها وله منها أولاد صغار ، وشعر الرجل بالحاجة إلى الخدمة والرعاية ، خدمته ورعاية أطفاله ، أليس من حقه أن يتزوج من امرأة أخرى لكي ترعى شئونه وترعى الزوجه المريضة وأطفالها ، أم أن الرجل لكي

يكون ذا زوجة واحدة عليه أن يلقى بالمريضة إلى عرض الطريق ؟ .

وإذا نظرنا إلى المجتمعات بعد الحروب ، سنجد ولا شك أن عدد النساء يزيد أضعافاً على عدد الرجال الذين ماتوا في ساحة القتال ، فإذا ما اكتفى كل رجل بزوجة واحدة كان معنى ذلك أن تبقى ملايين أخرى من النساء بلا أزواج ، وستكون هؤلاء النسوة بين واحد من ثلاثة أمور : أولها الرهبنة وهو أمر صعب فليست كل امرأة مستعدة للترهب ، وثانيها الاستجداء الجنسي والزلل الخلقي وهو أمر شنيع ، وثالثها الالتجاء إلى تعدد الزوجات وهو أمر أقرب إلى المنطق والعقل والشرف وصون الحياة الاجتماعية سليمة من أوضار الانحراف وازدحام الشوارع والطرقات بالأطفال غير الشرعيين ، ولذلك فإن مجلس نورمبرج قد اتخذ قراراً بعد الحرب الثلاثينية سنة ١٦٥٠م حينما نقص عدد الرجال عن عدد النساء بأن للرجل الحق في التزوج بأكثر من واحدة .

هذه كلها أسباب منطقية تبيح التعدد — ورغم أني لست من الذين يميلون إلى التعدد — غير أني لا أمنعه ، فإني أقول أيهما أكرم للمرأة في ظل الضرورات سالفة الذكر والتي تتعرض لها المجتمعات الإنسانية دائماً ، أن تعيش زوجة ثانية أم أن تعيش عشيقة ؟ .

ومع كل ذلك فالإسلام وقد أباح التعدد لم يلزم به المسلمين ، بل لعله — بين غيره من الأديان — الدين الوحيد الذي حدد عدد الزوجات بأربع على الأكثر ثم اشترط العدل بين الزوجات .

فالآية الكريمة التي أباحت التعدد في سورة النساء يقول فيها الله تعالى :

« وإنْ خِفْتُمْ ألاّ تُقْسِطُوا في اليَتَامَى فانْكِحُوا ما طاب لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ فإنْ خِفْتُمْ ألاّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَة » .

وهكذا في الوقت الذي يبيح الإسلام فيه التعدد نراه يستحسن الاكتفاء بالواحدة خشية عدم التمكن من التزام العدل .

وآية أخرى في نفس السورة تقول :

« ولَنْ تَسْتَطِيعُوا أنْ تَعْدِلُوا بيْنَ النِّساءِ ولَوْ حَرَصْتُمْ فلا تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوها كالمُعَلَّقَة » .

اختلف المفسرون في شرح وتفسير الآيتين سالفتي الذكر ، فمنهم من يستنبط أن التعدد غير مشروع بحجة أن العدل جُعِل شرطاً فيه بمقتضى الآية الأولى ، وأنه غير مستطاع بمقتضى الآية الثانية ، وإذن فلا إباحة للتعدد في الاسلام ، ونحن نعتقد أن هذا الرأي فيه الكثير من الجور والتعسف في التفسير فلو لم يكن التعدد مشروعاً لما عدد الكثير من الصحابة والأئمة والتابعين .

والمفهوم من الآيتين الكريمتين أن التعدد حكم أصلي في الإسلام [1] ولكن الأيسر هو استحسان الزواج من واحدة وعدم تشجيع التعدد ما لم تَدْعُ الضرورة إليه لما يحتاجه التعدد من طلب

(١) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ١٧٢ .

المساواة بين الزوجات ، الأمر الذي لا يستطيعه كل رجل ، أما إذا دعت الحاجة إلى التعدد فإن رخصية إباحته قائمة في كل زمان طوع إرادة كل مسلم قادر .

وهناك من النساء من يحملن على نظام التعدد في الإسلام ، وليس لهؤلاء أن يركبن هذا المركب الصعب ، لأن الإسلام دين فيه مرونة وصالح لكل زمان ومكان ، وهو إذ قد أباح التعدد إلا أنه لم يفرضه، هذا فضلاً عن أن المرأة تستطيع بمالها من حقوق أن ترفض الزواج من رجل متزوج، لأن الشريعة الإسلامية لا ترغم المرأة على الزواج من متزوج، بل إن لها مطلق الخيار ولا يجوز إكراهها عليه ، إن شاءت قبلته بمحض رغبتها وإن لم تشأ رفضته بكامل حريتها ، فإن الزواج الذي يبنى على الإكراه يعتبر باطلاً . وهناك أحاديث شريفة كثيرة تسن هذا التشريع كقول النبي الكريم :

« لا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حتى تُسْتَأْمَرَ ولا البِكْر حتَّى تُسْتَأْذَنَ »

وقوله أيضاً : « إنَّ الثَّيِّب أَحقُّ بنفسها من وَلِيِّهَا ، والبكْرُ تُسْتَأْمرُ وإذْنُها سُكُوتُها » .

وقد أبطل النبي زواجاً أكرهت فيه فتاة على الزواج دون مشيئتها من ابن عم لها .

فهذه الحقوق التي أعطتها الشريعة الإسلامية للمرأة تضعها في المكان الذي يمكنها من أن ترفض أن تكون زوجة لرجل متزوج ،

ولكن ليس لها الحق أن تعترض على زميلة لها ارتضت ذلك لنفسها ، وإذن فالتشريع الإسلامي كرَّم المرأة في حالة التعدد لأنه حال بينها وبين الانحراف إذا قلَّ الرجال ، كما كرمها حين جعل من حقها الاختيار عند الزواج .

والحق أن مجتمعاً فيه تعدد للزوجات خير من مجتمع فيه تعدد للخليلات والعشيقات ، ولعلنا لا زلنا نذكر التظاهرات الضخمة التي قامت بها النساء الألمانيات إثر نهاية الحرب العالمية الثانية يطالبن بالأخذ بنظام تعدد الزوجات بعد أن طحنت الحرب معظم رجال ألمانيا وأصبحت المرأة التي تجد زوجا كأنها وجدت كنزاً ، وبعد أن امتلأت الشوارع بالأطفال اللقطاء ثمرة الاتصال غير المشروع بين نساء في حاجة إلى عائل غير موجود وبين جنود الاحتلال الأمريكيين والفرنسيين والإنجليز .

إن شريعة الإسلام أكرم من غيرها من الشرائع حين أبقت على التعدد ثم حددته وهذبته وتركت الحرية لكل إنسان أن يختار ما يتفق وظروف حياته ومجتمعه وزمانه ، وها نحن نعيش في عصرنا هذا فلا نكاد نرى من يتزوج بأكثر من زوجة إلا في حالات نادرة غير ملموسة ولا محسوسة ، ذلك لأن الشريعة الإسلامية شريعة مرنة سمحة أباحت التعدد ولكن لم تحسّنه في عيون الناس ولم تحضّ عليه جمهور المسلمين ، وجعلته خاضعاً لظروف الحياة متى كانت هذه الظروف تستدعي التعدد ، فإذا كانت ظروف المجتمع الإسلامي في الماضي قد اقتضت أن يتخذ بعض الأفراد أكثر من زوجة فإن

ظروف مجتمعنا المعاصر تفرض من تلقاء نفسها على الرجل أن يكتفي بالزوجة الواحدة إلا في حالات خاصة نادرة .

والأمر كذلك بالنسبة للمستقبل وأمر التعدد أو عدمه متروك لظروف الزمان والمكان وطبيعة لون الحياة .

مكانة المرأة في الاسلام :

المرأة نصف المجتمع الإنساني ، وهي الأمّ والأخت والابنة والزوجة والخالة والعمة ، إذا صلح أمرها صلح نصف المجتمع بل صلح المجتمع كله ، لأن الطفل من ذكر أو أنثى يظل موضع رعاية أمه حتى يبلغ مبلغ اليفاع ، غير أنه في سنواته الأربع أو الخمس الأولى يكون رعية أمه رعوية كاملة فإن كانت الأم صالحة صلحت رعيتها وإن كانت غير ذلك فإننا لا ننتظر منها إلا ناشئة فاسدة متفسخة لا تنهض بمسئولية ولا يرجى منها خير .

والإسلام دين الفطرة الانسانية لا شك وهو دين العمل الذي يجمع إلى شئون الآخرة أمور الدنيا ، ويجمع إلى التقوى والتقشف الأخذ بأسباب الاستمتاع بالحلال من الطيبات ، ثم هو في صلب تشريعه وأصل بنيته عمد إلى بناء المجتمع بناء سليما يمنعه من التردي ويحول بينه وبين التعرض لأسباب الفساد اذا ما طبقت بصدق روح شريعته ، ونفذت بإخلاص مبادئه وتعاليمه .

أما والأمر كذلك فإنه كان حتمياً أن يكون للمرأة في ظله مكانة وأن يكون لها في نطاق تعاليمه اهتمام ، وأن هذه المكانة وذلك

الاهتمام يضعانها في المكان اللائق بها كمخلوق كريم يشكل نصف المجتمع ويحتل فيه موقع الأم والأخت والابنة والزوجة والعمة والخالة .

القرآن والحديث يكرمان المرأة:

ومن هنا كانت الأحكام الإسلامية فيما يتعلق بالمرأة في نطاق الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة من الكثرة والوفرة بمكان :

« ووصَّيْنَا الانسانَ بوالديْه حَمَلتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ ، وفِصَالُهُ في عامين ، أَنِ اشْكُرْ لِي ولوالديْكَ إليَّ المصير » (١).

«وقَضَى ربُّكَ ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاهُ وبالوالديْن إحْساناً، إمَّا يبْلُغنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أحدُهُما أوْ كلاهما فلا تَقُلْ لهُمَا أفٍّ ولا تَنْهَرْهُما ،وقُلْ لهما قولاً كريما ، واخْفِضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرحْمةِ ، وقُلْ ربِّ ارْحَمْهُمَا كما ربَّيانِي صَغِيرا » (٢)

وَمِنْ آياتِهِ أن خلَقَ لكمْ من أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إليْها وجَعَلَ بَيْنَكم مودةً ورَحْمَةً إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يَتَفكَّرُون » (٣).

(١) لقمان : الآية ١٤ .
(٢) الإسراء : الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) الروم : الآية ٢١ .

« هُوَ الذي خَلَقَكُمْ من نَفْسٍ واحدةٍ وجَعَلَ منها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إليها ... » (١)

« يا أيُّها الناسُ اتَّقُوا ربَّكُم الذي خَلَقَكُمْ من نَفْسٍ واحدةٍ وخلَقَ منها زَوْجَها وبثَّ مِنْهُما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتَّقُوا اللهُ الذي تَسَاءَلُون بِهِ والأَرْحَام ، إنَّ اللهَ كان عليكُمْ رقِيباً » (٢).

« فاطرُ السمواتِ والأرضِ ، جعل لَكُمْ من أَنْفُسِكُم أَزْواجاً ، ومِنَ الأنعامِ أزواجاً يَذْرَءُوكُمْ فيه ، لَيْس كمِثْلهِ شيءٌ ، وهو السَّميعُ البَصِير » (٣) .

« واللهُ جعَلَ لكُم من أَنْفُسِكِم أزواجاً ، وجعلَ لكمْ مِن أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وحَفَدةً وَرَزَقَكُمْ من الطيِّباتِ ، أَفَبالْبَاطِل يُؤْمنون وبنعمةِ اللهِ يكْفُرون » (٤) .

« يا أيُّها الذين آمنوا لا يَحِلُّ لكم أن ترِثوا النسَاءَ كرْهاً ، ولا تَعْضِلُوهُنَّ لِتذْهَبُوا ببعضِ ما آتَيْتُمُوهُن إلاَّ أن يأْتين

(١) الأعراف : ١٨٩ .
(٢) النساء : أولى آياتها .
(٣) الشورى : الآية ١١ .
(٤) النحل : الآية ٧٢ .

بفاحشة مُبيِّنة ، وعاشِرُوهنَّ بالمعروف ، فإنْ كرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أن تكْرَهُوا شيئاً ويَجْعَلَ اللهُ فيهِ خيراً كثيرا » (١).

« ولا تَنْكِحُوا مَا نَكحَ آباؤُكُمْ من النساءِ إلاَّ ما قَدْ سَلَف ، إنه كان فاحِشَةً وَمقْتاً وساءَ سَبِيلاً . حُرِّمَتْ عليكُمْ أمهاتُكم وبناتُكمْ وأَخواتُكمْ وعمّاتُكمْ وخالاتُكمْ وبناتُ الأَخِ وبناتُ الأُخْتِ وأُمهاتُكم التي أرْضَعْنَكُمْ وأَخواتُكُمْ من الرَّضاعة وأمهاتُ نِسائِكم ورَبَائِبُكم التي في حُجُورِهِنَّ مِنْ نسائِكُم التي دَخَلْتُمْ بهن ، فإنْ لم تكونُوا دخلتم بهنَّ فلا جُنَاحَ عليكم ، وحَلائِلُ أبنائِكم الذين من أَصْلابكم وأَنْ تجمعوا بين الأُخْتَيْن إلاَّ ما قدْ سَلَفَ ، إنَّ اللهَ كان غفوراً رحيما » (٢).

هذه نماذج من آيات الكتاب العزيز كلها تحضُّ على احترام المرأة وتكريمها وتقريبها إلى النفس تقريباً كريماً ، ذلك فضلاً عن الآيات الكثيرة التي نزلت بشأنها في المعاملات وتنظيمها تنظيماً عادلاً من زواج وطلاق وميراث وحقوق وواجبات مما سوف نعرض له بعد قليل .

وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فإنّ ما أثر عنه من تكريم

(١) النساء : الآية ١٩ .
(٢) النساء : الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

للمرأة فعلاً وقولاً فهو من الوفرة بمكان ، فقد قال صلاة الله عليه وسلامه :

« ما أكرمَ النساءَ إلاَّ كريم ، ولا أهانَهُنَّ إلاَّ لئيم » (١)

أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلُقاً ، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم » (٢).

« من كان له ابنة فأدّبها فأحسن تأديبها ، وغذّاها فأحسن غذاءها ، وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه ، كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة » (٣) .

ويكرم الرسول صلوات الله عليه وسلامه المرأة في نطاق أمومتها فيقول في الحديث الموصول الإسناد « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

ويقول في حديث آخر « إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب » .

وهناك قصة الحديث المشهور الموصول الإسناد الذي يتمثل في مجيء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فسأله : « يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ ، قال : امك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك » .

(١) أخذه الشيخ رشيد رضا عن الترمذي .
(٢) رياض الصالحين ص ١٣٣ .
(٣) المصدر السابق ١٣٠ .

وإذا كان مصدر العقيدة الاسلامية ومنبع تشريعها هما الكتاب والسنة ، فإن المرأة قد احتلت في نطاق تلك العقيدة كل اهتمام وعناية مجموعتين في إطار من الإعزاز والاكبار والتكريم .

المرأة عند أصحاب الحضارات القديمة :

وإذا كان لنا أن ندلف إلى تفاصيل موقف الإسلام من المرأة ، أو بالاحرى مكانة المرأة في الإسلام . فإنه من الإنصاف للحقائق كلها من تاريخية واجتماعية ودينية أن نعرض لمكانة المرأة في المجتمعات غير الاسلامية على مرّ الأزمنة — في شيء من الايجاز — بما في ذلك مكانتها عند العرب أنفسهم قبل الإسلام ، وليس ذلك من قبيل الموازنة أو المقارنة فليس من ذلك شيء في حسباننا ، وإنما من باب وضع الأمور في نصابها ما دام هناك من أصحاب الهوى من أرادوا تصوير المرأة في ظل الإسلام صورة غير كريمة ، بريئة من كل حقيقة ، بعيدة عن كل عدل ونصفة ، ذلك أن الواقع التاريخي يقول إن المرأة لم تلق من الذل والهوان قدر ما لقيته خارج النطاق الاسلامي ، ولم تنل من تكريم أو تعظيم قدر ما نالته في رحاب هذا الدين وهو ما يترجم عنه العقاد وهو معروف بخصومته للمرأة بقوله : لقد جاء القرآن الكريم بحقوق مشروعة للمرأة لم يسبق إليها دستور شريعة أو دستور دين ، وأكرم من ذلك أنه رفعها من المهانة إلى مكانة الإنسان المعدود من ذرية آدم وحواء ، بريئة من رجس الشيطان ومن حطة الحيوان [1]

(١) المرأة في القرآن ص ٥٧ .

كانت المرأة عند اليونانيين القدامى وهم أكثر الدول تمدناً وأخذاً بأسباب الحضارة مسلوبة الحرية معدومة المكانة في كل ما يتصل بالحقوق الشرعية ، بل ان فيلسوفاً كبيراً مثل أرسطو كان يعيب على أهل اسبرطه أنهم يتساهلون مع نساء عشيرتهم ويمنحونهن بعض الحقوق التي تفوق أقدارهن [1] . وربما ظن ظانّ أن عبارة أرسطو قد تفسر على أنه كان للمرأة قسط من الحرية عند الاسبرطيين ، فذلك شيء لم يحدث ، وإنما كانت المرأة مضطرة إلى التصرف في أضيق الحدود في غيبة الأزواج والآباء في القتال ، فإن بيئة اسبرطة كانت بيئة عسكرية كما نعرف ، هذا وتذهب بعض المصادر —— ربما انسجاماً مع رأي ارسطو في حرية المرأة الاسبرطية — إلى أن المرأة الاسبرطية كان لها الحق في أن تتزوج بأكثر من رجل واحد [2] وكانت أكثر النساء يمارسن هذه العادة ، وأما عند الاثينيين فكانت المرأة تباع وتشترى في الأسواق ، كما كان للرجل الأثيني أن يتزوج بأي عدد يشاء من النساء دونما قيد أو شرط .

وأما عند الأثنيين وهم أكثر الدول القديمة تمدناً وأخذاً بأسباب الحضارة فكانت المرأة مجرد مملوكة أو قطعة من الأثاث تباع وتشترى بيع السائمة والعقار ، وكان ينظر اليها نظرة ازدراء واحتقار وكان من حق الأثيني أن «يقتني» أو «يتملك» أي عدد من النساء بلا قيد ولا شرط ، وكان الأثيني يتفاخر بوجود ثلاث طبقات من النساء في نطاق أمته ، طبقتان منها تشكل الزوجات الشرعيات ونصف

(١) المصدر السابق ص ٥٣ .
(٢) The Spirit of Islam, p. 222-223

الشرعيات (١) والباقيات بطبيعة الحال وهن الثلث يشكلن طبقة البغايا .

ولم تكن المرأة عند الرومان بأحسن حالاً من أختها عند اليونان ، فقد كان تعدد الزوجات تقليداً من تقاليد الشرف والامتياز ، ولم يزل أمر الانتصارات المصحوبة بألوان الترف والفخامة أن جعلت من قدسية الزواج مجرد كلمة لا معنى لها عند الرومان ، وأصبح تعدد الزوجات أمراً قانونياً ، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل تطور في المجتمع إلى أن أصبح التسرّي واتخاذ العشيقات الكثيرات العدد شيئاً تعترف به الدولة رسمياً ، والنتيجة الحتمية لذلك كانت ضياع المرأة ثم انزلاقها إلى مهاوي البيع والشراء (٢)

هذا وقد كان للرومان شعارهم فيما يتعلق بالمرأة ، وهو أن قيدها لا ينزع ونيرها لا يخلع ، ومن ثم فإن المرأة في هذا المجتمع الغريب لم تسترد حريتها إلا مع تحرر العبيد (٣)

وإذا ما انتقلنا إلى الأمم الشرقية فإن الأمر لم يكن بأفضل حالاً منه في البيئة الأوربية إن لم يكن أكثر سوءاً إذ لم يكن هناك أي تحديد لعدد الزوجات عند الهنود والميديين والبابليين والأشوريين والفرس (٤) ففي الهند لم يكن للمرأة أية حقوق في المعاملات ، بل لم يكن لها

(١) The Spirit Islam, p. 222

(٢) The Spirit of Islam, p. 224

(٣) المرأة في القرآن ص ٥٤ .

(٤) The Spirit of Islam, p. 223

حق في الحياة نفسها إذا مات زوجها ، فقد كان محتوماً عليها أن تموت يوم موته وأن تحرق وهي حية مع جثته على موقد واحد.

وأما بابل التي يعتبر بعض مؤرخي الحضارات أنها ضربت في أسباب التقدم بسهم وافر منذ القدم في ظل شريعة حمورابي التي اعتبرت شريعة متقدمة بالقياس إلى غيرها من شرائع الأمم المعاصرة لها أو السابقة عليها ، فإن المرأة لم يكن لها نصيب من الحرية أو الكيان في ظلها ، وإنما كانت تحسب في عداد الماشية المملوكة (١) .

وكان مركز المرأة عند الفرس على حضارتهم فيما يذكر الكاتب الروسي أحمد أجايف أكثر سوءاً وأبعد امتهاناً ، ذلك أنها لم تكن تتميز عن الأمة المملوكة في شيء ، تظل طيلة حياتها سجينة بين جدران منزلها أو منزل زوجها لا يحق لها أن تخرج منه ، كما كانت تباع وتشترى في كثير من الأحيان ، هذا فضلاً عن الخروج في التعامل معها عن حدود المألوف في عالم الإنسان ، بل في بعض عوالم الحيوان ، فقد أبيح الزواج بالأمهات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت ، ويزداد امتهان المرأة في المجتمع الفارسي القديم بعداً عن الإنسانية وذلك بأن تنفى الأنثى في فترة الطمث إلى مكان بعيد خارج المدينة ، ويظل مقضيًّا عليها بأن تقيم في خيمة تعرف باسم داخمي ، ولا يجوز لأحد مخالطتها إلا الخدم الذين يقدمون لها الطعام ، وحتى هؤلاء كانوا يضعون لفائف من القماش حول أنوفهم وآذانهم وأيديهم خشية النجاسة إذا مسوا

(١) المرأة في القرآن ص ٥٢ .

المرأة أو لمسوا خيمتها ، والمرأة الفارسية فضلاً عن ذلك كله كانت تحت سلطة الرجل المطلقة ، يحق له أن يحكم عليها بالموت أو ينعم عليها بالحياة (١) .

وإذا ما انتقلنا إلى الديانات السماوية قبل الإسلام فسوف نجد أن المرأة لم تأخذ حقها من الحرية الشخصية أو الميراث أو حرية الزواج في كثير من الحالات ، فليس للبنت في الشريعة اليهودية نصيب في تركة أبيها إذا كان له عقب من الذكور ، وإذا آل ميراث إلى بنت فإنه لا يؤول إليها من قبيل الشفقة أو التنظيم الاجتماعي ، ولكن الضرورة تكون قد حتمت ذلك لعدم وجود إخوة لها من أبيها ، ولا يقف الأمر بالفتاة التي اقتضت الضرورة أن تجعلها وارثة لمال أبيها عند حد الميراث ، ولكنها تفاجأ — ما دامت أصبحت وارثة — بقيد لم تكن تتوقعه ، وهو أنه لا يحق لها أن تتزوج من سبط آخر ، وبالتالي لا يحق لها أن تنقل ميراثها إلى نطاق أسرة ليست من رهطها(٢) . ومن الطريف ان العقاد وقد نذر الكثير من جهده للرد على أباطيل الغربيين الذين يعمدون إلى إلصاق أمور إلى الإسلام هو منها براء ، ما يكاد يطرق هذا الموضوع حتى يشير إلى أولئك المؤرخين الغربيين الذين يزعمون أن الإسلام ينقل شريعته من الشرائع السابقة وخصوصاً الشريعة الموسوية ، ويقول إنه لا يتضح بطلان هذه الدعوى من شيء كما يتضح من المقابلة بين مركز المرأة في

(١) حقوق المرأة في الإسلام ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) المرأة في القرآن ص ٥٥

حقوقها الشرعية كما نصت عليها كتب التوراة . ومركز المرأة في حقوقها الشرعية التي أقرها الإسلام بأحكام القرآن .

وفي نطاق الزواج فإن اليهود قد كانوا يجمعون من الزوجات بغير تحديد واستمر التعدد بلا حدود حتى بعد مجيء موسى عليه السلام ، ثم لم يلبث الحاخامات أن اختلفوا على أنفسهم ، فبينما حدد الربانيون عدد الزوجات أطلقه القراءون بغير حدود ورفضوا مبدأ التحديد (١) .

وحتى في ظل المسيحية حين سقطت الدولة الرومانية وكان مجتمعها مجتمع شهوات وفساد وترف ، سرت عند الناس موجة من الزهد وكراهية الذرية والإيمان بنجاسة الجسد ونجاسة الذرية ، وباءت المرأة بلعنة الخطيئة ، فكان الابتعاد عنها حسنة مأثورة لمن لا تغلبه الضرورة ، وانشغل بعض اللاهوتيين إلى القرن الخامس الميلادي بالبحث في جبلتها وتساءلوا في « مجمع ماكون » هل المرأة جثمان بحت أم هي جسد ذو روح يناط به الخلاص والهلاك ، وغلب على آرائهم أنها خلو من الروح الناجية وليس هناك استثناء لذلك بين جميع بنات حواء من هذه الوصمة إلا سيدتنا مريم أم المسيح عليه السلام (٢)

ذلك هو مقام المرأة ووزنها وطرق معاملتها في نطاق الأمم ذات الحضارات والمبادىء والقيم ، وهو مقام كريه محاط بكل أسباب الضعة والظلم والتحقير والازدراء .

(١) The Spirit of Islam p. 223

(٢) المرأة في القرآن ص ٥٤ .

فاذا ما عرضنا للمجتمع العربي قبل الاسلام وجدناه لا يقل قسوة في معاملة المرأة وامتهانها عن المجتمعات الأخرى إلا في حالات قليلة ومع بعض الحرائر من نساء سادات العرب ، فالمجتمع العربي كان يقتل الطفلة بوأدها وهي وليدة وتلك جريمة من أبشع الجرائم الانسانية والخلقية وكان كثير من سادات العرب يفخرون بذلك، فهذا قيس بن عاصم المنقري يعترف أمام الرسول صلى الله عليه وسلم أنه وأد بضعة عشر بنتاً من بناته في الجاهلية ، وقد استفظع الرسول صلوات الله عليه وسلامه هذا العمل وفرض عليه كفارة مقدارها عتق نفس عن كل موءودة مع أن الوأد تمّ قبل إسلام قيس (1) .

وقد استبشع القرآن الكريم هذه الفعلة الوحشية فوصفها في قوله تعالى :

« وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيم ، يَتَوارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِه ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَم يَدُسُّهُ في التُّرابِ ، أَلاَ سَاءَ ما يَحْكُمون » (2) .

وفي بعض القبائل كان الرجل إذا مات ورّث ولده بين ما يورّث نساءه جميعاً ، ويكنّ له متعة كما كنّ لأبيه من قبله ، أي أن المرأة كانت تورث بين تركة الرجل كما تورث سائمته وإبله .

(1) بلوغ الأرب ٣/٤٢ ، ٤٣ .

(2) النحل : الآيتان ٥٨ ، ٥٩ . كظيم : ممتلىء غيظا ، هون : ذل ومهانة ، يدسه تحت التراب : يخفيه في التراب حيا .

هذا ولم يكن من حق النساء أن يرثن من مال آبائهن كما يرث البنون ،وذلك إما امتهانا للمرأة من حيث كونها امرأة ، وإما لأنه كان يُخشى أن ينتقل الإرث إلى الأعداء إذا ما زُوّجت البنت في قبيلة معادية ، وفي ذلك يقول عمر مستنكراً : والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم (1)

ومن المؤسف أن عادة حرمان الابنة من الميراث لا تزال شائعة في بعض البيئات العربية حتى اليوم ، وذلك امتداد لجاهلية يرجع تاريخها لاكثر من خمسة عشر قرناً من الزمان ، فلا زالت بعض الأسر الغنية في ريف مصر وسورية والعراق تسير على هذا النهج الكريه خشية انتقال المال من الأسرة إلى أسرة غريبة قد تكون غير صديقة أو تكون معادية .

بل إن بعض الصحابة — وهم قليل لحسن الحظ — لم يستطع أن يخلع عن نفسه بسهولة كراهية الابنة الأنثى ، ولعل هذا الحوار المشهور بين عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يترجم عن ذلك فقد دخل عمرو بن العاص على معاوية وبين يديه طفلته عائشة فقال : من هذه ؟ فأجابه معاوية:هذه تفاحة القلب ، فقال عمرو : انبذها عنك فوالله إنهن ليلدن الأعداء ويقربن البعداء ، ويورثن الضغائن ، فقال معاوية — وكان معروفاً بالعقل والهدوء — : لا تقل ذلك يا عمرو ، فوالله ما مرّض المرضى ولا ندب الموتى ولا

(1) الاسلام والمرأة ٢٤ .

أعان على الأحزان مثلهن ، ورُبَّ ابن أخت قد نفع خاله » (١)

الإسلام يكرم المرأة :

لم يكن للمرأة والأمر كذلك شيء أو بعض شيء من الكيان أو الكرامة أو الحقوق قبل الإسلام ، فماذا أسدى الإسلام إليها ؟ لقد خصّها بالتكريم وأحاطها بالإجلال وشملها بالرعاية وبوأها المكانة الجديرة بها كأم وابنة وأخت وزوجة وعمة وخالة على ما بينا في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي أوردناها في مستهل هذا الباب ، ولكن ذلك الذي ذكرنا كان من باب الإجمال وليس من قبيل التفصيل ، فإذا أردنا أن نفصّل المكانة التي هيأها الإسلام للمرأة ، والالتزامات التي حددها قبلها وجدناها من الكثرة بمكان ، فقد كانت محرومة من كل شيء فوهبها كل ما حرمت منه ، وأعاد إليها ما هو حق لها منذ الأزل كمخلوق كريم ، يلد الأطفال ويربي الرجال ويمنح الحنان ويسهم في خلق السعادة في المجتمع ويؤدي وظيفة سامية ويكوّن نصف الكيان البشري .

لم تكن المرأة ترث في أي مجتمع قبل المجتمع الاسلامي ، فجعل الاسلام توريثها إلزامياً في قوله تعالى :

« لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تركَ الوالدانِ والأَقْرَبُونَ ، وللنِّساءِ نَصِيبٌ مما تركَ الوالدان والأَقربون مما قَلَّ مِنْهُ أو كَثُرَ نصِيباً مفْرُوضاً » (٢)

(١) العقد الفريد ٢/٤٣٨ .
(٢) النساء : الآية ٧ .

وبعد أن يحتّم القرآن حق النساء في ميراث الوالدين والأقربين ، يعمد الكتاب العزيز إلى تخصيص الأنصبة تخصيصاً عادلاً في الآية الكريمة :

« يُوصِيكُمُ اللهُ في أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ، فإنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا ما تَرَكَ ، وإنْ كانتْ واحدةً فلها النصْفُ ولأَبَوَيْهِ لكلِّ واحدٍ منْهُما السُّدُسُ مما تركَ إنْ كان له وَلَدٌ ، فإنْ لم يكنْ له ولدٌ وَوَرِثَهُ أبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فإنْ كان لهُ إخْوةٌ فلأُمِّهِ السُّدُسُ من بَعدِ وصيَّةٍ يُوصِي بها أو دَيْنٍ ، آباؤُكُمْ وأبناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أيُّهُمْ أقربُ لكُمْ نَفْعاً ، فريضَةً مِنْ اللهِ ، إنَّ اللهَ كانَ عليماً حكيماً » (٣) .

وإذن فقد أوجب الإسلام للمرأة الحق في أن ترث ، ولحكمة تشريعية اجتماعية سامية جعل لها نصف ما للذكر . وليس ذلك حطًّا من شأنها ولا تقليلاً من قيمتها ، وإنما لأنها حين تأخذ النصف من ميراث أبيها ، فإنها تترك لإخوتها الذكور الأكثر التزاماً منها بتكاليف الحياة ما يعينهم على الحياة نفسها ، وهي في نفس الوقت يتمتع زوجها بنفس الميزة بالقياس إلى زوجته ، فكأنها قد تركت النصف لزوجة أخيها ، وكأن زوجة أخيها قد تركت النصف لها ، وهكذا تستمر الدورة في نطاق الأسرة وأنسبائها وأصهارها ، ولعل ذلك هو

(٣) النساء الآية ١١ .

أبلغ ردّ على بعض الذين طلبوا المساواة المطلقة في الميراث بين الرجل والمرأة ، ولو طبق ذلك لانتفت الفكرة العادلة في التوزيع الإلهي للميراث .

ولقد جعل الإسلام الصداق حقاً للمرأة دون أهلها ، وكان الصداق قبل ذلك يعطي لأهلها دونها ، وقد حرص الاسلام في هذا المقام أيضاً على أن تكون علاقة الزوج بالزوجة قائمة على المعروف ، وإذا حدث طلاق فليحدث في حدود تكريمها وعدم امتهانها ، والآية الكريمة تقول : [١]

« الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ ، فإمْسَاكٌ بمعرُوفٍ أو تَسْرِيحٌ بإحْسَانٍ ، ولا يَحِلُّ لكمْ أن تَأْخُذُوا ممَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شيْئاً » * وهكذا يكون الصداق حقا خالصا للمرأة .

ثم يركّز الكتاب العزيز على التسريح بإحسان في حال الطلاق في آيات متعددة متفرقة حيناً ، ومتتالية حيناً آخر ، وما ذلك إلا حفاظاً على آدمية المرأة وتزكية لكيانها وصوناً لشخصيتها .

« وإذَا طَلَّقْتُمْ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أجَلَهُنَّ ، فأَمْسِكُوهُنَّ بمعْروفٍ

(١) البقرة : الآية ٢٢٩ .

* الطلاق مرتان : أي لا تجوز فيه المراجعة أكثر من مرتين ، إمساك أي مراجعة . تسريح أي ترك بدون مراجعة ، ولا يحل لكم .... يعني لا يحل أن تأخذوا منهن صداقهن .

أو سَرِّحُوهُنَّ بمعْروفٍ ، ولا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لتَعْتَدُوا ، ومَنْ يَفْعَلْ ذلكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه » [١] .

وكذلك سوى الاسلام تسوية مطابقة بين دم الرجل ودم المرأة ففي آيات القصاص لم ينص على إعدام قاتل الرجل دون قاتل المرأة وإنما الاقتصاص يكون من القاتل رجلاً كان أو امرأة وللقتيل رجلاً كان أو امرأة ولم يكن الأمر كذلك قبل الاسلام حيث كان قصاص القتل لقاتل الرجل فقط .

ولقد حافظ الإسلام للفتاة على شخصيتها فيما يتصل بزواجها ، وجعل لهـا حقاً مطلقاً في رفض الزوج الذي يفرضه عليها أهلها فيما لو كانت غير راغبة فيه لسبب أو لآخر ، فقد شكت فتاة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن أباها زوجها من ابن أخيه دون رغبة منها ، ففوّضها الرسول صلى الله عليه وسلم في شأنها فيما لو أرادت الانفصال عنه [٢] .

ولم يقف الأمر بالإسلام في نطاق تكريم المرأة ورفع شأنها ومنحها حقوقها الآدمية عند تلك الحدود التي ذكرنا ، بل إن الشريعة الاسلامية لأول مرة في التاريخ خولت للمرأة الراشدة جميع الحقوق المدنية المتصلة بأملاكها ، فقد منحتها كامل حريتها في أن تدير شئونها بنفسها من مال وأملاك وتجارة وزراعة ويدخل في ذلك حرية التصرف في مهرها إن كانت متزوجة ، وفي هذا النطاق خول لها أن تعقد عامة العقود المدنية من بيع وشراء وإيجار واستئجار وشركة ورهن وهبة

(١) البقرة الآية ٢٣١ بلغن أجلهن : قاربن انتهاء العدة .

(٢) الإسلام والمرأة : هامش ص ٤٢ .

ووصية إلى غير ذلك من الشئون الشخصية التي تعرض للمرء في حياته ، وحق المرأة هذا قد صانه لها القرآن الكريم في قول الله تعالى :

« وابْتَلُوا اليَتَامَى حتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فإنْ آنَسْتُمْ مِنهمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهَمْ ولا تَأْكُلُوهَا إِسْرافاً وبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا » (١) .

وإذن فقد حفظ الإسلام للمرأة حق التصرف في مالها تصرفاً كاملاً وإن كانت العلاقة الزوجية القائمة على الثقة كثيراً ما تدفع بالمرأة إلى أن تكل أمرها في إدارة شئونها المالية لزوجها لما تحتاجه هذه من متاعب قد لا تؤهلها طبيعتها في كثير من الأحيان للنهوض بها كاملة .

والقرآن الكريم بعد ذلك كله ، وهو كتاب هذا الدين ، قد كرم المرأة في أكثر من مقام حيث قرنها بالرجل في آيات التبشير بحسن الجزاء ، والحض على الخير ، والنهي عن المنكر ، كما في قوله تعالى :

« فاسْتجابَ لهمْ ربُّهم أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عاملٍ مِنْكُم

(١) النساء الآية : ٥ . ابتلوا اليتامى أي اختبروهم في حسن التصرف قبل البلوغ ، بلغوا النكاح أي السن المؤهلة للزواج ، آنستم منهم رشدا أي تبينتم حسن تصرفهم ، إسرافا وبدارا أن يكبروا أي لا تتعجلوا أكل أموالهم قبل أن يكبر صاحبها فينزعها من أيديكم .

مِن ذَكَرٍ أَو أُنْثَى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فالَّذين هاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهم وأُوذُوا فِي سَبِيلي وقاتلُوا وقُتِلوا لأُكَفِّرَنَّ عنهم سَيِّئَاتِهِمْ ولأُدْخِلَنَّهُمْ جناتٍ تجري مِنْ تحتِها الأَنهارُ ثَواباً مِن عِندِ اللهِ ، واللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّواب » (١) .

فإذا كانت طبيعة رسالة الإسلام تنسحب بداهة على الرجل والمرأة على حد سواء والخطاب عن المجموع يكون بالحديث عن المذكر كما جرت بذلك تقاليد الإنشاء البياني ، فإن القرآن الكريم حينما يعمد إلى التخصيص بذكر الذكر والأنثى معاً ، إنما استهدف قصداً معيناً بذاته وهو تكريم المرأة لدورها العظيم في نطاق الآية السابقة ، في الهجرة والتعرض للأذى والبلاء في القتال والاستشهاد ، ومن المعروف أن أكثر من شهيدة في ظل العقيدة قد لقيت حتفها على يد كفار مكة .

والكتاب العزيز مرة أخرى يذكر الذكر والأنثى من الناس في مقام فعل الخير وتبشير كل من الجنسين بأحسن الجزاء ، وفي ذلك لفتة كريمة للمرأة ، وتذكير لها بأنها في رحاب الثواب الإلهي طالما كانت أهلاً للثواب . وإن ذكر الثواب مطلقاً يشملها ولكن الله سبحانه وتعالى يخصها بالذكر حضاً لها على فعل الخير وإظهاراً لشخصيتها وتكريماً لوجودها بعد أن لقيت الكثير من العنت في عهد الشرك ، والشديد من الظلم في عصر الجهالات والمرهق من العسف

(١) آل عمران الآية ١٩٥ .

في زمان الضلالات ومن ثمّ كان وعدها بحسن الجزاء والحياة الطيبة متى صنعت الخير وعداً من الله مباشراً واضحاً وذلك في قوله تعالى :

« مَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حياةً طيِّبةً ولَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ » (١) .

وحين يعدد القرآن الكريم الصفات الضرورية للمسلم المؤمن من قنوت وصدق وصبر وخشوع وتصدق وصيام وعفة ودوام ذكر الله ، فقد اقتضت حكمة الله وعدالته أن يعد أصحاب هذه الصفات بالمغفرة والأجر العظيم يستوي في ذلك الرجال والنساء ، فذكرت الآية الكريمة في مقام الغفران والأجر العظيم كل جنس بصفته فقال تعالى :

« إنَّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنين والمؤمناتِ والقانتين والقانتاتِ والصَّادقين والصادقـاتِ والصَّابرين والصَّابراتِ والخاشِعين والخاشِعاتِ والمتَصَدِّقينَ والمتصدِّقاتِ والصَّائمين والصائماتِ والحافظين فُرُوجَهُمْ والحافظات والذَّاكرين اللهَ كثيراً والذَّاكراتِ أعَدَّ اللهُ لهُمْ مَغْفِرةً وأجْراً عظيما » (٢) .

لقد كرم الإسلام إذن المرأة في كتابه الكريم ، وقرنها بالرجل في كل مجالات الخير ، وخصها معه بالذكر في كل ميادين العمل

(١) النحل : الآية ٩٦ .
(٢) الأحزاب : الآية ٣٥ .

والتضحية والإيمان ، وأبرز وعد الله لها بالثواب والجنة ، كل ذلك لإضفاء صفة الأهمية على شخصها والتكريم على مكانها ومكانتها .

وحتى لا يتطرق الظن إلى بعض العقول أن ذلك الذكر للمرأة — تخصيصاً — فيه شيء من المحاباة لها — تعالى الله سبحانه عن ذلك — فقد قرن القرآن الكريم — عدالة منه ونصفة — ذكر المرأة بالرجل في مقام توجيه النصح والأمر بالتزام جادة الأمور حيث لا يخلو الخطاب القرآني أحياناً من شدة اقتضتها الضرورة ، وحزم دفع إليه السياق ، وزجر أملاه الموقف وهنا يكون التوجيه القرآني لكل من الجنسين على حدة وذلك في قوله تعالى :

« قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أبصارِهم ويحفظُوا فُرُوجَهَمْ ذلك أزْكى لَهُمْ ، إنَّ اللهَ خبيرٌ بما يصنعون ، وقُلْ للمؤمناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أبصارهِنَّ ويَحْفَظْنَ فُروجَهُنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ منها ولْيَضْرِبْن بِخُمُرِهن على جُيُوبِهِنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَو أَبْنائِهِنَّ أَو أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَ أَو إِخْوانِهِنَّ أَو بني إِخْوانِهِنَّ أَو بَنِي أَخَوَاتِهِن أَو نِسائِهِنَّ أَو ما ملكتْ أَيْمَانُهُنَّ أَو التابِعين غَيْرِ أُولي الإِرْبَةِ من الرجالِ أَو الطِّفْلِ الذين لم يَظْهَرُوا على عَوْرَاتِ النسَاءِ ، ولا يَضْرِبْنَ بأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَم ما يُخْفِينَ من زِينَتِهِنَّ وتُوبُوا إلى

اللهِ جميعاً أيُّها المؤمنون لعلكمْ تُفْلِحُون » (١) .

ونظراً لما لمركز المرأة من دقة بحكم تكوينها الأنثوي فقد عمدت الآية الكريمة إلى التنبيه مع التفصيل الذي يصل إلى حدود الشمول ، وبذلك تتحقق المساواة النوعية بين الرجل والمرأة في هذا المقام .

ولم يقف الأمر بالكتاب العزيز في مقام قرنها بالرجل عند الثواب المرتقب أو التوجيه المتطلّب وحسب ، وإنما عمد إلى ذلك أيضاً في مقام القصاص من الجرائم التي يقترفها أيٌّ من الجنسين :

« والسارقُ والسارقةُ فاقْطَعُوا أيْدِيَهُما جزاءاً بما كَسَبَا نَكَالاً مِنْ الله ، واللهُ عزيزٌ حكيم » (٢)

« والزَّانِيَةُ والزانِي فاجْلدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلْدة ولا تَأْخُذْكُم بِهِما رأفةٌ في دِينِ اللهِ إنْ كنْتُم تُؤْمِنونَ باللهِ واليوم الآخِرِ ، ولْيَشْهَدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤْمِنِين » (٢) .

فالقرآن الكريم إذن بسط الأضواء على مكانة المرأة وقرنها بالرجل حيث ينبغي الاقتران في مواقف التمجيد والثواب ، وفي مناسبات التنبيه والتحذير ، وفي أحكام القصاص والعقاب .

والإسلام جعل منها كائناً مكرماً حفظ لها حقوقها قِبَلَ الرجال ،

(١) سورة النور . الآيتان ٣٠ ، ٣١ .
(٢) سورة المائدة . الآية ٣٨ .
(٣) سورة النور : الآية الثانية .

ومنحها حرية كاملة في ولايتها على ممتلكاتها وأموالها ، ويسر لها حق الاختيار والرفض في الزواج ، وحق الصداق عند الطلاق وضمن لها حقها المشروع في الميراث ، وأكرمها الرسول بأمر ربه فجعل الجنة تحق تحت أقدام الأمهات ، وأخيراً فإن أعظم الحقوق الشرعية التي كسبتها المرأة من القرآن الكريم لأول مرة — حسب تعبير العقاد — أنه رفع عنها لعنة الخطيئة الأبدية ووصمة الجسد المرذول (١) .

كان من الطبيعي والأمر كذلك أن يلتمع للمرأة المسلمة نجم وأن يرتفع لها شأن وأن يعظم لها أمر وأن تسمو لها مكانة وأن تبرز لها شخصية فتفتي المسلمين في أمور دينهم كما فعلت السيدة عائشة وبعض أمهات المؤمنين ، وتجابه الخلفاء ويعلو رأيها أحياناً على آرائهم كما فعلت امرأة مسلمة مع أعظم خلفاء المسلمين فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر ، وخاضت المعارك الحربية قولا وعملا في سبيل المبدأ كما فعلت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية في معركة صفين وهي تدفع أخاها لخوض المعركة في صف أمير المؤمنين عليٍّ مؤلبة إياه على معاوية قائلة

شمِّرْ كفعلِ أبيكَ يا ابنَ عمارة
يومَ الطِّعانِ ومُلْتقى الأَقرانِ
وانصرْ عليّاً والحسيْنَ ورهْطَهُ
واقصِدْ لِهنْدٍ وابنِها بِهَوانِ

(١) المرأة في القرآن ص ٥٧ .

إنَّ الإمـام أَخـو النَّـبيِّ محمـدٍ
علـم الهُـدَى ومنـارةِ الإيمـانِ
فقُدِ الجيـوشَ وسِرْ أمـام لوائِـهِ
قُدُمـاً بأَبيضَ صـارمٍ وسِنَانِ (١)

ولم تكن سودة وحدها التي خاضت معارك عليٍّ ضد معاوية بحماس متأجج وشعر ملتهب ، إنهن كثيرات رفع الاسلام من شأنهن فاكتشفن مكانهن في مجتمعهن ، فمن هؤلاء بكّارة الهلالية التي لها ضد معاوية صفحة لا تنسى وشعر — لفرط شدته وعنفه — حفظه رءوس بني أمية ، تدخل بكارة على معاوية في حاجة لها وعنده عمرو ابن العاص ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ، فما أن يستبين شخصيتها عمرو حتى يقول : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يـا زيدُ دونَكَ فاسْتَثِرْ مِن دارنـا
سيفاً حُسامـاً في التـرابِ دَفِينَـا
قد كنتُ أَذْخَرُهُ ليـومِ كريهـةٍ
فاليـومَ أَبْـرَزَهُ الزمـانُ مَصُونـا

ولا يكاد ينتهي عمرو من رواية البيتين حتى ينطلق مروان قائلاً : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

(١) العقد الفريد ٢/١٠٢ .

أَتُرى ابنَ هندٍ للخلافـةِ مالكـاً
هيهاتَ ذاكَ — وإِنْ أَراد — بعيـدُ
مَنَّتْكَ نفسُكَ في الخـلاءِ ضَلالةً
أَغْـراكَ عمـرٌو لِلشَّقَـا وسعيـدُ

وهنا ينطلق سعيد وهو يعلم أنها طالما سخرت به وبقومه ، ويسهم في تأليب معاوية على المرأة العربية التي رباها الإسلام فعزت مكانة وذلقت لسانا وفصحت بيانا ، فيقول : هي والله القائلة :

قد كنتُ أَطمعُ أَنْ أَموتَ ولا أَرى
فوقَ المنابرِ مِـنْ أُميَّـةَ خاطبَـا
فـالله أَخَّـرَ مُـدَّتي فتطـاولـتْ
حتّى رأَيـتُ مـن الزمـانِ عجائبا
في كـلِّ يـومٍ للزمـانِ خطيبُهُـمْ
بين الجميعِ لآلِ أحمـدَ غائبَا (١)

واللائي لم يكن يقلن الشعر من النساء المسلمات يزكين به نار المعارك كنّ يمتطين صهوات الجمال خطيبات حاضّات على القتال بأبلغ بيان ، وكانت خطبهن تحفظ كما كان شعر الأخريات يردد ، إن من هؤلاء الخطيبات الزرقاء ابنة عديّ الهمدانية ، واحدة من

(١) العقد ٢/١٠٥ .

أبطال صفّين في جيش عليّ ، إن معاوية وقد استقر تحته كرسي الملك يجلس بين صحبته من بني أمية يتذاكرون أمور حربهم مع بني هاشم ، فيذكر بعضهم الزرقاء بنت عديّ ، فيقول معاوية من منكم يذكر كلامها ؟ فيقول عديد من الجمع : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين ، فيقول معاوية : فأشيروا عليّ في أمرها ، فيشير بعضهم بقتلها ، وهنا يمكن أن نتصور خطورة الدور الذي أدته هذه المرأة في ميدان القتال حتى أن بعض رجال بني أمية يشيرون بقتلها بعد أن استقر الأمر لهم ولم تعد تشكل خطراً عليهم ، ولكن معاوية بما عرف عنه من عقل وحلم وكياسة يقول : بئس الرأي أشرتم به عليّ ، أيحسن بمثلي أن يقتل امرأة بعد ما ظفر بها ؟ ولكن الرغبة في استكشاف طبيعة العدو الذي غُلِب، تدفع معاوية إلى أن يبعث إلى واليه على الكوفة لكي يبعث إليه بالزرقاء ، فما أن تصل إلى دمشق حتى يقول لها ، وهنا يغنينا حديث معاوية عن وصف طبيعة الدور الذي لعبته الزرقاء في القتال : ألست الراكبة الجمل الأحمر والواقفة بين الصفين يوم صفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب ؟ فما حملك على ذلك ؟ فتجيب والحكمة ملء برديها في غير ما خوف ولا تردد ولكن في تعقّل وثبات : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس وبُتر الذنَب ، ولم يعد ما ذهب ، والدهر ذو غيَر ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعد الأمر . قال لها معاوية : صدقت ، تحفظين كلامك يوم صفين ، قالت : لا والله ، لا أحفظه لقد أُنسيته . وهنا يقول معاوية : لكني أحفظه ، لله أبوك حين تقولين ... ويمضي معاوية مردداً خطبة الزرقاء في ميدان الحرب ، كلامها

يفجر الدماء ، ومنطقها يطيح رقاب الأعداء ، ومعانيها تؤجج النيران في النفوس فتجعل المحاربين من رجالها يخوضون بحار النجيع إلى أذقانهم ، فلنستمع إلى معاوية يرجع ما قد بقي عالقاً بحافظته من خطاب الزرقاء :

« أيها الناس : ارعووا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم في فتنة غشّتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجّة ، فيا لها فتنة عمياء ، صماء بكماء ، لا تسمع لناعقها ولا تنساق لقائدها . إن المصباح لا يضيء في الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه . أيها الناس : إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص ، فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة العدل ، ودفع الحق باطله ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف العدل وأنّى «ليقضي الله أمراً كان مفعولاً» . ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجل الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده * والصبر خيراً في الأمور عواقبا * إيهاً في الحرب قُدُماً غير ناكصين ولا متشابكين » (1)

وهذه عِكْرِشة بنت الأطرش إحدى النساء التي استرددن أنفسهن في ظلال الاسلام كانت متقلدة حمائل السيف بصفين ، وتدعو الرجال للقتال وهي واقفة أمامهم في مواجهة عدوهم الأموي ، تعدهم بالنصر أو الجنة قائلة في أبلغ عبارة : إن الجنة لا يرحل عنها من

(1) العقد ٢/١٠٩ .

قطنها ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها ، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم ، مستظهرين بالصبر في طلب حقوقهم . إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب غُلف القلوب ، لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه ، الله الله عباد الله في دين الله ، وإياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عرى الإسلام ، ويطفىء نور الحق . هذه بدر الصغرى ، والعقبة الكبرى . يا معشر المهاجرين والأنصار ، امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأني بكم غدا لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة ، تصقع صقع البقر وتروث روث العتاق » (1)

إن الأمثلة على مشاركة المرأة في الشئون العامة وفي المعارك الحربية والخلافات الحزبية من الكثرة بمكان ، وكل مثال أروع من سابقه . لقد حررها الإسلام أولا ثم سنمها مكانتها الحقيقية فأدت دورها بأكمل ما يمكن أن يؤدي من كمال ، وأسهمت بجهودها قولاً وفكراً وعملاً وتطبيقاً ، وحاربت وحاجّت وشعرت وخطبت ، وواجهت الخلفاء والملوك بالقول الساطع والبيان الوضاح ، ولكنْ هناك أثر رائع للإسلام في نفوس النساء حين حوّل المرأة من مجرد أنثى تنوح وتبكي إلى إنسان كريم يعتبر ويضحي خدمة لإنسانيته وفداء لعقيدته ، ولعل المثال الذي يمكن أن يُتَمثَّل في هذا المقام أحسن تمثل هو شخصية امرأة عربية عاشت في الجاهلية والإسلام وكانت ذات

(١) المصدر ٢/١١١ .

شهرة في هاتين الفترتين من الزمان ، ولكن شتان الفرق بين صفتها في الجاهلية وصفتها في الاسلام ، كانت في الجاهلية بكاءة نواحة شعرها يفيض دموعاً وينضح شنجات ، فلما جاء الإسلام علمها كيف تستعصي دموعها على أقرب الناس إليها إذا ما قضوا في سبيل عقيدة أو استشهدوا في سبيل مبدأ ، لعلنا قد عرفنا هذه المرأة الآن ، إنها تماضر بنت عمرو بن الشديد التي عرفت باسم « الخنساء » لقد كان للخنساء في الجاهلية أخ فارس شجاع كريم جليل القدر هو صخر بن عمرو ، وكان بارا بها كل البر ، مكرماً لها كل الإكرام ، يقتسم معها ماله كلما حلت بها ضائقة ، فلما مات بكته بالقصائد الطوال والأبيات البليغة التي حملت من المعاني ما جعلتها تعيش في خواطر الناس مئات عديدة من السنين ، وعرفت الخنساء حتى الآن بالشاعرة البكاءة ، لقد قالت في رثاء أخيها وبكائه ديوان شعر كامل ، ويجيء الإسلام مبشراً بالخير شاملاً البشر من رجال وإناث بالتكريم الذي أعاد إليهم إنسانيتهم في ظل من العقيدة وسياج من الاقتناع ، وتبدأ حركة الفتوح الإسلامية ، ويتوقف مصير الانسياب الاسلامي للجيوش العربية الاسلامية على معركة القادسية ، وتلاحظ الخنساء معارك الفتوح مع من يلاحظ من رجال المسلمين ونسائهم ، ولها أربعة من الأولاد الشباب الأقربين كل القرب إلى قلبها قرباً يتضاءل أمامه قرب صخر ، فذاك أخوها وهؤلاء بنوها ، فتصحبهم على كبرها إلى ساحة القتال وتدفع بهم إلى أتونها انتصاراً لعقيدتها واستجابة لإسلامها ، ووقفت تخطبهم

حاضة مشجعة قائلة [1] : يا بَنيّ أنتم أسلمتم طائعين . وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم أبناء امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حَسبكم ، ولا غيَّرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله عزّ وجل « يا أيها الذين آمنوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطُوا ، واتّقُوا الله لعلّكم تُفْلِحُون » فإذا أصبحتم غدا فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين » .

وتبدأ رحى القتال ، وينطلق الفرسان الفتيان إلى أتون المعركة ينشدون الأراجيز ، يقاتلون ويتقدمون ثم يستشهدون الواحد بعد الآخر ، ويبلغ الخبر الحزين أمهم الخنساء ، فلا تبكي على بنيها كما بكت على خال لهم من قبل ، وإنما تقول من تحت ظلال الإيمان : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته » .

إن الفرق بين المرأة قبل الإسلام وبعده هو نفسه الفرق بين شخصية الخنساء قبل الإسلام وبعده .

لقد أخذ الإسلام بيد المرأة وكرّمها وزكاها ومنحها كل ما هي أهل له كنصف للبشرية ، وكأم وأخت وزوجة وابنة ، فإذا حدثت

---

(1) جمهرة خطب العرب ١/١٢٠ ، ١٢١ .

بعد ذلك نكسة فليس الإسلام هو الذي نكسها ، ولكن الأوضاع الاجتماعية والانفلات عن الجادة واستحداث التقاليد من رجعية جامدة او انطلاقية منحرفة كل ذلك – وليس الإسلام – مسئول عن الردة وملوم على النكسة .

الإسلام والسيف

يخطىء كثير من المستشرقين وغير المستشرقين حينما يذهبون في كتاباتهم إلى أن الإسلام قد انتشر بالسيف ، وهم يحاولون إلباس دعواهم ثياب صدق وحيدة حين يربطون بين الفتوحات الإسلامية وبين نشر الإسلام ، والحق أن الذين يركبون هذا المركب الخشن في محاولة الربط بين نشر الدعوة الإسلامية وامتشاق الحسام ليسوا إلا واحداً من رجلين : رجل حسن الطوية ولكنه قاصر في اطلاعه لم يأخذ من الدراسة حول الإسلام إلا قشوراً دون أن ينفذ إلى اللباب فيطلع على جمهور القراء بأفكار فجة ومعلومات خاطئة واستنتاجات ظالمة ، ورجل قرأ وفهم ووعى ما قرأ ولكنه سيء النية شرير الطوية يغالط نفسه ويظلم الإسلام بنسبة أمور إليه هو منها براء .

فالمعروف أن المسلمين لم يشهروا السيف لأول مرة إلا في غزوة بدر ، وهم حين فعلوا ذلك لم يكونوا عادين ولا ظالمين ، وإنما كانوا يدافعون عن الدعوة التي أنزلها الله على رسوله ، فآمنوا بها وهاجروا في سبيلها وحاربوا حفاظاً عليها ، وإن المتتبع بعد ذلك للوقائع التي عرفت بالغزوات لا يجد كثير عناء في أن يستنتج أن السيف الإسلامي

قد شهر فيها دفاعاً عن الدين الجديد وذودا عن حياض المسلمين وحفظاً لأرواحهم وعقيدتهم ، فكانت الغزوات إما حرباً دفاعية وإما حرباً وقائية والحرب الدفاعية والحرب الوقائية كلاهما سواء .

فلما استتب الإسلام في الجزيرة العربية وبدأت الفتوحات ، لم تكن تهدف إلى نشر الدين بقوة السيف ، وإنما كانت لإخضاع الحكام الظالمين وسلّ عروشهم وإنقاذ أبناء البشرية مما أوقعوه عليهم من جور وما أحاطوهم به من ظلم وإذلال ، ولذلك فإن المسلمين في فتوحاتهم لم يرغموا أحداً على الإسلام ولم يقتلوا طفلاً أو يؤذوا امرأة أو ينالوا شيخاً بضرر . فلم تكن الفتوحات الإسلامية في واقعها لتحويل غير المسلمين إلى مسلمين ، إنما كانت لتوسيع نطاق السيادة الاسلامية التي هي سيادة الله وبسط العدالة والطمأنينة على ربوع العالمين .

فأسلوب الدعوة إلى الإسلام بعيد كل البعد عن الدماء بريء كل البراءة من شهر السيف وامتشاق الحسام ،وإنما السبيل إلى ذلك مسطور في حنايا الكتاب العزيز في أكثر من آية من آيات الله ، فسبيل نشر الدعوة ينحصر في أن قوة الدعوة نفسها أمضى وأقوى من قوة السيف ، فالله تعالى يقول :

« لا إِكْراهَ في الدِّين » ويقول « ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجادِلْهُمْ بالتِّي هِيَ أَحْسَن » ويقول : « وَقُلْ للذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ والأُمِّيينَ أَأَسْلَمْتُمْ ، فإِنْ أَسْلَموا

فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وإنْ تَوَلَّوْا فإنَّمَا عليْكَ البلاغُ واللهُ بَصِير بالعِباد » (١) .

هذا هو دستور الدعوة الإسلامية ، سبيل كله سلام وحرية اختيار ، لا إجبار ولا إكراه ، ولذلك فمن الحقائق التاريخية المسلم بها أن المسيحيين من العرب ظلوا متمتعين بكامل حقوقهم ، وأن عمر بن الخطاب لم يفرق بين تغلب المسيحية وبين المسلمين ، ومعروف أيضاً أن المسيحيين في الشام طلبوا نجدة الجيوش الإسلامية لكي تخلصهم من ظلم الروم ولكي تنشر العدل بينهم ، فقد كانت رسالة السماء تفرض إشاعة العدالة بين الناس أيا كان دينهم ، وإذا كان الإسلام قد فرض الجزية عليهم فلم يكن معنى ذلك عقاباً لهم وإنما كان ثمناً لحمايتهم ، وفي نفس الوقت سمح لهم بإقامة شعائرهم الدينية والتمتع بكامل حقوقهم على وجه من العدل والإنصاف .

وكان الحال كذلك أيضاً بالنسبة للقبط في مصر وقد لاقوا من الاضطهاد قبل الفتح الإسلامي ما جعلهم ينتظرون وصول العرب الفاتحين بفارغ الصبر ، يقول السير توماس أرنولد في وصف حالهم : «كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم في اليم ،وتبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى لينجوا من مضطهديهم ، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية ، وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان ، وقد تركهم عمرو بن العاص أحراراً على أن يدفعوا الجزية ، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم ،

(١) آل عمران : الآية ٢٠

وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي كانوا يئنون من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني ، ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب ، ويظهر أن حالة القبط في الأيام الأولى من حكم المسلمين كانت معتدلة ، وليس هنالك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم المسلمين » (١)

وهكذا وجد القبط في ظل الإسلام الحرية الكاملة بعد أن قتل الإمبراطور جستنيان من قبط الاسكندرية الأرثوذكس وحدهم مائتي ألف مواطن.

وما يقال عن دخول مسيحيي مصر إلى الإسلام دون ضغط أو إكراه يقال عن غيرهم من سكان البلاد التي فتحها المسلمون، وها هي رسالة كتبها البطريق النسطوري يشوع ياف الثالث Isho Yabh وبعث بها إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فارس يقول فيها بعد أن صور حزنه لتحول كثير من المسيحيين الفرس إلى الإسلام : «وإن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون حق العلم ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس ، يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقديسي الرب ، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار ، فلماذا إذن هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل هؤلاء العرب ،

(١) الدعوة إلى الإسلام ١٢٣ ، ١٢٤ .

ولماذا حدث ذلك أيضاً في وقت لم يرغمهم فيه العرب — كما يصرح أهل مرو أنفسهم — على ترك دينهم ، بل هم تعهدوا لهم أن يبقوا عليه آمناً مصوناً إذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجارتهم إليهم »(١) .

والإسلام لم يحفظ على غير المسلمين عقيدتهم وحريتهم وحسب بل إن الحكام المسلمين بالغوا في إكرام المسيحيين واليهود فوضعوهم في مناصب الدولة الهامة بحيث كان منهم الوزراء والحجاب سواء في الدولة العباسية في بغداد أو الدولة الفاطمية في مصر .

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل إن صلاح الدين الأيوبي الذين خاض الحروب الصليبية لم يأخذ رعاياه من المسيحيين بجريرة القادمين الباغين من أوربا وإنما عاملهم برفق أكثر ، وأسبغ عليهم تسامحه ، وخفف عنهم الضرائب وأزال بعضها ، ووضعهم في الوظائف العامة كوزراء وكتاب وصيارفة، وظل حالهم كذلك من السعادة والرعاية والاستمتاع بحرياتهم كاملة في عهد خلفاء صلاح الدين .

لم يدخل أحد إلى الإسلام إذن خوفاً من السيف ، وإنما العقيدة نفسها كانت كالنور الوهاج يجذب إليه الأنظار فدخلت أفواج الناس إلى الإسلام عن رضى وارتياح وإيمان ، بل إن الأفراد القلائل الذين ارتكبوا بعض الحماقات محاولين إدخال غير المسلمين إلى الإسلام بالقوة قد لقوا من الحكام ما أوقفهم عند حدودهم ، فقد ذكر بعض الرحالين أنه بينما كان يزور فارس حوالي منتصف

(١) توماس أرنولد ص ١٠١ ، ١٠٢ .

القرن الخامس عشر الميلادي سمع عن قصة تاجر أرمني مسيحي كان جالساً في حانوته ذات يوم فقدم إليه أحد الدراويش وألح عليه في التحول من المسيحية إلى الإسلام فصرفه التاجر بعد أن اعطاه صدقة وأظهر له عدم الرغبة في التحول عن دينه ، ولكن الدرويش رفض الصدقة وألح في أن يتحول التاجر إلى الإسلام ، فلما أصر التاجر على موقفه اختطف الدرويش سيفاً من أحد الواقفين وضرب به التاجر على رأسه ضربة قضت عليه ثم لاذ بالفرار ، وما أن سمع حاكم المدينة الخبر حتى أخذ منه الغضب كل مأخذ وأمر باقتفاء أثر الدرويش حتى قبض عليه ، وجيء به بين يديه ، فطعنه الحاكم بيده طعنة قضت عليه وأمر بأن تلقى جثته نهباً للكلاب وأردف قائلاً : ليس بمثل هذه الطريقة ينتشر دين محمد . ثم استدعى الحاكم ابن التاجر وعزاه ولاطفه بعبارات طيبة .

فحوادث إجبار غير المسلمين على اعتناق الإسلام بالسيف قليلة نادرة وهي فردية في الغالب ولعلها في الديانات الأخرى أكثر منها في الإسلام فشرلمان ملك فرنسا كان يفرض التعميدات المسيحية بحد السيف ، وكان أولاف ملك النرويج يذبح من يرفض الدخول في الدين المسيحي من سكان فيكن Vikan (الجزء الجنوبي من النرويج) أو يقطع أرجلهم وأيديهم ، كما وجدت جماعة متعصبة لنشر المسيحية بالقوة أسموا أنفسهم إخوان السيف Bretheren of the Sivlia.

وبالرغم من أن المسيحية دين السلام إلا أن بعض من انتسبوا إلى المسيحية قد لجأوا إلى فرضها بالسيف والدماء على بعض من لم يؤمنوا

بها ، ولكنها حالات قليلة لا تسيء إلى سماحة المسيحية ، كما أن الحالات النادرة لإدخال غير المسلمين بالقوة إلى الإسلام لا تحط من سماحة الإسلام .

فالذين ذهبوا إلى أن الإسلام قد انتشر بالسيف قوم مخطئون كل الخطأ ، لأن الدين الذي يعتمد على السيف لكي ينتشر دين ضعيف وليس الإسلام كذلك ، وليس أدل على ذلك من ان المهاجمين لديار الإسلام المنتصرين على المسلمين ما لبثوا أن اعتنقوه ديناً وآمنوا برسالته ، مع أن طبيعة الأمور تقضي أن يحولوا المسلمين إلى دينهم لا أن يتحولوا هم إلى الإسلام .

فالسلاجقة الوثنيون الذين فتحوا بلاد ما وراء النهر وتقدموا إلى العراق العجمي وظلوا يزحفون شيئاً فشيئاً حتى أخضعوا أكثر الأراضي الإسلامية ، هؤلاء الوثنيون الظافرون الفاتحون الغالبون ما لبث الدين الإسلامي بقوته وسلامته وسماحته أن استهواهم فاعتنقوه وصاروا سلاطين مسلمين ، وليس الأمر موقوفاً على هؤلاء السلاجقة وحدهم ، فإن قوماً أشد منهم عتواً ، وأعنف منهم ظلماً ، وأكثر منهم تعطشاً إلى الدماء ، قد هاجموا ديار المسلمين وقضوا على خلافتهم ، وقتلوا خليفتهم وخضبوا الأرض بدمائهم ورنقوها بأشلائهم ، أولئك هم المغول التتار المتوحشون الوثنيون الغالبون المنتصرون الذين ما لبثوا أن انضووا بعد حين تحت لواء الإسلام فهذب أخلاقهم وجعل لهم حضارة وفنوناً عرفت باسم الفنون المغولية .

من يصدق أن هؤلاء التتار الذين سفكوا من دماء المسلمين

ما لم يسفكه أحد من قبلهم ، والذين يصف ابن الأثير فظائعهم ، وجعلهم مساجد بخارى اصطبلات خيل ، وتمزيقهم للقرآن الكريم ، وهدم مساجد سمرقند وبلخ فيقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم إليها رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام إلى المسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مُتُّ قبل هذا وكنتُ نسيا منسيا ، إلى أن حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا» (١) .

نقول من يصدق أن هؤلاء المتوحشين يدخلون الإسلام طائعين وهم الظافرون الكاسحون المنتصرون .

على أن الأمر بالإسلام لم يقف عند اجتذاب الوثنيين الظافرين من السلاجقة والمغول وحدهم إليه ، بل إنه جذب بعض الصليبيين الذين جاءوا ليحاربوا المسلمين فدخلوا فيه طائعين مختارين زرافات ووحدانا ، ذلك أن جنود الصليبيين بينما كانوا يجتازون آسيا الصغرى في طريقهم إلى بيت المقدس تجسس عليهم الإغريق من أبناء دينهم وأبلغوا الأتراك المسلمين بمواقعهم فهاجمهم الترك المسلمون وأوقعوا بهم ومزقوهم شر ممزق . غير أن من نجا منهم أي من الصليبيين

(١) ابن الأثير حوادث سنة ٦١٧ هـ .

كانوا في حالة من البؤس والإشراف على الموت لدرجة استدرت عطف الترك المسلمين ، فما كان منهم إلا أن واسوا المرضى وعالجوهم وأغاثوا الجائعين المشرفين على الهلاك وبذلوا لهم العطاء في كرم وسخاء ، بل لقد اشترى بعض المسلمين النقود الفرنسية من الإغريق لكي يوزعوها بسخاء على الصليبيين المعوزين ، فكان البون شاسعاً بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الصليبيون من المسلمين وبين المعاملة السيئة التي لاقوها من أبناء دينهم الإغريق وما عانوه من قسوتهم ، حتى إن كثيراً منهم دخلوا دين منقذيهم بمحض إرادتهم وبلغ عدد هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام من الصليبيين أكثر من ثلاثة آلاف (١) .

لعل هذه الأمثلة التاريخية التي تؤيدها الوثائق والتي جعلت الغالبين يدخلون إلى الإسلام عن رضى كامل لأكبر دليل على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، وإنما انتشر بقوة العقيدة وكمالها ، وتشبع النفوس بها ، واقتناع أولي الألباب بأنها الحق من رب العالمين .

وكيف يمكن أن يكون انتشار الإسلام بالسيف ، والمؤرخون يذكرون لنا أنه حتى نهاية القرن الهجري الأول ، كان عدد المسلمين في البلاد المفتوحة لا يزيد على الثلث ، ولو كان السيف هو أداة نشر الدين لما بقي واحد من سكان تلك البلاد على غير الإسلام بعد مائة سنة من الزمان ، بل لما بقي في بلاد المسلمين الآن مواطن واحد لا يتخذ الإسلام ديناً .

(١) القصة بكاملها يقصها أحد رهبان القديس دينيس وكان مرافقا للحملة – راجع توماس أرنولد ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

لم ينتشر الإسلام بالسيف إذن، وإنما انتشر بقوة عقيدته وعمق إيمان الناس بعدالتها ، وإلا كيف يفسر دحول مئات الملايين فيه من أهالي الهند والصين والملايو وجاوة وجزر الهند الشرقية وإفريقية الوسطى ، بل كيف آمن به الملايين المنتشرون في روسيا وبولندا ولتوانيا في شمال أوربا، ثم مدينة الكاب وغينيا التي يحتلها الأوربيون، هل وصلت سيوف المسلمين إلى تلك المناطق ، لم يقل بذلك عاقل أو مجنون ، لقد دخل الإسلام إلى تلك البلاد عن طريق الدعاة المسلمين المجردين من أي سلاح إلا سلاح السماحة والإيمان فدخل الناس عن طريقهم في دين الله أفواجاً .

إنه في الوقت الذي كان المسلمون يُذبحون في أسبانيا ويُصنع بهم من ألوان الاضطهاد ما لم يسمع به التاريخ من قبل ، في ذلك الوقت الذي كان يقتل فيه في الأندلس كل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى أجلي الإسلام وحضارة الإسلام عن أسبانيا ، كان الإسلام نفسه يكسب أرضاً جديدة ومسلمين جدداً في سومطرة والملايو ، وشتان الفرق إذن بين تعصب يقتل المسلمين في أرضهم ، وسماحة تجذب المواطنين في غير أرض الإسلام إلى الإسلام .

ربما يظن ظان أن ما أنزل بالمسلمين في الأندلس من حيف وتقتيل كان نتيجة لتعصب سابق أو ظلم أوقعوه على الأسبان أو إجبار لهم على اعتناق الإسلام ، ولكن التاريخ لم يسجل حادثة واحدة من هذا القبيل ، فلم يحدث أن اضطهد المسلمون سكان أسبانيا أو أجبروهم على اعتناق الإسلام وقت الفتح ، بل كانت

سياستهم كلها تسامحاً وعطفاً ، بل إن المسلمين قد شيدوا للرهبان والراهبات أدياراً جديدة تهيأ فيها لهم الأمن والطمأنينة ، وكان الرهبان يستطيعون أن يخرجوا على الملأ بألبستهم الدينية ، وتقلد بعضهم المناصب العالية في البلاط ، وهكذا رعى الإسلام المسيحيين في الأندلس وحافظ عليهم ولم تحدث حالة اضطهاد ديني واحدة .

هكذا انتشر الإسلام في الأندلس بغير ضجة ولا سيف وإنما بالسماحة والرفق والاقتناع ، وهكذا خرج الإسلام من الأندلس يسبح في بحار دافقة من دماء أبنائه بسيوف متعصبة ظالمة..

ولا يختلف الأمر في دخوله القسطنطينية عنه في دخوله الأندلس، فلم يرغم القائد التركي أحداً على اعتناق الإسلام ، بل نشر العدل وأقام صروحه وأمّن الناس على حياتهم ، ونحن لا نستقي ذلك من مؤرخي المسلمين بل من مؤرخ بيزنطي شاهد سقوط القسطنطينية يتحدث عن بايزيد وكيف كان رحب الصدر كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين ، وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامة بأن سمح لهم بالتردد على مجلسه في حرية كاملة، وكيف أن مراد الثاني قد اشتهر بتحقيق العدالة وإصلاح المفاسد التي سادت في عهد الأباطرة الإغريق ، لقد كان يعاقب في غير هوادة أي موظف من موظفيه يثبت أنه استبد بأي فرد من أفراد رعيته .

لم يتدخل الترك المسلمون في عقيدة رعاياهم من المسيحيين ولم يحاولوا نشر الإسلام بالسيف ، ويشهد بذلك بطريق أنطاكية « مكاريوس » الذي يقول من حديث طويل له يلعن فيه البولنديين

الكاثوليك ويحصي ضحاياهم من الأرثوذكس بعدد يتراوح بين سبعين وثمانين ألفاً من القتلى : « أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد ، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين ، يهوداً أم سامرة ، أما هؤلاء البولنديون الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر ، بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ، ولا بأن يتركوا لهم قسساً يعرفون أسرار دينهم [1] .

في ظل هذه السماحة المطلقة دخل رعايا الكنيسة الشرقية إلى الإسلام دون ترغيب أو تهديد ، بغير سيف ولا رمح ، ولكن أعجبتهم شريعته السهلة البعيدة عن التعقيدات فكان لهم بمثابة المهرب من التعقيدات التي خلقتها الهرطقة البوليشية Poeulician heresy فدخل الإسلام أقوام كثيرون من ألبان وبوسنه وصرب .

ما يقال عن انتشار الإسلام في أوربا يقال عنه في آسيا ، ففي فارس كان الكهنة الزرادشتيون قد تسلطوا على شئون الدولة المدنية غير مكتفين بنفوذهم الديني ، واضطهدوا الديانات المخالفة لهم من بوذيين ومانويين ومسيحيين ويهود وصابئة ، وما أن جاء المسلمون إلى تلك البلاد حتى ضمنوا الحرية الدينية لكل فرقة من هذه الفرق ،

(١) مذكرات البطريرك مكاريوس .
عن توماس أرنولد ١٨٢ ، ١٨٣ .

وعاملوهم جميعاً معاملة أهل الكتاب مكتفين بأخذ الجزية منهم ، وشيئاً فشيئاً بدأت الجماعات من سكان المدن خاصة ترحب بالإسلام ديناً وتعتنقه في حماسة كبيرة ، وكان في مقدمة هؤلاء جميعاً أصحاب الحرف والعمال بمختلف طبقاتهم ، ارتضوا الدين الجديد لصفائه وخلوه من المعتقدات الوثنية التي بدت كريهة في أنظارهم نظراً لسفاهة طقوسها واستبداد رجال الدين القوامين عليها .

وإذا كان بعض سكان شمال الهند دخلوا الإسلام خشية أو خوفاً في إبان بعض الغزوات المتأخرة فإن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بجنوب الهند الذي أسلم الملايين من سكانه نتيجة علاقات ودية وتقدير واحترام نشأت بين التجار المسلمين الذين تزاحموا في تلك المنطقة وبين الحكام الهنود الذين أعجبوا بأخلاق المسلمين ومعاملاتهم وطرق تعبدهم . ولا شك أنه كان للرخاء الذي عم هذه المنطقة نتيجة لنشاط العرب وإقبالهم على شراء منتجات هذه البلاد أثر كبير في ربط أواصر المودة بين السكان والمسلمين ، الأمر الذي ساعد على انتشار الدين الإسلامي دون ان يدخل هذه المناطق سيف واحد ، وقد لعب رجل عظيم اسمه خواجه معين الدين خشتي دوراً كبيراً في نشر الإسلام في الهند بالطرق السلمية التي تعتمد على الإقناع والموعظة الحسنة ، وإنا لنسمع عن دعاة كثيرين آخرين نذروا أنفسهم لنشر الدعوة الإسلامية في الهند فكان السداد رائدهم ، وأسلم على أيديهم الملايين في أنحاء شبه القارة الهندية ، وما يحيط بها من جزر ، من هؤلاء نادر شاه المتوفي سنة ٩٦٩هـ ١٠٣٩م وسيد ابراهيم شهيد ، وشاه عبد الحميد سنة ١٦٠٠م ، والشيخ يوسف

شمس الدين ، ومبا ملايكا وغيرهم كثيرون لا نستطيع أن نحصى أعمالهم في هذه الصفحات القليلة .

ولقد دخل الإسلام إلى الملايو وجاوة وسومطرة وبورنيو وسيليبس والفلبين وغيرها من هذه المناطق بالدعوة والتبشير دون سفك قطرة دم واحدة ، دخلها عن طريق التجار المسلمين الذين اتصلوا بالسكان اتصال المودة والنسب وكانوا في نفس الوقت يبشرون بدينهم ، أو عن طريق الدعاة الذين نذروا أنفسهم لخدمة الإسلام وكان الناس يقبلون عليهم في يسر ويعتنقون الدين الجديد ويؤمنون به في وقت قصير ، وفي أحيان كثيرة كان الداعي إذا أقنع الملك بالإسلام قام الملك نفسه ودعا وزراءه ورعيته إلى العقيدة الجديدة فيسارعون إلى الاستجابة في أقصر وقت وأسرعه ، ومن تلك القصص الطريفة قصة إسلام ملك قويده في شبه جزيرة الملايْو ، فقد وصل إلى تلك المملكة سنة ١٥٠١م عالم عربي يدعى الشيخ عبدالله ، وزار الراجه (الملك) وسأل عن ديانة البلاد فأجابه الراجه : ديني ودين رعيتي كلها هو الذي وصل إلينا من الشعب القديم ، ونحن جميعاً نعبد الأصنام ، فقال الشيخ : أما سمعتم جلالتكم عن الإسلام ، والقرآن الذي أنزله الله على محمد ونسخ به كل الديانات الأخرى وتركها في حوزة الشيطان ؟ وظل الشيخ يشرح للراجه تعاليم الإسلام وكان ذا بشاشة ولباقة حتى اقتنع الملك بكلامه وما لبث أن أحضر جميع الأصنام التي في القصر فجمعت في أكوام وكان بعضها من الذهب وبعضها من الفضة وبعضها من الطين أو الخشب وألقيت على الأرض وأحرقت ، وبعد إيمان الملك آمن بعده أهل بيته ثم وزراؤه

ثم بقية رعيته الذين جمعوا كل الأصنام التي كانت في حوزتهم وأحرقت جميعها وأصبحت رماداً تذروه الرياح ، وأقبلوا على الإسلام تعلُّماً والبشر يعمهم والفرح يملأ جوانحهم ، ولم يكتف الملك باعتناق الإسلام بل غير اسمه من پرا أونج مها وانجسا إلى اسم إسلامي هو مزلف الشاة ، ثم بنيت المساجد في المناطق الآهلة بالسكان .

بهذه الطرق السليمة والوسائل الإقناعية انتشر الإسلام في أقطار آسيا وجزرها .

وأما اعتناق الإفريقيين للإسلام فقد تم أيضاً عن طريق الدعاة والتجار ولقد لقي الدعاة المسلمون لدى الزنوج كثيراً من الإدراك والتقبل حين كانوا يحدثونهم عن الحقائق المتعلقة بالله والإنسان ، هذا فضلاً عن أن الدين الإسلامي دين الفطرة والبساطة ولذلك كان الإفريقيون يقبلون على اعتناقه باعتباره لا يفرق بين الأبيض والأسود ، على حين أن رجال الإرساليات الأوربيين لم ينجحوا في شدهم إلى رباط المسيحية لأن الإفريقي الأسود المتنصر كان يحس في قرارة نفسه أن أبناء دينه من الأوربيين ينتمون إلى جنس ولون وحضارة لا ينتمي هو إليها ، وكان يحس بذلك الفرق الذي يؤرق نفسه ويؤلم إنسانيته .

ويعلل بعض الكتاب الأوربيين سرعة انجذاب الزنجي إلى الإسلام فيقول : إن الدخول في الإسلام لا يستلزم أن يفقد الواحد قوميته ، ولا يستلزم تغييرات انقلابية في الحياة الاجتماعية ، ولا يقوض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة ، وليست هناك هوة بين

الداعي إلى الإسلام والمتحول إليه ، فكلاهما متساو مع الآخر ، لا نظرياً بل عملياً أمام الله : وكلاهما ينفذ مبدأ التآخي الإنساني تنفيذاً عملياً ، والإسلام يمنح هؤلاء الذين يتصلون به منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانة الإنسان في العالم المحيط به ويحرره من ربق ألف عام من الأوهام الخرافية [١] .

هكذا انتشر الإسلام في إفريقية انتشار النور في الظلمة ، أقبل عليه الإفريقيون وهـــم يعتبرونه دينهم الطبيعي بشهادة الكتاب الأوربيين أنفسهم ، بغير ضربة سيف أو طلقة بندقية ، وكذلك بينا كيف انتشر الإسلام في بقاع الأرض ، لم يفرض نفسه بالقوة ولكن فرض نفسه بسماحته وقربه إلى النفس البشرية التي رأت فيه أنه يربط بينها وبين الله ويهديها سبيل الرشاد والهداية في الدنيا وطريق النور والنجاة في الآخرة .

(١) E. D. Morel : Nigeria, its people and its problems

القسم الثاني

انقسام الاسلام الى مذاهب وفرق

قبيل الانقسام :

كانت العقيدة الإسلامية تكمن في قلوب المسلمين في صفاء ويسر واعتزاز وإيمان حينما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى مردداً قول الله تعالى : « اليومَ أكملتُ لكُم دينَكُم وأتممتُ عليكُم نِعمَتي ورَضيتُ لكُمُ الإسلامَ ديناً »[1] وبموته عليه السلام حاولت الفتنة أن تطل برأسها في صورة خلاف على الزعامة ، واتخذ الخلاف صورة جدية أول الأمر بين المهاجرين والأنصار ، ولكن سماحة هذا الدين وعمق جذوره في قلوب المؤمنين والبعد عن المطامع الذاتية ، كل أولئك قد ساعد على وأد الخلاف حينما اعترف المهاجرون بفضل الأنصار ورددوا رأي رسول الله فيهم حين يقوم زعيم الأنصار سعد بن عبادة ويقول عن رضى وإيمان موجهاً خطابه للمهاجرين : نحن الوزراء وأنتم الأمراء . وتنطفىء الفتنة التي أوشكت أن تندلع بأيسر ما يتصور العقل المفكر برضى الأنصار بأن تكون الإمارة في المهاجرين .

وأما في صفوف المهاجرين فإنا نلمس الإيثار في البيعة والاختيار ،

---

(١) المائدة : الآية ٣

فهذا عمر بن الخطاب العظيم يلتفت إلى أبي عبيدة يقول له : ابسط يدك أبايعك فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله ، فلا يستبشر أبو عبيدة ولا يرحب ببيعة عمر له ولا يتحمس لأخطر منصب عرفه الإسلام بعد الرسالة ، ويعرض أبو عبيدة عن عمر وعن المنصب الذي يبايعه عليه ، منصب خليفة رسول الله ، وإنما يقول له في حزم وإيمان ورضى . أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين ، فيقتنع عمر ويذهب إلى أبي بكر قائلاً : ابسط يدك أبايعك ، أنت أفضل مني . فيقول أبو بكر : أنت أقوى مني ويكرر ذلك ، ولكن عمر السمح سماحة أبي عبيدة يقول : إن قوتي لك مع فضلك ، وتم البيعة لأبي بكر خليفة للرسول العظيم .

وتقابل بيعة أبي بكر بالرضى من المهاجرين والأنصار على السواء ، حتى أن أحد زعماء الأنصار ولعله سعد بن عبادة يقول في مقام تعظيم أبي بكر عند البيعة : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر . وإذا كان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قد أستأني في بيعة أبي بكر بعض الوقت فإنه ما لبث أن بايعه راضياً كل الرضى ، فليس من شك في أن علياً كان يحب أبا بكر ويجله ويضعه في مكانه من الإكبار والتقدير.

فإذا مات أبو بكر لا يلبث المسلمون جميعاً أن يرتضوا مشورته قبل وفاته باختيار الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ومن بينهم علي وكان الخليفة يستعين به في حل عظائم الأمور ويقول : أعوذ بالله من مشكلة ليس فيها أبو حسن (وهي كنية الإمام علي) .

ويظل أمر المسلمين هادئاً حتى يحدث الشقاق إزاء سياسة عثمان

ابن عفان الخليفة الثالث ، وتنتهي الأمور بمأساة قتله وهو يتلو كتاب الله ، فبايع أكثر المسلمين علي بن أبي طالب الخليفة الرابع أميراً للمؤمنين ، ولكن شبح الأطماع الشخصية وبقايا العصبية القبلية تطل برأسها لأول مرة في الإسلام ، فينقسم المسلمون إلى قسمين أو حزبين : حزب ينتصر لعلي وحزب ينتصر لمعاوية ، أو بالأحرى حزب يتشيع لعلي وحزب يتشيع لمعاوية ، وبمرور الزمن أصبحت لفظة التشيع عنوانا ودلالة لأنصار علي وأبنائه وأحفاده من بعده . وكانت الشيعة في أول أمرها رأياً سياسياً ليس أكثر ، كما كانت دعوة الأمويين للخلافة وحصرها في معاوية رأياً سياسياً أيضاً ، ويستشري الخلاف بين أنصار علي وأنصار معاوية ويجري التحكيم المعروف الذي كان بطلاه أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص فلا يرضى به جناح من حزب علي فيخرجون عليه ويكونون حزباً ثالثاً يعرف « بالخوارج » .

وإذن فقد كانت الفرق الإسلامية عند نشأتها فرقاً سياسية وليست دينية ، والاختلاف بينها لم يكن اختلافاً في صلب العقيدة الإسلامية وإنما كان خلافاً في الرأي حول طريقة الحكم واختيار الحاكم ، ثم انقسمت كل فرقة إلى عدة فرق « ففي الشيعة بدأنا نسمع عن الزيدية والإسماعيلية والاثنا عشرية والكيسانية والمختارية والكربية والهاشمية والمنصورية والخطابية وغيرها ، وفيهم الغلاة والرافضة والخارجون على التوحيد أولئك الذين ألهوا علي بن أبي طالب ، كما أن فيهم أصحاب العقيدة السليمة والفكرة الصائبة .

وكما انقسمت الشيعة إلى فرق عديدة فإن الخوارج انقسموا بدورهم إلى فرق كثيرة منها الأزارقة والصفرية والإباضية والعجاردة والثعالبة وغيرها وكل فرقة من هؤلاء كانت تنقسم إلى فرق أخرى كثيرة ، وسبب كل ذلك على الأغلب خلافات سياسية نشأت عن اختلاف الرأي إزاء الحكم أو الحرب .

ومع مضي الزمن تنشأ فرق أخرى في الإسلام كالمعتزلة والأشاعرة وتتأجج الخصومة بين كل هذه الفرق ، ويظل أهل السنة أقربهم إلى الحيدة وإلى فهم عقيدة الإسلام في غير ما عصبية أو تعسف. فما هي هذه الفرق ؟ وما أهمها ؟ وكيف نشأت ؟ وما محور عقيدة كل فرقة منها ؛ وهل من سبيل إلى تجميع الكلمة ولمّ الشمل ورأب الصدع وتوحيد الرأي وجمع الشتيت ؟ هذا ما نرجوه مخلصين .

الخــوارج

نشأتهم :

بدأت الفُرقة تدبّ بين المسلمين حين اقترح معاوية بن أبي سفيان على عليّ ابن أبي طالب إبان وقعة صفين ٣٧هـ / ٦٥٧م أن يحتكما إلى حكمين يعتمدان في حكمهما على كتاب الله حسماً للخلاف الذي أدى إلى مقتل عثمان ، فلما قبل عليّ التحكيم وكان من أمره ما كان من خداع عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري ، قال بعض المتمردين وكان معظمهم من قبيلة تميم ؛لا حكم إلا لله ، فلما سمع عليّ ذلك قال قولته المشهورة : «كلمة حق يراد بها باطل، وإنما مذهبهم ألا يكون أمير ، ولا بد من أمير ، برًّا كان أو فاجراً » .

ثم تجمع هؤلاء الخارجون واتجهوا نحو حروراء غير بعيد عن الكوفة فتابعهم عليّ يبغي صلاحهم ، ووقف بينهم وخطبهم متوكئاً على قوسه قائلاً « أنشدكم الله هل علمتم أحداً كان أكره للحكومة مني ؟ قالوا : اللهم لا . قال: أفعلمتم أنكم أكرهتموني عليها حتى

قبلتها ؟، قالوا : اللهم نعم . قال : فعلام خالفتموني ونابذتموني .. قالوا : إنا أتينا ذنباً عظيماً فتبنا إلى الله منه » .

وعادوا مع عليّ إلى الكوفة ثم ما لبثوا أن عاودتهم فكرة الخروج ظناً منهم أن علياً قد رجع عن الحكومة فأرسل إليهم ابن عباس لكي يتفادى المسلمون الفتنة ، ولكنهم أصروا على موقفهم من عليّ ، وأجمعوا البيعة لواحد من بينهم اسمه عبدالله بن وهب الراسبي ، وقد عرفوا « بالحرورية » نسبة إلى « حروراء » أول بلدة خرجوا إليها ، كما عرفوا « بالمحكمّة » لأنهم قالوا « لا حكم إلا لله » .

خرج كثير من أنصار عليّ وانضموا إليهم وأطلقوا على أنفسهم اسم « الشُّراة » أي الذين يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله ، ولكنهم لم يلتزموا جادة الصواب في تصرفاتهم أو أقوالهم ، ولجأوا إلى بعض الآراء المتطرفة والأعمال القاسية فطعنوا في عليّ وأحقيته بالخلافة ، وطعنوا في مسلك عثمان ، وحكموا بالكفر والارتداد على كل من لا يجاريهم في التهجم على عثمان وعلي بن أبي طالب .

ومن أمثلة أعمالهم الإرهابية أنهم قابلوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيراً ، وقالوا : احفظوا ذمة نبيكم ، وهي مغالطة صريحة لأن الأقوم أن يحفظوا على كل من الرجلين روحه ودمه وسلامة المسلم في الدرجة الأولى ثم سلامة الذميّ .

كان موقف عليّ منهم أول الأمر ألا يحاربهم حتى يبدأوه بالحرب ، فلما عمدوا إلى استعمال العنف وقتلوا عبدالله بن خبّاب وفي عنقه المصحف ومعه امرأته بعد حوار طويل جرى بينه وبينهم يفيض

بالحكمة من جانب ابن خبّاب وبالغلظة من جانبهم ، ولما ركبوا رءوسهم ولم يحاولوا أن يستجيبوا لدعوة عليّ ، خرج إليهم في يوم النهروان وأوقع بهم وقتل منهم عدداً كبيراً ، وفي هذه الموقعة قتل زعيمهم ابن وهب .

وقد كان بمكنة عليّ بن أبي طالب أن يقضي على الخوارج قضاء مبرماً ولكنهم ما لبثوا أن تربصوا به ، وأرسلوا إليه واحداً منهم هو عبد الرحمن بن ملجم المرادي فقتله في المسجد .

بعد مقتل عليّ اتسع نشاط الخوارج ، وخاضوا كثيراً من المعامع في عهد معاوية ، وكانت غاراتهم تتخذ شكل حرب العصابات ، فلم يكونوا قادرين على مواجهة جيوش الحكومة الأموية الجديدة ، تلك الجيوش الجرارة ، فكانوا يعمدون إلى شن الغارات الخاطفة في منطقة البصرة على وجه الخصوص ، وكان لفرسانهم قوة وجلد وعزيمة على القتال وكانوا يجيدون المباغتة والضرب ، كما كانوا يحسنون الكر والانسحاب وكانوا يرددون منشدين :

فنحنُ عبادُ اللهِ واللهُ ربُّنَا وأَوْلَى عبادِ اللهِ باللهِ مَنْ شَكَرْ

كانت الأيام دائماً في خدمة الخوارج ، فما أن حدثت الفتنة بعد وفاة يزيد بن معاوية حتى كانت شوكتهم تزداد حدة ، وهم الذين أضاعوا الخلافة من عبدالله بن الزبير وكانت طوع يده . لقد حاولوا أن يضموا عبدالله إلى صفوفهم أو ينتظموا في دعوته وقرروا أن يذهبوا إليه قائلين : إن قدّم أبا بكر وعمر وبرىء من عثمان

وعليٌّ وكفّر أباه (أي الزبير بن العوام) وطلحة بايعناه ، وإن تكن الأخرى ظهر لنا ما عنده .

جرى هذا الحوار الطريف بين الخوارج وعبد الله بن الزبير وهو يظهر لنا رأيهم في الخلفاء وبعض الصحابة . قالوا له (١) : إنا جئناك لتخبرنا رأيك ، فإن كنت على صواب بايعناك ، وإن كنت على خلافه دعوناك إلى الحق . ما تقول في الشيخين ؟ قال خيراً . قالوا فما تقول في عثمان الذي حمى الحمى وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه (٢) ، وأوطأ آل بني معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين(٣) ، وفي الذي بعده الذي حكّم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم (يقصدون علي بن أبي طالب) ، وفي أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو إمام عادل مرضيّ لم يظهر منه

(١) العقد الفريد ٢/٣٩١ وما بعدها – لجنة التأليف .

(٢) الطريد هو الحكم بن أبي العاص وكان رسول الله نفاه إلى الطائف وقد ظل كذلك في خلافة أبي بكر وعمر حتى آواه عثمان وأما الإشارة إلى أهل مصر فتتلخص في أنه حينما جاءه أهل مصر يريدون قتله أو خلعه أظهر الصفح عنهم ولما انصرفوا وجاوزوا طريق المدينة ضبطوا غلاما له يحمل كتابا لعامله بمصر يأمره بجلدهم وحلق رءوسهم .

(٣) المراد أنه أوطأ أقاربه رقاب الناس وإنما خصوا آل معيط للطعن على عثمان بالوليد ابن عقبة بن أبي معيط حين ولاه الكوفة فسكر وصلى بالناس الصبح أربع ركعات وقرأ في صلاته :

علق القلب الربابا   بعد ما شابت وشابا

وأما فيء المسلمين فالمقصود به المال الذي أداه بطريق إفريقية فأمر به عثمان لآل الحكم .

كفر ، ثم نكثا بيعته ، وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن في بيوتهن ، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة ، فإن أنت قبلت كل ما نقول لك فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا إن شاء الله ونسأل الله لك التوفيق وإن أبيت خذلك الله وانتصر منك بأيدينا » .

هذه الاستفسارات يطلبها الخوارج من عبد الله بن الزبير ، ومنها يبدو أنهم يجلون أبا بكر وعمر ويحملون على عثمان ويجلون علياً قبل وقعة صفين ، ثم هم يكفرون الزبير وطلحة ، ورأيهم في السيدة عائشة رأي سيء يضعها موضعاً غير كريم .

ولكن عبد الله الزبير البليغ الجامع لزمام البيان يرد عليهم قائلاً : إن الله أمر — وله العزة والقدرة — في مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العاتين بأرق من هذا القول ، فقال لموسى وأخيه صلى الله عليهما : « اذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إنّهُ طَغَى فَقُولاَ لهُ قَوْلاً لَيِّناً لعلّه يَتَذَكّرَ أوْ يَخْشَى ». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذوا الأحياء بسبّ الموتى» فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو رسوله والمقيم على الشرك والجاد في محاربة رسول الله قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً ، وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ؟ فإن كانا منهم دخلا في غمار الناس وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسبّ أبي وصاحبه وأنتم تعلمون أن الله عز وجل قال للمؤمن في حق أبويه :

« وإنْ جاهَداكَ علىَ أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُمَا وصَاحِبْهُما فِي الدنْيا معْرُوفاً » .

وقال : «وقولوا للناس حسناً». وهذا الرأي الذي دعوتم إليه أمر له ما بعده ، وليس يقنعكم إلا التوقيف والتصريح ، ولعمري إن ذلك أحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا إليّ من عشيتكم هذه أكشفْ لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى .

فلما كان العشيّ خرج إليهم فلم يوافقهم على آرائهم ودافع عن عثمان وعليّ وأبيه وطلحة وعائشة دفاعاً رائعاً بالآية حينا وبالحديث حينا آخر [1] وبالحجة القاطعة والبرهان الصادق حيناً ثالثاً ، فانصرفوا عنه حتّى أوقع به الأمويون وقتلوه هو وأخاه مصعب .

على أن نشاط الخوارج ظل قاصراً على الجانب الشرقي من الدولة الإسلامية فترة طويلة وكان مصدر خطر دائم على البصرة ، ولم ينتقل نشاطهم إلى إفريقية إلا على عهد العباسيين . وأما الجزيرة العربية فقد اتسع نشاطهم فيها بين سنتي ٦٥ ، ٧٢هـ استولوا خلالهما على حضرموت واليمامة والطائف واليمن .

لقد نشط الخوارج في رحاب الدولة الإسلامية يدعون إلى فكرتهم بالعنف والشدة وسفك الدماء ، ونحن نعتقد أن حب الدماء لم يكن

(١) راجع العقد الفريد ٢/٣٩٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

طبيعة فيهم أجمعين ، بل إنهم يختلفون لينا وعنفا حسب الفرق التي ينتسبون إليها ، ولعل أشدهم إقبالاً على الدماء فرقة « الأزارقة » التي كان يتزعمها نافع بن الأزرق ، وكان نافع هذا عنيفا عنيداً سفاكا للدماء يقتل النساء والأطفال على حد سواء ، ويستحل الأموال ويقطع الطريق ، ولكن في الوقت الذي نجد فيه الأزارقة يسلكون هذا المسلك الدامي الخشن ، نجد زعيماً آخر لفرقة أخرى هو نجدة بن عامر الحنفي زعيم فرقة « النجدات » يستنكر أعمال ابن الأزرق ويحمل على تصرفاته ويكتب إليه ناصحاً منذراً ، ولكن نافع بن الأزرق يرد عليه مسفها رأيه معللا تصرفاته الشاذة ، ومن الغريب أن كلا من « نافع » و« نجدة » كان يلقب بين قومه بلقب أمير المؤمنين ، بل إن كل زعيم فريق من فرق الخوارج — وما أكثرهم — كان يلقب بأمير المؤمنين .

كان الخوارج منقسمين على أنفسهم إلى ثمانية فرق كبرى ، وكانت كل فرقة من هذه الفرق تنقسم بدورها إلى فرق أصغر مما أدى إلى إضعاف شأنهم وساعد في القضاء عليهم ، وقد وقعت بينهم وبين قواد بني أميه معارك عنيفة متصلة الحلقات لسنين طويلة ، خاضوها في قوة وبسالة وإيمان شديد ، كانوا يؤمنون بالجمهورية العربية الديمقراطية ، وكانوا يعتبرون الأمويين ، والزبيريين من قبلهم أرستقراطية كافرة ، ولذلك فقد دوخوا قواد الأمويين وفي مقدمتهم زياد بن ابيه وعبيد الله بن زياد والمهلب بن أبي صفرة والحجاج بن يوسف الثقفي حتّى اضطر عبيد الله بن زياد إلى مهادنتهم تارة والاشتداد عليهم تارة أخرى ، بل إنه أطلق سراح بعضهم من السجن .

إن إيمان بعض الخوارج بقضيتهم جعلهم يقضون مضجع الخلافة الأموية ويذلون كبرياء قوادها ، فحين قتل عبيد الله بن زياد عروة بن أُديَّة من زعمائهم غضب أخوه مرداس بن أدية ، وخرج إلى الأهواز في أربعين رجلاً مطمئناً إلى أنهم أربعون في العدد ، ولكنهم عدة آلاف في القوة فأرسل إليه عبيد الله بن زياد ألفين من خيرة الرجال بقيادة ابن حصن التميمي فهزمهم الخوارج الأربعون شر هزيمة ، الأمر الذي جعل عيسى بن فاتك الخارجي يقول :

أألفا مؤمنٍ فيما زعمتُم … ويهزِمُهُمْ « بآسك » أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم … ولكنَّ الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلةُ غيْرَ شكٍّ … على الفئة الكثيرةِ يُنْصرُونا

شعر الخوارج

وإذا كان هذا الشعر يصدر عن نفس عميقة الإيمان بمبدئها الذي ينتهي بها إلى النصر في أكثر الوقائع فإننا لا نستطيع أن نغفل الشجاعة المنطلقة من شعر قطري بن الفجاءة آخر زعماء الأزارقة وقد أخضع الاهواز وكرمان وامتد سلطانه إلى طبرستان وظل يصول ويجول حوالي ثلاث عشرة سنة وهو يلقب بأمير المؤمنين إلى أن قتل سنة ٧٨ . كان قطري يقول مخاطباً نفسه :

أقولُ لها وقد طارتْ شَعاعاً … من الأبطال ويحك لن تُراعي
فإنكِ لو سألتِ بقاءَ يومٍ … عن الأجلِ الذي لكِ لن تطاعي

فصبراً في مجالِ الموتِ صبراً … فما نيْلُ الخلودِ بمستطاعِ
ولا ثوْبُ البقاء بثوبِ عزٍّ … فيطوى عن أخي الخنَع اليراعِ
سبيلُ الموتِ غايةُ كل حيٍّ … فداعيهِ لأهل الأرضِ داعي
وما لِلْمرْءِ خيرٌ في حياةٍ … إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المتاعِ

وإذا كان لواء الشعر والفداء منعقداً في « الأزارقة » على « قطري » فإن الأحزاب الأخرى لم تخل من الشعراء بل إن أكبر الشعراء الخوارج كان رأساً من رءوس فريق « القعدة » من « الصفرية » ، ذلك هو عمران بن حطان الذي كان يتشهى الاستشهاد والموت في سبيل مبدئه كما فعل قطريّ ، وما أن استشهد صديقه وزميله أبو بلال مرداس بن أديه الذي هزم ألفين من جنود الخلافة . بأربعين فارساً ، ما أن استشهد هذا الصديق ، حتى تمنى عمران أن يلحق به بطلاً شهيداً .

وكان أبو بلال نفسه قد أنشأ الشعر في « الخروج » وله عند وفاة ابن وهب :

أَبْعَدَ ابن وهبٍ ذي النزاهة والتُّقى
ومَنْ خاض في تلك الحروبِ المهالِكا
أُحِبُّ بقاءً أو أُرَجِّي سلامةً
وقد قَتَلوا زيد بنَ حِصْنٍ ومالكا

فيا ربِّ سلِّمْ نيَّـتي وبصيرتي
وهبْ لي التُّقَى حتى ألاقي أولئكا

ويقول عمران في مناسبة استشهاد صديقه أبي بلال :

لقـد زاد الحيـاةَ إليَّ بُغضـاً
وحبّـاً للخـروج أبـو بلالِ
أُحـاذرُ أن أموتَ عـلى فراشي
وأرجو الموتَ تحت ذُرَا العوالي
ولو أني علمـتُ بـأنَّ حَتْفـي
كحتـفِ أبـي بـلالٍ لم أبالِ
فَمَنْ يـكُ همـه الدنيا فـإني
لها – واللهِ ربِّ البيتِ – قالِ

ولما كان عمران هذا زعيماً ذا عقيدة فإنه لم يحاول أن يخرج بالشعر عن ميدان العقيدة إلا نادراً وكان يحتقر المتكسبين بالشعر ، فقد مر يوماً على الفرزدق الشاعر المعروف وهو ينشد الشعر والناس ملتفون من حوله فقال له :

أيهـا المادحُ العباد ليُعْطـى إنَّ للهِ مـا بأيدي العبادِ
فاسْألِ اللهَ مـا طلبتَ إليهم وارْجُ فضلَ المقسِّمِ العوّادِ
لا تَقلْ في الجوادِ ما ليس فيه وتسمِّي البخيلَ باسم الجوادِ

فما أن سمع الفرزدق هذه الأبيات حتى قال مغيظاً : لولا أن الله شغل عنا هذا برأيه للقينا منه شراً .

وما دمنا قد أشرنا إلى شعر الخوارج– وهو جدير أن يشار إليه فلا مناص لنا من أن نلمح إلى شاعرهم الأكبر الطرماح بن حكيم الطائي المتوفي سنة ١٠٠هـ وكان منتسباً إلى فرقة الأزارقة ، وكان يكثر في شعره من ذكر « الشراة » وهي صفة للخوارج أي الذين شروا أنفسهم ، فمن شعره الذي يتمثلهم فيه قوله :

لقد شقيت شقـاءً لا انقطاع له
إنْ لم أفزْ فوزةً تنْجِي من النارِ
والنارُ لم ينجُ من روعاتها أحد
إلا المنيب بقلبِ المخلصِ الشاري
أو الذي سبقتْ من قبلِ مولده
له السعادة من خلّاقِها الباري

ومن شعره في تمجيد أبناء مذهبه قوله :

للهِ دَرُّ « الشُّـراةِ » إنهــمُ إذا الكرى مال بالطُّلا أرِقوا
يُرَجِّعـون الحنيـنَ آونـةً وإن علا ساعةً بينهم شَهِقوا
خوفاً تبيت القلوبُ واجفـةً تكاد عنها الصدورُ تنفلق
كيف أُرجِّي الحيـاةَ بعدهُمُ وقد مضى مؤنسيَّ فانطلقوا

قومٌ شحاحٌ على اعتقادهــمُ   بالفوزِ مما يخافُ قد وَثِقُوا

لا شك أن شعر الخوارج به مسحة من القوة والصفاء والعزم والإيمان تمثل مرتجاة مهما كان الرأي في طبيعة مذهبهم أو مذاهبهم .

نعود إلى القول بأن الخوارج قد أظهروا نشاطهم الحربي والسياسي والعقائدي على مسرح الدولة الإسلامية فترة طويلة من الزمان وخاضوا المعارك في كل شبر منها تقريباً ، ومع انقسامهم وتناحرهم فقد أمكن لهم أن يصمدوا على المسرح الحربي حتى أوائل القرن الثاني الهجري فدوخوا الدولة الأموية وفرضوا سلطانهم على مساحات واسعة من أرض الدولة وأمنوا حكومتهم وجبوا الخراج ، ولكنّ تخالفهم فيما بينهم وتناحرهم وتشتت صفوفهم وكثرة الانقلابات الداخلية في الفرقة الواحدة منهم وتطرف بعضهم إلى درجة استحلال دماء النساء والأطفال واستنكار البعض الآخر لهذا المسلك ، كل أولئك جميعاً قد بدد شملهم وفتت جمعهم ، فزعيم مثل نجدة بن عامر يكرمه قومه ويلقبونه بأمير المؤمنين ويسمون الفرقة باسمه « النجدات » ثم لا يلبثون أن يتصيدوا له ذنباً فيقتلوه ، يقتله رجل من طائفته اسمه أبو فديك .

وما فعله « النجدات » بنجدة فعله « الأزارقة » بقطريّ بن الفجاءة لقد كان قطري شجاعاً جريئاً ما في ذلك شك ، ولم تكن الهزيمة بقادرة على أن تشق طريقها إليه لولا أن رجاله بدأوا ينقلبون عليه ويتعقبونه ويأخذون عليه مخالفات شرعية ، وكان هو بدوره لا يشاركهم جميع آرائهم في أمور القتال فتألبوا عليه وكانوا خليطاً من

العرب والعجم ، فأما العرب فقد ثبتوا إلى جانبه وأما العجم فقد انقلبوا عليه ومعهم بعض العرب ونشب القتال بين أبناء العقيدة الواحدة واستمر زهاء شهر تفرقوا بعده ، فكان من السهل على المهلب أن يقضي عليهم جميعاً (أي الأزارقة) بادئاً بالفريق المتمرد مثنياً بفريق قطريّ .

وإذا كان أبناء الفريق الواحد يتحاربون ويتقاتلون هكذا، فليس من شك في أنه قد جرت حروب واشتباكات بين أنصار الفرقتين المختلفتين داخل نطاق المذهب الخارجي وكان أيسر شيء لديهم أن يكفر هذا الفريق ذاك الفريق الآخر كما حدث عندما كفر الأزارقة « القعدة » أي الذين يقعدون عن القتال وفي ذلك يقول شاعرهم :

سلامٌ على مَنْ بايع اللهَ شارياً   وليس على الحِزْبِ المقيمِ سلامُ

وهكذا يكون الخوارج بتعصبهم وعدم تسامحهم وخلافاتهم الكثيرة المتعددة قد صدعوا صفوفهم وقضوا على أنفسهم بأنفسهم ، بل هناك من يقول بأنهم قد ساهموا في القضاء على الدولة الأموية ، لأنهم بما أوجدوا من اضطرابات شغلت الدولة وقتاً طويلاً قد يسروا السبيل أمام دعاة العباسيين لكي ينشطوا في تنظيم خططهم بمنأى عن عيون الرقباء من المسئولين الذين انشغلوا بحرب الخوارج ومطاردتهم .

أحزاب الخوارج وعقيدتهم :

انقسم الخوارج إلى أحزاب كثير متعددة ، ولقد اخترنا لفظ « حزب » ولم نختر لفظ « فرقة » لما قد تقمصته كلمة حزب من الدلالة

على المعنى السياسي أكثر منها دلالة على المعنى الديني .

والحق أن مذهب الخوارج كان فكرة سياسية خالصة فقد كانوا يرون أن الخلافة لا ينبغي أن تنحصر في قوم بعينهم بل إن كل مسلم صالح للخلافة ما دام قد توفرت فيه شروطها من إيمان وعلم واستقامة على شريطة أن يبايعه الناس بذلك ، ولا بأس بعد ذلك أن يكون من الفرس ، او الترك أو الحبش ، فالمعنى العصبي الارستقراطي بعيد عن تفكيرهم بل عدو لمنهجهم ومسلكهم ، واقتصار الخلافة على أسرة بعينها كأسرة النبي أو جنس بعينه كالجنس العربي أمر يحاربونه كل المحاربة .

وبرغم أن الخوارج قد حاربوا علياً وخرجوا عليه ، فإن له فيهم وهو الإمام المنصف كلمة حق حين قال في آخر أيامه : لا تقاتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه ، وأمير المؤمنين يشير بذلك إلى أن الخوارج أشرف في قصدهم من بني أمية ، لأن الأمويين اغتصبوا الخلافة اغتصاباً بغير حق ثم ما لبثوا أن حولوها إلى ملك متوارث الأمر الذي يتنافى مع الإسلام نصاً وروحاً ، وأما الخوارج فكانوا يدافعون عن عقيدة دينية آمنوا بها وإن أخطأوا السبيل إليها .

وإن الخليفة العادل عمر بن العزيز يؤيد رأي الخليفة الرابع في حسن الظن بهم حينما قال لبعضهم : إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم سبيلها .

ولكن الذي أفسد على الخوارج دعوتهم المناضلة المكافحة حبهم للدماء وبخاصة دماء المسلمين من مخالفيهم في الرأي ، لقد كان دم المسلم عندهم أرخص من دم غير المسلم ، وقد مر بنا قبل قليل قصتهم مع مسلم مخالف لهم ونصراني ، فقتلوا المسلم وحفظوا على النصراني دمه . ومن الأخبار المأثورة ، التي تؤيد هذا الرأي فيهم ، أعني تعطشهم لدماء مخالفيهم من المسلمين والعفو عن غير المسلمين ، أن واصل بن عطاء رأس المعتزلة وقع في أيديهم مرة فادعى أنه غير مسلم وكانت وجهة نظره أن ذلك أدعى للحفاظ على حياته مما لو عرف عنه أنه مسلم مخالف لهم ، وقد صح ما توقعه فقد كان ادعاؤه الشرك سبباً في نجاته منهم .

كان أمراً طبيعياً أن ينقسم الخوارج على أنفسهم في الوسائل التي يتبعونها لكي يصلوا إلى أهدافهم السياسية في الحكم ، وكان الانقسام في الرأي سبباً في الخلاف الشديد بينهم ، غير أن هذا الخلاف الفكري السياسي ما لبث أيضاً أن دفع بهم إلى خلاف عقائدي في صلب الدين فمزجوا الدين بالسياسة وخلطوا بين الحكم والعقيدة ، غير أنهم بمختلف أحزابهم قد أجمعوا على أمرين جوهريين : الأمر الأول يتعلق بنظرية الخلافة وتتلخص في أن الخليفة يختار اختياراً حراً من بين المسلمين وليس من الضروري أن يكون قرشياً فمن حق الحبشي مثلاً أن ينتخب متى أجمع المسلمون على انتخابه كما أنه من حق القرشي أن ينتخب متى أجمع المسلمون على اختياره . والأمر الثاني عقائدي محض فهم يقولون إن العمل بأوامر الدين جزء من الإيمان وليس الإيمان كله ، يعني أن الذي يؤمن بالله وبالرسول

وبالصلاة والصوم وأركان الإسلام الأخرى ثم يرتكب الكبيرة فهو كافر وليس مسلماً . فلما انشعبوا إلى أحزاب عديدة أصبح لكل حزب عقائده ونظرياته الدينية .

كان الخوارج في أول أمرهم يسمون « بالمحكّمة الأولى » وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وانتحوا إلى حروراء . وكان أول زعيم لهم عبدالله بن وهب الراسبي وكان من سواد الناس غير أنه موصوف بالشجاعة والصلابة. ومن ألمع جماعته وأصلبهم عقيدة « عروة بن أذينة » الذي خاض معارك عديدة ، وقد لقيه زياد بن أبيه فأراد أن يستكشف كنهه ويستظهر أمره ويسبر غوره ويعرف عقيدته فسأله عن أبي بكر وعمر فقال عنهما كل خير ، ثم سأله عن عثمان فقال : كنت أوالي عثمان على أحوالي ست سنين ثم تبرأت منه بعد ذلك للأحداث التي أحدثها ، وشهد عليه بالكفر . ثم سأله عن علي بن أبي طالب فقال كنت أتولاه إلى أن حكّم الحكمين ثم تبرأت منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر . ثم سأله عن معاوية فسبه ولعنه ، ثم سأله عن نفسه (أي عن زياد) فقال : أوّلُكَ لريبة وآخرك لدعوة وأنت فيما بينهما بعد عاصٍ ربك. فأمر زياد بضرب عنقه ، وقد كان أمراً طبيعياً جداً أن يضرب زياد عنقه لا لأنه يستحق ذلك، ولكن لأن هذه الجرأة في الرأي والصلابة في التمسك به حتى أمام ولي الأمر مالك الرقاب أمر له خطره على كيان الدولة القائمة المثخنة بالجراح المهددة بالبوار ، ويجوز أن زياداً قتله انتقاماً لنفسه فإن في رأي عروة إشارة إلى مولد زياد من سفاح وقد كان زياد جباراً ذا بطش وعنف .

هذا ما كان من أمر المحكّمة الأولى من الخوارج ، ثم انقسموا بعد ذلك إلى أحزاب عديدة أهمها الأزارقة والنجدات والبيهسية والعجاردة والثعالبة والإباضية والصفرية .

على أن هذه الأسماء إنما هي للأحزاب الرئيسية الكبرى، ولكن بعض هذه الأحزاب قد انشطر إلى أحزاب أصغر فالعجاردة مثلاً انشطروا إلى الصلتية أصحاب عثمان بن أبي الصلت ، والميمونية أصحاب ميمون بن خالد والحمزية أصحاب حمزة بن أدرك ، والخَلَفيّة أصحاب خَلَفٍ الخارجي ، والأطرافية ، والشُعيبية ، والحازمية .

والثعالبة انشطروا إلى الأخْنَسيّة ، والمعْبَديّة ، والرشيدية ، والشيبانية ، والمكرمية ، والمعاومية ، والمجهولية ، والبدعية .

والإباضية انشطروا إلى الحفصية ، والحارثية ، واليزيدية .

تلك هي أحزاب الخوارج وشعابها ، وأكثرها قد ذاب في غمرة أحداث الزمان وكر الأيام ، ولم يبق منها معاصر لنا إلا الإباضية ، ولكننا مع ذلك لن نقتصر على تقديم الإباضية وحدها ، بل لا بأس من أن نلم إلماماً خفيفاً بأشهر تلك الأحزاب التي ذكرنا وهي الأزارقة والصفرية والإباضية .

الأزارقة :

فأما الأزارقة فهم أصحاب أبي راشد نافع بن الأزرق الذي خرج بأتباعه الذين ربوا على ثلاثين ألف فارس فاحتلوا الأهواز وفارس وكرمان

وانتصروا على عمال عبدالله بن الزبير وكانت هذه المناطق في حدود خلافته . وكاد أن يستقر الأمر للأزارقة بعد هذه الانتصارات الضخمة إلى أن خرج لهم المهلب بن أبي صفرة فحاربهم تسع عشرة سنة حتى تغلب عليهم وكان من ألمع قواد الأزارقة قطري بن الفجاءة المازني الذي مر ذكره .

وكان الأزارقة متطرفين في أفكارهم وأحكامهم فكانوا يقولون إن جميع مخالفيهم من المسلمين مشركون وإن من لا يسارع إلى دعوتهم واعتناق مذهبهم فإن دمه ودم أطفاله ونسائه حلال ، وقد كفروا علي بن أبي طالب واعتبروا قاتله عبد الرحمن بن ملجم شهيداً بطلاً حتى إن شاعرهم قد تغني بهذه الحادثة الكريهة فقال :

يا ضربة من منيب ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضواناً
أني لأذكره يومـــاً فأحسبـــه ... أوفى البرية عند الله ميزانـــاً

والأزارقة كانوا في الجملة متطرفين ، بل كانوا خطراً على الإسلام نفسه ، وتوسعوا في عداوتهم لغيرهم من المسلمين ، وكفروهم جميعاً، وحرموا على أنفسهم الصلاة مع غيرهم من المسلمين ، كما حرموا الزواج منهم وأكل ذبائحهم ، وجعلوا دارهم أي دار المسلمين دار حرب ، ثم اتسعوا في مزاعمهم فقالوا إن أطفال المشركين في النار ، وفي الوقت الذي اعتبروا فيه فاعل الكبيرة كافراً مخلداً في النار عطلوا بعض الحدود بأن اسقطوا الرجم عن الزاني ، كما أسقطوا الحد عمن قذف المحصنين من الرجال وإن لم يسقطوه عن قاذف المحصنات من النساء .

الصُّفْرية :

وأما الصفرية فهم أتباع زياد بن الأصفر ، وكانوا أميل إلى المسالمة من الأزارقة كما كانوا أقرب إلى الاعتدال وأبعد عن التطرف في أحكامهم فلم يكفروا القاعدين عن القتال ولم يسقطوا الرجم ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم في النار وفاعل الكبيرة عندهم عاص وليس كافراً مشركاً .

الإباضيّة :

وأما الإباضية فهي أشهر فرق الخوارج على الإطلاق لأنهم لا يزالون حتى يومنا هذا يسكنون في عُمان وزنجبار وشمال إفريقية . والإباضية هم أصحاب عبدالله بن إباض وكانت لهم صولة في الجزيرة العربية وعلى الأخص في حضرموت وصنعاء ومكة والمدينة .

ولكنهم يغضبون كثيراً حين يسمعون أحداً ينسبهم إلى الخوارج ويبرأون من تسميتهم بالخوارج ويقولون نحن إباضية كالشافعية والحنفية والمالكية ، ويقولون انهم رموا بهذا اللقب لأنهم رفضوا القرشية أي التزام كون الإمام من القرشيين .

وقد دخل مذهب الإباضية إلى افريقية في النصف الأول من القرن الثاني وانتشر مذهبهم بين البربر انتشار النار في الهشيم حتى أصبح مذهبهم الرسمي . وقد حكم الإباضيون في شمال إفريقية حكماً متصلاً مستقلاً استمر زهاء مائة وثلاثين سنة حتى أزالهم الفاطميون .

وإذا كان الإباضيون أصحاب أمجاد في الماضي فلا زالوا كذلك في عصرنا الحاضر ، فهم الذين يخوضون الحرب الباسلة في عمان ضد الإنجليز ، لا يكل لهم عزم ولا يفت في عضدهم إرهاب ، وجماعة منهم يسكنون تونس والجزائر ، ولا شك أن ارض الجزائر تعتبر في يومنا هذا أرض الصراع والنار[1] ، لأنها أندلس العصر الحديث ، وإن ما يقترف فيها من أعمال وحشية لا يقل عما ارتكبه الأسبان ضد العرب المسلمين عندما طردوهم من أسبانيا .

وعقيدة الإباضية تتفق مع أهل السنة في الكثير وتختلف في القليل فهم يعترفون بالقرآن والحديث كمصدر للعلوم الدينية ولكنهم يقولون « بالرأي » بدلاً من الإجماع والقياس .

وهم أول من دوّن الحديث ، وأول من قام بذلك جابر بن زيد المتوفى سنة ٩٣هـ . جمع الحديث في كتاب أسماه « ديوان جابر » ولكن هذا الديوان مفقود بكل أسف ، ثم رسم على منواله الربيع بن حبيب الفراهيدي الذي عاش حوالي منتصف القرن الثاني وكتابه معروف باسم « مسند الربيع بن حبيب » وهو مطبوع متداول . ولعل أهم خلاف بينهم وبين السنة قولهم بالتنزيه المطلق ، فلا يقولون بالتشبيه ، ولذلك فإنهم يقولون ان رؤية الله منفية في الدنيا والآخرة . ويقولون أيضاً أن الوعد والوعيد لا يتخلفان بمعنى أن وعيد الله لا يتخلف فمن دخل النار فهو خالد فيها ، والمذنب تطهره التوبة ولا يدخل السعيد النار . وواجب عندهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

١ – نالت الجزائر استقلالها بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب بوقت قصير .

ولقد انقسم الإباضيون الأُول إلى عدة أحزاب هي الحفصية والحارثية واليزيدية ، وهذه الأخيرة قد أمعنت في الشطط حينما زعم رئيسها يزيد بن أنيسة أن الله سيبعث رسولاً من العجم وينزل عليه كتاباً قد كتب في السماء ينزله عليه جملة واحدة ويكون على ملة الصائبة .

ولكن انحراف يزيد بن أنيسة لا يؤثر في طبيعة مذهب الإباضية الذين يتوفر كثير من جوانب الاعتدال في عقيدتهم .

وهم وإن نسبوا إلى الخوارج إلا أنهم يرون أنهم وحدهم الذين حافظوا على تعاليم الإسلام الحقة ويرون أن القدوة الحسنة كانت بعد النبي في أبي بكر وعمر ولا يحبون عثمان ويسمونه صاحب «بدع» ولا يلعنون علياً بل أنكروا قبوله التحكيم ويعتبرون بيعته باطلة بمجرد قبوله التحكيم .

ونظرتهم إلى الإمام نظرة معتدلة فلا يشترطون فيه أن يكون قرشياً وإنما ينبغي أن يكون ورعاً فاضلاً يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، وأن الإمام الذي ينحرف ينبغي خلعه وتولية غيره .

ويرون أن الحكم الشرعي لا بد أن يكون عن طريق الإمامة ، وللإمام السلطتان الدينية والدنيوية ، ولا بد أن يكون اختياره عن طريق البيعة ، والإمامة بالوصية باطلة في مذهبهم ، ويجوز تعدد الإمامة في أكثر من مكان ، والحاكم العادل يغني عن وجود الامام حتى لو كان هذا الحاكم ملكاً .

والإباضية لا يعادون مخالفيهم من المسلمين معاداة صريحة بل يعتبرون دارهم دار إسلام ويبيحون الزواج منهم وموارثتهم ، ومرتكب

الكبيرة في نظرهم موحد وليس مؤمناً أو هو كافر كفر النعمة لا كفر الملة .

والفرقة الباقية الوحيدة من الخوارج الذين مر ذكرهم هي فرقة الإباضية وهم ينكرون تسميتهم بالخوارج كل الإنكار وقد رأينا أنها لا تختلف مع أصل السنة في كثير ، ومن الممكن جداً تقارب وجهات النظر وأن يلتقي المذهبان على صعيد العبادة والعقيدة وتصبح كلمة الخوارج كلمة تاريخية بل هي كذلك لأن أكثر الخوارج بل كل الخوارج قد أصبحوا تاريخاً نقصه وسيرة نرويها .

ومهما كان الأمر فقد كان فيهم عزة ومنعة ولعل خير وصف لهم هو ما قاله أبو حمزة الخارجي في أصحابه : « شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم في جوف الليل محنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشباب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عير في منقار طير ، طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها ، طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله » .

الشيعة

نشأتها وماهيتها :

إذا قلنا شيعة فلان كان القصد من ذلك أعوانه وأنصاره ، والمشايعة الموافقة والمناصرة ، ولذلك عندما مات عثمان ، انقسم المسلمون إلى حزبين ، الحزب الأكبر وقد سمي « شيعة » عليّ ، والحزب الأقل وقد سمي شيعة معاوية ، ثم ما لبث اللفظ بمرور الأيام أن اتخذ معنى محدداً وهو أنصار علي بن أبي طالب وأبنائه وأحفاده من بعده .

بمرور الزمن وتقادمه ازداد حماس المؤمنين بعلي وأبنائه وأحفاده كأئمة على المسلمين من حقهم الولاية والريادة والإمامة .

ومهما كان الأمر فالشيعة يرون أن التشيع عقيدة دينية خالصة ، وهناك آخرون من المسلمين يرون أن التشيع فكرة سياسية خالصة ، وهناك أيضاً من يرى أن التشيع وجدان عاطفي خالص .

فأما الذين يذهبون إلى أن التشيع عقيدة دينية فحجتهم الحديث الشريف حين ينصرف النبي صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع في غدير خُمّ : «من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه ، اللهم وَالِ مَنْ والاه ،

وعادِ مَنْ عاداه » . ورأى الشيعة في ذلك وصية لعلي بأن يكون أميراً للمؤمنين وإماماً للمسلمين ، وهذا بالإضافة إلى أحاديث أخرى مثل قوله عليه السلام : « أنا مدينة العلم وعليّ بابها » . وقوله : «عليّ منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي ». وقوله ﷺ : « لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق » . إلى غير ذلك من الأحاديث التي يتمسك بها الشيعة ويرفضها غيرهم ويضعفونها أو يؤلونها تأويلاً مخالفاً، وعلى ذلك تكون إمامة عليّ للمسلمين في نظر الشيعة إمامة حتمية يفرضها الدين وتحتمها العقيدة ، ومن هنا ذهب أكثر الشيعة إلى أن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان كلها باطلة ، بل من الشيعة الغالية من كفر الثلاثة الكرام .

وإذا كان النبي قد أوصى لعلي ، فإن علياً قد أوصى للحسن ، وأوصى الحسن للحسين وهكذا حسب التسلسل الذي جرى عليه في مختلف فرقهم ومذاهبهم على ما سنبين فيما يستقبل من حديث .

وأما الذين يذهبون إلى أن التشيع مجرد فكرة سياسية فحججهم كثيرة ، فحق الأقربين في وراثة الرياسة أمر لا يقره الإسلام ، والبديهة الدينية تقول إن الأنبياء لا يورثون ولو شاء الله لجعل لمحمد ولداً وهو الرسول الذي اصطفاه واجتباه .

والذين بايعوا علياً بإمارة المؤمنين لم يبايعوه لأنه رمز ديني، أو لأنه وصي النبي ، بل لأنهم رأوا أنه أحق المسلمين بولاية أمر المسلمين تماماً كما رأى المسلمون السابقون أحقية أبي بكر بالخلافة فانتخبوه ومن بعده عمر ثم عثمان .

فالشيعة إذن لم يكونوا أول الأمر فرقة دينية ، بل فكرة سياسية تعبر عن رأي سياسي في أن عليّ بن أبي طالب أحق بالخلافة من معاوية ،وكان المسلمون يتفاوتون في مدى تحمسهم لعليّ وانتصارهم له ، وإن كانوا يؤمنون جميعاً بأن معاوية لم يكن جادّاً حينما غضب لقتل عثمان ، بل اتخذ هذا القتل ذريعة لتعكير الجو في وجه عليّ حتّى تحين له الفرصة فيصل إلى الأمر الذي تمناه وهو الحيلولة بين عليّ وبين الخلافة حتّى تخلص له ، وليس ثمة شك في أن معاوية كان حسن الحظ حتّى واتته الخلافة بهذا الشكل الذي نعرفه في كتب التاريخ ، فمعاوية قد انهزم في موقعة صفين ، وبغَضّ النظر عن مهزلة التحكيم نستطيع أن نقول إنه لولا مقتل عليّ ما صارت الخلافة إلى معاوية ولا تربع على عرشها أموي واحد .

هذه الحركات كلها وانتصار المسلمين لعليّ كان انتصاراً سياسياً ولم يكن انتصاراً دينياً ، فعليّ أحق بالخلافة في نظرهم لفضله وعلمه وحكمته وسابقته في الإسلام ثم أخيراً لأنه ابن عم النبي وصهره .

وكثير من مؤيدي عليّ المنتصرين له حتّى بعد وفاته لم يكن انتصارهم له أكثر من انتصار لفكرة سياسية ، فقصّة حجر بن عدي الكندي تعد تعبيراً صادقاً لهذا الاتجاه ، ذلك أن المغيرة بن شعبة الثقفي كان والياً على الكوفة من قبل معاوية بعد مقتل عليّ ، وكان دائم اللعن لعلي فوق المنبر دائم الترحم على عثمان والاستغفار له ، فكان حجر لا يكاد يسمع الوالي يلعن عليًّا ويسبه حتّى يرد

بصوت مرتفع أجش : بل إياكم فذمّم الله ولعن . وكان حجر يعارض المغيرة في المسجد وينهره في شجاعة ويقول: «إنك لا تدري بمن نولع في هرمك أيها الإنسان ، مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنك قد حبستها عنا وليس ذلك لك . ولم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك ، وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين » صحيح أن حجر قد انتهى أمره إلى القتل ولكنه قتل وهو مؤمن بعلي كأمير على المؤمنين وليس إماماً للمسلمين .

وهناك برهان آخر يتمثله الذين يقولون بأن التشيع بدأ مذهباً سياسياً وليس عقيدة دينية ، ذلك هو إجماع الفرس — ولا زالوا حتى اليوم — على التشيع لآل علي .

والمنطق في ذلك أن الفرس يعتقدون أنهم أنسباء الحسين لأنه تزوج جهانشاه (سلافة) ابنة يزدجرد بعد أن وقعت أسيرة في أيدي المسلمين ، ولقد أنجبت سلافة علياً زين العابدين ، وإذن فهم أخوال علي ، ويمكن الربط بين تحمسهم لابن ابنتهم وبين تشيعهم ، فتشيعهم والحال كذلك لا يمكن أن يقال إنه تشيع عقيدة خالصة ، بل هو أقرب إلى تشيع العصبية منه إلى تشيع العقيدة ، وتشيع العصبية يساوي تشيع السياسة ، ففكرة التشيع من ناحية الفرس على الأقل فكرة سياسية خالصة ، بل إن بعض الفرس قد أعلن انتصاره لعلي زين العابدين لما يربط بين الفرس وبين بيت الحسين من نسب

والذين يرون أن التشيع فكرة وجدانية عاطفية ليس لها علاقة بالعقيدة الدينية وما واكب ذلك من اشتراعات دينية محددة ، يقولون

إن آل بيت الرسول ينبغي حبهم وتكريمهم والتعلق بهم لأنهم أهله وعترته وأحبابه ، فَمَنْ من المسلمين لا يحب فاطمة والحسن والحسين زين شباب أهل الجنة وهما اللذان أدخلا السرور والبهجة على قلب رسول الله حينما كانا طفلين صغيرين جميلين يتسلقان كتفيه ويلاعبانه ويداعبانه فيهش لهما ويطرب ويفرح ، لأن محمداً الإنسان كان خير بني الإنسان عاطفة أبوة ، فلم تكن عظمته في كونه رسولاً وحسب ، بل كانت عظمته أيضاً في كونه إنساناً عظيماً يفيض قلبه بالحب ويفعم صدره بالحنان .

فإذا ما نظرنا إلى ما حلّ بأهل البيت الكريم ، برجاله ونسائه وأطفاله من تعذيب وتشريد وتقتيل وهم عترة النبي وآل بيته وأحب الناس إليه ، إذا ما نظرنا إلى ذلك كان علينا أن نتعلق بهم حباً وأسى وشفقة ورحمة فقد لقوا من الاضطهاد في عصر الأمويين ما أسال دماءهم الطاهرة وشرد أطفالهم الأبرياء وأذل نساءهم الطاهرات المحصنات ، ولم يقف الاضطهاد بذهاب الأمويين وفناء دولتهم بل إن ما لقوه من أبناء عمومتهم العباسيين لأشد وأنكى من تعذيب وتشريد .

هذه المحن التي حلت بآل البيت قد جعلت كثيراً من المسلمين يتشيعون لهم ويتعصبون ، تشيع عاطفة وتعصب حب ، لا تشيع عقيدة دينية ترتكز على أصول عقائدية معينة .

أشهر الفرق الشيعية

ومهما كان الأمر فإن المتشيعين قد انقسموا إلى فرق عديدة

بعضها مال إلى الاعتدال والقصد والاجتهاد الصادق في ظل العقيدة الإسلامية في غير ما شطط ولا ضلال ، والبعض الآخر غلا في عقيدته غلواً خرج به عن ربقة الإيمان إلى مهاوي الضلال ، ومن الوحدانية إلى الشرك ، وأدخلوا في الإسلام وثنية جديدة فألهوا علياً وأولاده وأقحموا على الإسلام كثيراً من عقائد الوثنيين والمجوس .

السبئية :

وأول من دعا إلى تأليه علي ، عبدالله بن سبأ اليهودي الذي نشر هذه الفتنة في حياة علي نفسه ، ولم يكن يقصد من ذلك إلا الإساءة إلى الإسلام ، وقد نسبت إلى ابن سبأ هذا أمور شيطانية هدامة ، فقد طوف في الأمصار الإسلامية يمهد لدعوته الخبيثة فكان يطرد حيناً ويوفق حيناً آخر ، ومن أهم تعاليمه الوصاية والرجعة ، فأما الوصاية فهي أن كل إمام وصي من قبله أي أن علياً وصي الرسول ، والحسن وصي علي ، والحسين وصي الحسن وهكذا ، وأما الرجعة فهي أن محمداً سيرجع ، ثم تحول بعد ذلك فقال إن علياً سيرجع ، وكان يقول حين قتل علي :

لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً .

واتخذ ابن سبأ من الوصاية ذريعة لتأليب المسلمين على عثمان فذكر لهم أن عثمان قد اغتصب الخلافة من علي بن أبي طالب ، وما فتىء يؤلب الناس على عثمان وينسب إليه من الأخطاء ما جعل حياته تنتهي بالشكل الذي انتهت به قتيلاً يتلو كتاب الله .

ولم يقف الأمر بابن سبأ عند ذلك ، بل إمعاناً في الكيد للعقيدة وضع علي بن أبي طالب موضع الإله . ولم يكن أمر الغالين الذين بذر فيهم ابن سبأ بذور الخبث والزيغ ليقف عند حد، فقد ألهوا أبناء علي ، الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، ثم ألهوا أبناءهم بعد ذلك ،وأدخلوا إلى الدين كثيراً من العادات الفارسية والمجوسية والبوذية فقالوا بتناسخ الأرواح وتحللوا من بعض أحكام الدين إلى غير ذلك ، غير أن كل ما أتوا به من بدع وانحرافات يتضاءل إلى جانب الإشراك بالله وتأليه علي وأبنائه .

التوابون :

على أننا لو ضربنا صفحاً عن فرقة السبئية التي ظهرت في عهد علي لوجدنا أن فترة من الهدوء والبعد عن الزيغ قد أظلت أنصار آل البيت بالهدى والنور ، فأنصار الحسن وشيعته كانوا من خيرة المسلمين وأصفاهم قلباً وأتقاهم روحاً ، فلما أنتقل الحسن إلى رحمة الله انتقلت أمور الوصاية إلى الحسين الذي التف حوله بعض الأنصار من أهل العراق ثم ما لبثوا أن انفضوا عنه فلقي مصرعه بارض كربلاء بالطريقة البشعة المعروفة في كتب التاريخ ، فكانت أن دبت الغيرة وتأججت نيران الحقد في قلوب بعض المسلمين الذين رأوا في ذلك امتهاناً لبيت الرسول الكريم فاتسع نطاق التشيع لآل البيت ونشأت في البصرة جماعة أطلقوا على أنفسهم اسم « التوابين » كونوا منظمة ضمت حوالي مائة رجل على رأسهم الصحابي سليمان بن صُرَد الخزاعي . وهؤلاء التوابون رأوا أنهم غرروا بالحسين حينما استدعوه

لكي يكون على رأس جماعتهم ثم تخلوا عنه ليلقى حتفه بطريقة مزرية بهم .

وكانت حركة التوابين سرية أول الأمر وكان شعارهم الثأر للحسين ، ونحن لا نستطيع أن نقطع بأن الجماعة كانت لها أهداف عقائدية كأهداف الشيعة فيما بعد ، بل كان طابعها طابعاً عاطفياً فيه إحساس بالندم لأنهم أحسوا بأنهم مسئولون عن مقتل الحسين .

وكان في مقدمة دعاة التوابين رجل اسمه عبيدالله بن عبدالله المري ، وكان يؤلب المسلمين على قاتلي الحسين مصوراً بشاعة الجريمة التي ارتكبت بقوله : « ابن اول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين ، قلت حمأته ، وكثرت عداته حوله ، فقتله عدوُّه وخذله وليُّه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل . إن الله لم يجعل لقاتله حجة ولا لخاذله معذرة إلا أن يناصح الله في التوبة فيجاهد القاتلين وينابذ القاسطين ، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقيل العثرة . إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المخلين والمارقين ، فإن قتلنا فما عند الله خير للأبرار ، وإن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى آل بيت نبينا » .

وقد تكاثر عدد التوابين وخرجوا إلى قبر الحسين بكربلاء يعترفون بخطئهم حين تقاعسوا عن نصرته ويبكون ثم صعدوا إلى الشمال يريدون الإيقاع بالأمويين ، ووقعت بينهم وبين الجيش الأموي معركة كبرى في عين الوردة قرب الرقة أبلوا فيها بلاء حسناً إلا أن النصر لم يكن من نصيبهم ، فبالرغم من أنهم قاتلوا قتال الأسود إلا

أن رمي النبال قضى على أكثرهم ولم ينج منهم إلا عدد قليل ، والحق أن هؤلاء التوابين قد تنبهوا إلى خطئهم بعد فوات الأوان فلو أنهم قد بذلوا في مساعدة الحسين نصف ما بذلوه في هذه الموقعة لكان من المحتمل أن يتغير الموقف بالنسبة لكل من آل البيت وبني أمية .

ونحن لا نكاد نحس أن لهؤلاء التوابين عقيدة دينية ذات طابع يميزها عما سار عليه جمهور المسلمين ، بل إن تحمسهم للثأر للحسين كان ندماً على تقاعسهم عن مناصرته واستغفاراً عن التخلي عنه وقت المحنة ، ولذلك فإن تشيعهم قائم على فكرة سياسية عصبية وهي الأخذ بالثأر ثم هي لا تخلو من انفعال وجداني خالص .

ومهما يكن الأمر فقد عادت مدارس الشيعة إلى التعدد وإلى الإجماع على جعل عليّ وأبنائه في مكانة الإمامة من المسلمين ، وقد اختلفت نزعات هذه الفرق فبعضها مال إلى القصد والاعتدال وبعضها جنح إلى الغلو والزيغ حتى ألهوا علياً وأبناءه ومن لم يسبغ عليهم الألوهية زعم أنهم لم يموتوا وسيعودون إلى الأرض مرة أخرى ينشرون النور والعدل .

ونستطيع أن نعرض في إيجاز لأهم فرق الشيعة ومعتقداتها .

الكيسانية :

وهذه الفرقة تقول بإمامة محمد بن علي بن أبي طالب المشهور بمحمد بن الحنفية نسبة إلى أمه التي كانت من بني حنيفة وكانت تسمى خَوْلَة ، وكانوا يرون أن محمداً هذا أولى بالإمامة بعد أبيه

لأنه كان حامل اللواء يوم وقعة الجمل ، وهناك من ذهب إلى أن الحسين أخاه قد أوصى له بالإمامة من بعده .

وأما سبب تسمية الفرقة بالكيسانية فيقال إن ذلك نسبة إلى كيسان مولى علي بن أبي طالب ، وكان كيسان هذا هو الذي دل المختار ابن أبي عبيد الثقفي على قتلة الحسين فانتقم منهم المختار وقتلهم شر قتلة ، وهناك من يقول إن الكيسانية سميت بهذا الاسم نسبة إلى المختار السالف الذكر فقد قيل إنه كان يسمى كيسان .

والحق أن المختار الثقفي هو عمود الرحى في دعوة محمد بن الحنفية وبالتالي في وجود فرقة الكيسانية فلولاه ما قامت لهم قائمة .

والمختار بن أبي عبيد الثقفي شخص غريب الأطوار ، كان خارجياً في وقت ما ، ثم أصبح زبيرياً أي من أنصار عبدالله بن الزبير ، ثم صار بعد ذلك شيعياً كيسانياً .

وقد استطاع المختار أن يكسب ثقة محمد بن الحنفية ، وتمكن بحيله وشجاعته أن يخضع الكوفة وأن يأخذ بيعة أشرافها وعامة أهلها ، وكان يقول لهم : « تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والدفاع ببيعتنا ، لا نقيلكم ولا نستقيلكم » .

والحق أن المختار كان أسطورة في شجاعته وجلده على الحرب وإلحاحه على أعدائه وثباته في ميدان القتال والمثابرة على اقتناص النصر : فلقد حارب بني أمية في أكثر من موقعة وكان ينتصر عليهم

بشجاعة منقطعة النظير ، وكانت رحى الحرب تدور والأمويون يهتفون : يالثارات عثمان،والشيعة يهتفون:يالثارات الحسين ، ولكن النصر كان دائماً في جانب جيش المختار رغم قلة عدده بالنسبة إلى جيش الأمويين الذي كان على رأسه عبيدالله بن زياد .

وبعد النصر أطلق المختار العنان للشيعة كي ينتقموا من قتلة الحسين فقتلوا جميع المسئولين عن مأساة كربلاء وعلى رأسهم شـمـر بن ذي الجوشن قاتل الحسين .

كل ذلك كان يتم باسم صاحب الحق في الإمامة محمد بن الحنفية الذي كان لا يزال مقيماً بالمدينة بينما رحى الحرب تدور باسمه في العراق بصفة عامة وفي الكوفة وما حولها بصفة خاصة .

وقد ظل المختار يخوض غمار القتال إلى آخر لحظة في حياته حينما حوصر في قلعته بواسطة جيش الأمويين فخرج في تسعة عشر رجلاً من أنصاره يفك الحصار عن نفسه وأخذ يضرب بسيفه حتى قتل سنة ٦٧هـ وكان عمره سبعة وستين عاماً .

ومهما يكن الأمر فإن النصر الذي حازه المختار كان نتيجة لاتخاذ محمد بن الحنفية إماماً ولمحاربته بني أمية والأخذ بثأر الحسين وإعمال التقتيل في قاتليه والانتقام منهم ، ولما كان هذا أمر المختار وخطورته فقد تكونت فرقة باسمه اسمها « المختارية » وهي فرع من « الكيسانية » التي تقول بإمامة محمد بن الحنفية السالف الذكر ، وقد تنكر محمد بن الحنفية للمختار حينما علم أن هذا الأخير يبتدع بعض الضلالات ويؤول الدين تأويلات فاسدة وادعى أنه يوحى

إليه وألف بعض الأسجاع .وكان عنده كرسي قديم غشّاه بالديباج وزيّنه بألوان الزينات المختلفة وقال إنه من ذخائر أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب وهو عنده بمنزلة التابوت لبني إسرائيل وكان يدعي أن الملائكة تحارب معه في شكل حمامات بيض .

وكان المختار يكفّر من تقدم علياً من الخلفاء ويكفر أهل صفين والجمل ، وكان ابن عمرة صاحب شرطة المختار يقول إن جبريل يأتي المختار بالوحي من عند الله فيخبره ولا يراه .

وليست « المختارية » وحدها هي التي قالت بإمامة محمد بن الحنفية ، فهناك فريق « الكربية » نسبة إلى أبي كرب الضرير الذين غلوا في إطلاق الآيات والخوارق على محمد بن الحنفية أكثر مما غلا أصحاب المختار ، فالكربية — فضلاً عن فساد عقيدتها — قالت بأن محمد بن الحنفية حي ولم يمت ، وأنه في جبل رضوى وعنده عين من الماء وأخرى من العسل يعيش عليهما وأن على يمنته أسد وعن يساره نمر ، والأسد والنمر يحفظانه من أعدائه حتى يخرج إلى الناس باسم المهدي المنتظر ، على أن فرقاً أخرى من الكيسانية قالت بموت ابن الحنفية وانتقال الإمامة إلى ابنه أبي هاشم أو غيره .

ومن الطريف أن أكثر من شاعر من شعراء العربية اللامعين كانوا يؤمنون بفكرة وجود محمد بن الحنفية حيًّا في جبل رضوى ، فمن هؤلاء كُثَيِّر بن عبد الرحمن المشهور بكثير عزة الذي يقول :

ألا إنَّ الأئمةَ من قريشٍ   وُلاةُ الحقِّ أربعةٌ سواءُ

عليٌّ والثلاثةُ من بَنِيهِ   هُمُ الأسباطُ ليس بهمْ خَفاءُ
فسبطٌ سبطُ إيمانٍ وبِرٍّ   وسبط غيَّبَتْهُ كربلاءُ
وسِبْطٌ لا يذوق الموتَ حتى   يقودَ الخيلَ يقْدُمُهَا اللواءُ
تغيّب لا يُرى فيهمْ زماناً   بِرَضْوَى عندهُ عسلٌ وماءُ

وكان أمراً طبيعياً أن يرد شعراء السنة على هذا القول فقال قائلهم ولعله عبد القاهر :

ولاةُ الحقِّ أربعةٌ ولكن   لثاني اثنينِ قد سَبقَ العلاءُ
وفاروقُ الورَى أَضْحى إماماً   وذو النُّورَيْنِ بعدُ لهُ الولاءُ
عليٌّ بعدهمْ أضحى إماماً   بترتيبي لَهُمْ نزلَ القضاءُ
ومُبْغِضُ مَنْ ذكرناهمْ لعِينٌ   وفي نار الجحيمِ لهُ الجزاءُ

ولكُثَيِّر شعر آخر يتبرأ فيه من الخلفاء الراشدين الثلاثة السابقين على عليّ . ويذكرهم على الترتيب العكسي وهم :عثمان وعمر وأبو بكر فيقول :

برئتُ إلى الإلهِ من ابن أَرْوى   ومن قولِ الخوارجِ أجمعينا
ومن عُمرٍ برئتُ ومن عتيقٍ   غداةَ دُعِي أميرَ المؤمنينا

ولم يكن كثير بن عبد الرحمن وحده هو الذي يقول بعودة محمد ابن الحنفية فقد شاركه اعتقاده السيد الحميري الشاعر المشهور . ومن قوله في نفس العقيدة :

ألا حيِّ المقيم بشِعْبِ رَضْوى ... وأهْدِ لهُ بمنزلِـهِ السّلاما

ألا قُلْ للوصيِّ فدتْكَ نفسِي ... أطلْتَ بذلكَ الجبلِ المقاما

أضـرَّ بمعشرٍ والـوْك منـا ... وَسمّـوْك الخليفـةَ والإماما

وعادوْا فيكَ أهلَ الأرضِ طُرّاً ... مُقَامُك عنهمُ سبعينَ عاما

لقد أمسى بمورقِ شِعْبِ رَضْوى ... يُراجعه الملائكـةُ الكلامـا

وما ذاق ابنُ «خَوْلَةَ» طعم موْتٍ ... ولا وارتْ له أرضٌ عِظاما

وإنَّ له بهِ لمقيـلَ صـدقٍ ... وأنديـةً تحدِّثـُهُ كرامـا

وإن لـه لرزقاً مِـنْ إمـامٍ ... وأشربةً يَعُـلّ بها الطعاما

وليس الغريب أن يقال برجعة ابن الحنفية فكل فرق الشيعة تقول بالرجعة، كل فرقة تقول برجعة الإمام الذي تعتقد فيه، وتنتظره، ولكن الغريب أن بعض الفرق قد ذهبت شأواً بعيداً في الانحراف فقالت بألوهية محمد بن الحنفية، والذي قال بذلك رجل اسمه حمزة بن عمارة البربري، ادعى النبوة لنفسه والألوهية لابن الحنفية وأحل المحارم وأفسد أفكار الناس وأتى من الموبقات الشيء الكثير.

والحق أن محمد بن الحنفية ليس له ذنب في ذلك، فأسباب الضلال كثيرة، ولعل المؤامرات على الإسلام منذ القدم قد لعبت دوراً كبيراً في ذلك، فمحمد بن الحنفية كان إماماً فاضلاً ورعاً تقياً عالماً ورث الكثير من فضل أبيه أمير المؤمنين.

والذي يتتبع فرق الغلاة من الشيعة يجد بعضهم يؤله علياً وأبناءه وأحفاده، والمتواضعون من الغلاة يضعونهم في صف الرسل والأنبياء على الأقل.

وقد ذكر النوبختي صاحب كتاب فرق الشيعة عدداً كبيراً من هذه الفرق ولعنها — وهو شيعي المذهب — وذكر أنها أساءت إلى التشيع بصفة عامة، فبالإضافة إلى الكيسانية ذكر أنصار عبدالله بن معاوية، والحرمدينية الذين ألهوا الأئمة حيناً، ووصفوهم بأنهم رسل حيناً آخر. وهم الذين قالوا بالتناسخ وإبطال القيامة والبعث والحساب. والهاشمية الذين ألهوا بعض الصعاليك ممن لا يعرف لهم التاريخ أسماء بين أعيانه. والبيانية أتباع بيان بن سمعان التميمي وقد ألهوا علياً وقالوا إن الألوهية انتقلت إليه بالتناسخ وغير هؤلاء وأولئك كثيرون ممن اتخذوا من التشيع وسيلة لسخافاتهم فأساءوا إلى آل البيت وأساءوا إلى فكرة التشيع ذاتها.

وهل هناك إساءة أبلغ من نسبة الألوهية إلى عليّ العظيم في إيمانه وإسلامه أو وضعه فوق مرتبة الأنبياء والرسل، وهل هناك أسخف من ذلك المغيرة بن سعيد مولى بجيلة الذي يسأله رجل عن فضائل عليّ فيجيبه: إنك لا تحتملها، ثم يذكر أنه خير من آدم ومن بقية الأنبياء، ويعددهم واحداً واحداً حتى يصل إلى محمد فيقول: عليّ مثله.

لا شك أن مثل هذه الترهات قد أساءت إلى آل البيت وأساءت إلى الشيعة أنفسهم، أليس من المضحك أن يظن بعض الشيعة أن

علياً لا يزال يعيش في السحاب فإذا أطلت سحابة قالوا : السلام عليك يا أبا الحسن . وكان هؤلاء السحابيون يُعرفون بالمنصورية نسبة إلى رئيسهم أبي منصور الكسف الذي سمي بذلك لأنه كان يتأول في قوله تعالى :

« وإنْ يَروْا كِسْفاً من السَّماءِ ساقِطاً يقُولُوا سحابٌ مَرْكُوم »

فالكسف عندهم هو عليّ وهو في السحاب ، وقد أشار إلى ذلك الشاعر فقال :

برئتُ من الخوارج لستُ مِنْهُمْ
من الغزال مِنهمْ وابنِ بابِ
ومِنْ قومٍ إذا ذكروا علياً
يردُّون السلامَ على السَّحابِ
ولكني أُحِبُّ بكلِ قلبي وأَعْلَمُ أنَّ ذاك من الصَّوابِ
رسولَ اللهِ والصِّديقَ حقّاً بِه أرجُو غداً حُسْنَ الثوابِ(١)

وقد يلاحظ بعض الدارسين أن نشاط المفسدين قد انحصر فيمن اندسوا على سلالة عليٍّ من ناحية حفيده علي زين العابدين بن الحسين لأن أمه كانت من بيت الأكاسرة الفرس وهي جهانشاه ابنة يزدجرد بن شهريار التي أسرت فتزوجها الحسين وأعتقها وعرفت بعد

(١) العقد الفريد ٢/٤٠٥ لجنة التأليف .

ذلك باسم « سلافة » وأنجبت زين العابدين علياً ، وكانت سيدة صالحة جمعت إلى تربية الملوك أخلاق الإسلام والتحلي بفضائله . نقول إنه قد لوحظ أن أكثر الغلاة هؤلاء ممن أيدوا هذا الفرع وغلوا في عقيدتهم ، ولعل من أسباب ذلك أن أكثر الفرس قد اعتبروا انفسهم أخوالاً لعليٍّ زين العابدين وأصهاراً للحسين كما مر بنا فأيدوه ، لا عن إيمان ، وإنما عن عصبية النسب ، وجعلوا من هذا النسب فخراً لهم ، فكان أن توالى اعتناق التشيع بين جمهور الفرس ، ومن هنا ذهب بعض الدارسين إلى أن تلك الظاهرة الجديدة ، ونعني بها ظاهرة ذيوع التشيع بين الفرس ، ليست إلا مؤيدة لوجهة نظرهم من أن التشيع مسألة سياسية وعصبية أكثر من كونها مسألة عقيدة ، وإلا فلماذا أجمع الفرس على التشيع ولم يجمع جمهور المسلمين من بقية الأجناس كالعرب والترك والهند والبربر على نفس المذهب الجديد .

على كل حال ينبغي أن نسجل أن للفرس كامل الحق في أن يعتقدوا ما يشاءون في الإيمان بالفرقة الإسلامية التي يرتضونها لأنفسهم ، غير أن الذي يدعو إلى الوقوف قليلاً أنه كان بين هؤلاء الفرس الفضلاء الذين آمنوا بالإسلام إيماناً كاملاً حتى في ظل تشيعهم المعتدل ، بعض الشعوبيين الذين لم يطهّر الإسلام قلوبهم من التعصب للجنس ولم يؤثر فيهم المبدأ الخالد الذي جرى على لسان الرسول : لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، هذه الفئة قد بدأت تدس للإسلام وتزيف أحكامه وتشوّه جلاله بما كانت تلصقه بآل البيت ، لا من تكريم وتفضيل — فنحن جميعاً على اختلاف

مذاهبنا نكرم آل البيت ونقدرهم — وإنما بإسباغ صفات التقديس والقول بأن بعضهم رسل يوحي إليهم والبعض الآخر آلهة معبودون .

هذه الفئة لا شك قد اساءت إلى الإسلام دون منازع بما أتت من ضروب الخبث والزيف والتضليل .

المغيرية :

غير أن هناك من الغالية من اتجهوا في تشيعهم إلى سلالة الحسن ابن علي ، ولعل أشهر هذه الفرق الغالية اتجاهاً نحو هذا الفرع ، فرقة « المغيرية » وهي فرع من المحمدية الذين ينتظرون محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ، المعروف بمحمد النفس الزكية .

ومحمد النفس الزكية كان قد استولى على مكة والمدينة أيام مستهل الدولة العباسية ، كما استولى أخوه إبراهيم على البصرة وما جاورها ، واستولى أخوهما الثالث إدريس على جزء من بلاد المغرب ، فأرسل أبو جعفر المنصور الملك العباسي إلى محمد النفس الزكية جيشاً كثيفاً والتحم الجيشان بالمدينة في معركة كبيرة قتل فيها محمد النفس الزكية ، وكان ثنى بجيش آخر أنفذه إلى العراق حتّى التحم مع جيش إبراهيم في معركة عرفت باسم باب خمرين أو باخمرا قتل فيها إبراهيم .

وكان أنصار محمد النفس الزكية يقولون بإمامته بعد موت محمد الباقر مستندين إلى حديث لست أدري مبلغ صدق نسبته إلى الرسول يقول

في المهدي إن اسمه يوافق اسمي واسم أبيه اسم أبي . ولما كان محمد النفس الزكية سميا للرسول وأبوه عبدالله سميا لعبدالله والد النبي فقد آمن القوم بمحمد ودعوا لإمامته ، فلما قتل في المعركة السالفة الذكر زعموا أنه لم يقتل ولم يمت وأنه في جبل « حاجر » من ناحية نجد مقيم هناك إلى أن يؤمر بالخروج ويملك الأرض وتعقد له البيعة بمكة بين الركن والمقام (1) ، ولعل هذه العقيدة لا تختلف كثيراً عن عقيدة شيعة محمد بن الحنفية الذين قالوا إنه مقيم في جبل رضوى عنده عين من عسل وعين من ماء على ما مر ذكره قبل قليل .

والمهم أن هؤلاء الشيعة من أنصار النفس الزكية يزعمون أن الذي قتلته جيوش المنصور لم يكن النفس الزكية نفسه وإنما هو شيطان تمثل في صورته .

ومن الطريف أن بعض رجال السنة قد ردوا على هؤلاء قائلين لهم : إن أجزتم أن يكون المقتول بالمدينة غير محمد النفس الزكية وأجزتم أن يكون المقتول هنا شيطاناً تصور في صورته ، فأجيزوا بأن يكون المقتولون بكربلاء غير الحسين وأصحابه وإنما كانوا شياطين تصوروا للناس بصور الحسين وأصحابه ، وانتظروا حسيناً كما انتظرتم محمداً النفس الزكية ، وانتظروا علياً كما انتظرته السبئية منكم الذين زعموا أنه في السحاب والذي قتله عبد الرحمن بن ملجم كان شيطانا تصور بصورة علي للناس .

المهم أن هذه الفرقة الغالية التي نسبت كل ذلك إلى محمد النفس

(1) الفرق بين الفرق ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

الزكية هي فرقة « المغيرية » أصحاب المغيرة بن سعيد العجلي الذي كان مولى لخالد بن عبدالله القسري ، هذا المغيرة ما لبث أن تغير رأيه بسرعة وادعى الإمامة لنفسه بعد الإمام محمد ، ثم ما لبث أن انساق وراء أوهامه فادعى النبوة لنفسه ، ولكنها نبوة من طراز لم نألفه في النبوات السابقة فقد استحل المحارم وألّه علياً ثم زاد على ذلك بعقيدة تدعو إلى الضحك والسخرية فقال بالتشبيه ، وزعم أن الله تعالى صورة وجسم ذو أعضاء على مثل حروف الهجاء وصورته ، صورة رجل من نور على رأسه تاج من نور ، وله قلب تنبع منه الحكمة ، وزعم أن الله تعالى لما أراد خلق العالم تكلم بالاسم الأعظم ، فطار ، فوقع على رأسه تاج ، ثم اطلع على أعمال العباد وقد كتبها على كفه ، فغضب من المعاصي ، فعرق فاجتمع من عرقه بحران : أحدهما مالح والآخر عذب . والمالح مظلم ، والعذب نيّر ، ثم اطلع في البحر النير فأبصر ظله فانتزع عين ظله منها الشمس والقمر وأفنى باقي الظل وقال : لا ينبغي أن يكون معي إله غيري ، ثم خلق الخلق كله من البحرين فخلق المؤمنين من البحر النير وخلق الكفار من البحر المظلم [١] .

وقصة المغيرة هذه تجمع السخافة إلى الطرافة وليست الوحيدة من نوعها ، فأمثالها من الكثرة بمكان حينما يستعرض الإنسان عقائد بعض الفرق الغالية ، إلا أننا نعيد ما ذكرناه من أن أكثر هؤلاء كانوا من بعض العصبيات الحاقدة على الإسلام فأرادت أن تشوّه محاسنه وتسيء إلى قدسيته ، مستعينة بالغافلين والبلهاء من العامة ببث

(١) الملل والنحل ١/١٥٧ .

الدعاوى الكاذبة بين صفوفهم ، فأشاعوا الفرقة بين المسلمين وغرسوا الشك في قلوب بعض المؤمنين ، فتعرض الإسلام لمحنة كبيرة من جراء هذه الاعتقادات الضالة والدعاوى السخيفة .

ولا شك أن هؤلاء المفسدين كانوا على جانب كبير من اليقظة واللؤم والدهاء ، وكانوا يختارون بحذق ميادين إفسادهم ومسارح بث سمومهم ، فهم يعلمون مدى تعلق المسلمين بآل بيت الرسول الكريم ومقدار حبهم لهم وعطفهم عليهم ، فانتهز هؤلاء المحنة التي أنزلها بنو أمية ومن بعدهم بنو العباس بآل البيت ، واتخذوا من حزن المسلمين وأسفهم لما حل بأفراد البيت الكريم ذريعة كبرى لتمجيدهم والغضب من أجلهم أول الأمر ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى مرحلة تقديسهم ، ثم ما لبثوا شيئاً فشيئاً أن خلعوا عليهم صفات الألوهية فأصبح الشرك أمراً طبيعياً في ظل إسلام هؤلاء المزيّف ، وكانوا أحياناً ينقلون الألوهية بالوراثة أو بالتناسخ من واحد من آل البيت إلى الآخر ، فجعلوا بمكائدهم تلك كثيراً من المسلمين مشركين بعد أن كانوا مؤمنين موحدين .

ولكن لحسن الحظ كل تلك الفرق الغالية الضالة ممن أشرنا إليها في هذا الفصل لا تكاد توجد منها واحدة بيننا في هذا العصر الذي نعيش فيه فإن وجد ما يشبهها فعددها قليل وانصارها ضئيلو العدد يمكن استصلاحهم أو تركهم إن استعصى الأمر بالنسبة إليهم ، فنفعهم ان استصلحوا كثير ، وضررهم إن ظلوا على غلوّهم قليل .

الشيعة الامامية

هم جمهور الشيعة الذين يعيشون بيننا هذه الأيام وتربطهم بنا نحن أهل السنة روابط التسامح والسعي إلى تقريب المذاهب لأن جوهر الدين واحد ولبه أصيل لا يسمح بالتباعد .

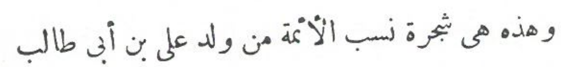
والشيعة الإمامية يشملون كل سكان إيران تقريباً ونصف سكان العراق وعشرات الآلاف من سكان لبنان وبضعة ملايين في الهند .

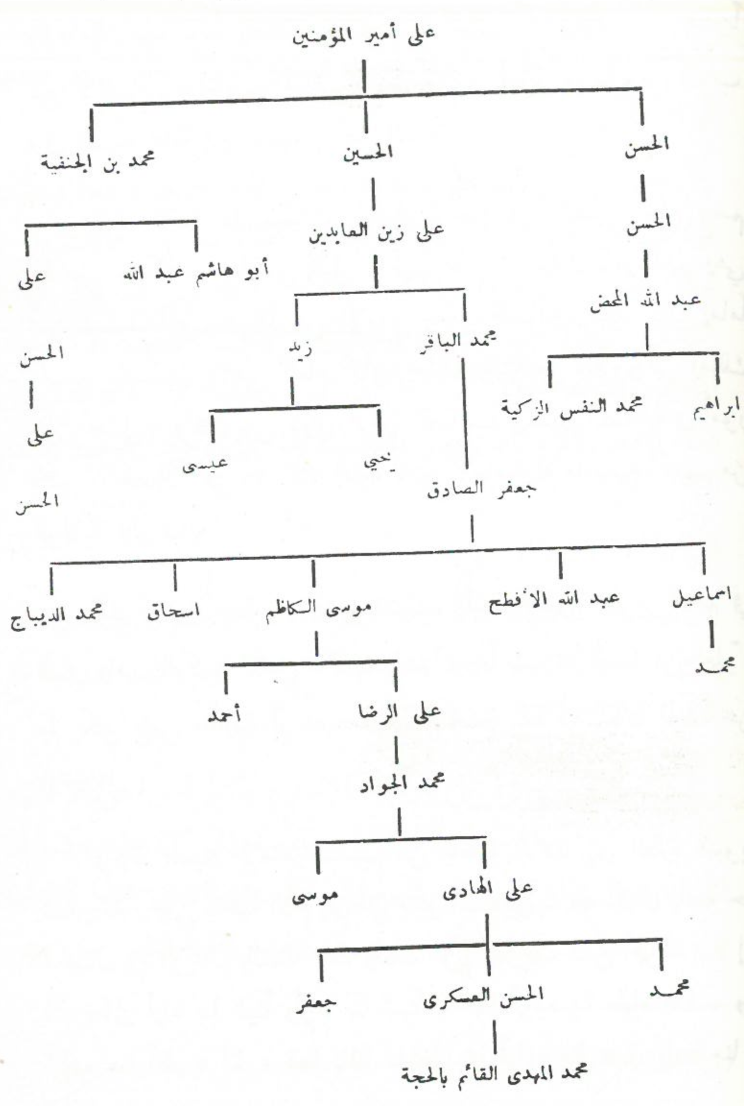
والعقيدة العامة للإمامية هي نفس عقيدة الشيعة التي ألمحنا إليها في مستهل هذا الباب ، وهي إيمانهم المطلق بإمامة علي بن أبي طالب إيماناً ظاهراً كاملاً ووصفه بالوصي وانتقال الوصاية إلى أبنائه من بعده .

والإمامية ليست فرقة واحدة كما قد يتبادر إلى الذهن بل هي فرق كثيرة متعددة كالباقرية والجعفرية الواقفة ، والناووسية التي قالت بأن جعفر الصادق حي لم يمت ولن يموت حتى يظهر ، والأفطحية الذين قالوا بإمامة عبد الله الأفطح بن جعفر الصادق ، والإسماعيلية الواقفة الذين قالوا بإمامة إسماعيل إلا أنهم اختلفوا على أنفسهم فمنهم من قال إنه مات في حياة أبيه ومنهم من قال إنه لم يمت وأن أباه أظهر موته خشية أو تقية من الخلفاء العباسيين ، والموسوية المفضلية الذين

يقولون بإمامة موسى بن جعفر الصادق ، وقد نسب إلى جعفر أنه قال في الوصاية لمن يخلفه من أبنائه : سابعكم قائمكم ألا وهو سميٌّ صاحب التوراة ، وقد سموا كذلك نسبة إلى موسى وإلى المفضل بن عمر أحد أعلام الفرقة ، ومن الموسوية هؤلاء من يقول إن موسى لم يمت وسيخرج بعد الغيبة ، ومنهم من سلم بموته ، والإثنا عشرية وهم الذين قطعوا بموت موسى الكاظم وظلوا يؤمنون بإمامة سلالة موسى حتى الإمام محمد القائم المنتظر وهو الثاني عشر من حيث الترتيب العددي .

على أن أشهر كل تلك الفرق الإمامية التي ذكرنا هي فرقة الإثنا عشرية المعاصرة لنا والتي تعيش — كما ذكرنا — في أكثر البلدان الإسلامية خصوصاً إيران والعراق ، وهذه الفرقة نفسها يطلق عليها أيضاً الجعفرية من باب تسمية العام باسم الخاص كما يطلق عليها الإمامية من باب تسمية الخاص باسم العام ، كما يطلق عليها الاسم العام وهو الشيعة ، فحينما نقول الشيعة الآن يتجه القصد إليهم ، ولقد سموا بالإثنا عشرية لأنهم يؤمنون باثني عشر إماماً متتابعين هم : علي بن أبي طالب ثم ابنيه الحسن فالحسين ثم علي زين العابدين بن الحسين ثم محمد بن علي ثم جعفر بن محمد ثم موسى ابن جعفر ثم علي بن موسى ثم محمدبن علي ثم علي بن محمد ثم الحسن بن علي ثم محمد بن الحسن ، ولكل إمام من هؤلاء الأئمة الاثني عشر لقب عرف به وهذه الألقاب هي على الترتيب : عليّ المرتضي والحسن المجتبى والحسين الشهيد وعلي زين العابدين السجّاد ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلي الرضا ومحمد الجواد التقى وعلي الهادي النقي والحسن العسكري الزكي ومحمد المهدي القائم بالحجة .





فهذه الفرقة إذن تسمى بالجعفرية حيناً والاثنا عشرية حيناً آخر والإمامية حيناً ثالثاً ولعلها من أبعد الفرق الإمامية عموماً عن الاتصاف بالغلو وأقربهم إلى التعقل في أمور دينها ومن أقرب فرق الشيعة عامة إلى جمهور أهل السنة .

وإذا كانت قد سميت بالجعفرية من باب تسمية العام باسم الخاص ، كما مر بنا قبل قليل ، فإنها سميت بذلك لأمر أهم وهي أنها تستمد أمور دينها من الإمام جعفر الصادق فلقد كان إماماً لجميع المسلمين بالمعنى العام كأبي حنيفة والشافعي والأوزاعي ومالك وابن حنبل، وكان من ذوي الرأي الصائب والفتوى الصالحة في أمور الدين ، فضلاً عن أنه كان إماماً لدى الإمامية له ما لبقية أئمتهم من الولاية والوصاية .

لقد كان « جعفر » الذي تنتسب إليه الجعفرية غزير العلم في الدين وافر الحكمة كامل الأدب زاهداً ورعاً متسامحاً بعيداً عن الغلوّ، ولم يكن يؤمن بالغيبة أو الرجعة أو التناسخ كما أنه كان بعيداً عن الاعتزال .

وكان السيد الإمام ينتسب من ناحية الأب إلى العترة النبوية المباركة . ومن ناحية الأم إلى أبي بكر الصديق ، وله أقوال بالغة حد الجمال في الإيمان والصلة بالله والبعد عن التطرف فمن أقواله : « إن الله تعالى أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا »

وكان يقول في القدر : « هو أمر بين أمرين : لاجبر ولا تفويض » ومن أقواله في الدعاء : « اللهم لك الحمد إن أطعتك ، ولك الحجة إن عصيتك ، لا صنع لي ولا لغيري في إحسان ولا حجة لي ولا لغيري في إساءة » [1] .

والإثنا عشرية في حقيقة أمرها وروح عقيدتها بعيدة عما تورطت فيه فرق شيعية كثيرة ، فهم يبرأون من المقالات التي جاءت على لسان بعض الفرق ويعدونها كفراً وضلالاً ، وهم كما يقول السيد كاشف الغطاء أحد أئمتهم المحدثين : « ليس دينهم إلا التوحيد المحض وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق أو ملابسة لهم في صفة النقص والإمكان والتغير والحدوث وما ينافي وجوب الوجود والقدم والأزلية إلى غير ذلك من التنزيه والتقديس ، وبطلان التناسخ والاتحاد والحلول والتجسيم » .

وباب الاجتهاد عند الاثنا عشرية لا يزال مفتوحاً وللمجتهد أن يبدي رأيه وأن يؤخذ به ما دام متفقاً مع الكتاب والسنة متمشياً مع المعقول ، وإلا فلا قيمة له إن كان به ميل أو شطط .

والإمامية يزيدون على أركان الإسلام ركناً آخر هو الاعتقاد بالإمامة ، أي أنهم يعتقدون أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة ، فكما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ، فإنه كذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه وأن ينصبه إماماً للناس من بعده

---

(١) الملل والنحل ١٤٧/١ .

للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقوم بها، سوى أن الإمام لا يوحي إليه كالنبي ، فالنبي مبلغ عن الله والإمام مبلغ عن النبي ، ويتمسك الإمامية بهذا الركن تمسكاً شديداً لا سبيل إلى التهاون فيه .

ويعتقد الإمامية في اثني عشر إماماً متسلسلين وهم الذين مر ذكرهم .

وكل إمام سابق لا بد أن ينص على اللاحق ، وهم يرون أن الإمام معصوم كالنبي عن الخطأ ، والإمام دون النبي وفوق البشر [1] .

ويرى الإمامية أن من يشاركهم من المسلمين اعتقادهم في الأئمة على هذا النحو الذي ذكرنا كانوا مؤمنين ، وإذا اقتصر الاعتقاد على أركان الإسلام المعروفة دون الاعتراف بالإمامة كانوا مسلمين مؤمنين بالمعنى العام، فعدم الاعتقاد بالإمامة لا يخرجهم عن الإسلام ولكن تتفاوت درجات المسلمين في الآخرة ، الشيعة أولا ثم يأتي بقية المسلمين .

وعلى هذا الأساس تختلف الإمامية عن سائر الفرق الإسلامية بالاعتقاد في الأئمة الاثني عشر ، وهم يرون هذا الفرق جوهرياً في العقيدة ، وأن الله يختار الإمام بسابق علمه كما يختار النبي ، فالإمامة إذن منصب إلهي ، ويرون أن الله سبحانه وتعالى لا يخلي الأرض من

(١) كاشف الغطاء : أصل الشيعة ص ١٠٢ .

حجة على العباد من نبي أو وصي ظاهر مشهور أو غائب مستور ، ويروون الأحاديث الكثيرة التي يذهبون من خلالها إلى أن النبي أوصى عليًّا وأن عليًّا أوصى ولده الحسن وأن الحسن أوصى الحسين وهكذا حتى الإمام الثاني عشر محمد القائم بالحجة ، ولذلك فإنهم لا يزالون ينتظرون هذا الإمام الثاني عشر المستور لكي يظهر في أي وقت حتى يملأ الأرض عدلاً .

والإثنا عشرية بهذه المناسبة لا يقبلون الأحاديث من أيٍّ من الرواة أو المحدِّثين ، بل لا بد أن تكون قد رويت عن طريق أهل البيت عن جدهم علي بن أبي طالب ، أما ما يرويه أبو هريرة وغيره من المحدِّثين الرواة فليس لأحاديثهم عند الشيعة من الاعتبار — على حد تعبير السيد كاشف الغطاء — مقدار بعوضة ، ولعل هذا سبب كبير من أسباب الخلاف بين الشيعة والسنة ، فهؤلاء لا يعتمدون إلا أحاديث رواة معينين ، وأولئك لا يعتمدون أيضاً إلا أحاديث رواة بعينهم، ولما كان الحديث هو المصدر الثاني للتشريع كان من الواضح أن تتسع الهوة نتيجة للخلاف على الرواة وتتزلزل الثقة بكل فريق .

وإذا كانت الإمامية لا يزالون يقولون — دون السنة [1] — بالاجتهاد وأن بابه لا يزال مفتوحاً ، فإنهم لا يأخذون بالقياس وهو الذي سار

(١) أهل السنة لم يغلقوا باب الاجتهاد بالمعنى الكامل ولكن الشروط التي ينبغي توفرها في المجتهد قد أصبحت على جانب من الندرة والصعوبة فإن وجد من توفرت فيه شروط الاجتهاد كان له أن يجتهد .

عليه علماء السنة ، بل إنهم — أي الشيعة الإمامية — ينسبون إلى بعض أئمتهم القول بأن الشريعة إذا قيست مُحق الدين .

لعل هذه المبادىء هي أهم ما يفرق بين السنّة والإمامية . ولكن هناك أشياء أخرى يتمثل فيها الخلاف ، ولكنه خلاف بسيط لا يكاد يزيد عن الخلاف الذي يجري بين أئمة المذهب الواحد عند السنة كالشافعي وأبي حنيفة مثلاً ، أو كمالك وابن حنبل ، وبعض هذا الخلاف في العبادات وبعضه في المعاملات .

ففي الصلاة تكاد الإمامية تتفق مع السنة اتفاقاً تاماً إلا في صلاة الجمعة والعيدين ، فصلاة الجمعة معطلة عند بعضهم لأنها لا تجوز طالما كان «الإمام» غائباً وهي بالتالي لن تقام إلا حين يظهر الإمام المستور ، وأما صلاة العيدين فهي فرض عند الإمامية وواجب عند بعض السنة كالحنفية وسنة عند الآخرين كالشافعية ، ونوافل رمضان ألف ركعة زيادة على النوافل اليومية التي تبلغ إحدى وخمسين ركعة في اليوم ، ونوافل رمضان يصليها الشيعة فرادى لأنها سنة ، وهم لا يرون فيها مشروعية الجماعة ، إذ لا جماعة — عندهم — إلا في فرض ؛ بل إنهم يفضلون صلاتها في بيوتهم معتمدين على حديث يروونه : « أفضل الصلاة صلاة الرجل في بيته إلا المكتوبة » .

والزكاة عند الشيعة فريضة كما هي عند السنة ، وزكاة الفطر واجبة ، وهناك زكاة أخرى عندهم هي « الخمس » وهم يعتبرونها حقاً فرضه الله لآل محمد عوضاً عن الصدقة التي حرمها الله عليهم من زكاة الأموال ، وهي ستة أسهم ، ثلاثة منها تدفع للإمام إن كان ظاهراً

ولنائبه (وهو المجتهد العادل) إن كان مستتراً ، وثلاثة أخرى للفقراء والمحتاجين من بني هاشم (١) .

وثمة خلاف طريف بين الشيعة (ونعني الشيعة الإمامية) والسنة وهو زواج المتعة أو « عقد الانقطاع » . والزواج بهذا الشكل زواج مؤقت ، والعقد فيه موقوت بأجل محدود . ولقد كان هذا الزواج معمولاً به في أيام النبي فلما جاء عمر بن الخطاب أوقفه وحرمه لأنه رأى فيه رأياً غير كريم ، وقيل إنه حرم في زمن النبي وأن النبي قد نسخه .

والإمامية — من بين سائر فرق الإسلام — قد انفردت بالقول بجواز مشروعية هذا الزواج معتمدين على الآية الكريمة : «فما استمتعتم به مِنْهُنَّ فآتوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » . ويقولون إن جماعة من عظماء الصحابة والتابعين مثل عبدالله بن عباس ، وجابر بن عبدالله الأنصاري ، وابن مسعود ، وأبيّ بن كعب ، وعمران بن الحصين كانوا يفتون بإباحة هذا النوع من الزواج .

وقد بقيت مشكلة زواج المتعة مثاراً للخلاف حتى يومنا هذا لا بين الشيعة والسنة وحدهم بل بين بعض علماء السنة أنفسهم فمنهم من يقول : إن ما شرعه الرسول لا يستطيع أن يبطله عمر خاصة وأنه كان معمولاً به في أيام الرسول وأبي بكر وفترة من خلافة عمر ، ومنهم من يقول إن عمر لم يحرمها افتياتاً على رسول الله ولكن لما علمه من نسخها .

(١) راجع كاشف الغطاء ١٢٩ ، ١٣٠ والمختصر النافع ٦٣ ، ٦٤

وهناك قصة غريبة تقول إن عبدالله بن الزبير عير ابن عباس بتحليله المتعة فقال له ابن عباس : سل أمك كيف سطعت المجامر بينها وبين أبيك . فسألها فقالت : والله ما ولدتك إلا بالمتعة ، ومن المعروف أن أم عبد الله بن الزبير هي ذات النطاقين أسماء ابنة أبي بكر الصديق [1] .

وقد نظم بعض الشعراء أبياتاً تشير إلى هذه القصة مثل قول بعضهم :

أقول للشيخ لما طال مجلسه
يا شيخُ هلْ لكَ في فتوى ابن عباسِ
هل لك في رَخْصَةِ الأطرافِ آنسةٍ
تكونُ مثواكَ حتى مصدرِ الناسِ

وطرفة أخرى تحكى في هذا المقام وهي أن شيخاً من أهل البصرة سأل يحيي بن أكثم قائلاً له : بمن اقتديت في زواج المتعة ؟ فأجاب : بعسر بن الخطاب رضي الله عنه . قال : كيف وعمر كان من أشد الناس محاربة لها ؟ قال : نعم ، صح الحديث عنه أنه صعد المنبر فقال : يا أيها الناس ، متعتان أحلهما الله ورسوله لكم وأنا أحرمهما عليكم وأعاقب عليهما ، فقبلنا شهادته ولم نقبل تحريمه .

المهم أن للشيعة فلسفة في تمسكهم بإباحة زواج المتعة حتى

(١) راجع كاشف الغطاء : ص ١٤٥ وأكثر المصادر تقول بإباحة ابن عباس للمتعة .

اليوم ؛ ويقولون إنه قد ثبت بإجماع المسلمين أنه لا خلاف في إباحة هذا النكاح في عهد النبي بغير شبهة ثم ادعي تحريمها ونسخها بعد ذلك ، وقد ثبتت الإباحة بالإجماع ولم يثبت النسخ ، فعلى من ادعى الحظر والنسخ الدلالة .

وهم يرون أنه ضروري للمسافر الذي يطول سفره ففيه عصمة له ولو أن المسلمين عملوا به على أصوله الصحيحة من العقد والعدة وحفظ النسل منها لانسدت بيوت الدعارة وأغلقت المواخير أبوابها ولكثرت المواليد الطاهرة واستراح الناس من اللقطاء. ومن المعروف أن للمتعة نظاماً يحفظ للولد حقه وينسبه إلى والده إذ لا بد للمرأة بعد زواج المتعة من عدة ، غير أن عدتها حيضتان فلا يجوز لأحد أن يتمتع بامرأة تمتع بها غيره حتى تخرج من عدة ذلك الغير [1] إلى غير ذلك من الشروط الأخرى في فقه الشيعة .

هذه هي وجهة نظر الشيعة في زواج المتعة ولكننا نعتقد أن الخلاف لن ينتهي في هذه المسألة وسيظل مستمراً أبداً .

وما دمنا قد تحدثنا عن الزواج من وجهة نظر الإمامية أو بعبارة أصح ما دمنا قد تحدثنا عن الزواج المؤقت : فلا بأس من أن نعرض لنظام الطلاق عندهم ، فقد جعلوا للطلاق قيوداً كثيرة أهمها أن الطلاق لا يتم إلا في حضور شاهدين عدلين ، وبغير شاهدين يكون الطلاق باطلاً ، وهم في ذلك يرون أن الطلاق المقيد بهذا الشكل فيه صون للأسرة ، ولعل الشهود العدول يحولون بين الزوجين، والطلاق

(١) المختصر النافع ص ١٨١ وما بعدها وكاشف الغطاء ١٣٦ وما بعدها .

فيصلحون بينهما .

وترى الإمامية أيضاً أن الطلاق ثلاثاً مرة واحدة يعتبر طلقة واحدة ، ولا تحرم الزوجة على زوجها بل يجوز له مراجعتها ، وقيل بل الطلاق ثلاثا بلفظة واحدة لا يقع لأنه غير مشروع ، أما إذا طلق ثم راجع ثلاث مرات فإن الزوجة تحرم في هذه الحالة ولا تحل حتى تنكح زوجاً غيره ، وقد أخذ علماء الشريعة عند السنة بهذه النظرة أخيراً وجعلوا الطلقات الثلاث في عبارة واحدة بمثابة طلقة واحدة (١) .

لعل هذه هي أهم الفروق بين السنة والشيعة الإمامية فضلاً عن أن السنة يقولون بإمامة أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، أما الإمامية فيرون أنها باطلة جميعاً باستثناء إمامة علي ، وبعضهم يلعن أبا بكر وعمر — وأظنهم الغالين — وبعضهم لا يذكرهم إلا بإحسان حتى أن الشيخ كاشف الغطاء لا يذكر أبا بكر أو عمر إلا ويقول بعد ذكر الواحد منهما رضي الله عنه .

بقيت مسألة التقية وهي أمر يقول به الشيعة عامة ومن بينهم الإمامية وقد قيل فيها كلام كثير هي والرجعة .

فأما الرجعة فهي رجعة الأئمة إلى الدنيا لكي ينشروا الهداية ويتولوا مكانتهم الدينية بين الناس ، وكل فرقة تقول برجعة الإمام الذي آمنت به ، والإثنا عشرية تقول برجعة الإمام محمد القائم بالحجة الثاني عشر وهو المعروف عندهم باسم المهدي المنتظر

(١) المختصر النافع ص ١٩٨ .

فأما التقية فمعناها المداراة وأكثر فرق الشيعة تقول بها ، كأن يحافظ الشخص على ماله وعرضه ودينه وعقيدته بالتظاهر باعتناق عقيدة لا يؤمن بها ولا يعترف بينه وبين نفسه بصحتها .

وإذن فالتقية أمر معترف به عند الشيعة ، بل إن بعض فقهاء السنة يقولون بها في حالات الضرورة القصوى (١) .

وقد كانت التقية سببا في خروج كثير من الناس على أئمتهم من الشيعة ، لأن الإمام كان يبدي رأيا في مسألة بعينها ثم لا يلبث أن يبدي رأيا يناقضه ، فإن سئل في ذلك نسب الأمر إلى «التقية».

يحكي النوبختي في كتابه «فرق الشيعة»، قصة رجل اسمه عمر ابن رياح زعم أنه سأل محمداً الباقر عن مسألة بعينها فأجابه بجواب عنها ، وفي عام آخر سأله عن نفس المسألة فأجابه إجابة مغايرة لإجابته الأولى ، فقال عمر لمحمد : هذا خلاف ما أجبتني به في العام الماضي ، فقال محمد إن جوابنا ربما خرج على وجه التقية ، فلم يقتنع الرجل بهذه الإجابة ، وقابل رجلا من أصحاب الباقر اسمه محمد بن قيس وقص عليه الأمر وأبان عن عدم اقتناعه بإجابة الإمام قائلا : علم الله أني ما سألته عنها إلا وأنا صحيح العزم على التدين بما يفتيني به وقبوله والعمل به فلا وجه لاتقائه إياي وهذه حالي ، فقال ابن قيس : فلعله حضرك من اتقاه ، فقال ما حضر مجلسه في واحدة من المسألتين غيري وإن جوابيه خرجا على وجه التبخيت ولم يحفظ ما أجاب به في

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ٢٧٤ الهامش .

العام الماضي فيجيب بمثله . وكانت النتيجة أن عدل الرجل عن الاعتراف بإمامة الباقر وقال : لا يكون إماما من يفتي ثقته بغير ما يجب عند الله [١] .

وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع تحمل في معناها عدم الرضا والاقتناع بفكرة التقية ، خصوصاً وأن الإمام لم يكن يناقض نفسه في مسألة بعينها بل في مسائل كثيرة ، لأن الأسئلة لم تكن في يوم واحد بل لم تكن قريبة العهد بعضها ببعض ، وإنما كان السؤال يطرح في يوم بعينه فيجيب عنه الإمام إجابة بعينها ، ثم يطرح بعد ذلك بسنوات ويكون الإمام قد نسي إجابته الأولى التي سجلها البعض عليه فيجيب إجابة مغايرة مختلفة فيسأل الناس عن سبب الاختلاف فيجيب الإمام قائلا : إنما أجبنا بهذا للتقية ولنا أن نجيب بما أحببنا وكيف شئنا لأن ذلك إلينا ونحن نعلم بما يصلحكم وما فيه بقاؤنا وبقاؤكم [٢] .

وليس من شك في أن التقية وهذه حالها قد شككت الكثيرين من المؤمنين بالتشيع في أئمتهم ، وكان ينتهي الأمر باستنكارها والخروج على الامام والشك فيه وفي دعوته .

شعر الشيعة :

ولقد كان لدعوة الشيعة وتقوى أئمتهم وصلاحهم وانتسابهم إلى بيت النبوة وما حل بهم من اضطهاد وما وقع عليهم من ضيم ، وما أنزل

(١) النوبختي ٥٢ ، ٥٣ .
(٢) المصدر السابق ٥٦ .

بهم من ظلم ومطاردة وقتل هم وذراريهم ونسائهم ، كان لكل ذلك صدى عاطفي جارف في نفوس أكثر المسلمين وفي عواطف أكثر الشعراء على فترات متتالية متطاولة من الزمان . وكل ألوان الشعر التي قيلت فيهم مشحونة بالعواطف متسمة بالحزن والأسى ذارفة الدمع جياشة بالبكاء .

ولعل أول شاعر اختص بآل البيت دون غيره من الشعراء هو الكميت الأسدي الذي وقف شعره عليهم حتى خصص لهم قصائد بعينها تعرف « بالهاشميات » نسبة إلى بني هاشم أي آل بيت النبوة ، وفي مقدمة شعره في آل البيت قصيدته الجميلة :

طربتُ وما شوقاً إلى البِيضِ أطربُ
ولا لعباً منّي وذو الشيْب يلعبُ
ولم يُلْهِني دارٌ ولا رسـمُ منزلٍ
ولـم يتطرَّبْـني بنانٌ مخضَّبُ

إلى أن يقول :

إلى النَّفَرِ البِيضِ الذين بحُبِّهم
إلى الله فيمـا نابني أتقرَّبُ
بني هاشمٍ رهطِ النبيّ فإنني
بهمْ ولهمْ أرضى مِراراً وأغضبُ

خفضت لهم مني جناحيْ مودةٍ
إلى كنفٍ عِطْفاه أهلٌ ومرحبُ
وكنت لهم من هؤلاءِ وهؤلا
مِجَنًّا على أني أُذَمّ وأغضبُ
وأُرْمَى وأرمِي بالعداوة أهلها
وإني لأُوذى فيهم وأُؤنبُ

وإذا كان الكميت يتحمس لآل البيت في قصيدته السالفة الذكر فإن أيمن بن خُرَيْم الأسدي يبكي من أجلهم حين يقول :

نهاركمُ مكابدةٌ وصومٌ   وليلكمُ صلاةٌ واقتراءُ
وليتم بالقُران وبالتزكي   فأسرع فيكم ذاك البلاءُ
بكى نجدٌ غداةَ غدٍ عليكمْ   ومكةُ والمدينةُ والجِواءُ
وحُقّ لكل أرض فارقوها   عليكم ـ لا أبالكُم ـ البكاءُ
أأجعلُكُم وأقواماً سواءً   وبينكمُ وبينهمُ الهواءُ
وهُمْ أرضٌ لأرجلِكُم وأنتمْ   لأرؤُسِهم وأعيُنِهم سماءُ

ومن الشعراء الذين غلوْا في تحمسهم للشيعة دِعْبِل الخُزاعي الذي حمل على الرشيد سوء معاملته لنسل عليٍّ ، فطورد ، فعاش مشردا يقول : أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين عاما ولا أجد من

يصلبني عليها . ومن أجمل ما قال في التشيع لآل البيت تائيته المشهورة الجميلة التي يقول فيها :

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ
ومنزلُ وحيٍ مقفرِ العرصاتِ
لآلِ رسولِ اللهِ بالخيْفِ من منىً
وبالركنِ والتعريفِ والجمراتِ
ألم تر أنّي من ثلاثين حجّةً
أروحُ وأغدو دائمَ الحسراتِ
أرى فيئَهم في غيرهم متقسّماً
وأيديهمُ مِنْ فيئهم صَفِرَاتِ
فآلُ رسولِ اللهِ نُحْفٌ جسومُهُمْ
وآلُ زيادٍ حُفَّلُ القصراتِ
بناتُ زيادٍ في القصور مصونةٌ
وآلُ رسولِ اللهِ في الفلواتِ

ودعبل ـ على عهد العباسيين ـ كالكميت على عهد الأمويين إلا أن دعبلاً كان أكثر تفانيا وفداء ، لأنه ما لانت له قناة أمام الاضطهاد والوعيد ، بعكس الكميت الذي ما إن رأى ظلال الحتف تتبدى أمام ناظريه حتى سارع إلى مدح الملك الأموي بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

فالآن صِرْتُ إلى أُميَّـــة والأُمُورُ لها مَصَايِرُ .

وإن كان ادعى أمام محمد الباقر أنه قالها تقية ، وأنه لا زال على عهده لآل البيت ، كل ذلك بعكس دعبل الذي كان يستنفر المسلمين ويستنهضهم للأخذ بثأر الحسين على بعد الشقة الزمنية بينه وبين وقت مقتل الحسين في قوله :

رأسُ ابن بنت محمدٍ ووصيِّه
يا للرجال عـلى قناة تُرفعُ !!
والمسلمـون بمنظـرٍ وبمسمـعٍ
لا جازعٌ مِنْ ذا ولا مُتَخَشّعُ
أيقظتَ أجفانا وكنتَ لها كرى
وأنمتَ عيناً لم تكنْ بك تهجعُ

ولقد سار الشعر في ركب التشيع خطوات بعيدة المدى ، وأصبح أكثر الشعراء من المتشيعين خصوصا أعلامهم من أمثال : الصنوبري وكشاجم والسريّ الرفاء والزاهي والناشي الأصغر والخالديين والخباز البلدي وأبي فراس وغيرهم ، ولئن كان هؤلاء الشعراء قد بكوا مصائب آل البيت وسكبوا المدامع من أجل مصائبهم ، فإنهم ما لبثوا بعد ذلك أن عمدوا إلى الجدل في مواجهة خصوم الشيعة وأعدائها ، معددين فضائل آل البيت ، ذاكرين الحجج التي تجعل الإمامة فيهم ، وفي مقدمة هذه القصائد جميعا ميمية أبي فراس التي مطلعها :

الدينُ مخترمٌ والحق مهتضمُ وفَيْءُ آلِ رسولِ اللهِ مقتسَمُ

وفيها يهاجم بني العباس هجوماً عنيفاً ويعطف على بلوى آل البيت فيقول :

يا للرجال أمـا لله منتصِفٌ من الطغاةِ ؟ أما للدين منتقِمُ ؟
« بنو عليٍّ » رعايا في ديارهُم والأَمرُ تملكه النسوانُ والخدمُ
فالأَرضُ إلاَّ على مُلاَّكها سعةٌ والمالُ إلاَّ على أربابه ديمُ
لا يُطْغِيَنَّ بني العباسِ ملكُهمُ بنو عليٍّ مواليهمُ وإن زعموا
أتفخرون عليهم ـ لا أبَالكمُ ـ حتى كأَن رسولَ الله جدكم
وما توازن فيما بينكم شرفٌ ولا تساوتْ بكم في موطن قدمُ
ولا لكُمْ مثلهم في الجدّ متصل ولا لجدِّكُمُ معشارُ جدِّهمُ

ويجري أبو فراس موازنة بين ما فعل كل من بني العباس وبني أمية بآل البيت وما أوقعوه عليهم من أذى فيقول :

مانال منهم بنو حربٍ وإن عَظمتْ تلك الجرائرُ إلاَّ دونَ نَيْلِكم
كم غدرةٍ لكُمُ في الدينِ واضحةٍ
وكم دمٍ لرسولِ اللهِ عندكُم
أأنتُمُ آلُـهُ فيما تـروْن وفي
أظفاركم من بنيه الطاهرين دمُ

يا جاهداً في مساويهم يكتّمها

غدرُ الرشيد بيحيي كيف ينكتمُ

ويبلغ أبو فراس حداً شديداً من الهجوم على بني العباس حين يقول ماضياً في موازنته :

خلّوا الفخار لعلاّمين إن سُئلوا

يومَ السؤالِ وعمّالين إن عَمِلوا

لا يغضبون لغيرِ الله إن غَضِبُوا

ولا يضيعون حكم الله إن حَكَمُوا

تبدو التلاوةُ من أبياتهم أبداً

ومن بيوتِكُمُ الأَوتارُ والنغمُ

منكم عُلَيّةُ أم منهم ؟ وكان لكم

شيخُ المغنين إبراهيم أم لهمُ ؟

إذا تلوْا سورةً غنىّ إمامكم

(قف بالديار التي لم يعفُها القِدَمُ)

ما في ديارهُم للخمر معتصرٌ

ولا بيوتُهُمُ للسُّوء معتصمُ

الركنُ والبيتُ والأَستارُ منزلهم

وزمزمٌ والصفا والحجرُ والحرمُ

وقد عمد أبو فراس إلى محاجة العباسيين في هذه القصيدة وفي غيرها لأن العباسيين كانوا يقولون بأنهم أولى بالخلافة لأنهم بنو العم ، وأما الشيعة فبنو البيت ، وفي رأي آخر العم وهو العباس أولى من ابن العم ، وهو عليّ فمن ذلك قول مروان بن أبي حفصة :

يا ابن الذي ورث النبيَّ محمداً

دون الأَقاربِ من ذوِي الارحامِ

الوحيُ بين بني البناتِ وبينكم

قطعَ الخصام فلاتَ حينَ خصامِ

أنىَّ يكونُ وليس ذاك بكائنٍ

لبنِي البنـاتِ وراثةُ الأَعمامِ

ويوحي العباسيون إلى شاعر آخر من شعراء البرامكة هو أبان بن عبد الحميد فيقول في هذا المعنى :

نشدتُ بحق الله من كان مسلماً

أَعمُّ بما قد قلتُه العُجْم والعربْ

أَعَمٌّ رسول الله أقرب زلفـةً

لديه أم ابن العم في رتبة النسبْ

وأيهما أولى بـه وبعهـده

ومن ذا له حق التراث بما وجبْ

فإن كان عباسٌ أحقَّ بتلكـــمُ
وكان عليٌّ بعد ذاك على سببْ
فأبناءُ عبـــاسٍ هُـــمُ يرثونـــه
كما العمُّ لابن العمِّ في الإرث قد حَجَبْ

وهكذا كان التشيع رغم هذه الخصومات منبعا للخصب في عالم الأدب وإن كانت الأبيات الماضية تقوم على المغالطة لأن الأنبياء لا يورثون ، ولعل الذين قالوا بأن فكرة التشيع فكرة سياسية أكثر منها دينية يجدون من هذه المساجلات الشعرية — وما أكثرها — ما يؤيد وجهة نظرهم ، ومن قال بأنها مسألة عاطفية أيضا يجد من معركة شعر التشيع ما يؤيد نظره أيضا ، ومن قال بأنها مسألة من صلب الدين وجوهر العقيدة سوف يجد أيضاً ، ما يؤيد رأيه ويقوي حجته ويدعم دعواه .

الزيدية

وهم كما يبدو من تسميتهم أصحاب زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ، وهم أكثر تسامحا من غيرهم من الشيعة في الإمامة والبعد عن مهاجمة أبي بكر وعمر ، بل إنهم يقولون بصحة خلافتيهما وإن كان علي بن أبي طالب أفضل منهما ولهم في ذلك رأي يقولون به وهو الاعتراف بالإمام المفضول مع وجود الأفضل .

ولعل هذه الفرقة بما آل إليها من حكم وما كافحت من أجله فبذلت الدماء الزكية لتعبر تعبيرا صادقا عن الاتجاه السياسي في التشيع والسعي إلى تسنم دست الحكم ، وليس الحكم والسعي إليه إلا السياسة بعينها .

لقد كان زيد بن علي أول علوي يقاوم بني أمية بالسلاح ويسعى إلى هدم ملكهم والاستيلاء على كرسي إمارة المؤمنين ، وإذا كان التوفيق جانبه واستشهد في خروجه فإنه قد رسم لأصحابه هذا الطريق فلم يلبثوا أن ساروا على الدرب وكونوا خلافة تجمع بين السلطتين الدينية والزمنية ولا زال امتدادها قائما حتى اليوم في بلاد اليمن [١] .

وقصة خروج زيد على الأمويين ومحاربتهم لا تخلو من عظات

(١) انتهى حكم الأئمة في اليمن سنة ١٩٦٢ أي بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب بأكثر من عام .

ومن تأمل، فهي شبيهة إلى حد كبير بقصة جده الحسين ابتداء ونهاية.

كان زيد مرافقاً للملك الأموي هشام في الرصافة إذ جاء إلى هشام خطاب من عامله على الكوفة يطلب فيه إنفاذ زيد إلى الكوفة لأمر يتعلق بدين عليه لخالد بن عبدالله القسري؛ فتوجس زيد من هذا الاستدعاء وكان يعلم خشونة عامل الكوفة فضلا عن كونه غير مدين لأحد، وكان عامل الكوفة يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم يقيم بعض الوقت بالحيرة فاتجه زيد إليه هناك ولم يثبت على زيد دين، ثم اتجه زيد بعد ذلك إلى الكوفة فالتف الناس حوله وجعلوا يدفعونه إلى الخروج على الخلافة الأموية، ولكنه لبث يتعلل لهم وحاول ترك البلدة ولكنهم ألحوا عليه وقالوا: أين تخرج عنا — رحمك الله — ومعك مائة ألف سيف من أهل الكوفة والبصرة وخراسان يضربون بني أمية بها دونك!!

وكان يرافق زيدا في هذه الرحلة رجل عاقل أريب هو محمد بن عمر ابن علي بن أبي طالب، فحذره من هذه الوعود وتلك الحماسة التي قد تتبدد في وقت الجد وقال له: اذكرك الله يا أبا الحسين لما لحقت بأهلك ولا تقبل قول أحد من هؤلاء الذين يدعونك، فإنهم لا يفون لك، أليسوا أصحاب جدك الحسين بن علي [1]؟ ولكنه أبى أن يرجع وكأنما أراد التاريخ أن يعيد نفسه في سرعة، فبعد أن أقام زيد بالكوفة بضعة عشر شهرا يدعو لنفسه ويلتف حوله الناس خرج هو وأنصاره يخوضون غمار الحرب، وكانت معارك عديدة خاض غمارها زيد وأصحابه ببسالة بين مضاربات جماعية ومبارزات فردية، ولكن أهل

(١) مقاتل الطالبيين ١٣٥ وما بعدها

الكوفة تقاعسوا ولزموا المسجد أول الأمر، فحاول فرسان زيد إخراجهم من حصارهم ولكنهم لم يستجيبوا حتى أن زيدا التفت إلى أحد أنصاره قائلا: يا نصر بن خزيمة. أتخاف أهل الكوفة أن يكونوا فعلوها حسينية؟ فأجاب نصر: جعلني الله فداك؛ أما أنا فوالله لأضربن بسيفي هذا معك حتى أموت. وقد كان الموت بعد قليل من نصيب نصر.

وكانت آخر حلقات المعارك حين التقى زيد في خمسمائة فارس مع جيش الأمويين الذي ناهز عدده اثني عشر ألفا، وكاد النصر يتم لزيد ورجاله الخمسمائة إلا أن سهما أصابه في جبهته اليسرى فجيء له بطبيب اسمه سفيان وما وإن رأى السهم مغروسا في جبهة زيد حتى قال له: إنك إن نزعته من رأسك مت، فقال الموت أيسر عليّ مما أنا فيه، فما أن انتزع السهم حتى مات لساعته، فحاول أصحابه دفنه في مكان أمين بعيد عن عيون أعدائه ولكن أعداءه توصلوا إلى القبر في اليوم التالي ونبشوه واحتزوا رأسه وصلبوا الجسد في الكوفة بمكان يقال له الكناسة، وأرسل رأسه إلى دمشق وكان ذلك سنة ١٢٢هـ.

وهكذا تبدو قصة زيد من ناحية سوء الحظ مماثلة أكبر المماثلة لقصة الحسين من جميع الملابسات؛ فالمكان الذي خرج منه كلاهما هو الكوفة، وكلاهما خرج متورطا، وأهل الكوفة في الحالين هم المتقاعسون عن خوض الحرب.

لقد كان زيد شهيد السياسة والعقيدة معا، ولعل السياسة هنا في المقام الأول فلم يكن في نيته الخروج على الإطلاق ولكن الكوفيين

هم الذين أغروه بالسلطان فامتثل لهم ،وكان يتحلى في نفس الوقت بالأخلاق الكريمة والعلم الغزير والطلعة البهية والمهابة الظاهرة ، ولذلك حزن عليه جمع من الناس كبير وجرت قصته على ألسنة الشيعة في الأجيال التالية لعصره كما جرت قصة الحسين من حيث البكاء والحزن والأسى ،ومن قصائد البكاء التي قيلت فيه ما أنشده فضل بن العباس ابن عبد الرحمن :

ألا يا عينُ لا ترقَيْ وجودي ... بدمعك ليس ذا حينَ الجمودِ
غداةَ ابن النبي أبو حسين ... صليبٌ بالكُنَاسةِ فوق عودِ
يظلُّ على عمودهمُ ويُمْسي ... بنفسي أعظمٌ فوق العمودِ
تعدَّى الكافرُ الجبارُ فيه ... فأخرجه من القبر اللحيدِ
فظلوا ينبشون أبا حسينٍ ... خضيباً بينهم بدم جسيدِ
فطال به تلعبهم عتوّاً ... وما قدروا على الروح الصعيدِ
وجاور في الجنانِ بني أبيه ... وأجداداً همُ خيرُ الجدودِ(1)

كان زيد إذن رأس فرقة الزيدية كما أن أخاه محمدا الباقر أحد أئمة الاثني عشرية ، وكلٌّ من الأخوين — غير الشقيقين — فاضل عالم ، فكما سمي محمد بباقر العلم ، كان زيد مثالا للتقى والورع والعلم حتى يقال إن أبا حنيفة النعمان قد درس عليه ، ومن الأخبار التي تروى عنه أنه خرج ذات ليلة إلى المقابر وبصحبته رجل يقال له

(1) مقاتل الطالبيين ص ١٤٩ .

أبو قرة ، فقال : يا أبا قرة أتدري أين نحن ؟ نحن في روضة من رياض الجنة ، نحن عند قبر أمير المؤمنين علي ، ثم قال : يا أبا قرة : والذي يعلم ما تحت وريد زيد بن علي ، إن زيد بن علي لم يهتك محرما منذ عرف يمينه من شماله ، يا أبا قرة : من أطاع الله أطاعه ما خلق .

وكان زيد يفزع من فُرقة المسلمين ويتمنى لو التأم شملهم وتجمع شتاتهم . ويحكى أنه خرج ذات ليلة مع رجل اسمه مسلم بن بابك إلى مكة فلما كان منتصف الليل واستوت الثريا ، قال : يا بابكي ، أما ترى هذه الثريا ؟ أترى أحدا ينالها ، قال : لا ، قال زيد : والله لوددت أن يدي ملصقة بها فأقع على الأرض أو حيث أقع ،فأنقطع قطعة قطعة ،وأن الله أصلح بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن زيدا مع ذلك كله كان ينوي الخروج والحرب ، فإما إلى سيادة وعزة له ولآل البيت ، وإما إلى موت واستشهاد ، وقد أثر أن بعض زائريه دخل يزوره في بيته بالمدينة في أحد مواسم الحج فوجده يتمثل بأبيات لعمرو بن براقة الهمْداني حيث يقول :

ومَنْ يطلبِ المالَ الممنَّعَ بالقنا
يَعِشْ ماجداً أو تخترمْه المخارمُ
متى تجمع القلب الذكيَّ وصارماً
وأنفاً حميّاً تجتنبْك المظالمُ
وكنتُ إذا قوم غزوْني غزوتهم
فهل أنا في ذا يالَ همْدانَ ظالمُ (1)

(1) المصدر السابق ص ١٣٢ .

هذه الأحلام التي كانت تراود زيدا لم تتحقق له بطبيعة الحال فقد مرت علينا ظروف قتله ، وكان يخوض المعارك معه ولده يحيى الذي تمكن من الفرار إلى خراسان ، ولكن سيوف الأمويين طاردته فقتل سنة ١٢٥هـ أي بعد والده بسنوات ثلاث ، ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن نسل زيد قد انقرض وأن من يدعون أنهم من سلالته ليسوا إلا سلالة إخوة يحيى غير الأشقاء [١] من الأم .

ومع ذلك فقد تمكن الزيدية بالمثابرة والجد من تكوين دولة في أرض الديلم في جنوب بحر الخزر سنة ٢٥٠هـ أسسها أحد الزيدية واسمه الحسن بن زيد، ثم أقاموا دولة ثانية في اليمن بعد ذلك بفترة من الزمن أقامها الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين من ولد القاسم الرسي حفيد إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولا زال للزيدية دولة إلى يومنا هذا وهي كما ذكرنا دولة اليمن الشقيق [٢] .

عقيدة الزيدية :

ولعل تولي رجل مثل القاسم الرسي للإمامة في اليمن يدفعنا إلى التساؤل عن كيف تم له الاعتراف بالإمامة مع أنه من نسل الحسن وزيد من نسل الحسين ، أو بمعنى آخر هل يجوز تولي الإمامة في الشريعة الزيدية لمن ليسوا من نسل زيد ؟ والإجابة عن ذلك بنعم ، فقد جوزوا الإمامة في كل أولاد فاطمة بشروط لا بد من توفرها

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة زيد بن علي زين العابدين .

(٢) قبل ظهور هذه الطبعة الثانية بعدة سنوات وبعد ظهور الطبعة الأولى بعام وبعض عام انتهت الدولة الزيدية في اليمن وحلت محلها حكومة جمهورية .

في الإمام منها العلم ، والزهد والشجاعة والسخاء سواء أكان جده الحسن أم الحسين ، يضاف إلى ذلك القدرة على القتال وأن يكون سليم الحواس الخمس ، والإمامة عندهم ليست بالنص ، أي أنه لا ينص على الإمام بل كل من توفرت فيه الشروط السابقة جازت إمامته ، ومعنى ذلك أن الإمامة عندهم ليست بالوراثة وإنما بالبيعة وهذا يقتضي نظاما يخالف نظام الاثني عشرية . فضلا عن أنهم يجيزون وجود أكثر من إمام في وقت واحد في قطرين مختلفين .

ومذهب الزيدية يميل إلى الاعتزال وهو في نفس الوقت من أقرب مذاهب الشيعة إلى أهل السنة ، وقد كان زيد نفسه تلميذا لواصل بن عطاء رأس المعتزلة . ومن هنا كان تأثره بمذهبه واضحا كل الوضوح ، ولقد وضح الاعتزال عند أعيان الزيدية من الحكام والأدباء كأبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وبعض أمراء بني بويه .

هذا والزيدية تقول بالإمام المفضول مع وجود الأفضل ؛ بمعنى أنه لا يشترط في الإمام أن يكون أفضل الناس جميعاً بل من الممكن أن يكون هناك إمام للمسلمين على جانب من الفضل مع وجود من هو أفضل منه وأحق منه بالإمامة ، ولذلك قالوا : كان علي بن أبي طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة إلى غير ذلك من الأسباب فكانت المصلحة أن يكون القائم بالأمر ممن عرفوا باللين والتؤدة والتقدم في السن والسبق في الإسلام والقرب من رسول الله .

فلما كان أبو بكر في مرض الوفاة رأى تقليد الأمر لعمر فضج الناس قائلين : لقد وليت علينا فظا غليظا فما كانوا يرضون بأمير المؤمنين عمر لشدته وصلابته حتى سكنهم أبو بكر قائلا : لو سألني ربي لقلت ، وليت عليهم خيرهم لهم [1] .

تلك هي فلسفة زيد في شأن أبي بكر وعمر وهي فلسفة معتدلة لا هي أقرب إلى الإسراف ولا هي أدنى إلى الجمود ، بل قصد واعتدال بين الأطراف الإسلامية المختلفة ، وانتهى زيد إلى القول بجواز أن يكون المفضول إماما وأن يكون الأفضل قائما فيرجع إليه في الأحكام ، فلما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه فسموا رافضة .

وإذن فالزيدية — ونقصد المعتدلين منهم — لا يهاجمون الخلفاء الراشدين،وقد انقسمت الزيدية بعد زيد إلى فرق ثلاث جنحت إلى الغلو وخالفت رأي الإمام زيد في الشيخين وفي غير ذلك من بعض المسائل الأخرى ، وهذه الفرق هي : الجارودية أصحاب أبي الجارود زياد بن أبي زياد ، والسليمانية أصحاب سليمان بن جرير ،والصالحية والبترية وهم أصحاب الحسن بن صالح وكثير النوى الأبتر ، وكل فرقة من هذه الفرق تميل في بعض الأحكام إلى الاعتدال وتجنح في بعضها الآخر إلى الشطط ،وكل واحدة تتفق مع زميلتها في القليل وتختلف في الكثير .

---

(١) الملل والنحل ١/١٣٨ .

غير أن الذي يدعو إلى الطمأنينة أن هذه الفرق الزيدية لم تعد لها مكانة ظاهرة عند الزيدية المعاصرة ، فالزيدية اليمنية المعاصرة تسير على نهج الإمام زيد من حيث القصد والاعتدال وأخذ الأمور مأخذ السماحة اللهم إلا إذا استثنينا بعض الشيوخ في صنعاء وصعدة .

فعقيدة الزيدية — وقد مرت صلة زيد بواصل بن عطاء — تميل إلى الاعتزال فيما يتعلق بذات الله والجبر والاختيار.وأن صانع الكبيرة مخلد في النار ما لم يتب توبة نصوحا ، وهم أيضا يرفضون التصوف رفضا باتا ولذلك لا نكاد نلمس للتصوف أثراً في المجتمع الزيدي اليمني بعكس ما نراه في المجتمع السني في دول إفريقية الإسلامية أو في الأقاليم الشامية وتركيا .

والزيدية تشارك الفرق الشيعية الأخرى في جواز التقية وزكاة الخمس ولكنها تخالف الإمامية في زواج المتعة ، فالزيدية تستنكر هذا اللون من الزواج وتحرمه لأن التوقيت للزواج من الأمور التي تبطله ، وهم يقولون بثبوته في صدر الإسلام ثم نسخه ، ويستشهدون على ذلك برواية سلمة بن الأكوع حينما قال : رخص رسول الله عام أوطاس [1] في المتعة ثلاثة أيام ثم نهى عنه [2] .

فإذا ما كان الأمر متعلقا بنطاق الزواج المشروع وجدناهم يقولون بأن القرشي ليس كفئا للفاطمية وأن العربي من غير قريش ليس كفئا للقرشية إلا إذا رضيت ورضي ذووها جميعا .

---

(١) أوطاس واد في ديار هوازن كانت فيه غزوة بعد الفتح .
(٢) التاج المذهب لأحكام المذهب ٢/٢٨ ، ٢٩ .

والزيدية تختلف عن السنة في شئون العبادات حينا وتتفق حينا آخر وهو أمر ليس من الخطورة بمكان فالخلافات الفقهية بين الزيدية أنفسهم كثيرة ، بل إن بعض الزيدية أحيانا يتفقون في مسائل بعينها مع السنة ويختلفون مع إخوانهم من أبناء المذهب حتى إن البعض ذهب إلى أن مذهب الزيدية يعتبر بمثابة مذهب خامس إلى جانب المذاهب السنية الأربعة المعروفة .

وهناك اتفاق كامل بينهم وبين السنة في صلب العبادات وفرائضها واختلاف قليل في الفروع فهم في الأذان يقولون : «حي على خير العمل» كبقية فرق الشيعة ويكبرون خمس تكبيرات في صلاة الجنازة ، وصلاة العيد عندهم من فروض الأعيان تصح جماعة وفرادى ، وصلاة التراويح جماعة يعتبرونها بدعة ، والوتر سنة وهو ثلاث ركعات متصلة ويرفضون الصلاة خلف الفاجر .

وهكذا تبدو الخلافات في مسائل العبادات كتلك التي تحدث بين بعض مذاهب السنة نفسها ، إلا أنهم في بعض المسائل يتشددون تشدداً صارما يدعو أحيانا إلى التأمل الذي لا يخلو من طرافة ، من ذلك على سبيل المثال أن فرائض الوضوء بينما نجدها عندنا — نحن السنة — أربعة ، نجدها عند الزيدية عشرة تسير بمنتهى الدقة هي — أولا — إزالة النجاسة بالحجر أولا ثم بالماء — ثانيا — التسمية .ثالثا — نية وضوء الصلاة ، فمجرد الوضوء يكفي لرفع الحدث ولكن لا تصح به الصلاة إلا إذا نوى الإنسان أن هذا الوضوء من أجل الصلاة ، ولا بد مع النية من التخصيص أو التعميم ، فالوضوء الذي

خصص لصلاة بعينها كالظهر مثلا لا تصح به صلاة العصر وهكذا ورد كلام كثير في هذا الصدد [1] ، رابعاً : المضمضة والاستنشاق ، خامساً : غسل الوجه مستكملا ، سادساً : غسل اليدين مع المرفقين وما حاذاهما ، سابعاً : مسح كل الرأس مقبلة ومدبرة ، ثامناً : غسل القدمين مع الكعبين ، تاسعاً : الترتيب الذي مر ذكره ، عاشراً : تخليل الأصابع والأظفار .

وإذن فالملاحظ أن مسائل الطهارة والعبادات فيها الكثير من التشدد عند الزيدية ولكنه تشدد غير ضار وإنما قصد به صحة البدن وصحة الروح .

والمذهب الزيدي يوجب على المسلمين الاجتهاد ، فإن عجز المسلم عن الاجتهاد جاز له التقليد ، وتقليد أهل البيت أولى من غيرهم ، كما أن المذهب الزيدي يوجب الخروج على «إمام الجور» أي الحاكم الظالم وأنه لا تجب له الطاعة .

ومجمل القول في الزيدية أنهم أقرب الفرق الشيعية إلى جماعة المسلمين لميلهم إلى القصد والاعتدال في أهم نقطة خلافية بين السنة والشيعة ، فالفرق الشيعية الأخرى يرفعون الأئمة إلى مراتب تقارب الأنبياء ويعتبرون منصب الإمام منصباً إلهيًّا ، أما الزيدية فللإمام احترامه عندهم وتقدمه على جميع المسلمين غير أنهم لا يغلون في رفع مكانته بالطريقة التي تذهب إليها سائر فرق الشيعة .

---

(١) التاج المذهب ٣٨/١ .

الاسماعيلية

والإسماعيلية واحدة من الفرق الشيعية التي جنحت إلى الغلوّ أكثر من ميلها إلى الاعتدال . وإنما سميت « الإسماعيلية » نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، والفرق بينهم وبين الإمامية « الإثنا عشرية » من حيث ترتيب الأئمة أن « الإثنا عشرية » لم تعترف بإمامة إسماعيل لأسباب سنذكرها بعد قليل ، وانتقلوا بالإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم الى ابنه علي الرضا إلى آخر الأئمة الإثنا عشر على الترتيب الذي مر ذكره عند الكلام على الإمامية .

فجعفر الصادق قد نحى ولده إسماعيل من الإمامة لأنه — في بعض الروايات — قد وجده ثملا ، وليس من المعقول أن يوصي جعفر الصادق وهو التقي الورع العالم الفاضل لابنه الذي لم يلتزم حدود الدين فاقترف الكبيرة وشرب الخمر ، غير أن أنصار إسماعيل أنكروا على جعفر هذا التصرف وقالوا إن إسماعيل معصوم وإنه إن كان قد شرب الخمر فإنما شربها لأمر في علم الله وتمسكوا به إماماً ورفضوا الاعتراف بإمامة أخيه موسى ورأوا أن شرب الخمر لا يفسد عصمته وأنه

لا يجوز لله أن يأمر بشيء ثم ينسخه .[1]

ورواية أخرى تقول إن إسماعيل توفي في حياة ابيه فانتقلت الإمامة تبعاً لذلك إلى ابنه محمد بن إسماعيل لأن الإمامة لا تكون إلا في الأعقاب وغير جائز أن تنتقل من أخ إلى أخيه إلا في حالة واحدة فريدة هي انتقالها من الإمام الحسن إلى الأمام الحسين . وللإسماعيلية في ذلك تأويل من القرآن ، وهم يفسرون القرآن تفسيراً باطنياً خاصاً .. يتذرعون بالآية الكريمة : « وجعلها كلمة باقية في عقبه » وفسروا الكلمة بأنها الإمامة ، ولذلك فلا مناص من أن تكون الإمامة في الأعقاب دون الإخوة ، ورفضوا إمامة موسى الكاظم ولم يعترفوا بها خاصة وأن محمد بن إسماعيل كان أكبر سناً من عمه موسى[2] .

ورواية ثالثة يرويها بعض الإسماعيليين تقول إن اسماعيل لم يمت في حياة أبيه ، بل إنه مات بعده بخمسة أعوام وقد أظهر أبوه موته من قبيل التقية خوفاً على حياته ؛ لأن الأئمة كانوا مضطهدين من الخلفاء سواء أكانوا أمويين أم عباسيين ، وأن أباه قد أشهد الناس على موته حتى يتخلص من مطاردة العباسيين له ، ويؤكد البعض هذه الرواية بما يذهبون إليه من أن إسماعيل قد رئي بالبصرة ، وأنه قد مر على مُقعد فدعا له فبرىء بإذن الله[3] .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة الإسماعيلية .

(٢) طائفة الإسماعيلية لكامل حسين ص ١٢ .

(٣) الملل والنحل ١/١٧١ .

تلك هي الروايات المختلفة التي وردت بصدد إسماعيل الإمام السابع الذي نصّبه الإسماعيليون إماماً ، على أن أكثر الروايات تذهب إلى إنه مات في أيام أبيه سنة ١٤٣هـ بالمدينة قبل وفاة أبيه بخمسة أعوام .

ومهما كانت الروايات فالذي لا شك فيه أن فرقة الإسماعيلية قد لعبت — بالإضافة إلى الدور العقائدي — دوراً خطيراً على مسرح السياسة في العالم الإسلامي يكاد يكون قد شمل كل بقعة من بقاع عالم ذلك الزمان ، واستمر دورها السياسي لفترة دامت بضعة قرون مشرقاً ومغرباً ، وتكون بذلك واحدة من فرقتين شيعيتين لعبت كل منهما دوراً سياسياً خطيراً ، أما الفرقة الأولى فهي كما مر بنا فرقة الزيدية .

الإسماعيلية سياسيا :

غير أن الإسماعيلية لم تظهر كفرقة تلعب دوراً سياسياً إلا بعد موت إسماعيل بأكثر من قرن من الزمان ، ظهرت إبان ذلك في الشرق والغرب على حد سواء بنشاط وهمة تدعوان إلى الاهتمام ، ولعل الفترة التي مرت على موت إسماعيل وبين ظهور الدعوة نشطة سافرة هي ما يعبر عنه « بدور الستر » حيث تجري الدعاية للمذهب والدعوة له في حذر وحيطة وكتمان ، أما وقد استشفوا إمكان النجاح فإنهم قد جاهروا بالدعوة وهو ما يطلقون عليه « دور الظهور » .

ومهما كان الأمر فالإسماعيلية لم تعرف كفرقة دينية أو سياسية

قبل أواخر القرن الثالث الهجري ، ويربط الأستاذ الدكتور كامل حسين بين ظهور الإسماعيلية وظهور حركة القرامطة ، ويرى أن ظهور القرامطة في البحرين والشام كان إيذاناً بظهور الإسماعيلية على مسرح السياسة بصفة إيجابية (١) بعد أن ظلت الدعوة الإسماعيلية مستترة حوالي قرن من الزمان .

والقرامطة إحدى الفرق المتفرعة عن الإسماعيلية ، وتنتسب إلى رجل يقال له حمدان قرمط وهو أحد مريدي عبدالله بن ميمون القداح الذي اتخذ المذهب الإسماعيلي عقيدة لغرض في نفسه ، وما لبث أن انبثق عن مجهوداته وجلده على الدعوة، المذهب الفاطمي والمذهب القرمطي ، حتى أن بعض المستشرقين يذهب نتيجة لذلك إلى أن الفاطميين والقرامطة طائفة واحدة (٢) .

وسواء صح ذلك الرأي أم لم يصح فالأمر الذي لا شك فيه أن فرقة القرامطة كانت فرقة مفزعة ، شغلت العالم الإسلامي لفترة طويلة ، وهزمت جيوش الخلافة العباسية في مواقع كثيرة ودخلوا مكة أثناء موسم الحج وقتلوا الحجاج وطموا بجثثهم بئر زمزم ، وهدموا الكعبة وانتزعوا الحجر الأسود وحملوه إلى عاصمتهم « هجر » حيث ظل لديهم بضعة وعشرين عاماً .

إلا أن القرامطة ما لبثوا أن شقوا عصا الطاعة على الإمام الإسماعيلي نفسه وكان مقره «سلمية » في سورية ، ونهبوا أمواله ومتاعه

(١) طائفة الإسماعيلية ص ١٥ .
(٢) تاريخ الدولة الفاطمية حسن إبراهيم ص ٥٩ .

فاضطر إلى الفرار خوفاً من بطشهم .

وكان للقرامطة مذاهب متطرفة غالية فقد زعموا أن محمد بن إسماعيل رسول ، كما زعموا أن الرسالة انقطعت عن النبي في حياته بعد حديثه في غدير خم فآلت النبوة والرسالة إلى علي بن أبي طالب وأصبح النبي مأموماً لعلي . وقالوا إن الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم ؛ ومعناها عندهم الإباحة للمحارم وجميع ما خلق في الدنيا (١) .

وقد تمادى القرامطة في الشطط والموبقات وسفك الدماء فضلاً عن الخروج بالعقيدة عن ربقة الإسلام الصحيح ، ولذلك فإن بعض الشيوعيين المحدثين يفتتنون بها ويعتبرونها حركة من حركات التحرر والإصلاح .

أما الإسماعيلية الأصيلة — إذا اعتبرنا القرامطة إسماعيليه منحرفة — فقد ظهرت كحركة سياسية في اليمن ، حين استطاع أحد الدعاة واسمه الحسين بن حوشب أن يجمع حوله بعض المؤمنين بالمذهب من بين قبائل اليمن ، وأن يؤسس أول دولة إسماعيلية في التاريخ ولقب نفسه بمنصور اليمن وكان ذلك سنة ٢٦٦هـ (٢) ولم يقف الأمر بالدعوة الجديدة عند حدود اليمن بل امتد خارجها — عن طريق ابن حوشب نفسه — حتى وصل نشاطها إلى شمال إفريقية واكتساب شيوخ قبيلة كتامة فبايعوا إمام الإسماعيلية .

(١) النوبختي ٦١ — ٦٣ .
(٢) راجع الفاطميين لحسن إبراهيم ٤٠١ وما بعدها .

وإذا كان ابن حوشب قد عرف بالتقى والورع في أول أمره فما لبث أن انزلق وكذلك رفيقه في الدعوة وقيادة الجيش علي بن فضل الذي خرج عن الجادة وافتتن بالتفاف الناس حوله وتأصل نفوذه بينهم حتى أنه — على سبيل المثال — حين حلق رأسه بصنعاء حلق معه موافقة له مائة ألف نفس ، إزاء هذا التأييد من الناس سولت له نفسه أن يدعي النبوة وأعفى أنصاره من الصوم والصلاة . وفي ذلك يقول الشاعر (ولعله البهاء الجندي) :

خذي الدفَّ يا هذه والعبي   وغنِّي هزاريك ثم اطربي

تولى نبيٌّ بني هاشمٍ   وهذا نبيٌّ بني يعربِ

لكل نبيٍّ مضى شرعةٌ   وهذي شريعةُ هذا النبيِ

فقد حطّ عنا فروضَ الصلاة   وحطَّ الصيامَ ولم يتعبِ

إذا الناسُ صلُّوا فلا تنهضي   وإن صوّموا فكُلِي واشربي

ولا تطلبي السَّعْي عند الصفا   ولا زورة القبرِ في يثرب (١)

ولعل هذه الانحرافات كانت بمثابة الإرهاص العام لانحرافات أخرى ظهرت عند الخلفاء الفاطميين الإسماعيليين فيما بعد .

لقد كان إمام الإسماعيلية في أول عهدهم « بدور الظهور » عبيد الله المهدي وكان يقيم بسلمية (في سورية) مستتراً ثم ما لبث أن هرب إلى شمال إفريقية حين انكشف أمره فوجد هناك أنصاره

(١) عمارة اليمنى . تاريخ اليمن ١٤٥ .

الذين كسبهم له دعاة ابن حوشب ، ولقد تعرض الإمام عبيد الله للقبض عليه والسجن من قبل « الأغالبة » لولا أن تجمهر الكتاميون فأنقذوه من سجنه وانتصروا على سجانه .

وقد كان عبيدالله ذا شخصية فذة في رسم ملكه وبناء دولته الجديدة: فاختار افريقية دون اليمن ، لأن اليمن بعيدة عن قلب العالم الإسلامي ، أما شمال إفريقية فهو مكان متوسط يمكن الانتشار منه إلى مراكز وأقطار أخرى من العالم الاسلامي ، وكان صارماً في اختيار السبيل الذي يوصله إلى بناء دولته حتى إنه لم يتردد في قتل داعيته أبي عبدالله الشيعي الصنعاني وأخيه أبي العباس حين أظهرا شكهما في شخصيته وأنه إنسان آخر غير ذلك الإمام الذي رأياه في سلمية ، وظل عبيدالله يواصل جهوده موقعاً بقبيلة كتامة التي ناصرته أول الأمر مواجهاً كثيراً من المتاعب والثورات حتى استطاع أن يؤسس أول دولة إسماعيلية سنة ٢٩٧هـ في شمال إفريقية ، وهي التي عرفت باسم الدولة الفاطمية ، وظل يرسم الخطة للزحف شرقاً وامتلاك مصر وتحقق ما أراد ولكن على يد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله .

مر بنا قبل قليل ما قام به المهدي من قتل داعيته أبي عبدالله الصنعاني لأنه — فيما يقال — شك في شخصيته ، وهذا يدفعنا إلى أمر أخطر من الشك في شخصية « الإمام » ، ذلك هو نسب « الإمام » نفسه ، فهناك من ينكر صلة عبيدالله المهدي بالإمام إسماعيل رأس الإسماعيلية إنكاراً تاماً ، ويذهب إلى القول بأن عبيد الله ليس إلا ابناً لرجل يهودي كان حداداً بسلمية ، فلما مات ذلك الحداد

تزوجت أرملته أحد الأشراف العلويين فتربى الغلام ابن الحداد في منزله ، فلما كبر الغلام اتخذ لنفسه النسب العلوي ، ولم يكن هذا الغلام — ابن الحداد — إلا عبيد الله نفسه [1] .

وهناك رأي آخر يشبه الإجماع يقول إن عبيدالله من سلالة ميمون القداح ، ومعروف أن ميمون القداح وأبناءه كانوا من دعاة الإسماعيلية ثم ما لبثوا أن اغتصبوا الأمر لأنفسهم ، وهم ينتسبون أصلاً إلى زنادقة المجوس الذين حاولوا تقويض دعائم الإسلام عن طريق التأويل تارة والقول بالباطن تارة أخرى أو عن طريق محاولة أحياء العقائد المجوسية [2] . وليس من شك في أن الذي بعث على الشك في نسب هؤلاء الفاطميين هو « دور الستر » الطويل الذي مروا به وغير مستبعد أن يحدث خلال تلك الفترة أيّ من تلك الآراء التي ذهب إليها المؤرخون والتي تبعد بهم عن النسب العلوي .

والطريف أن المصريين قد تنبهوا إلى هذه الثغرة ، ثغرة النسب عند الفاطميين ، فاستغلوها استغلالاً طريفاً حتى أن أحد الشعراء المصريين أرسل يهجو المهدي وكان لا يزال في إفريقية بمناسبة إرساله الدعاة لكي يبشروا بالمذهب الإسماعيلي في مصر فقال :

فَمَنْ أنتَ يا مهدي السفاهةِ والخنا
أبنْ لي فقد حُقَّتْ على وجهك الريبْ

(١) كامل حسين ٢٦ .
(٢) حسن إبراهيم — الدولة الفاطمية ٦٤ .

فلو كنتَ من أولادِ أحمد لم يغبْ
عن الناس ما تسمو إليه من النسبْ
ولو كنتَ منهم ما انتهكتَ محارماً
يذبون عنها بالأسنَّةِ والشهبْ
وكم مصحفٍ حرّقْتَه فرماده
مثارةُ مسفَى الريح من حيثُ ماتهبّ
كفرتَ بما فيه وبدَّلْتَ آيه
وقضَّبْتَ حبل الدين كفرا فما انقضب [1]

ولم يقف الأمر عند المصريين بالتندر على أئمة الإسماعيلية وهم بعد في إفريقية ، بل حتى وهم بمصر ، فقد سأل البعض المعز لدين الله عن نسبته إلى القداح فأجاب : نعم هو قادح زمام الفكر ولم يضف شيئاً وكأنما أحس بما يقصده السائل من تعريض به وبنسبه ، ولذلك قيل أيضاً إن المعز كان يُسكت من يسألونه عن نسبه بالذهب والعطاء أو بالسيف والتهديد ، ولكن ذلك لم يمنع المصريين من أن يسخروا ويتهكموا على هذا النسب الغامض . فقد صعد العزيز الفاطمي ابن المعز لدين الله المنبر يوم جمعة فإذا به يعثر على ورقة تضم هذه الأبيات الساخرة :

إنَّا سمعنا نسباً منكرا يُتلى على المنبرِ في الجامع

(١) كامل حسين ٣٥ .

إن كنتَ فيما تدَّعي صادقاً   فاذكرْ أباً بعد الأَبِ الرابعِ

وأن تُـرد تحقيقَ ما قلتَهُ   فانسبْ لنا نفسَك كالطائعِ [١]

أو فـدع الأَنساب مستورةً   وادخلْ بنا في النسبِ الواسعِ

فإن أنسابَ بـني هـاشم   يقصرُ عنها طمع الطامع [٢]

ومن الطرائف التي تحكى في هذه المناسبة أن عبد الرحمن الثالث الخليفة الأندلسي تلقى من أحد الخلفاء الفاطميين رسالة يسبه فيها فأجابه بقوله : أما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك .

ولكن برغم ذلك كله فإن الإسماعيلية الذين أطلقوا على أنفسهم الفاطميين والذين عرفهم البعض باسم العبيديين قد نشطت دعوتهم وكثر دعاتهم حتى أقاموا خلافة عريضة امتدت من المحيط الأطلسي حتى برزخ السويس وشملت شمال إفريقية كله ومصر والشام وصقلية وجنوب إيطاليا ، وامتد نفوذ مذهبهم إلى الشرق البعيد فاعتنقه الأمير نصر ابن أحمد الساماني ، بل استطاعوا أن يضموا بغداد لفترة من الوقت امتدت حوالي سنة على يد البساسيري الذي خطب للإمام المستنصر الفاطمي على منابرها سنة ٤٥٠هـ ، واعتنق مذهبهم أمراء الحلة وواسط والكوفة بالعراق ، وأمير الجزيرة بالشام ، وظل أمرهم في علو وازدهار حتى دالت دولتهم في مصر على يد صلاح الدين .

(١) الطائع : هو الخليفة العباسي .
(٢) ابن خلكان ٢/٢٠٠ .

المستعلية والنزارية :

المعروف أن العقيدة الإسماعيلية توجب التسلسل في الإمامة مع وجوب النص ، وقد ظل الأمر كذلك لفترة طويلة إلى أن بدأت الأهواء السياسية والمطامع الذاتية تعمل عملها في الدولة الفاطمية ، فلم يعد الأئمة أنفسهم يأبهون لهذا النص وكذلك الوزراء أصحاب النفوذ ، فقد حدث أن نص المعز لدين الله على أن يليه ابنه عبدالله ولكن عبدالله توفي في حياة أبيه فعاد ونص على أن يليه ابنه العزيز مخالفا بذلك العقيدة الإسماعيلية ، وقد حدث أيضاً أن نص الإمام المستنصر على أن يتولى الإمامة من بعده ولده نزار ، ولكن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي نحى نزاراً وأعلن إمامة المستعلي الابن الأصغر للمستنصر وكان صغيراً وهو في نفس الوقت ابن أخت الوزير ، ضارباً عرض الحائط بمشروعية النص ، ولم يقف الأمر بالجمالي عند هذا الحد ، بل ألقى القبض على نزار ووضعه في سجن وسد عليه الجدران حتى مات فكان ذلك سبباً لانقسام الإسماعيلية إلى قسمين : المستعلية وهم أتباع المستعلي ، والنزارية أتباع نزار [١] .

ظلت فرقة المستعلية التابعة للخليفة المستعلي تحكم مصر والحجاز واليمن بمساعدة الصليحيين الذين تفانوا في خدمة الخليفة الفاطمي في القاهرة فوحدوا اليمن علي يد علي بن محمد الصليحي وحكموها باسم الخليفة الذي يعيش في مصر ، غير أن فرقة المستعلية ما لبثت أن خبا سلطانها تحت ضغط الصليبيين الذين لم يجدوا من يصمد

(١) حسن ابراهيم ١٧١ – ١٧٣ .

أمامهم فتوغلوا في مدن الشام وأنشأوا بها الإمارات . هذا بالإضافة إلى أن فريقاً آخر من الإسماعيلية لم يؤمن بشرعية الإمام المستعلي ، وكان يرى أن الأحق بالإمامة هو نزار .

وكان أنصار نزار من إسماعيلية الشرق ، ولذلك عرفت المستعلية بالإسماعيلية الغربية . وعرفت النزارية بالإسماعيلية الشرقية .

وهنا نمرّ بفترة خطيرة من فترات الحكم الإسماعيلي . فلقد كان بمصر وقت حرمان نزار أحد دعاة الإسماعيلية الفرس اسمه الحسن بن الصباح ، كان قد جاء حاجاً إلى إمامة المستنصر — وكان الأئمة يحج إليهم [1] — وشهد النزاع بين نزار والجمالي ، فانتصر لنزار ، وعاد إلى فارس . وأخذ يدعو للمذهب الجديد ، وجعل من نفسه نائباً للإمام المستور . واستطاع أن يستولي على قلعة ألموت جنوبي بحر قزوين ، وظل سلطانه يمتد ويتسع في المنطقة . وأكثر من إنشاء الحصون ونجح نجاحاً كبيراً ، واستقل بإقليم كبير وسط الدولة العباسية السنية وأسس الدولة الإسماعيلية الشرقية ، وعرف أنصاره باسم الحشاشين لأنهم كانوا يكثرون منّ تدخين الحشيش الذي يخدرهم فيصدعون لأوامر الصباح ، وقد اختار من أنصاره بعض الشباب أطلق عليهم طبقة الفدائيين كان يرسلهم لاغتيال أعدائه ، وكان من ضحاياهم الوزير الجليل نظام الملك الذي كان زميلاً للحسن في الدراسة أيام طفولتهما .

وقد رسم الحسن لهؤلاء الفدائيين منهجاً خاصاً بتربيتهم منذ

(١) الحج الظاهري إلى الكعبة والحج الباطني إلى الإمام .

طفولتهم ، وكان قاسياً عليهم حتى استطاع أن يجعل منهم عنصراً فزع منه العالم الإسلامي كما فزع منه الصليبيون أيضاً لكثرة ما قتلوا وأسالوا من دماء [1] .

ولم ينس الحسن بن الصباح أن ينتقم لنزار فأرسل بعض الفدائيين من أتباعه إلى مصر فقتلوا الإمام الآمر بن المستعلي ، وظل أمره كذلك حتى خافه الملوك وأعجب به العامة ، لأن العامة تعشق البطولات دائماً أيا كان ثوبها .

ويبدو أن تعطش ابن الصباح للدماء جعله يقتل ولديه ، وتوفي سنة ٥١٨هـ وكان مولده سنة ٤٧١ بغير سليل فأوصى بالزعامة لاثنين من أتباعه المخلصين وهما كيابزرك وأبو علي داعي الدعاة وجعل الأول قائدا للفدائيين ومنوطاً بالأمور الدنيوية وجعل الثاني لأمور الدعوة والزعامة الروحية .

إسماعيلية الشام :

كانت إسماعيلية مصر مستعلية ، وكانت إسماعيلية فارس والشرق نزارية ، وكذلك كانت إسماعيلية الشام ، وكانوا يسيرون على نهج مدرسة الحسن الصباح ، وقد استطاعوا أن يضموا إلى صفوفهم الأمير رضوان بن تتش والي حلب السلجوقي ، فاعتنق مذهبهم ، ووفد إلى حلب عدد كبير من إسماعيلية فارس فقويت شوكتهم

(١) كامل حسين ٧٤ ، ٧٥ .

واستشرى خطرهم فكانوا يوقعون بالناس وينهبونهم ، وقام الفدائيون بقتل الأعيان والحكام إلى أن أوقع بهم أهل حلب ، فهربوا إلى شيزر وحاولوا الاستيلاء على قلعتها إلا أنهم منوا بالهزيمة وقتل منهم عدد كبير ، ثم استطاعوا أن ينزلوا منطقة الموصل ولكنهم ما لبثوا أن حنوا إلى سفك الدماء وبث الرعب حتى أمكنهم تملك قلعة بانياس ثم امتد نفوذهم في بلاد الشام حتى ولي أحدهم قضاء دمشق وكان اسمه أبا الوفاء ، ومن المؤسف أن أبا الوفاء هذا بعث سراً إلى بودوان الثاني الصليبي ملك بيت المقدس يفاوضه في أن يستولي الإسماعيلية على مدينة صور نظير أن يمكنه من دخول دمشق غير أن خطة الخيانة قد انكشفت والمؤامرة قد انفضحت فقام الأمير بوري بقتل الإسماعيلية وأوقع الهزيمة بالصليبيين .

وبرغم ما وقع على الإسماعيلية من تقتيل ومطاردات فقد استطاعوا امتلاك الحصون في الشام مثل حصن قدموس وحصن مصياف وبانياس والكهف والخوابي وغيرها ، وظهر من بينهم زعيم خطير من شاكلة الحسن بن الصباح اسمه راشد الدين سنان لقبه الناس لفرط احترامه وهيبته «بشيخ الجبل» وكون لنفسه مذهباً خاصاً اسمه «السنانية». وقد حاول السنانية هؤلاء قتل صلاح الدين الأيوبي أكثر من مرة على طريقتهم الاغتيالية ، ولكنه كان ينجو في كل مرة ، وقد حاول صلاح الدين أن يتخلص من الإسماعيلية فحاصر قلعة مصياف ولكن أحد أعوانه طلب منه عدم التعرض لهم حتى لا تتسع الجبهات أمامه وأشار عليه بأن يكتفي بالتفرغ لحرب الصليبيين .

ومن الطرائف التي تروى أن صلاح الدين استيقظ ذات يوم وهو في معسكره فوجد في فراشه خنجراً ومعه بطاقة من سنان تدل على أن سنان نفسه هو الذي زاره ولو شاء لقتل صلاح الدين دون أن يشعر به أحد . ويقال إنه منذ تلك الحادثة نشأت صداقة بين سنان وصلاح الدين وعملا سوياً ضد الصليبيين ، فأرسل سنان أحد الفدائيين لقتل المركيز كونراد المونفراتي سنة ٥٨٨ هـ لأنه وجد صديقه صلاح الدين في مسيس الحاجة إلى المساعدة فحفظ صلاح الدين هذه اليد للإسماعيلية [١] .

وقد سار سنان على طريقة الصباح أول الأمر ، فهو تلميذ مدرسته ، وفي قلعة ألموت تربى ، غير أنه ما لبث أن أضاف آراء جديدة إلى العقيدة كالتناسخ مثلاً وهو ما لم تقل به الإسماعيلية . وقد لقبه بعض أنصاره بالإمامة ظناً منهم أنه أحد الأئمة المستترين :

وقد ظل أمر الإسماعيلية النزارية بالشام هكذا بين تقدم وتأخر وظهور وتستر إلى أن استسلمت آخر قلاعهم للظاهر بيبرس سنة ٦٧٢ هـ ولكن لا يزال يعيش حتى اليوم طائفة إسماعيلية نزارية في سلمية والخوابي والقدموس ومصياف وبانياس والكهف .

البهرة :

وهي إسماعيلية الهند واليمن ، وهم ينتسبون إلى الإسماعيلية المستعلية التي كان يتبعها اليمنيون في عهد الصليحيين ، ويسمون

(١) كامل حسين ١٠٣ ، ١٠٤ .

الطيبية نسبة إلى الطيب بن الخليفة الآمر بن الخليفة المستعلي ، وحين سقطت الدولة الصليحية ترك الإسماعيلية الطيبية ميادين السياسة والتفتوا إلى ميادين التجارة ، وليسر المتاجرة بين اليمن والهند في القرون الماضية كان الإسماعيليون الطيبيون يذهبون إلى الهند للتجارة فاختلط بهم كثير من الهنود وأقبل الهندوس على اعتناق مذهبهم فعرفوا « بالبهرة » والبهرة لفظ هندي قديم بمعنى التاجر .

وانقسمت دعوة البهرة إلى فرقتين ، البهرة الداوودية والبهرة السليمانية والأولى نسبة إلى الداعي قطب شاه داوود ، والثانية نسبة إلى الداعي سليمان بن حسن، فأما البهرة الداوودية فمركزهم في الهند (الهند وباكستان الآن) منذ القرن العاشر الهجري وداعيهم يقيم في بمباي ، أما البهرة السليمانية فمركزهم في اليمن حتى اليوم .

والبهرة يتخذون لأنفسهم أماكن خاصة للعبادة اسمها « جامع خانة » ولا يسمحون لأنفسهم أن يقيموا الصلوات في مساجد عامة المسلمين، وهم متمسكون بفروض الدين التي تشبه في « الظاهر » عقيدة سائر الفرق الإسلامية المعتدلة أما عقيدتهم الباطنية فشيء آخر ، فهم يصلون كما يصلي المسلمون ولكنهم يقولون إن صلاتهم تلك للإمام الإسماعيلي المستور من نسل الطيب بن الآمر . وهم يذهبون إلى مكة للحج كبقية المسلمين ولكنهم يقولون إن الكعبة هي رمز على الإمام .

الأغاخانية :

إذا كانت البهرة ترجع أصولها العقائدية إلى الإسماعيلية المستعلية ،

التي مر الحديث عنها فإن الأغاخانية ترجع عقيدتها إلى الإسماعيلية النزارية ، وقد ظهرت هذه الفرقة بنشاط في إيران في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي حينما ظهر شخص جمع حوله عدداً من الإسماعيلية وغير الإسماعيلية وهدد الأمن وقطع الطريق وسطا على القوافل حتى ذاع صيته في أنحاء إيران وأصبح أسطورة على ألسنة الناس وأعجب الإيرانيون ببطولاته فانضموا إليه إعجاباً به وطمعاً في المكاسب المادية التي يحصلون عليها عن طريقه .

هذا الرجل اسمه « حسن علي شاه » وهو إسماعيلي وإن لم يشر إلى إسماعيليته حتى لا ينفض الناس من حوله ، وكان للإنجليز مطمع في إيران في ذلك الوقت ، فاستعملوا حسن علي شاه في قيادة ثورة يهدد بها الأمن حتى يجدوا — كما هي عادتهم — منفذاً يدخلون منه إلى فرض سلطانهم، ولكن حسن علي فشل في ثورته وقبض عليه فسارع الإنجليز إلى التوسط له بالإفراج عنه على أن ينفى من إيران كلها ، ذهب « حسن علي » إلى أفغانستان كرغبة الإنجليز ولكنه لم يستطع أن يقدم هناك شيئاً لحلفائه ليقظة الأفغانيين ، فاتجه إلى الهند وسكن مدينة بمباي، وهناك اعترف به الإنجليز إماماً على الطائفة الإسماعيلية، وخلعوا عليه لقب أغاخان فانتسب إلى الإمام نزار بن المستنصر الفاطمي وأصبح إمام الإسماعيلية النزارية ثم مات سنة ١٨٨١م فخلفه ابنه في إمامة الطائفة ، وعرف باسم أغاخان الثاني ، وكان أبوه قد أعده للإمامة إعداداً كاملاً وهيأ له الثقافة الكاملة ، وكان يجيد عدة لغات منها العربية ، وعمل على خدمة أبناء المسلمين جميعاً دون تمييز بين طوائفهم فسمت مكانته بين الناس جميعاً ، وتزوج أميرة

إيرانية وأنجب منها والده محمد الحسيني في نوفمبر سنة ١٨٧٧ وهو أغاخان الثالث المعروف باسم أغاخان المتوفي في (أغسطس سنة ١٩٥٧) وقد عاش أغاخان الثالث حياة طويلة مليئة بعناصر الإثارة ، ويذكر له التاريخ أنه كان يدافع عن مشاكل المسلمين عامة بصرف النظر عن طوائفهم ، ونشر الوعي بين طوائف المسلمين في الهند ، غير أنه فضل الإقامة في أوروبا وأخذ من ملاذ الدنيا ولهوها بنصيب كبير وتزوج أربع مرات : المرة الاولى من أميرة إيرانية ، والمرة الثانية من فتاة إيطالية أنجب منها ابنه «علي خان» ، والمرة الثالثة من بائعة حلوى وسجاير في باريس وأنجب منها والده «صدر الدين خان» ، والمرة الرابعة من إحدى ملكات الجمال .

وحين مات أغاخان أوصى لحفيده «كريم» بالإمامة وهو الإمام الحالي ولا زال شاباً يطلب العلم في إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية .

والإسماعيلية الأغاخانية يسكنون الآن نيروبي ودار السلام وزنجبار ومدغشقر والكنغو البلجيكي والهند وباكستان وبعضهم في الإقليم السوري ومركز القيادة الرئيسي بالنسبة لهم هو مدينة كراتشي .

والإسماعيلية الأغاخانية تقدس أغاخان وتلقبه بالإمام وتقول بعصمته ويضفون عليه صفات الألوهية ويدفعون له خمس مايكسبون.

عقيدة الإسماعيلية :

يقول الإسماعيليون بالوحدانية ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً

رسول الله ، ولكنهم في نفس الوقت يقولون بأن لكل ظاهر باطناً ، وأنّ لكل تنزيل تأويلاً ، تأويلاً ظاهراً وتأويلاً باطناً ، ولذلك فإن من أسمائهم «الباطنية» كما أن من أسمائهم أيضاً «السبعية» ، فالتأويل الظاهر للإيمان وللقرآن يتفق إلى حد كبير مع التشريعات السنية ، ولعل الإسماعيلية قد عمدوا إلى هذه التأويلات الظاهرية لكي يردوا بها على أهل السنة ممن رموهم بالزيغ والكفر ، وقد جعل الإسماعيلية من شروط الإيمان أن يؤمن الإسماعيلي بالظاهر والباطن معاً ، والإيمان بواحد منهما دون الآخر يعتبر خروجاً على المذهب وكفراً ، ولقد قال الشيرازي الداعي : من عمل بالباطن والظاهر معاً فهو منا ، ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكاب خير منه .

والإسماعيلية ينكرون صفات الله أو يكادون ويعللون ذلك بأن الله فوق متناول العقل ، وهم من أجل ذلك يقولون في الله : لا نقول موجود ولا نقول غير موجود ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ، وعلى ذلك فلا يقولون بالإثبات المطلق ولا بالنفي المطلق ، بل هو إله المتقابلين ، وخالق المتخاصمين ، والحاكم بين المتضادين ، وليس هو بالقديم كما أنه ليس بالمحدث ، فالقديم أمره وكلمته ، وبالحديث خلقه وفطرته [١] .

ويقولون أيضاً إنه لم يخلق العالم خلقاً مباشراً بل أبدع العقل الكلي بعمل من أعمال الإرادة ، والعقل الكلي محل لجميع الصفات الإلهية ، وفي نظرهم الإله ممثلاً في مظاهره الخارجية ، ويعللون هذه الفلسفة

(١) الملل والنحل ١/١٧٢ ، ١٧٣ .

فيقولون لما كانت الصلاة لا يمكن أن تؤدي لكائن لا يدرك ، فهي تؤدي في رأيهم لمظهره الخارجي وهو العقل الذي أصبح تبعاً لذلك الإله الحقيقي من وجهة نظرهم . ولما كان الإنسان غير قادر على معرفة ذات الله وإنما يعرف العقل وحده ، فإن الإسماعيلية يسمون العقل الحجاب أو المحل أو الصلة . ولبلوغ السعادة عندهم ينبغي على الإنسان تحصيل العلم ولا يمكن تحصيل السعادة التي هي العلم إلا بحلول العقل الكلي في إنسان هو النبي وفي الأئمة الذين يخلفونه . والعقل الحالّ يسمى « ناطقاً » والنفس الحالة تسمى « أساساً » « والناطق » هو النبي الذي يبلغ الكلام المنزل و « الأساس » هو الإمام الذي يفسره معتمداً على التأويل (١) ولذلك يقولون إن محمداً هو الناطق وعلياً هو الأساس .

وهكذا نجد الإسماعيلية يعمدون إلى التعسف في طريق وصولهم إلى معرفة الله ، مع أن أولى مقتضيات الإيمان والدوافع إليه ينبغي أن تصاغ في قوالب من البساطة واليسر والسماحة .

فالخالق إذن عند الإسماعيلية تبعاً لهذا الاعتقاد هو العقل الكلي والنفس الكلية ، وبمعنى آخر أن ما يقوله جمهور المسلمين عن الله سبحانه وتعالى خلعه الإسماعيليون على العقل الكلي الذي هو الإله عندهم . وهم لم يذهبوا هذا المذهب في التعريف بالله ولم يركبوا هذا المركب الصعب عبثاً ، بل عمدوا إلى ذلك لإسباغ صفة خاصة على الإمام الذي قالوا إنه من البشر فقالوا إن العقل الكلي في العالم

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة الإسماعيلية .

العلوي يقابله الإمام في العالم الجسماني ، وانتهوا من ذلك إلى أن جميع الأسماء والصفات التي خلعت على العقل الكلي هي أيضاً أسماء وصفات خلعت على الإمام ، لأن الإمام مثل للعقل الكلي فأسماء الله الحسنى جميعاً هي أسماء للإمام ولذلك فإن الشعراء حينما مدحوا الأئمة كانوا يذهبون هذا المذهب فالأمير تميم ابن المعز يمدح أخاه الخليفة العزيز فيقول :

ما أنتَ دونَ ملوكِ العالمين سوى
روح من القدسِ في جسمٍ من البشرِ
نورٌ لطيفٌ تناهى منك جوهرُهُ
تناهِياً جاز حد الشمسِ والقمرِ
معنىً من العلةِ الأُولى التي سبقت
خلق الهيولى وبسطَ الأَرضِ والمدرِ (١)

إل غير ذلك من الأبيات التي سيجيء ذكرها في مناسبتها .

ولعل محور العقيدة عند الإسماعيلية يدور حول شخصية الإمام بعد الذات الإلهية ، لأنهم ربطوا بين الإمام والإله بكثير من الروابط الوصفية والاسمية كما مر قبل قليل ، ثم يأتي بعد ذلك دور الدعاة الذين يدعون للمذهب ، وكانوا من الكثرة بمكان ، واختص كل واحد منهم بجهة من الجهات أو بقطر من الأقطار ، ونتيجة لهذا التعدد

(١) كامل حسين الإسماعيلية ١٥٨ – ١٦٠ .

والذاك التباعد حدث اختلاف بينهم بعضهم والبعض الآخر ، من ذلك ما جاء من خلاف بين الداعي النخشبي في كتابه «المحصول» والداعي أبي حاتم الرازي في كتابه «الإصلاح» وكان الأول داعيا ببلاد السامانيين ، وكان الثاني داعيا ببلاد الديلم وكانا متعاصرين . ثم جاء داع ثالث معاصر لهما أيضا هو أبو يعقوب السجستاني فألف كتابه «النصرة» انتصر فيه للداعي النخشبي ، فأتى بكلام جديد لم يقله هذا ولا ذاك . ثم جاء بعد ذلك بثمانين عاما حميد الدين الكرماني أكبر فلاسفة الدعوة الإسماعيلية المتوفي ٤٤١هـ فألف كتابه «الرياض» محاولا التوفيق بين كل هذه الآراء المختلفة ، فإذا كان الشيوخ الكبار قد اختلفوا على أنفسهم فماذا نقول — على رأي الدكتور كامل حسين — في الدعاة الآخرين الأصغر مقاما المتأخرين زمنا . إننا سنجد خلافا شديدا بين دعاة اليمن أو فارس وبين دعاة المغرب (١)

على أنهم يتفقون جميعاً في القول بضرورة وجود إمام معصوم منصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، والنص على الإمام يكون من الإمام الذي سبقه بحيث تتسلسل الإمامة في الأعقاب ؛ وذلك بأن ينص الإمام على إمامة أحد أبنائه ، ولكن الإسماعيلية لم يلتزموا هذا النص منذ عهد الفاطميين حين نص المعز لدين الله على إمامة ابنه عبدالله من بعده فمات عبدالله في حياة أبيه فلم ينص على إمامة ابن عبدالله وإنما نص على إمامة ابنه الثاني

(١) المصدر السابق ١٤٩ ، ١٥٠ .

العزيز ، وقد حدث شيء قريب من هذا حينما مات المستنصر فقام الوزير الجمالي بتعيين ابن شقيقته المستعلي وأبعد نزارا صاحب النص وهو الابن الأكبر للمستنصر ، وقد مر بنا أن هذا الحدث كان سببا في انشطار الإسماعيلية إلى مستعلية ونزارية .

ولقد تكرر نفس الأمر في عصرنا حينما أوصى أغاخان الثالث المتوفي ١٩٥٧ م لحفيده «كريم» ولم يوص لأحد من ولديه «علي» و«صدر الدين» رغم أن عليا والد كريم لا يزال على قيد الحياة ، ولكن لعل لمسلك علي الشخصي من أخذ بأسباب اللهو إلى درجة مسيئة قد أجبرت الإمام الإسماعيلي على حرمان ولده من الإمامة حتى لا يحط من قدر الطائفة أمام بقية طوائف المسلمين وغير المسلمين على حد سواء .

الإمام إذن هو محور الدعوة الإسماعيلية ، ولعل ذلك هو أحد الأسباب التي جعلها تنتظم الفرق الغالية ، فهم يقولون أن الأرض لا تخلو قط من إمام ، وهذا الإمام إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور ، فإذا كان الإمام ظاهرا جاز أن يكون حجته مستورا ، وإذا كان الإمام مستورا فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين ، وتمشيا مع خطورة مركز الإمام يقول الإسماعيلية إن من مات ولم يعرف «إمام زمانه» مات ميتة جاهلية ، ومن مات ولم يكن في عنقه «بيعة إمام» مات ميتة جاهلية (١) .

وعلى هذا النمط من تعظيم الإمام جعل الإسماعيلية للأئمة صفات

(١) الملل والنحل ١/١٧١ ، ١٧٢ .

لم تعرفها فرق الشيعه الأخرى ، ذلك أنهم يقولون ظاهرا إن الأئمة بشر كسائر الناس يأكلون وينامون ويموتون ، ولكنهم في تأويلاتهم الباطنية يقولون إن الإمام هو «وجه الله» و «يد الله» و «جنب الله» وأنه الذي يحاسب الناس يوم القيامة ويقسمهم بين الجنة والنار وأنه هو «الصراط المستقيم» و «الذكر الحكيم» و «القرآن الكريم».

وتمشياً مع نظرية الظاهر والباطن التي أشرنا إليها نجد أن كتب الفقه الإسماعيلي مثل كتاب «الاقتصاد» أو «دعائم الإسلام» قريبة من المذاهب السنية كالشافعية والمالكية باستثناء ما جاء فيها من ولاية الإمام ووجوب طاعته ، هذا من الظاهر الذي يقرأه عامة الناس ، أما الخاصة فكانوا يسمعون آراء سرية يلقيها عليهم داعي الدعاة يضفي فيها على الإمام صفات ترفعه إلى ما يشبه الإله ، من ذلك قولهم إن التأويل الباطن هو من عند الله خص به علي بن أبي طالب ، وقالوا بالمشاركة بين النبي وعلي ، وذهبوا إلى أن عليا قد أورث الأئمة من أعقابه هذا التأويل الباطن الذي خص به دون النبي ، وعلى ذلك فالأئمة وحدهم ودون غيرهم هم الذين يدلون الناس على أسرار الدين ، وقد استشهد الإسماعيلية بقصة موسى مع الخضر في القرآن حينما خص الله الخضر بعلم الباطن مع كونه ليس نبيا وعدم معرفة موسى بذلك مع كونه نبيا ، استدلوا بذلك على أنه من المقبول في نظرهم ألا يعلم النبي علم الباطن وأن يعلمه علي ، وقد نظم الداعي المؤيد في الدين هذه العقيدة في هذه الأبيات :

وإن أجزنا ظاهر الكـلام   في ذاك أسلمنـاه للخصامِ

ففي اختلافاتِ القران كَثْرَهْ   مِنْ كل قولٍ معْ كلٍّ زُمْرَهْ
يا قومُ سرٌّ الملكـوت هـذا   يجعل أصنامكم جُـذاذا
سرٌّ له صاحبَ موسى الخضْرا
قال : معي لن تستطيع صبرا
وقال موسى سوف أُلْفَى صابرا
فلم يكنْ إذْ ذاك إلا قاصرا
تدبروا القصـة مـاذا ثَمَّـا
مِنْ قصِّها إن لم تكونوا نُوَّما
لعلكم أن تحسبوهـا سَمَـرَا
إذنْ أسأتمْ للنفـوسِ النظرا
ورُبَّ معنى ضمـهُ كـلامُ
كمثـل نورٍ ضمـهُ ظـلامُ
باق بقـاءَ الحَـبِّ في السنابلْ
في معقلٍ من أحرزِ المعاقلْ
وإنمـا بـابُ المعاني مقفـلُ
وأكثـرُ الأنـامِ عنها غُفَّـلُ
مفتاحُهُ أضحى بأيـدي خزنهْ
بهم إلهي علمـهُ قـد خزنهْ

كيما يلوذَ الخلقُ طُـرّاً بهمُ
خُصُّوا بهذا النورِ من ربهمُ (١)

وعن هذا الطريق أخضع المفسرون الإسماعيلية آيات القرآن لتفسير رمزي يتمشى مع هذه العقيدة يلقن بشكل سري ويدعو إلى طاعة الإمام طاعة عمياء ، ولا يقف الأمر بالاعتقاد في الأئمة عند الحدود التي سلف ذكرها ، بل يقول الإسماعيلية إن الأئمة الذين خلفوا الأنبياء ، في مرتبة واحدة وصفات واحدة ، ونتيجة ذلك فإن إمام العصر هو وارث الأنبياء جميعاً وكل من سبقه من الأئمة فهو صاحب صفات كل الأنبياء والأئمة السابقين ، ولذلك كان يوصف الإمام الإسماعيلي في الدور الفاطمي بأنه خليل الله وكليم الله والمسيح الذي يحي الموتى إلى غير ذلك من المنن والمعجزات ، وفي ضوء ذلك يربط الأستاذ الدكتور كامل حسين بين هذه الآراء والمعتقدات التي كانت مطوية في كتب الإسماعيلية ثم عثر عليها أخيرا ، وبين بعض ما مدح به الأئمة من شعر لم يكن مفهوم المعنى والمرمى كاملا إلى عهد قريب . مثال ذلك قول أحد الشعراء يمدح الإمام الفاطمي :

سلامٌ على العترةِ الطاهرهْ   وأهلا بأنوارها الزاهرهْ
سلامٌ بديّاً على آدمٍ   أبى الخلق باديهِ والحاضرهْ
سلامٌ على مَنْ بطوفانه   أُديرتْ على من بَغَى الدائرهْ

(١) كامل حسين ١٥٧ ، ١٦٣ .

سلام على من أتاه السلام   غداةَ أحفَّتْ به النائره
سلام على قاهرٍ بالعصا   عصاةِ فراعنةٍ حائره
سلام على الروح عيسى الذي   بمبعثه شَرُفَتْ ناصرَهْ
سلام على المصطفى أحمدٍ   وليِّ الشفاعة في الآخره
سلامٌ على المرتضى حيدرٍ   وأبنائه الأَنجم الزاهره
سلام عليك فمحصولهم   لديك أيا صاحب القاهره(١)

والحق أن الشعر الذي قيل في الأئمة الاسماعيلية قد كشف عن جانب كبير من مدى القداسة التي أسبغها عليهم المذهب ، فعبيدالله المهدي يمدحه شاعر اسمه محمد البديل بشعر قريب في معناه ومرماه من الأبيات التي مر ذكرها وإن كانت هذه الأبيات أسبق من التي مرت — يقول الشاعر :

حَـلَّ برقّـادةَ المسيـحُ   حَـلَّ بها آدمٌ ونـوحَ
حل بهـا أحمـدُ المصطفى   حل بها الكبشُ والذبيحُ
حَـلَّ بهـا اللهُ ذو المعالـي   وكلُّ شيءٍ سواهُ ريـح (٢)

ومعروف أن المهدي هو أول الأئمة الظاهرين في الدور الفاطمي وكان عنيفا في كراهته للصحابة وسب أصحاب النبي وأزواجه باستثناء

(١) كامل حسين ١٦٩ ، ١٧٠ .
(٢) حسن إبراهيم ٣٢٧ .

علي بن أبي طالب والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري ، وزعم أن الصحابة باستثناء هؤلاء الذين ذكرنا قد ارتدوا بعد النبي .

وإذا كان الخليفة الفاطمي الأول قد مدح بهذه الطريقة التي جعلته والأنبياء سواء فإن خليفته الرابع وأول خليفة فاطمي بمصر ، أي المعز لدين الله قد مدح بما يشبه ذلك أو أكثر حين وجه ابن هانىء الأندلسي إليه القول :

نَدْعُوهُ منتة ماً عزيزاً قـادراً — غفارَ موبقةِ الذنوبِ صفوحا
أقسمتُ لولا أن دعيتَ خليفةً — لدعيتَ من بعدِ المسيحَ مسيحا
شهدتْ بمفخرك السمواتُ العُلى — وتنزَّلَ القرآنُ فيك مسيحا

والشاعر نفسه يمدح نفس الخليفة في مناسبة أخرى هي عيدالنحر بمعان ترفع الممدوح إلى مكانة لا تقل عن مثيلتها في الأبيات السابقة فيقول :

هذا ابن وحي الله تـأْخذ هَدْيَها — عنه الملائكُ بُكرةً وأصيلا
ذَعرَتْ مواكبه الجبال فأعلنت — هضباتُها التكبيرَ والتهليلا
وعلمتَ من مكنونِ سرِّ اللهِ ما — لم يؤتَ في الملكوت ميكائيلا
لو كان آتى الخلقَ ما أُوتيته — لم يخلق التشبيه والتمثيلا

ويظل الشعر الفاطمي يسجل رأي الإسماعيلية في مكانة أئمتهم التي رفعوها إلى مرتبة من الألوهية في جميع المراحل ، وقد مرت بنا

الأبيات التي مدح بها الأمير تميم أخاه الخليفة العزيز ، وهذه أبيات للشاعر أبي الحسن الأخفش لا تخرج معانيها عما تعود الإسماعيلية أن يصفوا به أئمتهم :

بشرٌ في العيـن إلا أنـه — عن طريق العقل نورُ هدى
جَـلَّ أنْ تدركـه أعيُنُنـا — وتعالى أن نَـراهُ جسدا
تُدْرِكُ الأفكارَ فيـه بانيـاً — كاد من إجلالِهِ أن يُعبدا

ظل الإسماعيلية على هذه الشاكلة من العقائد التي لم يتوجسوا خيفة من إعلانها طالما كانت لهم دولة ، فلما عصفت الأيام بدولتهم عادوا إلى التقية والسرية بحيث لا يسمح إلا لكبار الدعاة فقط بمعرفة أسرار التأويل ، وبقي الحال على هذا المنوال إلى اليوم عند طائفة البهرة التي تمثل بقايا الإسماعيلية المستعلية . أما الإسماعيلية النزارية فقد عمدوا إلى التأويل الباطني وتركوا الظاهر ، وكل تأويلاتهم تذهب إلى تمجيد الأئمة وتفخيمهم ، فكل الفضائل التي وردت في القرآن أو الأحاديث النبوية تؤول على أنها الإمام ، فقد قالوا إن القرآن الكريم تأويله الإمام ، والأهلة هم الأئمة ، والشمس الإمام ، والقمر الإمام ، والسماء هي الدعوة والعرش الدعوة ، والأرض الدعوة ، والجبال هم الدعاة ، والملائكة هم الدعاة ، والطاغوت والأصنام والشياطين هم أعداء الأئمة .

وللإسماعيلية تفاسير للقرآن فيها الكثير من الطرافة والجرأة في نفس الوقت ، ولهم حول قصة آدم كلام كثير ، فمن تأويلهم الباطن

أن آدم لم يكن أول الخلق كما تقول الأديان السماوية ، إنما كان قبله قوم عاش آدم بينهم ، وآدم هذا كان له «حجة» رمز القرآن إليه بحواء ، وحواء لم تكن أنثى ولم تتزوج آدم ، وإنما كانت أقرب دعاته إليه ، وكان كلاهما ينعم في دعوة الإمام الذي كان سابقا لآدم وكانت دعوة إسماعيلية ، وهي التي عبر عنها القرآن بالجنة ثم تطلع آدم إلى مرتبة أعلى من مرتبته فأخرجه الإمام من الجنة أي من الدعوة [1] . والأمثلة كثيرة في كتب الإسماعيلية وتفاسيرهم تشير كلها إلى تعظيم الإمام على طريقة تأويل الآيات الخاصة بقصة آدم .

وهكذا نلاحظ أن عقائد الإسماعيلية ليست مستمدة بشكل مباشر من الكتاب والسنة ، وإنما دخلتها فلسفات أثرت فيها مثل الفيثاغورية والأفلاطونية الحديثة ، فكما أن الفيثاغوريين جعلوا الأعداد أساسا لفلسفتهم كذلك فعل الإسماعيلية حينما جعلوا الأعداد اصولا لعقيدتهم ، فظهرت عندهم الأعداد وما يقابلها من أصول دينية ، فالواحد عندهم هو العقل الكلي أو القلم ، والاثنان هما : العقل الكلي والنفس الكلية أي القلم والروح ، والثلاثة هم : محمد وعلي وفاطمة ، والخمسة : هم القلم واللوح وميكائيل وإسرافيل وجبريل ، وهم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، وهم الإمام والحجة والداعي والمأذون والمكاسر ، وهكذا بنوا عقيدتهم على الأعداد وهي الفلسفة الفيثاغورية التي كان المسلمون قد عرفوها نتيجة لنشاط الترجمة فانتشرت في الأقطار الإسلامية فالتقطها الإسماعيلية وبنوا عقيدتهم على أساسها وصبغوها بالصبغة الإسلامية .

(١) كامل حسين ١٦٧ .

وكما تأثر الإسماعيلية بالفلسفة الفيثاغورية تأثروا أيضا بالأفلاطونية ، فنظرية أفلاطون تقول بأن ما في العالم الحسي أشباح لمثُل في العالم العلوي ، والإسماعيلية تقول إن ما في عالم الدين مُثُل لممثولات في العالم الروحاني . وأيضا أخذ الإسماعيلية عن الأفلاطونية الحديثة رأيهم في الإبداع . وظهور النفس الكلية عن العقل الكلي وأن العالم خلق بواسطة اللوجوس (الكلمة) فقال الإسماعيلية أن الكلمة التي خلق عنها العالم هي كلمة (كن) التي وردت في الآية الكريمة «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» وأن كلمة «كن» مكونة من الكاف والنون ، فالكاف رمز على القلم أو العقل الكلي ، والنون رمز على اللوح أي النفس الكلية ، ولذلك فسر الإسماعيلية قوله تعالى «نون والقلم» أن الله تعالى يقسم بأعز مخلوقين عنده وهما اللوح والقلم [1]

والذي يتابع الفلسفة الإسماعيلية يمكنه أن يربط بينها وبين الأفلاطونية الحديثة في أكثر آفاقها ، غير أن الذي نعلمه ونقول به هو أن مبادىء الإسلام وعقائده أسمى من كل تلك الفلسفات وأرفع من أن ترتبط بها أو تتذرع بما تضمه بين دفتيها فالعقيدة الإسلامية شريعة سماوية وأما تلك الفلسفات فأفكار أرضية دنيوية .

(١) كامل حسين ١٧٤ ، ١٧٥ .

الدروز

نشأتهم وتاريخهم :

الدروز فرقة إسماعيلية اتسمت بطابع الباطنية حيث أخفوا عقيدتهم عن غيرهم من الفرق الإسلامية ، وقد نشأوا في إبان العصر الفاطمي ، وظلوا منطوين على أنفسهم ، ينأون بعقيدتهم أن تذاع ويحرصون على اعتقاداتهم أن تشيع وتعرف بين سائر الناس .

والدروز مواطنون صالحون يسكنون أنحاء متفرقة من لبنان وبعض مناطق الإقليم السوري ، ونتيجة لهذا الانطواء الذي أشرنا إليه كثرت حولهم الأقاويل وتناثرت حولهم الظنون التي يعتمد أكثرها على الحدس والتخمين ، بل لقد قامت حولهم كثير من الادعاءات الباطلة والافتراءات الجريئة .

لقد عشت بين الدروز فترة من حياتي وعاشرتهم في إحدى قراهم ، وأشهد أني لمست فيهم الوطنية الكاملة والغيرة في الحق والشجاعة والوفاء والاستقامة والصدق والعفة ، هذه الصفات الطيبة أسجلها غير مبالغ أو مجامل لأني لمست كثيراً من عواطفهم بنفسي ورأيت جانبا

مشرفا من كفاحهم ، الأمر الذي ربطني بكثير منهم برباط المودة والصداقة والتقدير .

ولكن برغم هذه الروابط الكثيرة التي ربطتني بهم سأحاول أن أكون منصفا في هذا التعريف بهم ، أقول ما لهم وما عليهم . وهدفي من ذلك الخير والصلاح ولمّ الشمل الذي استهدفته من أول كلمة خططتها في هذا الكتاب .

والدروز يفضلون أن يطلق عليهم اسم «الموحدين» لأنهم يرون أنفسهم أهل توحيد للخالق وإن كانوا لا ينكرون تلقيبهم بالدروز .

وقد اختلف المؤرخون في لفظة كلمة «دُرْزي» وهل هي بضم الدال وسكون الراء أم بفتح الدال والراء كليهما ؟ ذلك أن هنـــاك شخصين ارتبط كل منهما بالدروز سلبا أو إيجابا ، فهناك محمد بن إسماعيل الدَّرَزي بفتح الدال المشددة وفتح الراء ، وهو أحد الداعين لتأليه الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي ، وقد بشر بمذهبه هذا في وادي التيم الموطن الأول للدروز ، وكانت له ميول يهودية مجوسية ، ويقال إن الدروز قتلوه ، وهو المعروف باسم نشتكين الدَّرَزي . وهناك آخر اسمه أبو منصور أنوشتكين الدُّرْزي بضم الدال المشددة وسكون الراء وهو أحد قواد الحاكم بأمر الله ، ويقال إن الطائفة تنتسب إلى هذا الأخير دون الأول ، ولا زال الدروز حتى اليوم يلعنون نشتكين ويجلّون أنوشتكين (١)

اختلف المؤرخون إذن في نسبة الدروز إلى أي من الشخصين

(١) الدروز للزغبي ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٢ والدروز لسليم أبو اسماعيل ص ٧ .

سالفيْ الذكر ، ومهما كان الأمر فإن نشتكين قد بشر بـــألوهية الحاكم في وادي تيم الله بن ثعلبة ووجد بعض الأنصار الذين انخدعوا بدعوته ، وظل هؤلاء على مسرى التاريخ عنصر فساد في صفوف الموحدين ، ودعاة بدعة وفرقة لما تنطوي أهدافهم عليه من سوء الطوية إزاء الإسلام وصفوف المسلمين .

والدروز عرب خلص ، فهم من لخم وتنوخ ، وهما قبيلتان عربيتان لكل منهما ماض مشرق . وإن لم يكن كل أبناء القبيلتين ممن اعتنقوا المبادىء الدرزية ، حتى إننا نجد أحيانا الأسرة الواحدة وقد ضمت فروعها سنيين وإمامية ودروز ، وقد لعب الدروز دورا مشرفا مشرقاً إبان المحن التي تعرض لها الوطن الإسلامي ، فقد حاربوا الصليبيين تحت راية صلاح الدين ، وحاربوا التتار تحت راية بيبرس ، وكانوا المرابطين الساهرين على الثغور البحرية الشامية ، فأحسنوا السهر وأبلوا البلاء الحسن في الدفاع عن حمى أرض المسلمين ، ولا زال التاريخ الحديث يذكر لهم تصديهم للفرنسيين في معارك جبل العرب حيث واجهوا الدبابات والمصفحات بأجسامهم وسيوفهم فأعطبوها وقضوا على من فيها من الجنود، ولم يزل للدروز نصيبهم في الكفاح المتصل الحلقات حتى كان موقفهم الأخير في ثورة لبنان صيف ١٩٥٨ حين نظموا صفوفهم واشتركوا في الثورة التي حررت لبنان من حكم أنصار الاستعمار .

ويسكن الدروز حاليا بعض مناطق جبال لبنان مثل مناطق الشوف والمتن ، ولهم مدن ذات تاريخ مجيد في حركتهم مثل عبية والشويفات وبعقلين ، وكان لهم في هذه المدن إمارات ، وهناك

قرى كانت درزية في الماضي مثل دار القمر المعروفة بدير القمر التي كانت بلدة الدروز الرئيسية في القرن التاسع عشر وكانت في يوم ما عاصمة للمعنيين والأمر كذلك بالنسبة لبسكنتا وبكفيا بل وكثير من قرى جبل كسروان .

وفي الإقليم السوري يكثر الدروز في جبل حوران المعروف حاليا باسم جبل العرب ، كما يسكنون في جبل السماق والجبل الأعلى وقمري قنسرين وبعض قرى أنطاكية في لواء الإسكندرونة ، ويكثر الدروز أيضا في بعض أقاليم فلسطين المحتلة مثل صفد وعكا وجبل الكرمل وطبرية [1] .

وإذا كنا قد عرضنا لتاريخ الدروز ونسبتهم وأصلهم القبلي في بساطة بقولنا إنهم ينتمون إلى قبائل لخم وتنوخ ، فإن بعض المؤرخين الدروز يميلون إلى الغوص بنسبهم إلى أغوار بعيدة سحيقة ، ولكن في حوزة العروبة حيث يقولون إنهم من عرب سوريا والعراق ، وجدوا فيهما منذ فجر التاريخ ولبثوا قائمين على الدهر بمن اندمج فيهم وانضم إليهم من عرب اليمن والحجاز الذين قدموا هذه البلاد واستوطنوها ، فامتزجت دماؤهم قبل النصرانية والإسلام وقبل بعث موسى وعيسى ومحمد الذين اعتنقوا دياناتهم على التعاقب .

وسواء أصح هذا الكلام من حيث الأصول الأولى أو لم يصح ، فإن المؤرخ الدرزي يهدف من وراء ذلك — ولا بأس — إلى إثبات أن الدروز طائفة متماسكة منذ القدم وأنهم أهل كتاب دائما وعلى

(١) أبو إسماعيل ٤٣ ، ٤٤ .

مسرى الزمان الطويل ، فقد انضووا تحت نور الرسالات السماوية رسالة إثر رسالة ، آمنوا بموسى فلما جاء عيسى صدقوا به فلما جاء الإسلام سارعوا إلى اعتناقه .

وهم في ظل الإسلام ذوو أسماء متتابعة ، ففي عهد الرسول عرفوا باسم الأنصار والمؤمنين ، ثم عرفوا على التعاقب بالشيعة العلوية ثم شيعة آل محمد ثم شيعة جعفرية ثم إسماعيلية ثم موحدين ثم قرامطة ثم فاطميين ثم دروز وهذا الاسم الأخير هو الذي ظلوا يعرفون به إلى اليوم وذلك لمحاربتهم تحت لواء الأمير أنوجور أبي منصور المعروف باسم انوشتكين الدرزي ، ومن هنا ذهب البعض إلى أن الدرزية نسبة عسكرية وليست عقائدية [1] . واما الاسم العقائدي فهو الموحدون ، وشريعتهم يطلقون عليها مذهب التوحيد .

الدروز إذن فرقة إسماعيلية باطنية ، وهم يعتبرون أنفسهم الآن ولألف سنة مضت في دور الستر فلا يكشفون عن أمر عقائدهم وأئمتهم ما يلقي بعض الضوء على مذهبهم ، الأمر الذي شجع الكثيرين من المزيفين والمستعمرين أن يخترعوا بين الحين والحين بعض الرسائل وينسبوها إلى الدروز ، ولقد لعبت المصادفة الحسنة أكثر من مرة دورا رائعا في كشف كثير من الزيف الذي يحاول بعض أعداء الإسلام نسبته إلى الدروز لكي يتصدع الصف الإسلامي ، ويرمي الدروز بالمروق والضلال ومن ثم يبعدون عن الصف مجموعة من خيرة رجال المسلمين وشجعانهم .

(١) أبو إسماعيل ص ٦٣ ، ٦٤

وأغراض الاستعمار واضحة في كل ذلك فطبيعة الاستعمار – لكي يسود ويعيش – التفريق بين صفوف الأمة الواحدة ، فهو يغري السنّة ضد الشيعة ، والجعفرية ضد الدروز ، والدروز ضد السنة ، وهكذا حتى يستطيع أن يقيم لنفسه سندا ودعامة ، ولكننا لا نبرىء أنفسنا من الإهمال ، فبالاستطاعة أن يكشف كل فريق من الفرق الإسلامية عن طبيعة مذهبه حتى نقطع الطريق على المزيفين والصائدين في الماء العكر ، بخاصة وأننا في زمان كفلت فيه حرية العقيدة إلى حد بعيد ، بل إلى أقصى الحدود .

زهد الدروز وأدبهم :

رجال الدين الدروز معروفون بالزهد الشديد والتقشف وتحكى عنهم حكايات تدعو إلى الإعجاب في هذا الميدان ، ولكن الملاحظ أن الدروز جميعا لا يستطيعون الأخذ بأسباب التدين فهناك «العقال» وهم مشايخ الدين ، وهناك «الجهال» وهم غير رجال الدين الذين لا يستطيعون معرفة أمور دينهم والاطلاع عليه إلا بعد امتحان شاق طويل .

والزهد عند مشايخ الدروز لا يعني التواكل، بل هو هدوء وعفة وصدق ونزاهة وابتعاد عن الشبهات والمحرمات والشهوات وإعراض عن بهارج الدنيا وزخارفها ، وبعد عن الحكام والسلطان وتلاوة وعبادة ، مع توخي كسب الحلال من الرزق الذي يقيم الأود ويسد الرمق .

والزاهد عند بني معروف أي الدروز يبدأ مسلكه بالاطلاع على

حياة المتصوفة واستقصاء أخبارهم ويأخذ من آدابهم ما يستطيع الأخذ به ، ويقبل على قراءة أخبار كبار الزهاد مثل معروف البلخي وذي النون المصري والجنيد وبشر الحافي وإبراهيم بن أدهم وغيرهم .

ويتمثل شعر الزهد عند الدروز فيما أنشده زهادهم الذين تفرغوا للعبادة وقاوموا النفس وجاهدوا شهواتها ، وفي مقدمة هؤلاء الأمير سيف الدين يحي التنوخي المولود في «عبية» بلبنان سنة ٨٧٩ هـ، وكانت «عبية» في ذلك الوقت ذات مكانة سامية لأنها كانت من مواطن الأمراء التنوخيين ؛ وفيها عاش كبير مجتهدي الدروز السيد جمال الدين عبدالله التنوخي المعروف بالأمير السيد ، وكان شاعرنا أحد تلاميذه ، والأمير السيد قبر لا يزال يزار حتى يومنا هذا في «عبية» والقبر في مسجد كان السيد يلقي فيه دروسه وتعاليمه .

يقول الأمير سيف الدين في إحدى قصائده عامدا إلى الزهد :

تجرِي الأمورُ وما للمرءِ معتبرُ
حتى تحلَّ به في نفسه العبرُ
ما ردَّه عن ضلالٍ في مآربهِ
عندَ الخمولِ ضيا شمسٍ ولا قمرُ
لا حيلة في قضاء ساقه قدرٌ
ففي المقادير يَعْمَى القلبُ والبصرُ
والمرءُ ما دامت الأيامُ مدبرةً
عنه تساوى لديه النفعُ والضَّرَرُ

إن القضاءَ إذا لاحتْ بـوادرُهُ
لم يُنْجِ من خطبه خوفٌ ولا حذرُ

يسعى إليه الفتى طوعاً وتتبعه
أَوامرُ النفسِ والمقضيُّ مستترُ

والنفسُ أمارةٌ بالسوءِ إن طلبتْ
أمراً يهون عليها المسلكُ الوعرُ

تغوي النفوسُ بما لا تستطيع له
صبراً ويُسلب فيه العزُّ والظفرُ

عدوُّ كـل لبيب نفسه ، فـإذا
ما استحكمت منه لا تُبْقي ولا تذرُ

ما تنتهي بوعيد فـي شبيبتهـا
إلا إذا ما نهاها الشيبُ والكبرُ

فجاهد النفسَ عصياناً وكن رجلا
ما عنده للهـوى إثرٌ ولا خبـرُ

إن الهوى حيثما لذَّتْ مـواردُهُ
عقبى اللذاذةِ منـه الهمُّ والفِكرُ

حُلو المذاقِ ، ومرٌّ عند مطعمـه
كالشهد أُودِعَ فيه الصابُ والصبرُ

إن سرَّ موردُهُ ساءَت مصـادِرُهُ
وربما ساءَ منـه الوِرْدُ والصدرُ

ويمضي الشاعر في هذا النهج الجميل إلى أن يقول :

فراقب الله في مسعاك محتـذراً
فالله أسرعُ مكْراً بـالأُلى مكروا

إياكَ إيـاكَ مـا تُخشى عواقبُهُ
لا خيرَ في جنةٍ من بَعْدِها سَقَرُ

شرُّ الأُمورِ التمادي في اللجاج على
أمرٍ تكون بـه للشرِّ تنتظـرُ

لا تَرْمِ نفسَك في أمـرٍ تهمّ به
عند الغواية حتى تُؤْمَـنَ الغيـرُ

ولا تظنَّ بها خيراً وإن وعـدت
ما يصدُقُ الظنُّ حتى يشهد النظرُ

ولا تهوِّنْ عليهـا نيْلَ بغيتها
فما يعود لها عن ذاك مُصْطَبـرُ

فإن قضيتَ مناهـا في غوايتهـا
قضى عليك لهيبُ النـار والشَّرَرُ

والنفسُ بالغة فـي شر صاحبها
ما ليس تبلغه بيضٌ ولا سمُـرُ
قد خاب من جاءها يبغي هوايتها
إن كان باللوم والتعنيف يبتدر
وضل من ظن أن العذلَ يزجرها
عن المعاصي أو التحذيرُ والنذُرُ
ما تنتهي بوعيدٍ من تصدرهـا
ولا تروّعها الآيات والسُّوَرُ (١)

ومن زهاد الدروز الذين ترجموا عن زهدهم شعراً الشيخ يوسف الكفرقوقي نسبة إلى قرية كفرقوق بوادي التيم بلبنان ، وكان عالما متدينا لا يفتأ يتلو القرآن الكريم ويراجع الكتب الدينية . وقد افتتن الشيخ بالمحسنات في شعره ولزوم ما لا يلزم ، وله على كل حرف من حروف المعجم قصيدة ، يستفتح كل بيت من أبياتها بنفس القافية التي ينتهي بها والقصيدة كلها من قافية واحدة وعلى رويّ واحد ، ولا يكتفي الشاعر الزاهد بذلك بل يقدم لكل قصيدة بمقدمة يبدأ كل جملة فيها بالحرف الذي اختاره قافية لقصيدته مثال ذلك قوله في حرف الباء «بادر إلى مولاك بالإنابة ، باتل (٢) طاعته واتل كتابه ، باين أعداءه بموالاة أحبابه ، باشر نفسك بملازمة بابه ؛ بردّ قلبك بلذيذ مناجاته

(١) عادل أبو شقرا : ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف ٢٧ – ٣٠ .
(٢) باتل طاعته : أي انقطع إليها .

وخطابه ؛ باين شهوات نفسك الأمارة ، بواغتها لم تزل بالخبث غدارة ؛ باعد مطلوباتها في أعدى أعداك ، بهتانها إن أطعته أهلكك وأرداك ، براءتك من وساوسها تقربك إلى مولاك :

بباب الرجا قم واغتنم لذة القرب
إلى مالك الأَملاك إن كنتَ ذا لُبِّ
بأَوفى صفاءٍ فـي ولاه لعلـه
يسامح فيما قد جنيتَ من الذنبِ
بأَلطافه يصفو ويصفح منَّـةً
ويشفي الذي يشكوه من لذةِ الكربِ
به جَبْرُ كسرِ المذنبين فإن أتَـوا
إلى بابه يرجوا الخلاص من الْعَتْبِ
بإذعانهـم والانكسارِ وذُلهـم
لديه ، ويجنوا عنده ثمرَ الحب
بجنح الدياجي يبسطون أَكُفَّهم
إليه دعاءً بانكسارٍ إلى الـرب
بحقك يا مولى العباد أبحْ لنـا
شهودَك واكشفْ دوننا مانع الحُجْبِ
بعزّك يا ذا العزِّ عطفـاً لذلنـا
وأوردْ علينا الخير من منهلٍ عذبِ

بما نرتجي من لطف عفوك هبْ لنا
رضاك بيوم لا يؤمَّلُ بالصَّحْبِ
بك – الله – ينجو المستجير وما لمن
ببابك مطلوب سوى الفوزِ بالقربِ

والشيخ الكفرقوقي يتلاعب في النظم والنثر – كما أسلفنا – بإلزام نفسه مالا لزوم له ، وهو قد أنشأ لكل حرف قصيده مسبوقة بمقدمة نثرية ملتزما فيها حرفا واحد ، وفي كل مقدمة وكل قصيدة لا يخرج عن المعاني الصوفية المألوفة عند سائر المتصوفة ، فلا يكاد يحس القارىء أن صاحب الأبيات ينتسب إلى السنة أو الشيعة أو الدروز ، ولعل السبب في ذلك أن مدرسة التصوف واحدة ، ومعانيها واصطلاحاتها واحدة ، ومن هنا وجدنا أنفسنا أمام شعر زاهد وابتهالات صوفية لا تشير إلى مذهب متميز ولا تدل على طائفة بعينها .

ومن أعلام نساك الدروز وزهادهم الشيخ محمد أبو هلال الذي لقب لفرط تدينه ورفعة منزلته بين قومه «بالشيخ الفاضل». وقد عاش الشيخ الفاضل في القرن الحادي عشر الهجري في قرية تدعى «كوكبة» في جبل الشيخ ، وتوفي سنة ١٠٥٠هـ ودفن في قرية «عين عطا» بوادي التيم ولا زال قبره يزار حتى اليوم .

وقد حصَّل الشيخ علومه في دمشق ، فحفظ القرآن ووعى تفسير البيضاوي ونبغ في التجويد والحديث والنحو .

وللشيخ محمد أبي هلال قصص كثيرة تصور مبلغ زهده حتى إنه

كان يجرش الشعير بيديه ويعجنه بقشوره ويصنع منه خبزا ، وهو ما يسمى عند الزهاد «بالخشكار» ، وكان يحتل بفضل زهده الشديد مكانة طيبة بين قومه ، وقد كانوا يستفتونه في أمر دينهم وأحوالهم ، وكانت له فتاوى على جانب من الجرأة ، من ذلك أنه لا يحل زواج الرجل أو المرأة ما لم يكن احتلام من الجهتين حتى ولو بلغا السبعين من العمر لأن الزواج من وجهة نظره لم يحلل إلا للولدية ولأجل بقاء النسل البشري ليس غير [1] ، ولعل الشيخ كان ينظر إلى علاقة الرجل بالمرأة من وجهة نظره كصوفي وحسب ، والصوفية يباعدون بين أنفسهم وبين ملاذ الدنيا حتى ما أحل الله منها .

وللشيخ الفاضل شعر كثير في الزهد والمناجاة والتشفع بالرسول وآل بيته الكرام ، فمن أمثلة شعره في المناجاة قوله :

يا مؤنس الأبرار في خلواتهم
يا خير من حطت به النزالُ
من ذاق حبك لا يريد زيادةً
أنت الحبيبُ وما سواك محالُ
وجمال نورك باهرٌ متألقٌ
ما لا يعادله سنىً وجمالُ
وكمالُ مجدك لا يُحَدُّ لِوَاصفٍ
إذْ لا يدانيه عُلاً وكمالُ

(١) أبو شقرا ص ٨٦ ، ٨٧ .

يا خالقَ الأكوانِ يا نورَ الهدى
عزَّ الجلالُ وجلَّت الأفعالُ
يا ليت نفسي في هواكَ مطيعةٌ
فهواك صَفْوٌ للنفوس صَقالُ
يا مالكَ الملكوتِ يا مولى الورى
يا صاحبَ الجبروتِ يا مفضالُ
بالقرب منك حياتُنَا ونجاتُنَا
والبعدُ عنك متيهةٌ وضلالُ
مولاي لا تقطع رجائي ، سيدي
من لا تَخيب بجودِك الآمالُ
والحمدُ مختصٌّ بمجدِك دائمٌ
والعزُّ والتمجيدُ والإجلالُ
بعد الصلاةِ على النبيّ وآلِه
والمجدُ والتعظيم فيه يُقال (١)

والشيخ الفاضل وغيره من شعراء الدروز لم يتعدوا هذا النحو من القول في الزهد والابتهال ، ذلك أن الزهد والتقشف يكاد يكون أمراً ضروريا بالنسبة لطائفة المشايخ عند الدروز حتى يومنا هذا ، بل هو

(١) المصدر السابق ٩٤ ، ٩٥ .

كذلك ، فهم لا يركنون إلى الزينة ولين العيش ، ولا يسعون إلى المباهج ولا يأخذون بأسباب الترف ، بل تراهم مخشوشنين متقشفين يجمعون بين القناعة والعفة والاستقامة والبعد عن المظان والشبهات ، ولكنهم مع هذا الزهد وتلك القناعة لا يثنيهم ما هم فيه من تنسك عن خوض الغمار إذا دعا داعي الكفاح ، فقد كانوا يخوضون المعامع في صفوف صلاح الدين ضد الصليبيين تظللهم عمائمهم البيضاء التي كانت تلقي الهيبة والرعب في صفوف العدو .

العقيدة الدرزية :

الحديث عن العقيدة الدرزية أمر لا يخلو من كثير من الحرج ، فالقوم كما ذكرت يتصفون بالأخلاق الكريمة والمروءة والوفاء والوطنية ، ولكن طبيعة «السّتر» الذي يسدلونه على عقائدهم قد جعل الناس يذهبون في ذلك مذاهب شتّى ، فمن الكتّاب من نسب إليهم مايخرج بهم عن حظيرة الإسلام ، بل ما يسيء إلى مسلكهم الخلقي مع أن الذين عاشروا الدروز وعاشوا بينهم وخالطوهم يشهدون لهم بالفضيلة والكرم والعفة ، ومن الكتّاب من جعل منهم فرقة إسلامية صحيحة الإسلام كاملة الإيمان ، أما القوم أنفسهم فإنهم لم يحاولوا أن يكشفوا للناس عن طبيعة عقيدتهم ودخيلة مذهبهم ، ومن هنا سنحت الفرصة لكثيرين من أعدائهم وأعداء الصف الإسلامي فزيفوا كثيرا من الرسائل المليئة بالانحرافات العقائدية ونسبوها إليهم ، والدروز أنفسهم في غمره هذه اللجج لم يحاولوا أن يردوا على هذه الاتهامات ردا حاسما ، لأنهم بدورهم يحتفظون بكتبهم مخطوطة في أماكن أمينة لا يطلع عليها إلا

الثقاة من علمائهم ، وما دامت العقيدة مكتنفة بالغموض محوطة بالسرية فإن النتيجة الطبيعية أن تتضارب حولها الآراء وتتصارع إزاءها الأفكار ذات اليمين وذات الشمال .

وكم ودّ المسلمون لو أن هذه الفرقة القليلة العدد العزيزة القوة كشفت للناس عن دخيلة مذهبها حتى يتبين الأبيض من الأسود ويقطع الطريقُ على كل مزيف او مزور أو صاحب غرض أو حليف مرض ، ولكن لعل المتحررين منهم يخشون صولة الرجعيين الذين يكثرون في كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية وليس عند الدروز وحدهم .

من أجل ذلك سأحاول أن أقدم عقيدة الدروز من واقع الكتب التي تعرضت لهم سواء أكان ذلك لهم أو عليهم ، ثم من واقع اتصالي الشخصي بكبار رجالهم وما قد سمحت لهم طبيعة المذهب أن يصرحوا به ، خصوصا وأن من لجأت إلى الانتفاع بهم من المكانة العليا الدينية والدنيوية عند القوم بحيث يكون كلامهم وأفكارهم موضع الاعتبار .

ألوهية الحاكم !!؟

الذي لا شك فيه أن الدروز أتباع للحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي المعروف ، وقد كثرت أقوال المؤرخين حول الحاكم ، فأكثر المؤرخين أيد أن الحاكم قد ادعى الألوهية فترة من حياته ثم عاد وعدل عنها ثم عاد مرة أخرى وادعى تجسم الإله وحلوله في شخصه ، وظل على دعواه تلك إلى أن اختفى موتاً أو قتلا أو «غيبة»

حسب اختلاف مسميات وفاته[1] ، وأن داعية من دعاته اسمه نشتكين الدرزي قد بشر بألوهيته بين سكان وادي التيم في الأقطار الشامية فآمن القوم به ، بل هناك من يقول بأن من المحتمل أن يكون ادعاء الحاكم للألوهية ليس إلا نتيجة لتعليم نشتكين المذكور[2] .

وأصحاب هذا الرأي لا يقصرون أمر تأليه الحاكم على نشتكين وحده بل يذكرون أن حمزة بن علي أكثر الناس التصاقاً به وصفيه وفيلسوف المذهب قد صنف كتابا ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز ثم إلى ابنه الحاكم ، وإذن فالحاكم في نظر حمزة وأتباعه إله بطريق الحلول .

وكان لحمزة هذا أنصار كثيرون آمنوا بفكرته في الحاكم ، وجاهروا بنشر هذه الدعوة الجديدة ، ولعل أكثرهم حماسا رجل يقال له حسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم وقد قرب الحاكم هذا الرجل إليه وخلع عليه ، ولكن فكرة تأليه الحاكم لم تلق غير الاشمئزاز والسخرية من الناس ، فتقدم رجل كرخي ذات يوم من الأخرم وألقاه عن فرسه ثم قتله ، فما كان من الحاكم إلا أن أمر بقتل الكرخي ، غير أن الناس انتهزوا الفرصة فهاجموا دار الأخرم ونهبوها[3] .

فالدروز في نظر تلك الطائفة من المؤرخين هم الذين آمنوا بألوهية

(١) لم تصادفني كلمة موت أو وفاة بالنسبة للحاكم ولكن المصادر الدرزية تستعمل كلمة « غيبة » أو « اختفاء » .

(٢) الدولة الفاطمية لحسن إبراهيم ص ٣٥٣ .

(٣) حسن إبراهيم ص ٣٥٦ عن نهاية الأرب للنويري (المخطوط) .

الحاكم وقد أدى ذلك إلى فتنة كبرى في صفوف طائفة الإسماعيلية ، الأمر الذي استدعى حميدالدين الكرماني أكبر علماء الإسماعيلية أن يترك مقره بالعراق وأن يفد إلى مصر لكي يساهم في القضاء على تلك العقيدة الجديدة ، وأن يكتب رسالة عرفت باسم «الرسالة الواعظة» يثبت فيها كفر وإلحاد من تحدثه نفسه بتأليه الحاكم بأمر الله ، ولم يترك الكرماني مصر إلا بعد قتل الحاكم بأمر الله ، ولذلك فإن الدروز يعتبرون أول فرقة انشطرت عن فرقة الإسماعيلية [1] .

لقد كان حمزة بن علي مؤسس العقيدة الدرزية ، وقد وضع ميثاقا أطلق عليه «ميثاق ولي الزمان» يقول فيه — نقلا عن دى ساسي — .

«توكلت على مولانا الحاكم الأحد ، الفرد الصمد ، المنزه عن الازدواج والعدد ، أقر فلان بن فلان إقرارا أوجبه على نفسه ، وأشهد به على روحه في صحة من عقله وبدنه وجواز أمره ، طائعا غير مكره ولا مجبر ، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها وأنه لا يعرف غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره ، والطاعة في العبادة ، وأنه لا يشرك في عبادته أحدا مضى أو حضر أو ينتظر ، وأنه قد سلم روحه وجسمه وولده وجميع ما يملكـــه لمولانا الحاكم جل ذكره ؛ ورضي بجميع أحكامه له وعليه ، غير معترض ولا منكر لشيء من أفعاله ساءه ذلك أم سره . ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره ، الذي كتبه على نفسه وأشهد به على روحه ، وأشار به على غيره ، أو خالف

(١) كامل حسين الإسماعيلية ٤٣ .

شيئا من أوامره ، كان بريئا من الباري المعبود ، وحرم الإفادة من جميع الحدود ، واستحق العقوبة من الباري العلي جل ذكره . . ومن أقر أنه ليس في السماء إله معبود ، ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين »[1] .

إن النص السابق يدل صراحة على تأليه الحاكم من قبل حمزة ، والنص مأخوذ من دى ساسي الذي لم يعترض على كتابته أحد من الدروز ، وقد تمنيت مخلصا لو أن أحدا من أصدقائنا أبناء الطائفة قد عرض لهذا القول بالتكذيب أو بالتأييد حتى تحل هذه المشكلة .

على أن أمامي نصوصا أخرى كثيرة تذهب كلها إلى تأييد خبر ألوهية الحاكم بأمر الله، والنصوص مأخوذة من كتب بعض إخواننا السنة ومن كتب بعض الإخوان الدروز على السواء ، وهؤلاءوأولئك لم يعرضوا لنفي هذه الألوهية في الوقت الذي يرفضها إخواننا في أحاديثهم بشدة وحماس إلى درجة كبيرة ، ففي رسالة «السيرة المستقيمة» التي كتبها حمزة سنة٤٠٩هـ متحدثا فيها عن الأدوار الكبرى والصغرى والحدود، يقول، وقد وضع كلمة «المولى سبحانه» و «المولى جلّت قدرته» بدلا من اسم الحاكم :

«لكني أذكر لكم في هذه السيرة وجوها قليلة العدد كثيرة المنفعة لمن تفكر فيها ، فأول ما اختصر في القول ما فعله المولى سبحانه مع برجوان وابن عمار وهو يومئذ ظاهر لا يراه العامة إلا على قدر عقولهم، ويقولون صبي السن وملك المشارقة كافة مع برجوان ولابن عمار ملك

(١) الفاطمية ٣٥٩ — ٣٦٠ .

المغاربة ، فأمر مولانا بقتلهم فقتلوا قتل الكلاب ، ولم يخش من تشويش العساكر والاضطراب ، وأما أمر ملوك الأرض فما يستجري أحد منهم على مثل ذلك ، ثم أمر بقتل ملوك كتامة وجبابرتها بلا خوف من نسلهم وأصحابهم . ويمشي أنصاف الليالي في أوساط ذراريهم وأولادهم بلا سيف ولا سكين ..... وكان المولى جلت قدرته يخرج أنصاف الليالي إلى صحراء الجب ويلتقي به حسان بن عليان الكلبي في خمسمائة فارس ويقف معهم بلا سلاح ولا عدة ....إنكم ترون من أمور تحدث بما شاهدتموها من المولى ما لا يجوز أن تكون أحوال من البشر لا ناطق ولا أساس ولا إمام ولا حجة ، فلم تزدادوا بذلك إلا عمى وقلة بصيرة» (١)

وأمامنا أيضا رسالة حمزة الموسومة بـ «كتاب فيه حقائق ما يظهر قوام مولانا جلّ ذكره من الهزل» وهذه الرسالة بالرغم من طولها فإن فيها الكثير مما يلفت النظر ويجب الوقوف عنده ، مثل قوله : «ولو نظروا إلى أفعال مولانا جلت قدرته بالعين الحقيقية وتدبروا إشارته بالنور الشعشعاني لبانت لهم الألوهية والقدرة الأزلية والسلطان الأبدي وتخلصوا من حكم إبليس وجنوده الغوية ، ولتصوّر لهم حكم ركوب مولانا جل ذكره وأفعاله وعلموا حقيقة المحض في جده وهزله ، ووقفوا على مراتب حدوده ، وما تدل عليه ظواهر أموره جل ذكره وعز اسمه ولا معبود سواه» (٢)

(١) طائفة الدروز للدكتور محمد كامل حسين ص ٤٤ ، ٤٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٥ — ٥٠ .

وفي «رسالة البلاغ والتوحيد» يجري الحديث عن الحاكم بأمر الله هكذا : «ومولانا سبحانه معلّ علة العلل جل ذكره وعزّ اسمه ولا معبود سواه ، ليس له شبه في الجسمانيين ولا ضد في الجرمانيين ولا كفؤ في الروحانيين ولا نظير في النفسانيين ، ولا مقام له في النورانيين». وفي موضع آخر تتحدث عنه الرسالة بأن «سلطان لاهوته لا يدرك بالعين ولا يعرف بالكيف والأين». (١)

وفي رسالة «سبب الأسباب» يتحدث حمزة عن الحاكم في مقام التعظيم والألوهية قائلا : «فقولْي توكلت على مولانا جل ذكره أردْتُ به لاهوت مولانا الذي لا يدرك بوهم ولا يدخل في الخواطر والفهم . ما من العالمين أحد إلا هو معهم وهم لا يبصرون ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وهو جل ذكره أعظم من أن يوصف أو يدرك ، ومن اتكل عليه فهو يكفيه جميع مهماته»(٢)

إن هذا هو التأليه بذاته ، تأليه سافر واضح لا لبس فيه ولا إبهام فيما لو صحت نسبة هذه الأقوال الى حمزة .

وفي رسالة الغيبة يذهب صاحبها إلى أن الحاكم يتخذ من حين لآخر مقامات ناسوتية مثال ذلك قوله: «أظهر لنا ناسوت صورته تأنيا للصور ، فحار فيها الفكر حين فكر ، وعجزت العقول عن إدراك أفعالها ، واعترفت بالعجز والتقصير في معلومها ....فبتقدير أحكامه مَنّ على خلقه بوجود صورته من جنس صورهم ، فخاطبتهم

(١) طائفة الدروز ص ١٠٥ .
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

الصورة بالمألوف من أسمائهم ، فأنست العقول إلى ظاهر صو-
واستدرجتهم إلى معرفته بلطيف حكمته امتنانا منه على خلقه »

وانبثاقا من هذه النصوص يذهب المرحوم الدكتور محمد كامل حسين ، وهو من المتوفرين على دراسة الفرق الباطنية من إسماعيلية ودرزية ، ولديه مكتبة نفيسة مليئة بمخطوطات عقائدهم ، إلى أن الدروز يؤلهون الحاكم بأمر الله ، وهو بشر في الأعين المجردة عند الذين لا يعرفونه ، وأما الدروز الذين عرفوا حقيقته فيذهبون إلى أن الإله المعبود اتخذ لنفسه صورة إنسية سماها الناس الحاكم بأمر الله مثل ما يتخذ الإنسان ثيابه فيرتديها ثم يطرحها ويرتدي غيرها ، والثياب ليست من جنس من يرتديها ولا تشبهه في شيء ، وكذلك الإله المعبود ليس من جنس الصورة التي اتخذها ولا هي شبيهة به ، وهو يظهر في هذه الصورة الناسوتية المتغيرة ، ففي كل عصر ظهر فيه اتخذ صورة ناسوتية تختلف عن الأخرى (١)

ومن بين المصادر الدرزية التي بين يدي وتتحدث عن ألوهية الحاكم كتاب «مذهب الدروز والتوحيد» الذي سبب ظهوره موجة من الجدل الشديد وعدم الرضى في الأوساط الدرزية الأمر الذي انتهى بالكتاب إلى الاعتكاف وبطائفة من مفكري الطائفة إلى كتابة تعليقات على ما جاء فيه من أمور وقضايا كانت من وجهة نظر العقيدة ونظرهم في حاجة إلى تصويب .

وقد كان الكتّاب الذين اعترضوا على بعض ما جاء بكتاب

(١) طائفة الدروز ص ١٠٦ .

الأستاذ النجار من الموضوعية في ردودهم بحيث لم ينهجوا نهج السبّ والتعريض الذي ألفناه عند الكثيرين حينما يتطاولون على مخالفيهم ، بل إن القوم رغم عدم رضاهم عن بعض ما جاء به كتاب « مذهب الدروز والتوحيد » التمسوا للمؤلف العذر لأن الناس في حاجة إلى ضرورة التعرف على عقيدتهم ، وقد يبدو الأمر من الغرابة بمكان أن ينتسب المرء إلى عقيدة وأن يؤمن بمذهب لا يعرف من أمره شيئاً .

لعله من الانصاف بمكان أن تكون مقدمة الكتاب الذي يردّ ويعترض ويصحح تضم من حيث المعنى غير المباشر تبريرا لعمل الاستاذ النجار في إقدامه على التعريف بمذهبه وعقيدة طائفته حتى ولو أخطأ ، وفي ذلك يقول الاستاذ كمال جنبلاط : «نعتقد مخلصين في ذلك ان من هذا التوجه والسعي واجبا يترتب على المشايخ والمسئولين الروحيين ونفرٍ من المثقفين الذين تتوفر فيهم الأمانة الروحية ويستطيعون الولوج في مثل هذه الأبحاث المفيدة الشيقة الدقيقة ، وأن عليهم أن يعكفوا على هذه المشاركة في التأليف والعمل ، وأن يوحدوا جهودهم في التبيان والإصلاح إذا أردنا أن نتجنب أو نتفادى قيام عزلة فكرية وفاصل معنوي بين هؤلاء المسئولين الروحيين وبين رعيل المثقفين بالعلم العصري المادي ......وكيف يتسنى لمن لا يعرف شيئا عن مبادىء دينه العامة أن يسترشد به وأن ينطبع بقالبه ، وأن يتشخص في صورته ، وأن ينتسب روحيا وحتى اجتماعيا إليه (١)

(١) أضواء على مسلك التوحيد : المقدمة ص ١٠ .

لقد تتبعت آراء الاستاذ عبدالله النجار في كتابه وتابعت الردود التي كتبت في صدده في كل ما عرض له من نقاط استوجبت الرد على صفحات كتاب «أضواء على مسلك التوحيد» سواء ما جرى منها في المقدمة الطويلة الممتعة التي قدم بها للكتاب الاستاذ كمال جنبلاط أو التوطئة القيمة الممهورة بتوقيع بايا زيد ، أو البحث الموضوعي المفيد الذي كتبه الصديق الدكتور سامي مكارم وبذل فيه من الجهد الصادق ما ينم عنه محتواه .

غير أني سوف أستفيد مما كتب الاستاذ النجار وسوف أراعي ألا أعرض لأيّ من النقاط التي جاء بها وكانت موضع اعتراض إلا مقرونة بالرد عليها . وسوف يكون ما أتمثل به من كتابه من الفصول والفقرات التي لم يقم عليها ملاحظات أو اعتراضات عن طريق الأقلام الثلاثة التي تعاورت كتاب «الأضواء».

وهنا أعود مرة أخرى إلى النقطة التي تثير اهتمامي ، وهي ألوهية الحاكم وتأليه حمزة بن علي له وهو — أي حمزة — من نعرف مكانةً وقدرا في العقيدة الدرزية ، فلقد كان حمزة بن علي — كما يقول السيد كمال جنبلاط — بدون ريب سيداً من أسياد المسلك الحكمي التالد والطريف . ومن أغزر وأخطر الشخصيات الفكرية والتنظيمية القيادية والروحية التي تبرز لنا في منعطفات التاريخ. (١)

بل إنه بالنسبة للحاكم كسلمان الفارسي بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم من وجهة النظر في العقيدة الدرزية ، ومعلوم خطر مكانة سلمان الفارسي عند الدروز .

(١) المصدر السابق ص ٥٠ .

والحديث عن حمزة بن علي مقرون دائما عند الإخوة الدروز بالإجلال والإعظام سواء أكان ذلك في مجرى حديث لسان أو على مسرى صفحة من كتاب مطبوع أو ورقة من سفر مخطوط .

إن حمزة نفسه هو الذي أعلن ألوهية الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٨هـ بعدما ظهرت حماقات نشتكين الدَّرَزي الداعي الذي نسب الدروز إلى اسمه في ديار الشام (١) .

ويحاول الأستاذ النجار أن يبرىء الحاكم من دعوة حمزة ، ويذهب إلى أنه لا يملك الدليل على علم الحاكم بها (٢) ، ولكن الدكتور سامي مكارم ، يرى أن الأمر لم يكن كذلك فإن دعوة التوحيد — أي المذهب الدرزي — قد نمت في رعاية الإمام الحاكم بأمر الله ومبادرته .... وقد ورد في كثير من رسائل الدعوة أن هذه الرسائل كانت ترفع إلى الحضرة قبل أن تطلق (٣)

والحق أني طالما ساءلت نفسي مخلصا . هل هذه الرسائل التي بين أيدينا الآن والتي جاء بطرف منها الدكتور كامل حسين وبأمثلة أخرى منها الاستاذ النجار هي نفسها التي كانت تعرض على الإمام وفيها الكثير الكثير من تأليهه . أم هناك رسائل غيرها ، أم هي نفسها هذه الرسائل ثم حرفتها الأيدي العابثة والأفكار غير السوية .

ففي الرسالة رقم ٦ التي جاءت بكتاب «مذهب الدروزوالتوحيد»

(١) مذهب الدروز والتوحيد للأستاذ عبد الله النجار ص ١١١ .
(٢) مذهب الدروز والتوحيد ص ١٠٤ .
(٣) أضواء على مسلك التوحيد ص ١٠٣ .

يقول حمزة عن كتابه «إنه رفعه للحضرة اللاهوتية سنة ٤٠٨هـ ويقول إنها أولى سني ظهور عبد مولانا ومملوكه ، هادي المستجيبين ، المنتقم من المشركين بسيف مولانا جل ذكره ، ولا شريك له ، ولا معبود سواه [١] ، ويتكرر ذكر الحضرة اللاهوتية في الرسالة ١٦ .

وفي الرسالة رقم ٩ يقول حمزة « الحذر الحذر أن يقول واحد منكم بأنه (أي الحاكم) ابن العزيز ، أو أبو عليّ ، لأن مولانا سبحانه هو هو في كل عصر وزمان ، يظهر في صورة بشرية ، بتغيير الاسم والصفة لا غير »[٢]

وجاء في الرسالة ٢٦ «حاشا مولانا جل ذكره من الأب والابن والعم والخال . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد» ويذكر الاستاذ النجار أن هذه الفقرة من الرسالة ٢٦ كانت ردا عليه شخصيا في شكل عتاب من كبير الأشياخ الثقاة لأنه ذكر في أحد كتبه المطبوعة أن أم الحاكم كانت صقلبية [٣]

وفي رسالة الغيبة التي أورد الدكتور كامل حسين طرفا منها ، يورد الاستاذ النجار طرفا آخر منها ، تقول الرسالة بعد «التجلي» إنه «احتجب بنوره عن خلقه، فلم يُقْتَفَ له أثر ، واستتر لغيبته وليُّه وصفيُّه (أي حمزة) وخلّف دعاة» [٤]

(١) مذهب الدروز والتوحيد ص ١٠٥ .
(٢) نفس المصدر نفس الصفحة .
(٣) المصدر ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٤) المصدر السابق ١٠٩ ، ١١٠ .

وفي رسالة أخرى يقول حمزة «إن الباري سبحانه لا تخلو الدار من وجوده طرفة عين ، ولو خلت الأرض منه لزالت الحجة عن الخلق في تلك اللحظة». الرسالة ٧٥ .

وفي الرسالة ٤٤ «ظهر بالشكل البشري لأن حكمته قضت بذلك إشفاقاً على جهل العالم المتمسك بالمحسوسات وامتحانا لهم لتكمل عليهم الحجة» .

وفي الرسالة ٤١ هذا الظهور غير حسي لأنه حين كان يركب للخروج في النهار «كان للأتان ظل ، ولا ظل للراكب»..... «لاهوته المحجوب عنا وناسوته المظهر لنا» [١] .

الحق أن الأمثلة كثيرة على هذه الرسائل التي يؤله فيها حمزة بن علي الحاكم بأمر الله ، وكم يضع الأمور في نصابها لو أن تفسيرات واضحة صدرت في ذلك من الأخوة الدروز فائدة للعلم والعقيدة والتاريخ ؟ هل هذه الرسائل أو المقتطفات التي جاء بها الدكتور كامل حسين والاستاذ عبدالله النجار صحيحة وهل نسبتها إلى حمزة صحيحة ، وهل حمزة بالتالي جعل من الحاكم إلها أو أطلق عليه صفة الألوهية أم أن ذلك من كيد الكائدين لحمزة .

كل هذه الاستفسارات ينبغي الإجابة الصريحة عليها لأن لحمزة مقامه واعتباره واحترامه حتى الآن عند جميع إخواننا الدروز .

(١) نفس المصدر ٨٧ .

إن عقيدة الدروز عقيدة سرية ، تنبع سريتها من أصولها ومناهلها ، والسرية فيها إذن ليست من باب التقية كما هو الحال في المذاهب الباطنية وإنما هي سرية مشروعة(١) نابعة من أصول العقيدة، فإن صيانة الحقائق كما يقول الدكتور مكارم في مسلك الدروز هي أصل «وأس رئيسي» وليس نهجا طارئا (٢) . ومن هنا تنبع المشكلة التي أثيرت وتثار دائما عن مدى ما يستطيعه الدرزي العادي من التعرف على حقائق مذهبه وأغواره .

والدرزية عقيدة تتلفع بالفلسفة وتغوص إلى أعماق بعيدة من التأويل لا يستطيع غير المتمرس على المصطلحات الفلسفية والأساليب الصوفية ومسالك أهل الكلام من سبر أغوارها وهضم أصولها وتفهم منعرجاتها ، ومن ثم كانت صعوبتها على العامة وحجبها تبعا لذلك عنهم .

وأصول العقيدة خلط من نظريات وأفكار الفلاسفة القدامى من يونان وإيرانيين وهنود وفراعنة ، ولعل الدروز قد عمدوا إلى السرية التي ضربوها على مذهبهم تمشيا مع بعض آراء الفلاسفة القدامى الذين كانوا يوصون بحجب آرائهم وسترها عن جمهور الناس ، فقد وصى بالسرية كثير من الحكماء في العصور السالفة مثل هرمس وفيثاغورس وأفلاطون وبعض حكماء الهند وفارس ، وهؤلاء جميعا

(١) بابا يزيد ص ٦٥ من أضواء على مسلك التوحيد .
(٢) أضواء على مسلك التوحيد ص ٩٦ .

يكرمهم الدروز ويعتبرون فلسفاتهم ونظرياتهم من جملة مصادر المذهب (١) .

بل هناك من الآراء ما تذهب إلى أن دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله في القاهرة كانت على مثال أكاديمية أفلاطون (٢) . وكما أن الدروز أخذوا من حكمة الهند قدرا غير قليل وارتبطت مبادئهم بها ارتباطا وثيقا فكتاب بلوهر الحكيم المنتشر بين الموحدين الدروز ليس إلا رواية «للبوذا السعيد» بعد تحريف الاسم ، ومن خلال هذا الحقل الهندي أيضا أخذ حمزة بن علي مبادىء دعوته من حكيم هندي قديم يدعى الحاكم الحكيم (٣) .

وأخذت العقيدة الدرزية من الفراعنة ممثلين في أمحوتب الذي أله المصريون القدماء فقد ورد ذكره مرات عديدة — فيما يروي الدكتور مكارم — مقرونا بالتمجيد والتعظيم في إحدى المخطوطات المكتشفة حديثا المنسوبة إلى حمزة (٤) .

وإجمالا فإن العقيدة الدرزية تنبع في الأصل من حكمة اليونان ممثلة في أفلاطون وأفلوطين وفيثاغورس معرجة على الحكمة القديمة في كل من الهند وفارس ومصر ، وهي في نفس الوقت فيما يعتقد إخواننا الدروز امتداد لكل هذه الفلسفات إلى الحد الذي يجعل فلاسفة اليونان يحتلون مكانة قريبة من مكانة الأنبياء بل هي مكانة الأنبياء

(١) المصدر السابق ص ٩٧ ، ١٠٣ .
(٢ ، ٣) مقدمة السيد كمال جنبلاط «للأضواء» ص ٥١ ، ٥٢ .
(٤) الأضواء ص ١٠٠ .

بعينها ، ولا يكاد يذكر اسم أفلاطون أو فيثاغورس أو هرمس[١] أو أمحتب عند المعاصرين من المؤلفين الدروز إلا مقروناً بعبارة عليه السلام تماما كما لو كان نبيا من أنبياء الكتب السماوية .

ولعل هذه السمة اليونانية في أصل العقيدة الدرزية تشكل سببا أساسيا في الربط بين الدرزية وبين إخوان الصفا ، وغني عن الذكر أيضا أنها مرتبطة بالإسماعيلية الباطنية لنفس السبب ولأنها انبثقت منها ولو بشكل غير تام .

وعلى قمة العقيدة الدرزية من حيث كونها امتدادا للفلسفة اليونانية القديمة والفلسفات المشرقية يتربع ما قد اصطلحوا على تسميته بالعقل الأرفع أو الكلي ، وهو حسب تعريفهم ، وسأحاول هنا أن أكون ناقلا حتى تكون الصورة أمينة كل الأمانة لدى القارىء، «مصدر انبثاق جميع الكائنات ، وهو عين بقائها في هذا الوجود الظاهر ، ومنه وبه ابتدعت ، فهي لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها من حيث العلة والمعلول في تنزل فعل الخلق ، فالعقل الأرفع من هذا القبيل يحل في سر أسرار جميع الكائنات على احتجاب شبه كلي أو جزئي أو وعي متفاوت لا يبلغ أقصاه إلا في مرآة جوهر عقل الإنسان بوصفه أرفع هذه الكائنات وأقربها من استيعاب نور الحق الذي منه انبثقت ، على أن هذا العقل الأرفع هو واسطة الكشف والمعرفة ، وأداة المشاهدة في كل نفس مؤمنة ، به يتم الشهود لجوهر

(١) أضواء على مسلك التوحيد ص ١٤٥ يطر الدروز إلى هرمس « بعين التقديس ويجعلونه في صف الأنبياء كما يفعل الصابئة أو كما يعده المانويون » .

الذات الفرد دون أن يرتفع الإنسان من درجته وحده إلى كينونة هذا العقل الأرفع الذي هو الأصل الوجودي والحد الأول »[١]

والعقل الكلي بعبارة أوضح هو البداية وهو النهاية ولقد أطلق عليه لذلك نقطة البيكار ، وهو حسب معتقد الدروز كالإرادة والإبداع ويستطرد التعريف الدرزي قائلا : «إن إرادة الإبداع واجبة الوجود بوجود ذلك الإبداع ، وهي بالبداهة أصل كل موجود وعلته ، وهي علة جميع العلل في الوجود ، والله مصدرها وينبوعها ومُعلّها»[٢]

تلك هي الأصول القديمة للدرزية كما يقدمها المتخصصون من أبناء العقيدة .

التقمص

يؤمن الدروز بفكرة التقمص بمعنى أن الإنسان إذا انتهت حياته وصعدت روحه فإنها لا تذهب إلى الحياة البرزخية المعترف بها عند أكثر المذاهب الاسلامية ، ولكنها تتقمص مولودا جديدا ، روح الرجل تتقمص طفلا وليدا وروح المرأة تتقمص طفلة وليدة ، والتقمص كما فسر جانبا منه كتاب «أضواء على مسلك التوحيد» هو تقاب الروح في شتى الأحوال لكي يتسنى لها أن تختبر هذه الأحوال ، فمن لم يتقبل نداء الحق حسب المعتقد الدرزي لا يمكنه إلا أن يحصد نتيجة أعماله في حيواته التالية [٣] والمفهوم من ذلك استنتاجا هو العقاب

(١) المصدر السابق ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٢) نفس المصدر ١٥٨ .
(٣) الأضواء ١٢١ ، ١٢٢ .

الذي يكون مختلف الأنواع في حياة الشخص القادم في أدواره التالية أو في «قمصانه» التالية حسب التعبير الحقيقي ، وقد يكون العقاب فقرا أو تشويها أو شقاء ، ولا أعتقد أنه يكون مسخا ، وكم وددنا لو أمكن للمختصين من إخواننا أن يفصحوا بعض الشيء في مبدأ التقمص ومظاهره وملابساته في نطاق العقيدة .

وأما بالنسبة لمن تقبل النداء وعرف الحقيقة فإن جزاءه يكون النعمة والخير في شكل من الأشكال .

النطق

والنطق هو أن الروح حين تنتقل من جسد إلى جسد تحمل معلومات عن دورها في الجيل السابق يعني في الجسم الذي كانت تتقمصه قبل قميصها الحالي، وفي هذه الحالة تتحدث أو تنطق بما تذكره من وقائع عن حياتها السابقة ، وقد سمعت شيئا من ذلك من بعض الأصدقاء الدروز المتعلمين ، واذكر حالتين حدثني عنهما صديقان ، حالة في عاليه وحالة في قرنايل ، والأمر طبيعي جدا لمن يعتقد في نظرية التقمص ، فمتى حدث الاعتقاد بها والتسليم بصحتها كان تصديق النطق أمرا لا غبار عليه ولا غرابة فيه .

الثواب والعقاب

يكون الثواب والجزاء بمقدار ما تكتسب النفس من المعرفة والعقيدة في أدوار تقمصها المتعاقبة ، وانتقالها من جسد إلى جسد ، وقد ذكر الاستاذ النجار أن الثواب يكون بارتفاعها من درجة إلى

درجة حتى تبلغ حد المكاسرة بل حد الإمامة[1] . إن العدل الإلهي اقتضى أن تحاسب الأرواح بعد مرورها في الدهر الطويل لا في مدى حياة واحدة، بخيرها وشرها، وقصرها أو طولها ، بحيث يمنحها الدهر الطويل فرص الاكتساب والتطور والامتحان والتبدل لكي تحاسب حسابا عادلا . وقد رأى الدكتور مكارم أن الثواب بالصورة التي صورها الاستاذ النجار لا يتفق مع العقيدة وكم تمنى طالب المعرفة لو أنه بيّن الثواب البديل من ذلك الذي أورده الأستاذ النجار ، إذن لعمت الفائدة وحدث النفع العلمي .

وأما بالنسبة للعقاب فأمره غير واضح ، وطريقة القصاص مستبهمة كل الاستبهام ، ويقول الاستاذ النجار إن النفس التي زلت سوف تبقى في هذا العالم لا تخرج منه ومعادها إليه [2] ، والعذاب نقلة من درجة روحية إلى درجة دونها [3]

وإذا كان الثواب والعقاب مرتبطين بالجنة والنار ، فإن الجنة عند الموحدين (الدروز) هي توحيد الخالق ،وثمارها المعرفة الحقيقية ، والجحيم هو الجهل والشر ، وأما النار الكبرى فهي غلبة الشقوة وهوى النفس البهيمية الغالب عليها الجهل . [4]

(١) مذهب الدروز والتوحيد ٥٨ ، ٥٩ .
(٢) عقيدة الدروز والتوحيد ص ٦٦ .
(٣) المصدر السابق ص ٨٠ .
(٤) نفس المصدر نفس الصفحة .

يوم الدين :

يوم الحساب في العقيدة الدرزية ليس يوم قيامة ، إذ ليس فيه موت للأرواح ولا قيامة لها ولا بعث ولا نشور ، فالأرواح لا تموت لتبعث ولا تنام لتوقظ ، بل إن يوم الحساب أو الدينونة نهاية مراحل الأرواح وتطورها ، إذ يبلغ التوحيد — أي العقيدة الدرزية — غايته من الانتصار على العقائد الشركية ، وينتهي الانتقال والمرور في الأقمصة المادية لتتصل الأرواح الصالحة بالعقل الكلي كل على قدر تكاملها .

هذا هو يوم الحساب في العقيدة الدرزية فهو نهاية النهايات أما العقاب فهو العذاب عن التقصير في الوصول إلى هذه الدرجات وتلك المراتب والغايات [١]

الدرزية كمذهب إسلامي :

يعتبر الدروز أنفسهم في طليعة المسلمين الحقيقيين الأولين ، بل إن تعبيرا جميلا صدر عن أحد مستنيري المذهب يقول فيه «الدرزية وديعة الإسلام الحنيف» [٢] فإذا قدر للموحدين أن يكونوا — إن كان عليهم أن يكونوا — فمن الإسلام وفيه ، ويستطرد الأخ الدرزي قائلا : وإذا ضاقت بعض الصدور المتزمتة بهذا المعراج — أي المعراج على المذاهب الفلسفية فيما أعتقد — من أبناء عشيرتنا فلا يضيق بها الاسلام في رحبة وسعة اطلاعه .

(١) عقيدة الدروز ٨١ .
(٢) بايا يزيد في توطئة كتاب أضواء على المذهب ص ٧٣ .

وفي تحديد صلة الدرزية بالإسلام يقول الاستاذ النجار والدكتور مكارم : الدرزية «فرقة من الاسلام من حيث انحصاره في القرآن وعدم خروجه عنه». وهو تحديد لطيف ؛ فمتى خرج الاسلام عن القرآن ؟ على أن مؤلفي «المذهب»[١] و«الأضواء» يستطردان في هذا التحديد قائلين : إن المذهب «يفسر آيات التنزيل تفسيرا باطنيا خاصا يخرجه من باطن التأويل».

وفي الحق أنه يخشى كثيرا من هذا التفسير الباطني ، وكم تمنينا لو كان تفسير القرآن قد جرى على النهج الذي جرت عليه بقية المذاهب طالما أن القرآن هو كتاب الدروز وأن الدروز فرقة إسلامية منبثقة عن الجماعة الاسلامية أو هي كما يقولون فرع من أصل .

إن هذا الرأي يتكرر ولكن بشكل أقرب وأوضح عندما يقول الدكتور مكارم «ولا يقول المذهب بتأليه الأشخاص أو التجسيد — فهو هنا يحاول أن يدفع تهمة من ذكر أن الدروز يؤلهون الحاكم بأمر الله — وانما يؤمن بالتجلي والإشراق إيمانا لا يختلف كثيرا عن إيمان بعض المسالك الصوفية العرفانية القديمة والحديثة» [٢]

ويقول صاحب «توطئة» كتاب أضواء على مسلك التوحيد في مقام صلة المذهب بالإسلام ، وهي صلة يريد أن يقرها كل مسلم ، «إن القرآن هو السند الرئيسي لمصادر الدروز الروحية ووحيهم وتأملهم ، فهو نفس الطريق الطيب ، الذي سلكه الأستاذ النجار والدكتور

(١) المذهب ص ٨٣ ، الأضواء ١٠٥ .
(٢) أضواء على مسلك التوحيد ص ١٠٥ .

مكارم ، ولما كان القرآن قد أنزل على محمد ، وهو رسول الله وأشرف الخلق ، فإنه يكون مطلوبا من الإخوة أن يوضحوا صلة المذهب بالرسول الكريم ، خاصة وأن بعض من يعمدون إلى الفرقة يحاولون تصوير الرسول من خلال المذهب الدرزي تصويراً لا يرضاه أي مسلم مهما كان انتماؤه المذهبي . فهل كان «مُسيدَّه» كما ذكر في بعض الكتب «سليمان الفارسي»؟ وهل صحيح أن سلمان ابن ملك برهمي ثقّفه راهب وأوصاه قبل موته أن يسعى إلى نبيّ اسمه محمد إلى آخر القصة ؟

قد تكون كلمة من أخ درزي واعٍ مبددة للكثير مما يحاول دعاة الفرقة أن يطعنوا به الصف الإسلامي ويزرعوا حقله الرحيب الخصيب المبارك شوكا وحنظلا ، وهو حقل لا ينبت بطبيعته إلا الخير والحب والأخوة والرشاد .

بقي شيء آخر مهم في النطاق الاجتماعي للطائفة ، وهي أن تفوّت على دعاة التفرقة بين المسلمين غرضهم بأن تكون إجابة الدرزي إذا سئل عن دينه أنه مسلم ، فقد لاحظت أن كل طفل درزي حتى أبناء أصدقائنا المستنيرين إذا سئل عن دينه قال إنه درزيّ ، فإذا قيل له يعني مسلم ، ابدى استغرابا شديدا وكأن ليس ثمت علاقة تربط بينه وبين الإسلام ، وله العذر كل العذر في ذلك طالما أنه لم يُعلَّم أن الدرزية مذهب من مذاهب الاسلام .

هذا في الأوساط الاجتماعية ، فإذا انتقلنا إلى الأوساط العلمية ، وجدنا المؤلفين والمحاضرين يتحدثون عن الدرزية وكأنها دين مستقل

وليس مذهبا إسلاميا وإذا أشير إلى الشريعة الاسلامية أشير إليها وكأنها شريعة غريبة لدين غريب ، فمن بين العبارات الكثيرة التي تفيد هذا المعنى ، هذه العبارة «تستند الاحكام التي تسود قضايا الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية في البعض منها على التقاليد الدرزية والامتيازات المذهبية المعترف بها رسميا والمعمول بها منذ القدم ، وفي البعض الآخر على الشرع الاسلامي»[١] أو عبارة «والأقوال الراجحة من المذهب الحنفي من الشرع الإسلامي تستند إليها المحاكم المذهبية الدرزية في أحكامها في الأحوال التي لا نصّ عليها في القوانين الحديثة»[٢]

والعبارات السابقة بهذه الصيغة توحي لأول وهلة كما قلت إلى القارىء أن الدرزية شيء والإسلام شيء آخر .

ومن العبارات التي تؤكد هذا المعنى أيضا ، هذه العبارة التي وردت على لسان الدكتور مكارم في بعض ردوده على الاستاذ عبدالله النجار «ثم إن نظرية الانبثاق التي يشير إليها الكتاب، إشارة عابرة هي من النظريات الأساسية في دين التوحيد»[٣]

لقد فزعت عندما قرأت هذه الجملة لصدورها في مقام تصحيح ما اعتُقد أنه لا يمثل نظر المذهب ، وطاف بذهني هاجس مخوف ، فكيف يكون المستقبل في نطاق الترابط العقيدي الاسلامي لو قال

(١) الواقع الدرزي وحتمية التطور ص ٧٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٧٤ .
(٣) أضواء على مسلك التوحيد « الدرزية » .

الكاتب السُّنّي «دين السنة» ولو قال الكاتب الشيعي «دين الشيعة» وهكذا إني آمل صادقا أن تكون هذه التعبيرات غير حاملة المعنى الخطير الذي يفهم منها لأول وهلة ، وألا يكون تحدد معناها في ذهن الكاتب منطبقا على محدودية مفهوم ألفاظها .

إن الأمر في الحقيقة — وحسن النية لا شك قائم — يحتاج إلى شيء كثير في التعبير والاقتراب أكثر وأكثر إلى الدائرة الإسلامية المنفتحة الرحبة الصدر كما ذكر السيد «بابا يزيد» التي لا تضيق بالدين ساعيا إلى رحابها ولا بالمغترب عائدا إلى عرصاتها .

على أن الدعوة الدرزية حينما حلت بوادي التيم والجبل الأعلى اعتنقها القوم في ظل أحكام الإسلام وأركانه العملية بالإضافة إلى الإيمان بما قد جاء في رسائل حمزة ومراسم الحاكم والسجل المعلق ، وهذا السجل وتلك الرسائل والمراسم تختلف فيما قد حوته ، البعض يقول بأنها حوت تأليه الحاكم ، والبعض الآخر ينفي ذلك وينسب فكرة الألوهية إلى رسائل مزورة .

المهم أن القوم عاشوا على تلك الحال في ظل الشعائر الإسلامية العملية حتى أوقع الأتراك بهم الأذى فسنحت الفرصة لتلاميذ نشتكين الدرزي الذين كانوا لا يزالون مندسين بين الموحدين جيلا بعد جيل فزيفوا بعض الرسائل المخطوطة التي أساءت إلى طبيعة المذهب ، فآمن بها بعض البسطاء وانخدعوا بها ، فلما قامت فتنة سنة ١٨٦٠ في لبنان بدأت آخر دلالة شعائرية تنقرض ونعني بها شعائر الصلاة في المساجد الكثيرة التي كانت منتشرة في القرى الدرزية ، ولجأ الموحدون إلى الخلوة وتركوا المساجد نهائيا بعد ذلك

والأمر الذي ينبغي الإشارة إليه أن القرى الدرزية لا زالت حتى اليوم مزدانة بالمساجد الأثرية ذات المآذن السامقة مثل جامع عبيه الذي دفن فيه السيد التنوخي ، وقد كان يلقي فيه دروسه ويؤم الناس للصلاة ومثل مسجد دير القمر الذي يتوسط الساحة الرئيسية للبلدة ، وجامع الناعمة ، هذا فضلا عن المساجد الكثيرة التي أصابها التهدم نتيجة للهجر وعدم الصيانة والإهمال .

وقد قيل إن أسباب ترك الدروز لمساجدهم واللجوء إلى الخلوات كانت أسباباً سياسية ، فسئل أحد شيوخهم وهو الشيخ أحمد الهجري عن أسباب استمرار ترك التعبد بالمساجد والتمسك بالخلوات مع زوال الأسباب السياسية فأجاب أن ذلك أمر درج عليه الشيوخ في ظروف معينة فلما انقضت تلك الظروف أصبح ذلك أمرا موروثا [١] .

التنظيمات الدرزية :

وللدروز تنظيمات طبقية حيث ينقسمون إلى طبقتين: الأولى طبقة الروحانيين وهم رجال الدين الملمين بأصول المذهب ، وهم الرؤساء والعقال والأجاويد ، فالرؤساء هم الذين بيدهم جميع الأسرار الدينية ، والعقال بيدهم الأسرار التي تتعلق بالتنظيم الداخلي للمذهب ، والأجاويد بيدهم الأسرار الخارجية التي تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب الأخرى .

وأما الطبقة الثانية فهي طبقة الجثمانيين ، وتنقسم إلى أمراء وعامة أو جهال ، فالأمراء هم أصحاب الزعامة الوطنية ، وهذه الطبقة الثانية

(١) الزعبي ٩٢ .

جميعها لا يحق لها حضور « المجالس » أي (طقوس العبادة) إلا بعد امتحانات طويلة تحتاج إلى صبر ومجالدة وإيمان ، فإذا ما اطمأن إلى إيمان الشخص أخذت عليه مواثيق معينة قيل إنها « ميثاق ولي الزمان » وبذلك يتدرج في مراقي الدرجات الدينية .

العقيدة الدرزية كما يقدمها الرؤساء المعاصرون :

في الفترة التي عشتها مهتما « بالدرزية » وقع بين يدي مخطوط يضم أسئلة عن « دين التوحيد » وإجابات عنها ، وهي مثيرة وطريفة، وقد حاولت أن أعرف رأي بعض الأصدقاء فيها ، ويبدو لي أنها مما يصدر عن بعض العامة ممن ينشدون التدين ويتصدون للتعريف بالدين بغير تأهيل كامل أو استعداد يجعلهم أهلا لهذا التعريف فانتهى بهم المطاف إلى غاية من الشطط ونهاية من الغلو .

وإني محاول أن أقدم هنا مقتطفات من هذه الأسئلة والإجابات عليها ، وربما غضضت النظر عن كثير منها وأسقطتها متعمدا لما تتسم به من عنف حين تعرض لبعض الأديان السماوية الكريمة وحين تذكر بعض الرسل الكرام .

س : الجاهل : أدرزي أنت ؟

ج : العاقل : نعم بقوة المولى سبحانه

س : من هو الدرزي ؟

ج : هو الذي كتب على نفسه الميثاق وعبد مولانا الحاكم الخلاق

س : ما فرض عليك ؟

ج : صدق اللسان وحفظ الشروط السبعة

س : ما نقص عليك من الأمور الصعبة عليك ؟

ج : ترك الدعائم السبعة

س : كيف يعرف الدرزي ؟

ج : يأكل الحلال ويترك الحرام

س : ما هو الحلال والحرام ؟

ج : الحلال مال العقال والفلاحين ، والحرام مال الحكام والمرتدين

س : متى ظهر مولانا الحاكم ؟

ج : ظهر في السنة الأربعمائة للهجرة الإسلامية

س : لماذا قال عن نفسه أنه من نسل محمد ؟

ج : قال ذلك ليخفي ألوهيته

س : لماذا أخفى ألوهيته ؟

ج : هكذا اقتضت حكمته لأن عبادته كانت قليلة ، والذين يحبونه كانوا كذلك

س : متى ظهر وأشهر لاهوته ؟

ج : بعد ثمانية سنوات من يوم ظهوره أي بعد الأربعمائة

س : ما هو يوم الدين ؟

ج : هو اليوم الذي يظهر فيه مولانا الحاكم بالناسوت ويحكم على العالم بالسيف والعنف .

س : كيف يكون حكمه على الطوائف والملل ؟

ج : يبيدهم بالسيف والعنف ولا يسمح بأكثر من أربع ملل وهم النصارى واليهود والمرتدين والموحدين

س : كيف تنقسم كل فرقة منهم ؟

ج : فرقة النصارى ومنهم النصيرية والمتاولة ، وفرقة اليهود ومنهم المسلمون ، والمرتدون هم الذين تركوا عبادة المولى سبحانه ، والموحدون هم الذين عبدوه سبحانه

س : كيف يكون حكمه بعد هذا ؟

ج : بعد أن يبيدهم بالسيف والعنف يرجعون ويولدون ثانية على حكم التناسخ ويحكم حينئذ كما يريد

س : كيف يجازي الموحدين ؟

ج : يعطيهم الحكم والملك والسلطنة والمال ذهبا وفضة ويصبحون كلهم أمراء وسلاطين

س : كيف تستدل على شرف قسم حمزة علي ؟

ج : عرفنا ذلك بعد شهادته بنفسه حيث قال في رسالة التحذير والتشبيه : أنا أصل مبدعات المولى ، أنا سراطه العارف بأمره ، وأنا الطور والكتاب المسطور والبيت المعمور ، وأنا صاحب النعم وأنا ناسخ الشرائع ومبطل الشهادتين ، وأنا النار الموقدة التي تطاع في القلوب ، فمن هذه الشهادة عرفنا مقدار شرفه وأنه حجة الله وحجابه الواقف بين يديه

س : ما هو دين الدروز الموحدين ؟

ج : هو الكفر بكل ملة وطائفة ، والإيمان بما كفروا كما هو محرر في رسالة الإعذار والإنذار

س : إذا عرف أحد الناس مولانا سبحانه وصدّق به وأطاع لدين التوحيد وعمل به فهل له خلاص ؟

ج : لا خلاص له ، لأن الباب أغلق وتم الأمر وجف القلم ، فإذا مات ترجع نفسه إلى ملته ودينه

س : متى خلقت نفوس الناس والعوالم ؟

ج : بعد أن خلق العقل الكلي الذي هو حمزة بن علي ، من قدره تكونت نفوس العوالم والأرواح ، وهي معدودة لا تزيد ولا تنقص مدى الأزمان والدهور

س : هل يليق تسليم التوحيد للنساء ؟

ج : لا بأس لكون مولانا سبحانه كتب عليهن من كتاب العهد والميثاق ، وأطعن الحاكم كما هو محرر في رسالة النساء والبنات .

س : ما تقول في باقي الطوائف الذين يقولون إننا نعبد الرب الخالق ؟

ج : لا اعتبار لقولهم لكونهم لم يعرفوا الحاكم أنه الرب فعبادتهم تكون باطلة .

س . : من الحدود تصف كلمة الحدود التي بني عليها ديننا ؟ (١)

ج : نص ذلك ثلاثة وهم حمزة وإسماعيل و بهاء الدين

س : إلى كم قسم يقسم العلم ؟

ج : إلى خمسة أقسام ، قسمان (هكذا) يجمعان الدين ، وقسمان يجمعان الطبيعة ، والقسم الأكبر الخامس وهو الحقيقي وهو علم دين الدروز وهو حكمة عبد مولانا حمزة بن علي

س : كيف تعرف أخانا الدرزي الموحد إذا رأيناه في الطريق أو خطار ومار علينا يقول إنه منا بعد السلام وبسط الكلام ؟

ج : نسأله في بلادكم فلاحون يزرعون الإهاليلج فإذا أجاب نزرعه في قلوب المؤمنين ثم نسأله : هل تعرف الحدود ؟

---

(١) هكذا وردت عبارة السؤال في المخطوط

فإن أجاب نعم يكون لا محالة أنه أخانا ، وإلا فيكون غريباً عنا .

س : ما هي الحدود ؟

ج : خمسة وهم الذين نصبهم الحاكم لدعوة التوحيد ، وهم حمزة وإسماعيل وأبو الخير وبهاء الدين (١)

س : ما هي نقطة البيكار ؟

ج : حمزة بن علي

س : ما هو السراط المستقيم ؟ (هكذا)

ج : هو حمزة بن علي نفسه الذي يقال له قاسم الحق وإمام الزمان وهو العقل والسابق والنبي الكريم وعلة العلل

س : ما هو ذو معة ؟

ج : هو آدم الجزي وهو هرمس وهو إدريس وهو يوحنا وهو اسماعيل بن محمد التميمي الداعي في دور محمد بن عبد الله وكان يقال له المقداد

س : ما معنى أرجل الحكمة ؟

ج : أرجل الحكمة هم النذر الثلاثة يوحنا ومرقص ومتّى

س : من هم حمال الحكمة ؟

---

(١) هكذا ورد النص في المخطوط وربما نسي الناسخ الحد الخامس

ج : هم النذر يوحنا ومرقص ولوقا

س : ماذا يصير بالعاقل إذا زنا ؟

ج : يجب عليه إذا تاب أن يتواضع ويقصد العقال سبع سنوات وهو يبكي وإن لم يتب يموت موت الكافر المرتد

س : ماذا خلف مولانا سبحانه لما غاب ؟

ج : كتب سجلا وعلقه على باب الجامع وسماه السجل المعلق

س : كيف القول في محمد الذي كان يقول عن نفسه أنه ابن مولانا سبحانه ؟

ج : حاشا فإن ادعاءه كذب وبهتان لكونه ابن الجارية الخامعة وكان مولانا يقول له ظاهرا إنه ابنه .

س : ماذا فعل محمد لما غاب عن أمته ؟

ج : جلس على الكرسي وقال للناس اعبدوني كما عبدتم أبي

س : ما القصد بذكر الجن والملائكة في الحكمة ؟

ج : المراد بالجن والشياطين والأبالسة الناس الذين ما أطاعوا الدعوة ، والشياطين أرواح بلا أجساد كما يزعم أهل الخرافات فلا وجود لها ، والمراد بالملائكة الموحدون المستجيبين (كذا) لدعوة مولانا الحاكم سبحانه وهو الرب المعبود في كل الأدوار .

س : وما هي الأدوار ؟

ج : هي شرائع الأنبياء الذين قال عنهم أهل الظاهر إنهم أنبياء مثل آدم ونوح وابراهيم وموسى ومحمد وسعيد ، وهؤلاء كلهم نفس واحدة انتقلت من جسد إلى آخر وهم إبليس اللعين والحارث بن الطرماح وآدم العاصي الذي أخرجه من الجنة وأبعده مولانا سبحانه عن علم التوحيد

س : ماذا كانت وظيفة إبليس عند مولانا ؟

ج : كان عبدا عزيزاً ومن حيث أنه ما أطاع لحمزة الوزير الكبير لعنه مولانا وأخرج من حقه الدعوة

س : لماذا أمرنا أن نخفي الحكمة ؟

ج : لأن فيها أسرار مولانا وعهده وفيها خلاص النفوس وحياة الأرواح فلا ينبغي كشفها .

س : ما القصد بالخلوة ؟

ج : القصد من ذلك كسر النفس حتى إذا جاء الحاكم يعطينا على قدر عملنا ويمكننا في هذه الدنيا ويجعلنا أصحاب مناصب ومراتب عالية

إن هذه النماذج من الأسئلة والإجابات لمما يشيع بين بعض العامة ، ومما يكتبه العامة الذين لا يفهمون من أمر دينهم شيئاً ويظنون أنهم يفهمون ، وهم في الحقيقة يسيئون كل الاساءة ، وأكثرهم كما يبدو من أسلوبهم أقرب إلى العامة فكراً وأسلوباً . وإنما أوردت هذه النماذج لأنها أصبحت في أيدي كثير من الدارسين وإني أكاد أنكرها لما فيها من تخبط وتناقض وركاكة ظاهرة ، لقد أنشأها بعض العامة الذين يفرضون أنفسهم على العقائد والعقائد من أمثالهم براء . صحيح أنها تحتوي على بعض ملامح الفكر الدرزي الذي اتضح جانب كبير منه فيما كتبه كل من العالمين الدرزيين الأستاذين النجار ومكارم ، ولكن ثمت فرقاً كبيراً بين تناول العلماء وتناول العامة لقضية ما ، وبخاصة إذا كانت القضية تتصل بعقيدة يزيد من خطورتها سرية شديدة مضروبة حولها أو حول جوهرها .

تلك على كل حال الصورة أو الصور التي تجمعت لدينا من واقع الكتب والوثائق والمؤلفات على مدارج التاريخ قديمة وحديثة ، وقد بدت لنا فيه الكثير من الثغرات التي تحتاج إلى تحقيق ، والقوم لا يريدون لسبب أو لآخر أن يملأوا هذه الثغرات ، ومن أجل ذلك وللروابط الكثيرة الطيبة التي تربطني بهم فقد كان عليّ أن أعمد إلى عنصر المواجهة والمناقشة مع بعض أعلامهم حتى تتضح لي الصورة أكثر عما هي ما دام أمر المواجهة سهلاً ميسوراً، فقضيت جلسات طويلة مع بعض أعلامهم وزعمائهم سواء منهم الدينيين أو الدنيويين ، وجرت لي معهم أحاديث طويلة تصور حاضر الدروز من حيث العقيدة تصويراً

أرجو أن أكون أميناً في تقديمه بالقدر الذي أستطيعه .

فأما الحديث الأول فكان مع زعيم كريم من زعمائهم ليس مصبوغاً كلياً بالصبغة الدينية ولكن له احترامه واجتهاده بين رجال الدين ، وآراؤه مسموعة بينهم لما يتصف به من الاستقامة والنزاهة في أمور دينه ودنياه وهذا ملخص الحديث :

* يرجع تاريخ الدروز إلى ثلاثمائة وثلاث وأربعين مليوناً من السنين حين كانت الأرواح بلا أجساد .

* الدروز يؤمنون بالتقمص أي تقمص الأرواح ، بمعنى أن الذي يموت لا تصعد روحه إلى السماء بل تتقمص جسد مولود جديد ، ولذلك فهم لا يزيدون عدداً ولا ينقصون ، لأن التقمص عملية دائمة متواصلة بين أرواحهم ، وهم لذلك يقولون إن الحياة البرزخية غير موجودة .

* الدروز موجودون منذ الأزل ، واعتنقوا كثيراً من الديانات على مرّ الدهور ، واعتنقوا الإسلام في مرحلة من مراحل عقيدتهم ، ولما كانت العقيدة عندهم متطورة فقد تحولوا عن الإسلام إلى دين آخر مستقل هو « الدين الدرزي » ، أي أن « الدرزية » كانت مذهباً إسلاميا ثم تطورت وأصبحت ديناً مستقلا ، والأقطاب هم الذين يجددون الدين من زمن إلى زمن ، وهم يجيئون بأسماء مختلفة بين الفينة والفينة بدافع نظرية التقمص التي يؤمن بها الدروز ، ولذلك «فالدرزية دين متطور» يتطور من زمن إلى آخر .

* الشريعة الدرزية مأخوذة من القرآن ومن ستة عشر كتاباً خطياً لا يسمح لأحد بالاطلاع عليها ، كما أنها تأخذ تعاليمها من الفلسفة

اليونانية وبخاصة الأفلاطونية القديمة ، والمسيحية والإسلام والبوذيـــة والفرعونية القديمة ، ويعتبرون إخوان الصفا من الدروز لتشابه الأفكار بينهما فقد كان إخوان الصفا يطالبون بمزج الشريعة الإسلامية بالفلسفة اليونانية ، وبهذه المناسبة يخلط البعض خطأ بين الدرزية والإسماعيلية والواقع أن الفرق بينهما شاسع كبير .

* محمد ﷺ له مكانة محدودة عندهم وهو ليس إلا واسطة الرسالة وحسب ، وللدروز خمسة أقطاب منذ القدم ، خامسهم وآخرهم الحاكم بأمر الله الفاطمي ، ولأبي اليزيد البسطامي مكانة عالية سامية عندهم ، وأما الصحابة فمنهم أربعة لهم مكانة عليا عندهم ، وهم سلمان الفارسي والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري[1] .

* لا يقبل الدروز أحداً في «دينهم» ولا يسمحون لأحد بالخروج منه ، وحتى هؤلاء الذين يخرجون لا يعترف الدروز بأنهم قد خرجوا ، ولذلك فإن عدد الدروز في ظل هذه النظرية ونظرية التقمص لا يزيد ولا ينقص ، وقد أغلقت أبواب القبول في الدين الدرزي بعد قبول الأمير بشير الشهابي الذي يعتبره الدروز درزياً[2]

* « الدين » الدرزي « دين » صوفيّ يعتمد على الداخليات

(١) ولعل تقديس هؤلاء الأربعة مما يصبغ عقيدتهم بالصبغة العلوية لأنهم كانوا شيعة علي ابن أبي طالب حتى في زمن الرسول وهم معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته .

(٢) ومن الطريف أن المسيحيين اللبنانيين يعتبرونه مسيحيا تنصر بعد أن كان مسلماً وبعض المسلمين يعتبرونه مسلما وإنما تظاهر بالنصرانية من أجل الحكم .

والجواهر ولا يهتم بالشكليات ، والطهارة الداخلية أي النفسية الروحية هي الأساس ، وأما الطهارة الخارجية فلا قيمة لها ، وقد كان الشيوخ يصلون في المساجد إلى عهد قريب ويصومون رمضان ويحجون البيت ، ولكن هذه الفرائض جميعاً قد رفعت عنهم واستبدلت بها تكاليف أخرى .

* تعلمُ الدين وقف على فئة معينة من الدروز ينبغي أن تتوفر فيها شروط خاصة هي الاستقامة والصدق ، ولا يجوز أن يتلقى علوم الدين من ارتكب كبيرة كالزنا أو القتل أو الكذب لأن مقترف الكبيرة لا تقبل توبته البتة ، والتعبد يكون في « الخلوة » ورجال الدين ويعرفون بالعقال أو الأجاويد يجتمعون بعيداً عن الناس جميعاً حيث يتعبدون ويذكرون الله ، ويسمى هذا الجمع « بالمجلس » ، والتقشف أمر أساسي في الدين الدرزي .

* « الدين الدرزي » تنظيم حربي ويتكون بشكل هرمي [1] .

هذه هي العناصر الأساسية للعقائد الدرزية المعاصرة من وجهة نظر زعيم كبير من زعماء الدروز استخلصتها من حديث طويل جرى بيني وبينه ، وقد حرصت على تدوينها مستعيناً بصديق درزي حضر الجلسة الممتعة التي جرت بيني وبين الزعيم الكبير ، ولكني أكرر أن الزعيم المشار إليه زعيم مدني وليس رجل دين وكان واضحاً في صراحته ، كريماً في ضيافته ، وقد عرض أن يطلعني على بعض ما لديه من مخطوطات ولكن الظرف لم يكن ملائماً وفسحة الزمان لم تكن مواتية .

(١) الحديث مع السيد كمال جنبلاط في منزله بقرية المختارة صيف ١٩٥٩ .

ولما كنت حريصاً كل الحرص على أن أستقصى العقيدة الدرزية – ما أمكنني إلى ذلك من سبيل – فقد سعيت إلى لقاء كبير رجال الدين وهو « شيخ العقل » ، وكانت جلسة أخرى ممتعة أنست فيها بلقاء رجل ذي سماحة وعقل راجح وأفق واسع وصدر رحب ، وقد صارحني أول الأمر أن العقيدة الدرزية شأنها شأن أكثر العقائد الشيعية تستعين « بالتقية » ولكنه لن يكذبني فيما يقول . وإن كان سيعمد إلى الامتناع عن إجابة بعض الأسئلة التي لا يستحب الإجابة عنها من وجهة النظر المذهبية .

وقد حرصت عمداً في أول حديثي مع الشيخ أن أستعمل لفظ « الدين الدرزي » ولكن الشيخ سارع في حزم وقال : يا أخي أرجوك ، لماذا تقول « الدين » ؟ قل « المذهب » لأننا مسلمون موحدون نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ومن قالها فهو مسلم وإن خالف في بقية الشعائر التي تختلف فيها أكثر الفرق . وقد كنت حريصاً أيضاً على أن أعرف من الشيخ صلة الدروز بالحاكم ، وهل هي صلة تأليه كما جاء بالكتب الكثيرة التي تعرضت لعقيدة الدروز ، فاستعاذ الشيخ بالله وقال : الحاكم بأمر الله إمام فقط ولكن له بعض القداسة . واستمرت الجلسة بيننا عدة ساعات عمدت خلالها إلى أن أتعرف على الشعائر الدينية والعقيدية كما هي عند الدروز ، ويمكن تلخيصها كما شرحها الشيخ فيما يلي :

* لا إله إلا الله محمد بن عبدالله بن عبد المطلب رسول الله . وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود لهم المقام الأسمى بين الصحابة جميعاً باستثناء علي بن أبي طالب بطبيعة الحال .

* الصلاة ، تختلف عن صلاة جمهور المسلمين فالفروض وإن كانت خمسة إلا أن عدد الركعات في كل صلاة يختلف عن عدد الركعات المعروفة ، وربما طريقة الصلاة نفسها ، هذا والوضوء ليس ضرورياً ما دام المصلي نظيفاً .

* الصوم معناه الامتناع عن الرفث ومعنى ذلك أنه يجوز الأكل والشرب مع الصوم ، وهو عشرة أيام في ذي الحجة تنتهي بالعيد ، كما أن صوم شهر رمضان مستحسن عن غيره لأن الصوم فيه مضاعف الثواب .

* الزكاة معطلة ، ولا حدود لها ، ويمكن أن تكون في شكل صدقات ، وهي اختيارية وهي بالتالي ليست فريضة .

* الحج لا يعتبر فرضاً خشية الاعتداء على الحجاج الدروز ، وهم بالتالي لا يؤمنون بمناسك الحج ويسفهونها ويرون فيها ظاهرة وثنية ، أما الزيارة في حد ذاتها فلا بأس بها .

* مصدر التشريع عند الدروز القرآن وحده ليس غير ، وأحياناً بعض الاجتهادات ، أما الحديث والسنة فإنهما معطلان ولا يؤخذ بهما إطلاقاً .

* لا يجوز زواج الدرزية من غير الدرزي ، ولا زواج الدرزي من غير الدرزية فإذا حدث زواج من هذا القبيل فإنه يكون باطلاً ، ولا يجوز تعدد الزوجات بل يجب الاقتصار على زوجة واحدة .

والطلاق يقع من مرة واحدة لا رجعة فيها ، ولا يجوز للمطلقة أن تعود إلى مطلقها أبداً حتى ولو بعد زواجها من غيره .

* الوصية مطلقة لا يعتد فيها بالثلث ، وتجوز بكل المال أو ببعضه لأي إنسان ولو كان وارثاً .

* لا يجوز لأي إنسان اعتناق المذهب الدرزي ، كما لا يستطيع درزي أن يحيد عن مذهبه ، وحتى أولئك الذين يخرجون من الدرزية إلى دين آخر أو مذهب آخر يعتبرون دروزاً رغم تحولهم .

* الإيمان بفكرة تقمص الأرواح أمر مؤكد فما يكاد يموت شخص حتى تتقمص روحه شخصاً آخر ، والروح الدرزية تتقمص غالباً شخصاً درزياً وتبعاً لذلك فإن سكان العالم — من وجهة نظرهم — لا يزيدون ولا ينقصون، وتبعاً لذلك أيضاً لا توجد حياة برزخية لأن الأرواح التي تترك أجسادها تنتقل رأساً إلى أجسام أخرى لمواليد جدد .

* الإنسان في الحياة مخير وليس مصيراً ، أي إنهم يقولون بالاختيار وليس بالجبر ، وذلك أخذاً بمبدأ العدل الإلهي المطلق لأن الله لا يتدخل في شئون الخلق تدخلا مباشراً ، فإن هذه صغائر والله أكبر من ذلك .

* العقيدة الدرزية عقيدة باطنية ولا يجوز لأحد الاطلاع على الكتب الدينية للدروز [١] .

تلك هي النقاط الأساسية التي سجلتها عن العقيدة الدرزية عن شيخ العقل في جلسة طويلة ممتعة ضمت معي صديقين آخرين : أحدهما سني هو الدكتور عبد الرحمن عُطْبَة والآخر درزي هو

(١) الحديث كان مع الشيخ محمد أبي شقرا شيخ عقل الدروز في منزله ببيروت .

السيد كامل أمين بلوط .

وقد نبهت الشيخ الجليل إلى أن حرمان بعض أبناء الطائفة من أن يشاركوا في العبادة وإبعادهم عن حق الاطلاع على أمور دينهم يعتبر طبقية دينية ، والأديان كلها لا تقول بذلك ، فكان جوابه أن هذا إهمال بحقهم ينبغي تداركه وبالتالي ينبغي تعليم أبناء الدروز وشبابهم أمور دينهم .

وقد عبر الشيخ عن حبه وتقديره لعلماء السنة وإن كان قد أشعرني بالمرارة إزاء بعض التصرفات من إخوانه السنيين ، وذكر أن الدروز كانوا دائماً في مقدمة صفوف الجهاد والحفاظ على المبادىء السليمة ولم يتخلفوا عن صف السنيين في المسائل الكبرى وبخاصة وقفتهم سنة ١٩٥٢ مع علماء المذاهب الإسلامية الأخرى إزاء قانون الأحوال الشخصية في لبنان الذي أريد له في ذلك الوقت أن يكون قانوناً غير إسلاميّ .

ولقد شاركت الشيخ في قوله باعتقادي التام في وطنية الدروز وفضلهم وتضحياتهم وتمثلت قول شوقي فيهم :

وما كان الدروز قبيل شر   وإن أخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة وقراة ضيف   كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل أشم له شعاف   موارد في السحاب الجون بلق
لكل لبوءة ولكل شبل   نضال دون غابته ورشق
كأن من السموأل فيه شيئاً   فكل جهاته شرف وخُلق

ولكن بعد ذلك كله وبعد هذا الذي ذكرت مستقياً مصادره من

الكتب تارة ومن أفواه أعلام الدروز المعاصرين تارة أخرى ، أقول بعد كل ذلك إنه لا يزال يوجد من بين الدروز الآن من يحافظ على الصلاة بالكيفية التي يمارسها جميع المسلمين ويترددون على المساجد والجوامع ولا سيما في صلاة عيد الأضحى ، ولا يزال يوجد من بين الدروز من يؤدي الزكاة في إيمان ورضى متمثلاً الآية الكريمة . « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل » .

بل إن عدداً غير قليل من الدروز يؤدي كل عام فريضة الحج ويطوف ببيت الله الحرام ، وقد وقف بعرفة عام ١٣٧٤هـ ستة وثلاثون درزياً من قرى دمشق وحدها ، والأمر كذلك فيما يتعلق بصيام رمضان صياماً صحيحاً إيماناً واحتساباً مع حض الآخرين والأقربين على صومه والتصدق فيه والإكثار من التعبد (١) .

إن الشيخ أحمد الهجري أحد علماء الدروز يؤكد صحة إسلام الطائفة وصدق وطنيتها فيقول :

« تبّت يد السياسة التي تحاول تجريدنا من عروبتنا وإسلامنا ! ! متى كنا أدعياء لفرنسا أو غيرها ؟ وهل « هجر » التي أنتسب إليها فرنسية أم عربية نجدية .

لقد قتل أجدادنا العرب الموحدون نشتكين الدّرزي وقضوا على محاولات تلاميذه قروناً ، ثم ساعدتهم السياسة في العصر التركي (أي ساعدت تلاميذ نشتكين) فشرعوا ينفثون بيننا نحن المسلمين

(١) الزعبي ١١٣ – ١١٥ .

الإسماعيليين الموحدين رسائل نبرأ من محتوياتها . وقد حذرنا من مطالعتها كثيراً ، بل ورأينا مقاطعتها

ألا يكفينا الذين لا يفرقون بيننا – نحن الموحدين المؤمنين بالقرآن ، كما يصرح بذلك سجلنا المعلق المحفوظ منذ أيام تكويننا – وبين السُكينية * وتلاميذ نشتكين الذين نبرأ منهم » .

وهذا واحد آخر من زعماء الدروز الأماجد هو المجاهد عز الدين الحلبي يعلن كذب المفترين وتزييف التاريخ بالنسبة لأبناء طائفته ، ويعرّض بما أشاعه بعض الفرنسيين من أن الدروز ليسوا مسلمين فيقول : « آه ما أكذب التاريخ الذي يدون بقلم السياسة ، لقد نسي الفرنسيون بل تناسوا أننا سلالة التنوخيين واللخميين المناذرة ملوك اليمن والحيرة ، وأننا اعتنقنا الإسلام منذ انبثاق فجره ولا نزال نبذل المهج في سبيله .. أجل تناسوا ذلك ولقنوا أطفالنا ما يفيد أننا بقية فرقة الكابتن الفرنسي (ده روز) الذي زعموه كمن بل خنس في سورية بعد نهاية الحرب الصليبية .. من لي بمن يبدد بقلمه الصريح الجريء هذه الظلمات ويقذف في أفكار السواد المحموم من الناس حقيقتنا نحن الموحدين ليعلم الجميع صميم عروبتنا وعراقة إسلامنا » (١)

وإذا كانت ثمة كلمة ننهي بها هذا الحديث عن الدروز فخير كلمة هي تلك التي وجهها إليهم الشيخ الزعبي حيث يقول .

أخي الموحد :

(*) السكينية نسبة إلى سُكين أحد الذين دعوا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله .
(١) المصدر السابق ٤ ، ٥ .

إن الإسلام شجرة مباركة أراد الله غرسها في هذا العالم ، وإن الموحدين فرع وغصن عزيز من هذه الشجرة المباركة وقد زاده مرور الأيام تعلقاً بها وغذاء من لبانها ومحافظة على ديارها ، إذ معلوم أن الموحدين الأول قتلوا نشتكين وسُكَيْناً حيث قالا ما لا يتناسب مع أهداف تلك الشجرة المباركة ، قتلوهما وكرهوا النسبة لهما ، ثم كان في العصر التركي عجائب الجهل وغرائبه ، فنسب الموحدون لنشتكين وتعامى عن واقعهم الإسلامي وما زال يخني على أفراد منهم بظلماته حتى فتروا عن القيام ببعض أركان الإسلام مستندين على تآويل وتفاسير نجل أمثالكم عن النظر لها .

لقد حالت تلك التفاسير والتآويل الجاهلة بين أفراد من الموحدين وبين الحقيقة الإسلامية ، وبين آبائهم وأجدادهم ، حتى ظنوا أنفسهم وظنهم كثيرون من العامة بل وأشباه المتعلمين فرعاً ليس له جذور . وكان ما كان ، فخسر الموحدون جوامعهم ومدارسهم الفقهية والقرآنية ونسي أولئك الأفراد السكارى بخمرة الرسائل الطارئة ، كما نسي من سار وراءهم محسناً الظن بهم أو أشغلته الدنيا عن فهم الظروف التي سطرت بها تلك الرسائل ، نسوا أن أجدادهم لعهد قريب كانوا يحافظون على جميع أركان الإسلام دون تعديل .

إن الأمل قوي في عودة هؤلاء إلى الأصل الذي انبثق فرعهم من جذوره وهذا الأمل يزداد بنشاط ذوي العلم الغزير والعقل السديد والتوجيه الصحيح ، فلنتعاون على طرد تلك التآويل الدخيلة ، ولنتحقق

أنها دخلت بيد قوم اتخذوا العلم آلة للهدم ، ولن تخرج إلا بيد قوم يتخذون علمهم ووجاهتهم وزعامتهم ومركزهم المرموق جسراً يمر عليه المساكين والضعفاء والغرقى في لجة التآويل الجاهلة إلى حيث السلامة والنور وساحل بحر الأصل المعصوم [1]

إن كثيراً من زعماء الدروز وكبار مفكريهم كانوا ولا يزالون يصرون على الصفة الإسلامية الصافية ، ففي الماضي كان على رأس هؤلاء جميعاً الامير السيد عبدالله التنوخي المتوفى والمدفون في عبيه سنة ٨٨٤هـ فقد كان يعمل جاهداً إلى العودة بالدروز إلى نطاق السنة والجماعة ، ومنهم الأمير سيف الدين يحي التنوخي تلميذ السيد ومنهم الشيخ محمد ابو هلال الملقب بالشيخ الفاضل المتوفى عام ١٠٥٠هـ والمدفون بقرية عين عطا بوادي التيم ، وفي العصور الحديثة قام على فكرة التقريب المرحوم الأمير شكيب أرسلان الذي أوضح في بيان لا لبس فيه ان الدروز مسلمون إسلاماً صحيحاً غير أنهم أقرب ما يكونون إلى مدارس التصوّف شأن الكثير من الجماعات الاسلامية الصحيحة الاسلام ، ولا زال أيضاً الاستاذ عارف بك النكدي يرفع صوته في هذا المضمار ويعلنُ انه لا يرضى بغير الاسلام بديلاً لطائفته . وإذن فالأمل واسع والرجاء كبير من التئام الصف وجمع الشمل ففي ذلك عزة الإسلام ومجد للمسلمين .

(١) الدروز ١٢٨ – ١٣٠ .

العلويون

تمهيد :

لعل من الخير أن نقرر أن من أدق الأمور وأصعبها على الباحث الأمين المتجرد أن يكتب في موضوع مثل المذهب العلوي أو الفرقة العلوية ، ذلك لأن المصادر التي تحت يده ليست من الكفاءة والكفاية بحيث يمكن الاعتماد عليها اعتمادا كاملا ، هذا فضلا عن تشعب القول فيها واختلاف وجهات النظر بين كاتبيها اختلافا بيّنا يصل إلى حد التضادّ الكامل في كثير من الأحيان ، هذا والقوم في كل هذا الشد والجذب لا يريدون أن يفصحوا عن أنفسهم بوضوح « لباطنية » المذهب ، أو « للسرية » التي افترض بعضهم أنها أساس مقدس ، أو « للغلوّ » الذي مال إليه فريق منهم دون الجمهرة ، أو لأنهم لم يكونوا حتى الماضي القريب قادرين على الكتابة لتفشي الجهل الذي فرضه عليهم الحكام في الماضي فرضا ، وهذا الجهل شجع الأذكياء منهم — في غيبة

العلم والمعرفة — على أن يفرضوا أنفسهم على مجتمعاتهم فقهاء ومجتهدين الضلا عن غلو بعض الزعماء الأسبقين ، فكان ما كان من أمر التخبط في شأنهم علما وعقيدة وتاريخا ، تخبط بين الكتاب على قلتهم ، وتخبط بين القوم أنفسهم : المثقفين منهم في جانب من التفكير السوي ، والعامة في جانب آخر من التفكير الذي يحمل ركام الماضي وأوضار السنين ، وهم في كل ذلك — المثقف والعامي — مجني عليهم ، محتاجون إلى فترة من الزمن تجمعهم وتلم شتات أفكارهم بحيث تغربل هذه الأفكار والعقائد فيحتفظ بالصالح منها المرتبط بصلب عقيدة الجماعة الإسلامية ، وتطرد البدع وأسباب الغلو التي فرضتها ظروف ومقادير أغلب الظن أن الجماعة أنفسهم منها براء .

أقول هذا مع قناعتي أن « العلوية » مذهب إسلامي صريح ، إنه مدرسة متفرعة من المذهب الإمامي الكبير ثم شاءت لهم بعض الظروف ، أو بالأحرى شاءت لبعضهم الظروف أن يبتعد قليلا إلى حد يتسامح معه ، ولبعض آخر أن يبتعد إلى حد يجعل طبيعة العقيدة السليمة تفرض عليه إعادة النظر فيما وصل إليه وإلى تقييم ما هو فيه من معتقد لكي يتوب ويعود فيلتحق بالركب ، هذا إذا كان مؤهلا لإعادة النظر والتقييم ، إما إذا لم يكن ذلك في استطاعته فإن الجماعة الإسلامية المستنيرة مطالبة بأن تتكفل له بذلك في نطاق من التسامح والصبر والحب وسعة الأفق والإقناع ومراعاة ظروف جماعة عزيزة على إخوتهم المسلمين لحق بها على مسرى التاريخ الكثير من الظلم حينا والإهمال حينا آخر

بحيث انتهى بها الأمر إلى ما وصل إليه كردة فعل لطبيعة الأشياء وكنتيجة منطقية لمقدمة غير سوية .

نشأتهم ونسبتهم :

العلويون فرقة من الشيعة الإمامية حسبما ذكرنا قبل قليل ، ومن ثم فإن نشأتهم الأولى هي نفسها نشأة الإمامية ، غير أنها اتخذت سبيلا آخر بعد الإمام محمد الثاني عشر (القائم بالحجة) ، وبيان ذلك أنه كان لكل إمام باب — حسب المذهب الاثنا عشري — وكان أول باب هو سلمان الفارسي الذي يحتل مقاما رفيعا ساميا عند العلويين جميعا لأنه كان باب الإمام علي رضي الله عنه ، وآخر باب هو أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري ، فقد كان باباً للإمام الحادي عشر حسن العسكري [1] ، أما الإمام محمد القائم بالحجة فمبلغ علمي أنه لم يتخذ باباً لأنه ولي الإمامة سنة ٢٦٠ هـ وعمره خمس سنوات واختفى وعمره إحدى عشرة سنة .

يتولى محمد بن نصير البصري النميري — وقد شغل وظيفة الباب للإمام الحسن العسكري الحادي عشر — زعامة فريق من العلويين ولهذا ذهب بعض الدارسين إلى أن اسم « النصيرية » الذي عرف به العلويون في سوريه وتركيا لفترة طويلة من الزمن إنما هو نسبة إليه ، وليس في ذلك كبير غضاضة فالرجل له مكانة

---

(١) تاريخ العلويين للطويل . ص : ٢٠٢

الخضوع والإجلال من قبلهم وهو رئيسهم الأول من بعد انقضاء دور الأئمة الإثني عشر ، غير أن حقيقة التسمية « النصيرية » جاءت نسبة إلى المكان الذي عاش فيه إخواننا العلويون واتخذوا منه دريئة وملجأ ضد الأذى ، ومستقرا ومقاما بعيدا عن الاضطهاد ، وهو جبل النصيرة فنسبوا إلى المكان ، فلما زالت أسباب الاضطهاد بزوال الاستعمار وعاودهم الاستقرار والأمان في ظل الاستقلال استعادوا اسمهم الأصلي الذي به يعتزون ويفتخرون وهو « العلويون » نسبة إلى أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وبقدر ما كان العلويون ضائقي الصدور بتسميتهم « بالنصيرية » كانوا سعداء كل السعادة باستعادة اسم « العلويين » ، فهم يرون أن إطلاق اسم « النصيرية » عليهم لم يكن إلا بداعي العداوة المذهبية كإطلاق اسم « الروافض » على الإمامية واسم « النواصب » على السنّة [1] .

فإذا عدنا إلى تتبع مسيرة المذهب العلوي وجدنا رئاسة العلويين تنتقل بعد ابن نصير النميري إلى عبد الله بن محمد الجنان الجنبلاني نسبة إلى بلدة جنبلا في العراق العجمي ، وكان ذا علم وفلسفة وزهد وتصوف فأسس الطريقة الجنبلانية التي سعى من جانبه إلى إدخال كثير من الناس فيها بحيث أصبحت صفة « الجنبلانية » تعادل صفة « العلوية » ومن هنا غلبت الصوفية على المذهب العلوي

(١) انظر مقدمة الشيخ عبد الرحمن الخير لكتاب : تاريخ العلويين ، ص : ر

الذي أصبح منذ ذلك الحين يجمع بين ثلاثة عقائد هامة هي التشيع والاعتزال والتصوف ، صحيح ان بعض المؤرخين يذهبون إلى أن فكرة التصوف نشأت قبل ذلك بفترة زمنية غير قصيرة ، إلاّ أن التصوف بمعناه الواسع ومعاناته ورياضته لم يظهر عند العلوية بشكل واضح قبل الجنبلاني ثم ما لبث أن ازدادت جذوره عمقا عند المنتجب العاني والمكزون السنجاري ومن جاء بعدهم من زعماء العلويين .

وفي مدرسة الجنبلاني في جنبلا نشأ ونبغ مصري ذكي هو حسين بن حمدان الخصيبي الذي كان قد التقى بشيخه حين زار مصر وتعلق به تعلقا شديدا ودخل في طريقته ، فلما عاد الجنبلاني إلى موطنه جنبلا تبعه تلميذه ورحل في إثره ، واستقر عند شيخه عبد الله ولمع شأنه وذاع صيته ، وما أن توفي الشيخ سنة ٢٨٧ ه حتى نهض الخصيبي بالعبء من بعده وخلفه في رئاسة العلويين ، وترك جنبلا ورحل إلى بغداد ، وبعد فترة من الزمن تركها متجها إلى حلب حيث استقر فيها على مقربة من سيف الدولة الحمداني ، ولعله استمد بعض القوة والسند من سيف الدولة الذي كان متشيعا في سماحة محبا لآل البيت في غير غلوّ . وليس من شك في أن الخصيبي قد لعب دورا خطيرا في تثبيت الدعوة العلوية وتكريسها ورفض الاتحاد مع الإسماعيلية ، وطوف في بلاد خراسان والديلم وديار ربيعة وتغلب ، ومن هنا كان الخصيبي هو ألمع الرؤساء العلويين وأكثرهم أثرا في العقيدة ، ساعده على ذلك عمر مديد (٢٦٠ – ٣٥٨ ه) وذكاء وقدرة على التأليف في المذهب وتطويره

إياه حتى كان يلقب بشيخ الدين ، فقد ترك من الكتب : الهداية الكبرى ، وأسماء النبي ، وأسماء الأئمة ، والإخوان ، والمائدة ، غير أن بعض مؤرخيه ذكروا أنه كان يقول بالتناسخ والحلول [1] وكتاب الهداية الكبرى من الكتب النفيسة ذات الأثر العميق في الفكرة العلوية التي هي في أصلها خالية من الغلو ، وآية ذلك أن السيد الخصيبي أهداه لسيف الدولة الحمداني الذي كان معروفا بالاعتدال في تشيعه ، ولو كان بالكتاب شبهة غلو لكان سيف الدولة قد اعترض عليه ، أما الكتب الأخرى فإننا نرجح أن كثيرا من الأيدي قد لعبت فيها وأضافت إليها أو حذفت منها الأمر الذي جعل جانب الغلو يغلب عليها .

ومن الطريف أنه ألف أيضا لعضد الدولة البويهي كتابا بالفارسية أسماه « راست باش » أي « كن مستقيما » ولذلك فإن العلويين كانوا يطلقون على عضد الدولة اسم « راست باش » .

ولقد تناوب رئاسة العلويين بعد السيد الخصيبي عدد من الرؤساء الذين لم يبلغوا شأوه أو ينالوا شهرته على رفعة شأنهم مثل السيد محمد بن علي الجلي ، والسيد أبي سعيد الميمون الطبراني الملقب بشيخ الديانة العلوية ورئيس الطريقة الجنبلانية ، وكان مقره في اللاذقية [2] وإن كان مولده في مدينة طبرية سنة ٣٥٨ هـ

(١) راجع لسان الميزان ٢/٢٧٩ ، وتاريخ العلويين ٢٠٥ — ٢٠٧ ، والأعلام مادة الخصيبي

(٢) تاريخ العلويين ٢٠٩

في فلسطين ، وله العديد من الكتب وقد توفي سنة ٤٢٦ هـ ويعرف قبره باسم الشيخ محمد البطراني ويقع داخل المسجد المعروف بمسجد الشعراني باللاذقية. ومن الأسماء الكبيرة التي تولت رئاسة العلويين أبو حسن الطرسوسي الصغير المتبتل العابد الصائم الزاهد ، وأبو حسن الطرسوسي الكبير .

ونظرا لعبث الروم بالمنطقة العلوية ، فإن الطريقة العلوية حسبما كانت تسمى — بالنسبة لنزعتها الصوفية — قد افتقدت الرئيس ، وانتقلت الرئاسة إلى أسرة البلقيني منجبة العلماء وشيوخ الإسلام في مصر في القرون الوسيطة .

على أن العلويين وقد استبد بهم ظلم الأكراد من ناحية وعسف الإسماعيلية من ناحية أخرى حتى أجلوهم عن أرضهم — وكان ذلك في نهاية القرن السادس وبداية السابع — لم يجدوا بدا من أن يطلبوا العون والمدد من أمير مهابي النسب ، علوي المذهب ، فارس شاعر ، هو حسن بن يوسف بن خضر المعروف بالمكزون السنجاري الذي ورث الفروسية والأريحية من جده الأعلى المهاب بن أبي صفرة ، فهب لنجدتهم سنة ٦١٧ هـ ولكن الخمسة والعشرين ألف فارس الذين قادهم من سنجار — مقره الأول — لم يستطيعوا التغلب على حشود خصومهم ، فعادوا أدراجهم وعلى رأسهم أميرهم إلى سنجار لكي يزدادوا عدة وعتادا واستعدادا ، ولم يحل عام ٦٢٠هـ إلا وكان المكزون يقود جيشا مكونا من خمسين ألف مقاتل متجها بهم إلى حيث تخلى عنه النصر قبل سنوات ثلاث ، وفي

هذه المرة كتب له الظفر بأعداء أبناء طائفته وأعاد الأرض إلى أصحابها ورتب شئونهم وأمّن أحوالهم ، ولما أن تم له ذلك ترك الاشتغال بالدنيا وجنح إلى التصوف والاجتهاد وقول الشعر الصوفي ، ولما توفي سنة ٦٣٨ ه دفن بقرية كفر سوسة على مقربة من دمشق ويقال إن قبره معروف حتى الآن ويزوره المسلمون من سنيين وعلويين (١) .

غير أن ستائر النسيان وأسباب الإهمال وموجات التعذيب والاضطهاد وما يستتبع ذلك من آفات الجهل والتأخر والخوف قد فعلت فعلها في القوم ، فكان لكل ذلك أسبابه في عاداتهم وتقاليدهم بحيث انسحبت على عقائد بعضهم ، فكان ما كان من غلو في معتقداتهم لم يكونوا على الأغلب السبب المباشر لها ، وإنما شارك في ذلك حياة مضطربة قاسية غير آمنة ، ومشايخ لا يعلمون من صلب المذهب إلا القشور ، وصوفية ارتبطت بمذهبهم منذ ولاية السيد الجنبلاني لم تواكبها متابعة علمية ولا تطور ثقافي ، فكانت الانحرافات التي شاعت بينهم ونُسبت إليهم ، بعضها صحيح وبعضها ظالم وبعضها الآخر مبالغ فيه .

وإذا لم يكن بد من كلمة حق تقال في العلويين على مسرى تاريخهم الطويل فإن كثيرا من الفضل منتسب إليهم لاصق بهم فلقد تعرضوا للغزو من قبل الصليبيين وللمذابح من قبل السلطان سليم التركي ، والاعتداء من قبل الاسماعيلية ، والمضايقة من قبل

---

(١) تاريخ العلويين ٣٠٦ - ٣١٠ ؛ والأعلام مادة المكزون السنجاري

السنّة ، وهم مع ذلك كانوا أصحاب نخوة وفروسية في الحرب في صفوف جيوش سيف الدولة الحمداني ، وخاضوا المعارك الباسلة ضد الصليبيين في صفوف إخوانهم من أبناء عامة المذاهب الإسلامية ، وقاوموا بعض طغاة الأتراك من الحكام الغاشمين ، وكانوا صورة طيبة للجهاد على مسرى حركات الاستقلال العربية الحديثة التي آخرها أحداث ١٩٢٠ في سورية ، وما حديث البطل العظيم الفارس الشجاع الشيخ صالح العليّ ببعيد .

وهناك فريق آخر من العلويين انفصل منذ وقت مبكر عن الجمهرة العلوية الجنبلانية الخصيبية ، هذا الفريق هو جماعة الإسحاقية . والإسحاقية من حيث النشأة يحملون اسم أبي يعقوب إسحق بن محمد النخعي صاحب الإمام الحسن العسكري ، وكان أبو يعقوب يعرف باسم إسحاق الأحمر لأنه كان أبرص ويخفي لون برصه بصبغة حمراء .

لقد كان اسحاق النخعي من أصحاب الإمام الحسن العسكري ، ثم ادعى أنه الباب للامام العسكري — منافسا بذلك محمد بن نصير النميري — فاتبعه بعض الناس وآمنوا به باباً .

والواقع أن كل المصادر التي تحت يدي صورت أبا يعقوب هذا تصويرا يضعه في مكان من الغلوّ يخرج به عن حظيرة الإسلام وذكروا أنه وجماعته كانوا يؤلهون الإمام علي بن أبي طالب ، ويزعمون أنه ظهر في الحسن ثم في الحسين وأنه هو الذي بعث محمدا ، ولقد حاول أن يثبّت مذهبه في قلوب أتباعه فألف كتابا سماه:

« الصراط » وجعل موضوعه التوحيد ، أكثر فيه من الخلط والزيغ (1) وتوفي سنة ٢٨٦ هـ ، ولعل أشهر خلفائه اسماعيل بن خلاد البعلبكي . ولكن لم يقدّر لنشاط هذه الجماعة أن يمتد طويلا ، وما لبث أن كشف أمرهم الأمير المجاهد الحسن السنجاري المكزون فقضى عليهم حسبما سوف نفصل فيما يستقبل من حديث .

مواطن العلويين وعشائرهم :

ذكرنا أن ألمع رؤساء العلويين هو السيد حسين بن حمدان الخصيبي المصري الذي تتلمذ على السيد الجنبلاني في جنبلا فلما مات شيخه وصل إلى بغداد ، ثم بدا له بعد ذلك أن يتخذ من مدينة حلب مقرا له ، ومن ثم تكون الشهباء هي المقر الأول من الناحية الرسمية لنشاط الدعوة العلوية بمفهومها الذي نتناوله في هذا الفصل ، غير أنه بمرور الزمن أخذ ظل العلوية يتقلص في حلب بحيث لا يسكنها في أيامنا هذه غير عدد قليل ، وإن كان عدد غير قليل منهم يعيش في منبج وباب وسروج من أعمالها .

فإذا ما اتجهنا من حلب إلى الجنوب نحو حماه وحمص وجدنا عددا كبيرا من العلويين يسكنهما ثم يتكاثر العدد في أطرافهما في اتجاه تدمر .

---

(1) تاريخ بغداد ٦/٣٨٠ ، تاريخ العلويين ٢٠٩ ، البداية والنهاية ١١/٨٢ ، ولسان الميزان ١/٣٧٠

وإذا ما انعطفنا إلى الغرب من حلب فسوف نلتقي بمناطق علوية صرفة بحيث أن نسبة غير العلويين في أغلب بلدانها لا تزيد كثيرا على عشرة في كل مائة ، فمن هذه البلاد اللاذقية وجبلة وبانياس والعمرانية وصافيتا وتلكلخ ، هذا فضلا عن القرى الكثيرة التي تحيط بتلك البلاد التي ذكرنا والتي يصعب حصرها في هذا المقام .

هذا وإذا اتجهنا إلى الحدود التركية حيث المناطق التي اقتطعتها فرنسا من سورية ومنحتها لتركيا مثل الإسكندرونة وأنطاكية وما حولهما من بلاد وجدنا عددا كبيرا من العلويين يعيش في تلك البلاد ويشكل نسبة مرموقة بين سكانها .

وأما المناطق التركية أصلا مثل أطنه وطرسوس وقراهما فهي بدورها عامرة بعدد وفير من العلويين استقروا فيها منذ زمن غير بعيد .

فالعلويون والأمر كذلك مستقرون في مناطق شمال وغرب سورية وجنوب تركيا .

تلك أهم مواطن العلويين ، أما من حيث تكوينهم الاجتماعي أو العشائري فهم ينقسمون في هذا السبيل إلى جماعات متعددة وعشائر كثيرة ، وتحمل العشيرة اسم جدها حينا ، وحينا آخر تحمل اسم البلدة التي تنتسب إليها وحينا ثالثا تنسب إلى صفة عرفت بها أو إلى شيخ تولى زعامتها .

فمن العشائر التي تنسب إلى جدها : النواصرة وينسبون إلى جدهم ناصر ، والجهنية وينسبون إلى الأمير جهينة البغدادي ،

والرسالنة وينسبون إلى جدهم رسلان ، والياشوطية وينسبون إلى جدهم ياشوط من عشيرة بني علي، والمهالبة وينسبون إلى المهلب بن أبي صفرة جد الأمير حسن المكزون ، والخياطية وينسبون إلى جدهم الشيخ علي الخياط الذي قام هو وزميله الشيخ محمد البانياسي بالاتصال بالأمير حسن المكزون يستنفرانه لمساعدتهم على النحو الذي مر بنا قبل قليل وتشمل الخياطية البساترة ، والخزرجية والسوارخة ، والعبدية والبغدادية ، ومن هذه العشائر التي تحمل اسم جدها أيضا عشيرة الحدادين وتنتسب إلى المعلم محمد الحداد ابن الأمير ممدود السنجاري ابن أخ الأمير حسن المكزون ، وهي أصل لعشائر بني علي والمتاورة والمهالبة والدراوسة .

ومن العشائر التي تنسب إلى أمكنة إقامتها الرشاونة نسبة إلى قرية الرشية في جبل الشعرا ، والجردية نسبة لجرود الجبال التي سكنوها ، الفقاورة نسبة إلى قرية فقرو في جنوبي مصياف ، والمتاورة نسبة إلى قرية متوار وهي أول موطن نزل إليه المكزون ، والدراوسة نسبة إلى جبل دريوس وقد سبق القول أنهم من الحدادين

ومن العشائر التي نسبت إلى صفة عرفت بها أو إلى شخص تولى زعامتها عشيرة الغيبية أي الذين رضوا بما كتب عليهم في الغيب وانقادوا للمقادير ، وجماعة الجرانة لأنه حفروا أجرانا في الصخور حيث كانوا يدخرون الماء الذين يشربونه أيام انقطاعهم للدعاء ، ثم يتغلب اسم الكلازية على الجرانة نسبة إلى الشيخ محمد ابن يونس كلازو من قرية كلازو التابعة لأنطاكية ، وبنفس

الطريقة يتغلب اسم الحيدرية على الغيبية نسبة إلى الشيخ علي حيدر الذي تولى رئاسة الغيبية وهناك الماخوسية أو المواخسة نسبة إلى الشيخ على الماخوس الذي انشق على الكلازية واتبع الحيدرية فسمي الذين اتبعوه الماخوسية وهي اسم قرية في جهات اللاذقية [1] .

ومن أكبر العشائر العلوية عشيرة الكلبية وهم يسكنون قلب جبال العلويين في عديد من قراه ، وهي تضم الرشاونة والرسالنة والنواصرة والجلقية والقراطلة .

وواقع الأمر أن قضية العشائر العلوية قضية معقدة لأنها لا تخضع للنظام العشائري المعروف من حيث الانتماء العرقي ، وإنما هي مجموعات من القوم ارتبطت برباط الإقامة أو المصلحة المشتركة أو العقيدة أو الوشيجة الصوفية أو الحلف ضد الأخطار ، فإذا أخذنا مثلا عشيرة الدراوسة وجدنا نسبتهم إلى جبل دريوس حسبما مرّ بنا قبل قليل ولكنهم في نفس الوقت يمثلون فروعا من الحدادية — وقد مر ذكر ذلك — والمهالبة وبني علي وفرعا من القراطلة ، وهؤلاء الأخيرون من الأتراك وليسوا عربا على عكس المهالبة وبني علي ، ويمكن القياس على ذلك في تكوين أكثر العشائر .

وبهذه المناسبة فإن التحالف الذي كان يتم بين العشائر لم يكن دائما لحماية أنفسهم من هجوم عدو خارجي وإنما كان يتم لشن حرب على عشيرة أخرى ، فقد طالما وقعت حروب بين هذه

(١) تاريخ العلويين ص ٤٧٣ ، ٤٧٤

العشائر بعضها وبعض تذكرنا بحروب القبائل العربية بعضها بعضا قبل الإسلام ، ولم تكن هذه الحروب – أعني حروب العشائر العلوية – إلا نتيجة للجهل وافتقاد الزعامات الصالحة والقدوة الحسنة . .

فرباط الدم ليس أساسيا في تكوين هذه العشائر التي اندمجت في نطاق المعاني والمبادىء التي ذكرنا ، خاصة وأن وفودها على المنطقة تم في فترات زمنية متفاوتة، وكان منبع قدومها أيضا من أقطار إسلامية مختلفة عديدة [١] .

ومن الغريب أن تجد أخوين أحدهما حيدري والآخر كلازي لأن النسبة في هذه الحالة سببها الخلاف الفكري في نطاق المذهب ، ونظرا إلى أن أكثر الحيدرية تعيش في الشمال والكلازية تعيش في الجنوب فقد أطلق على الحيدرية صفة الشمالية وأطلق على الكلازية صفة القبلية [٢] .

لقد عاش العلويون عصورهم الماضيات – حسبما ذكرنا – متجمعين منكمشين في قراهم الجبلية أو متفرقين منطوين على أنفسهم في المدن أو السواحل في حرص وحذر وخوف نظراً لما حل بهم من أذى وحيف في عهد الحكام القدامى وبخاصة الأتراك الذين أوقعوا بهم كثيراً من الظلم والانتقام ، الأمر الذي جعلهم يعيشون في معزل عن المجتمع الكبير راضين بالجهل والفقر ،

(١) راجع تاريخ العلويين ٣٥٤ وما بعدها .
والعلويون لمنير الشريف ٣٤ وما بعدها
(٢) تاريخ العلويين ص ٤٧٥

حتى أن المستعمرين الأوروبيين حاولوا أن يستغلوا هذه الثغرة كي ينفذوا منها إلى الاستعانة بهم في قضاء أغراضهم ، ولكن القوم كانوا من الوطنية واللباقة بحيث فوتوا على المستعمرين هدفهم ، هذا إذا ضربنا صفحا عن بعض ضعاف النفوس الذين لا يخلو منهم مجتمع من المجتمعات البشرية .

وإذا كان العلويون قد عاشوا منعزلين حذرين متوجسين في الماضي ، فإنهم في ظل سماحة الاستقلال والوحدة العربية والنهضة المعاصرة قد بدأوا يندمجون ويقتربون من مواطنيهم ، ويسهمون في الحياة العامة إسهاماً إيجابياً منتجاً مباشراً .

عقيدة العلويين

العلويون من حيث عقيدة مستنيرهم شيعة إمامية كاملو الإيمان صحيحو الإسلام وهؤلاء بين القوم من الكثرة بمكان يؤدون الفرائض صلاة وصوما وزكاة وحجاً في ظل روح الإيمان كما ينبغي أن تؤدى من غير تحريف أو تغيير أو تبديل ، غير أن شطحات من الغلوّ جنحت ببعضهم إلى مهاوي الزلل فضلا عن السرية التي فرضها فريق منهم على العقيدة وجعلها جزءا منها ، وفي يقيننا أن هذا الفريق الأخير فريسة للانطواء والانعزال وقصور المعرفة بالرغم من لقب « المشيخة » التي يتمتع بها بعضهم بين جمهور البسطاء .

من هنا كان الحديث عن العقيدة العلوية أمرا ليس من اليسر بمكان في نطاق هذه السرية التي تبناها بعض القوم ورفضوا أن يحيدوا عنها رغم زوال كل سبب منطقي يمكن أن يكمن وراءها ، ولكن وجد أيضا من مستنيريهم من يستنكر هذه السرية ويبرأ من كل زيغ فيها أو شطط أو غلو ، ويرفع صوته عاليا في زمن حط فيه الإنسان على القمر حيث لا يزال يوجد بين الجماعة من يخلع على القمر صفات من القداسة الدينية مما يجعل العقل ينفر منها ويستنكرها ، وفي أضعف الإيمان يشفق عليهم ويرثي لهم .

إن أمانة البحث العلمي تقتضي منا أن نعرض للفريقين : فريق الغلاة وفريق المعتدلين ، راجين أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه صفة الغلو ومسلكه وممارسته شيئا في ذمة التاريخ ، وسوف نبدأ بفريق الغلاة ثم نثنّي بعد ذلك بالفريق المعتدل ، وفي حديثي عن الغلاة سوف يلاحظ القارىء عقائد تدعو إلى الغرابة فلا عليه في ذلك ، لأني أحس أن الأمور سريعة التبدل ، وأن المخلصين المؤمنين من أبناء المذهب يبذلون من الجهود في سبيل إعادة المنحرفين إلى الهدي السوي ما هو جدير بالإعجاب وما يبشر بالخير الكثير ، غير أن الذي نذكره هنا عن الغلاة هو جزء من الحقيقة الواقعة ويمثل جانبا من التاريخ وبعضا من الحاضر .

فريق الغلاة :

فأما الغلاة من العلويين — ويسميهم الشهرستاني النصيرية ربما

لإبعادهم عن الإمامية الجعفرية — فينسب إليهم تأليه الأئمة من آل البيت وجعلهم للإمام علي كرم الله وجهه قداسة إلهيه ، وهم يرون أن النبي مختص بالظاهر ، وأن عليًّا مختص بالباطن ويقولون إن النبيّ كان مختصًّا بحرب المشركين ، وأما علي فمختص بحرب المنافقين وأنه كان مخصوصا بتأييد إلهي (1) .

هذا ما كان من أمر العلويين النصيرية في الماضي ، فلما سار ركب الزمان ومرت عليهم القرون عاد منهم إلى العقيدة في سلامتها من عاد ، وأخذت بالباقين أسباب من التغير أو التطور بعضها باعد بهم عن الإسلام وبعضها الآخر قربهم إليه .

فأما الذين ساروا في طريق التباعد ، فقد وقعوا تحت تأثيرات التعلات الجاهلة التي خرّوا ضحية لها لأن بعضها جاء من المجوسية والبعض الآخر جاء من التثليث المسيحي أو من فتنة عبد الله بن سبأ ، فهم يؤلفون ثالوثاً من عليّ ومحمد وسلمان الفارسي ويتخذون من ذلك شعاراً يتكون من الحروف الثلاثة (ع م س) أو ما يسمى (سرّ عقد ع م س) .

وهذا الثالوث يفسر عندهم بـ (المعنى والاسم والباب) فالمعنى هو الغيب المطلق ، أي الله الذي يرمز إليه بحرف ع . والاسم هو صورة المعنى الظاهر ويرمز إليه بحرف م . والباب هو طريق الوصول للمعنى ويرمز إليه بحرف س .

فللعقيدة عند هذه الفئة من الغلاة الذين بدأوا في الاندثار

(1) الملل والنحل ١/١٦٨ ، ١٦٩

هيكلان : هيكل شبه نصراني يتمثل في التثليث الذي يتضح في عقد ع م س وآخر إسلامي . ولعل من القرائن التي تفسر لنا ذلك احتفالهم الكامل بالأعياد المسيحية احتفالهم بالأعياد الإسلامية ، ونزيد على ذلك أيضاً الأعياد الفارسية التي دخلت إلى مجتمعهم عن طريق بعض الفرس الذين أسهموا في خلق العقيدة ، فهم يحتفلون بعيد الميلاد ويقدمون فيه النبيذ ، ويحتفلون برأس السنة وبعيد البربارة ، والغطاس ، والشعانين ، والعنصرة ، ومريم المجدلانية . ومن الأعياد الفارسية يحتفلون بالمهرجان والنيروز . وأما الأعياد الإسلامية التي يحتفلون بها فهي عيد الأضحى ، وعيد الغدير ويقع في الثامن عشر من ذي الحجة ، وعيد الغدير الثاني ويقع في التاسع من ربيع الأول ، وليلة نصف شعبان ، وعيد الفراش أي ليلة مبيت عليّ في الفراش مكان النبي صلى الله عليه وسلم .

ليس من شك في أن هذه الناحية من السلوك في ضوء هذه القرائن متأثرة بالمسيحية وبعض العادات الفارسية .

ومن عقيدة هذه الفئة الحلول، أي أن الله تجلى للمرة الأخيرة لعلي كما تجلى قبل ذلك ــ حسب اعتقادهم ــ بهابيل وشيث وسام وإسماعيل وهرون وشمعون واتخذ في كل دور رسولاً ناطقاً تمثل على الترتيب في آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى . فعليٌّ إله في الباطن إمام في الظاهر لم يلد ولم يولد ولم يمت ولم يقتل ولا يأكل أو يشرب . وبحسب الاعتقاد السابق فقد اتخذ عليٌّ محمداً ،

ومحمد متصل بعلي ليلاً منفصل عنه نهاراً .

* * *

إن الشيخ سلمان بن علي بن حسن الذي عاش في القرن الماضي في قرية الدرسونية من قرى أنطاكية يلخّص عقيدة هذه الفرقة الغالية فيقول في سذاجة وجرأة غريبتين : [1]

اعلم يا ولدي أن السماء هي ذات علي بن أبي طالب وهي الجنة الباطنة دون الجنة المأوى التي ذكرها القرآن بقوله تجري من تحتها الأنهار ، فالنهر الأول نهر الخمر لونه أحمر وهو أن السيد الاسم (أي محمد) يرى السماء حمراء ، والنهر الثاني نهر اللبن لونه أبيض وذلك نظرة الباب أي سلمان الفارسي فيراها بيضاء والنهر الثالث نهر العسل لونه أصفر وهو أن الملائكة أي الكواكب يرونها صفراء ، والنهر الرابع نهر الماء وهو نظرتنا لأننا نراها كالماء ولكن متى خلصنا من هذه الكثايف البشرية ترتفع أرواحنا إلى بين تلك الكواكب المتلاصقة في بعضها التي هي درب التبان ، ونلبس هياكل نورانية وحينئذ نرى السماء صفراء وإن شككنا فيها في هذه الحيرة الفانية تحلّ أرواحنا في أجسام المسوخية وليس لنا نجاة إلى أبد الآبدين وأما باقي الطوايف الخارجة عن هذا الاعتقاد فمنهم الغنم والوحوش وساير المسوخات وليس لهم خلاص أبداً . واعلم أيضاً أن الشمس هي السيد محمد وهو كل نبيّ ظهر في العالم من قبة الحنّ إلى آدم وإلى محمد كما أخبر بذلك

(١) الباكورة السليمانية ٨٤ – ٨٦

شيخنا وسيدنا أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي من ديوانه بقوله: لو أنهم ماية ألف في تعدادهم لعاد في واحد عوداً بلا أمد ، واعلمْ أيضاً أن القمر هو سلمان الفارسي وهذه الكواكب هم الملايكة الذين كانوا قبل كون العالم ، وهم سبع مراتب إحداها تعلو الأخرى ، وكبيرهم السيد المقداد الذي هو كوكب زحل واسمهُ ميكائيل وأما كوكب المشتري فهو أبو الدر واسمه إسرافيل ، وأما عبد الله بن رواحة الأنصاري فهو كوكب المريخ وهو عزرايل الملاك الذي يقبض أرواح العالم والدليل على ذلك أن النجم يختفي من مكانه حين مفارقة نفس الإنسان ، وأما عثمان بن مظعون النجاشي فهو كوكب الزهرة واسمه بالملايكة درديائيل ، وأما كوكب عطارد فهو قنبر بن كادان الدوسي واسمهُ بالملايكة صلصيائيل وأما السبع المراتب الأخرى فهي درب التبّان وهي أرواح المنتقلين من البشر بإقرارهم بعمس .

وتقدم هذه الفئة المضلّلة أدلة على ألوهية عليّ بن طالب لا تخلو من فكاهة في كثير من الأحيان فهم يقرأون الآية الكريمة من سورة يس « أَوَ لَيْسَ الذّي خلَقَ السَّمَوات والأرْضَ بقادرٍ عَلَى أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » بعد أن يغيروا حرف الجر « على » فيجعلوه « علي » يقصدون بذلك أن علياً هو الخالق ، وهو تحريف ساذج ، ذلك أن الآية الكريمة في منطوقها المحرف لا تعني ما ذهب إليه القوم ، والقوم يلحون على هذه القراءة إلحاحاً شديداً ويقولون إن هذه هي القراءة الصحيحة الأصلية للآية ولكن عثمان بن عفان عند جمعه المصحف الشريف حرفها

من « عليٍّ » إلى « عَلَى » .

ومن الطرائف حول التدليل على ألوهية « عليّ » ما يتردد في كتب القوم عن أسطورة تقول إن « علياً » أرسل جابر بن يزيد الجعفي في قضاء غرض له ، فلما أن وصل إلى الموضع المقصود رأى علي بن أبي طالب جالساً على كرسي من نور والسيد محمد (يعني سيدنا محمدا) عن يمينه والسيد سلمان (يعني الصحابي الجليل سلمان الفارسي) عن شماله ، ثم التفت جابر إلى ورائه فرآه هكذا ، ثم نظر عن يمينه فرآه أيضاً ، ثم نظر إلى السماء فرآه في السماء والملائكة أمامه يسبحون بحمده ويسجدون له (١) .

ويذكر القوم أن علياً ظهر بصورة بقرة بني إسرائيل كما ظهر بصورة ناقة صالح ، وعند بعض فرقهم ظهر بصورة كلب أصحاب الكهف ، ويعتقد هؤلاء القوم أيضاً أن صوت الرعد هو صوت عليّ ينادي قائلاً : يا عبادي اعرفوني ولا تشكّوا بي . وإذا كان الإله « لم يلد ولم يولد » فإن علياً كذلك ، وليس الحسن والحسين إلا ابنين في الظاهر .

وعليٌّ يسكن القمر أو بالأحرى إن القمر هو عليّ ذاته ، وإن ما في القمر من سواد ليس إلا أعضاء جسم عليّ ، ومن ثم كان القمر معبوداً لهم ، ولما كان القرآن الكريم يصف الخالق بقوله تعالى « كلَّ يومٍ هُوَ في شَأنٍ » فإن القمر يكون هو ذلك الإله لأنه كل يوم في شأن ، وكلمة قمر توحي بالضياء وهي

(١) الباكورة السليمانية ص ٨٧

مكونة من ثلاثة أحرف ، ولما كانت كلمة « شمس » وكلمة « نجم » كل منها مكونة من ثلاثة أحرف وتعطي ضياء فإن الصلة تكون وثيقة القداسة بينها ولذلك فإن بعض القوم يذهبون إلى أن القمر هو عليّ ، والسماء هي عليّ ، والشمس هي محمد .

أما وإن القمر هو الإله فإن لهذا الفريق كثيراً من الأشعار التي تمجد القمر أو « الرمق » كما يحلو لبعضهم أن يكني عنه بحروفه مقلوبة على ما سوف نبين بعد قليل فيما نقدم من نماذج لأشعارهم الدينية .

ومن حيث العبادة والمعبود فإن الفرق الغالية من النصيرية التي نخصها هنا بالحديث تنقسم إلى أربع طوائف هم عباد السماء ، وعباد الشفق ، وعباد القمر ، وعباد الهواء . وليس كل من السماء والشفق والقمر والهواء إلا « علياً » .

ولقد ذكر صاحب الباكورة السليمانية خمس عشرة سورة كلها مكرسة لتأليه « علي » والتوكيد على عقد ع م س الذي يرمز حرف العين فيه إلى عليّ الذي يمثل عندهم « المعنى » أو « الإله » ، ويرمز حرف الميم فيه إلى محمد الذي يمثل عندهم « الاسم » ويرمز حرف السين إلى سلمان الفارسي الذي يمثل عندهم « الباب » حسبما ذكرنا قبل قليل .

وتحمل السور أسماء مختلفة بعضها قرآني مثل سورة الفتح

أو السجود محرفا عن السجدة ، وأسماء أخرى غير قرآنية مثل الحجابية ، والبيت المعمور ، والجبل ، والشهادة .

وقد تبدأ بعض السور بآية أو آيتين قرآنيتين ثم لا تلبث أن تتجه وجهتها في تأليه « عليّ » .

إن سورة الجبل [1] تبدأ بالقرآن الكريم على هذا النمط : « شهد اللهُ أنه لا إلهَ إلاّ هو والملائكةُ وأولو العلمِ قائماً بالقسط لا إلهَ إلا هو العزيزُ الحكيم • إنّ الدينَ عندَ اللهِ الإسلام • ربنا آمنّا بما أنزلتَ واتبعْنا الرسولَ فاكتبنا مع الشاهدين » . وحتى الآن فإن تلاوة هذه الآيات البينات سليمة تماماً ، غير أننا لا نلبث أن نفاجأ بأن الآية قد وُصِلت باللون النصيري مبتعدة كل الابتعاد عن قدسية المسرى القرآني وإذ بالفقرة القرآنية الأخيرة تصير هكذا « واكتبنا مع الشاهدين بشهادة ع م س ، اشهد عليّ أيها الحجاب العظيم ، اشهد عليّ أيها الباب الكريم ، اشهد علي يا سيدي المقداد اليمين ، اشهد عليّ يا سيدي أبو الدر الشمال .... بأن ليس إلها إلا عليّ بن أبي طالب الأصلع المعبود ، ولا حجاب إلا السيد محمد المحمود ، ولا باب إلا السيد سلمان الفارسي المقصود وأكبر الملائكة الخمسة الأيتام ، ولا رأي إلا رأي شيخنا وسيدنا الحسين بن حمدان الخصيبي الذي شرع الأديان في سائر البلدان ، أشهد بأن الصورة المرئية التي ظهرت في البشرية هي الغاية الكلية وهي الظاهرة بالنورانية

(١) الباكورة السليمانية ص ٢٦

وليس إله سواها وهي عليّ بن أبي طالب وأنه لم يحاط ولم يحصر ولم يدرك ولم يبصر ، أشهد بأني نصيري الدين جندبي الرأي جنبلاني الطريقة خصيبي المذهب جليّ المقال ميموني الفقه وافر الرجعة البيضاء والكرة الزهراء وفي كشف الغطاء وجلاء العماء وإظهار ما كتم وإجلاء ما خفي وظهور عليّ بن أبي طالب من عين الشمس قابض على كل نفس ، الأسد من تحته وذو الفقار بيده والملائكة خلفه والسيد سلمان بين يديه والماء ينبع من بين قدميه والسيد محمد ينادي ويقول : هذا مولاكم علي بن أبي طالب فاعرفوه وسبّحوه وعظّموه وكبّروه . هذا خالقكم ورازقكم فلا تنكروه . اشهدوا عليّ يا أسيادي أن هذا ديني واعتقادي وعليه اعتمادي وبه أحيا وعليه أموت وعليّ بن أبي طالب حي لا يموت بيده القدرة والجبروت ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا علينا من ذكرهم السلام » .

هذا أنموذج لسورة من السور الخمس عشرة ، وهي — عقيدة وفكراً وأسلوباً — تدل دلالة واضحة على بساطة معتنقيها من القوم وشططهم وسذاجة تفكيرهم النابع من تفكير « علمائهم » الذين ليس لهم من حصيلة العلم قليل ولا كثير ، إذ أن من يتصدى للزعامة الدينية لا بد له على أقل تقدير أن يحسن كتابة جملة واحدة في صيغتها العربية الفصيحة .

وحتّى تكون الفكرة عن هذا الفريق أوسع فلا بأس من قراءة السورة الخامسة التي أطلق مؤلفها عليها « الفتح » وهو يستفتحها

بسورة الفتح الكريمة ثم لا يلبث كالعادة أن ينتقل إلى تأليه عليّ مع تعريج على جمل غير مترابطة إذا لم يخرج القارىء منها بما يقنعه فإنه يخرج بمزيد من الفكر عن طبيعة العقيدة النصيرية حسبما تقدمها هذه الجماعة (١) :

« إذا جاءَ نصر الله والفتح ورأيتَ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّاباً أشهد بأن مولاي أمير النحل عليّ اخترع السيد محمد من نور ذاته وسماه اسمه ونفسه وعرشه وكرسيه وصفاته متصلٌ به ولا منفصل عنه ولا متصل به بحقيقة الاتصال ولا منفصلاً عنه في مباعدة الانفصال ، متصلٌ به بالنور منفصلٌ عنه بمشاهدة الظهور ، فهو منه كحس النفس من النفس أو كشعاع الشمس من القرص أو كدويّ الماء من الماء أو كالفتق من الرتق أو كلمع البرق من البرق أو كالنظرة من الناظر أو كالحركة من السكون ، فإن شاءَ علي بن أبي طالب بالظهور أظهره وإن شاءَ بالمغيب غيبه تحت تلالي نوره ، وأشهد بأن السيد محمد خلق السيد سلمان من نور نوره وجعله بابه وحامل كتابه ، فهو سلسل وسلسبيل وهو جابر وجبرايل وهو الهدى واليقين وهو بالحقيقة رب العالمين وأشهد بأن السيد سلمان خلق الخمسة الأيتام الكرام فأوّلهم اليتيم الأكبر والكوكب الأزهر والمسك الأذفر والياقوت الأحمر والزمرد الأخضر المقداد بن أسود الكندي وأبو الذرّ

(١) الباكورة السليمانية ص ١٨ ، ١٩

الغفاريّ وعبد الله بن رواحة الأنصاري وعثمان بن مظعون النجاشي وقنبر بن كادان الدوسي هم عبيد مولانا أمير المؤمنين لذكره الجلال والتعظيم ، وهم خلقوا هذا العالم من مشارق الشمس إلى مغربها وقبلتها وشمالها وبرها وبحرها وسهلها وجبلها ما حاطت الخضراء وحوت الغبراء من جابلقا إلى جابرصا إلى مراصد الأحقاف إلى جبل قاف إلى ما حاطت به قبة الفلك الدوّار إلى مدينة السيّد محمد السامرة التي اجتمع فيها المؤمنون واتفقوا على رأي السيد أبي عبد الله ولا يشكون ولا يشركون ولا في سر علي بن أبي طالب يبيحون ولا يخرقون له حجاباً ولا يدخلون إليه إلاّ من باب اجعل المؤمنين مؤمّنين ومطمانين ومؤيّدين مجبورين على أعدائهم وأعدائنا منصورين واجعلنا بجملتهم مؤمنين مؤمّنين ومطمانين مستورين مجبورين ، على أعدائهم وأعدائنا منصورين بسر الفتح ومن فتح الفتح ومن كان الفتح على يده اليمين بسر سيدنا محمد وفاطر (أي فاطمه) والحسن والحسين ومحسن سر الخفي وأشخاص الصلاة وعدّة العارفين علينا من ذكرهم السلام صلوات الله عليهم أجمعين » .

قد تستبد الحيرة بالمسلم وهو يقرأ هذه الصفحات التي سطرت عن العقيدة المنسوبة للعلويين – أعني بعض العلويين بل قلة منهم – ولقد هممت أن أنكر هذه المعلومات جملة وتفصيلا ، وأوشكت أن أفعل ذلك حتى ولو كان الأمر متعلقا بعدد قليل من العلويين ، ولقد أسهم في تزكية إنكاري هذا أن مصدر أكثر هذه المعلومات التي ذكرت مأخوذ من كتاب « الباكورة السليمانية في كشف أسرار

الديانة العلوية » لمؤلفه سليمان الأدني (نسبة إلى أدنه) نشأ علويا ثم تحول عن العلوية إلى اليهودية ثم ما لبث أن تحول إلى المسيحية البروتستانتية ثم حلا له أخيرا أن يتحول إلى راهب كاثوليكي (١)

الواقع أن هذا التحول في حد ذاته يحمل معنى التقلب والتحدي الذي يجعل المرء يتردد في اعتماد ذلك الكتاب كمصدر يعتمد عليه ، خاصة وأن الرأي العلوي في سليمان هذا أنه كان سكيرا عربيدا ، الأمر الذي أدى إلى طرده من الجامعة العلوية . أما الرجل من ناحية وجهة نظره فيذكر أنه لم يستطع أن يتقبل عقائد القوم وغلوهم الشديد المقرون بالجهل ، الأمر الذي زعزع عقيدته أو بالأحرى جعله وقد وجد نفسه بغير عقيدة ، ومن ثم أخذ يبحث عن دين ، وينتقل من عقيدة إلى أخرى بين الاسلام واليهودية والمسيحية ، بل تأرجح بين فرقتين من الفرق المسيحية نفسها .

إن صاحب الباكورة السليمانية ربما كان معذورا من الناحية الشكلية في تخبطه بين الديانات ، شأن غيره من العلويين الذين افتقدوا التوجيه الديني الرشيد فتحولوا كلية عن الإسلام . وإن الشيخ الجليل عبد الرحمن الخيّر وهو ممن نجلهم من إخواننا العلويين دينا وعلما وحسن إسلام يقول في هذا المقام إن المخلصين من رجالات العلويين الأفذاذ ظلوا يجالدون سياسة الاستعمار الغاشمة التي كانت ترمي بين ما ترمي إليه إلى تنصير جهلائهم (٢)

---

(١) تاريخ العلويين ص ٣٩٣ وتاريخ ولاية بيروت القسم الثاني فصل الديانات
(٢) مقدمة تاريخ العلويين ص ٤٧٧

ومن البداهة أن الاستعمار لا يقدم على تنصير مسلم إلا إذا كان بين هذا المسلم وبين الإسلام شأو بعيد ، مسافته جهل وغفلة ، ولقد كان عدد كبير من مشايخ العلويين ناهيك عن عوامهم غارقين في تيارات الغلو سالكين متاهات الجهل بحقائق العقيدة ، هذا فضلا عن كثرة عددهم الذي كان يناهز عدد العوام [1] .

نقول إننا أوشكنا أن نرفض كل ما جاء في كتاب الباكورة سالف الذكر — وما جاء فيه مفزع خطير — لولا أننا رأينا اتفاقا ومطابقة في الكثير الذي أورده مع آراء محمد بن الحسن العاني الخديجي المشهور باسم المنتجب العاني المتوفى حوالي سنة ٤٠٠ هـ . والمنتجب العاني واحد من أعلام المذهب العلوي وشعرائه .

إن كلا من المنتجب العاني وسليمان الأدني يذكر « أيتام سلمان الخمسة » ويعدد أسماءهم ، وهم المقداد الكندي ، وأبو ذر الغفاري ، وعبد الله بن رواحة الأنصاري : وعثمان بن مظعون ، وقنبر بن كادان ، وذكرهم مقرون بالتمجيد والإجلال عند كل من المصدرين [2] .

وكل من المنتجب العاني وسليمان الأدني يتفقان في ذكر

(١) تاريخ العلويين ص ٤٧٧

(٢) انظر الباكورة السليمانية ص ١٨ ، ١٩
والمنتجب العاني ص ١١١ ، ١١٢

الآراء الشديدة الغلو حول ما أسمياه « ظهورات الإله في المظاهر التي اصطفاها » « فهابيل وشيت ويوسف ويوشع وآصف وشمعون وعليٌّ كلهم ظهورات تتجلى فيهم ذاتية الله حينا وتغيب حينا آخر عن الأبصار » [1] .

ويتفق كل من المنتجب وسليمان في تأليه علي بن أبي طالب وظهوره من عين الشمس على أسد ، وسيفه بيده ، والملائكة خلفه ، وسلمان بين يديه ، المنتجب يذكر ذلك في قصيدة أطلق عليها جذوة التوحيد ، وصاحب الباكورة يذكر ذلك في سورة الشهادة أو الجبل [2] . الحق أنني لا ألوم بعض « المشايخ » فضلا عن العوام إذا ما قورن موقفهم بموقف علم كبير كالمنتجب العاني .

وكل من سليمان الأدني والمنتجب يتفق في مثلث ع م س ، إن هذا المثلث : علي . محمد . سلمان يكاد يطفو على كل صفحات باكورة الأدني ، وهو في نفس الوقت يجري على لسان المنتجب في أكثر من قصيدة ، إن قصيدة المنتجب التي أسماها كأس الوفاء ينثرها ويعلق عليها مؤلف المنتجب على هذا النحو قائلا : « والحق ما دعا إليه محمد بن عبد الله في رسالة الإسلام ، فالميم ويعني به محمدا هو استمرار الحقيقة الثانية في الأزل وبه يستجير ، والسين ويعني به سلمان الذي جعله محمد

(١) المنتجب العاني ص ٨٩ ، والباكورة السليمانية ص ٤٧

(٢) المنتجب العاني ص ٨٩ ، والباكورة السليمانية ص ٢٧

من آل البيت هو استمرار الحقيقة الثالثة التي فاضت من نور الحقيقة المحمدية كما فاض نور الحقيقة المحمدية عن نور ذات الحقيقة الأحدية الجليلة التي لا تقاس ولا نسب لها .... وتظهر مغالاته أي مغالاة المنتجب من جهة مقالته بإفراد عليٍّ بإمارة المؤمنين ، ولعله كان يرى في علي المظهر الإنساني للذات الإلهية »[1] مما يجعل القارىء يتصور أن الهدف من قول المنتجب هو عقد ع م س صريحا كل الصراحة ..

ويتفق كل من المنتجب والأدني في هجاء الصحابة البررة والتطاول على أم المؤمنين السيدة عائشة ، وسوف نعف عن ذكر نصوص التطاول على أم المؤمنين إجلالا لمقامها الشريف ونضرب صفحا عما وصف به الصحابة الكرام إكراما لمقامهم ، وإنما يمكن للقارىء أن يراجع النصوص في مصادرها إذا أراد [2] .

ليس مقصودنا إجراء مقارنة بين فكر المنتجب وعقيدته وبين ما جاء به صاحب الباكورة ، فذلك أمر يطول مداه ، وإنما نحن نريد أن نثبت أن المنتجب العاني لا يمثل العقيدة العلوية ذات الصفاء والسلامة والنقاء ، عقيدة شيعة آل البيت ، ولو تتبعنا أقواله وآراءه فيما جرى على لسانه شعرا أو نثرا وأردنا أن نجعل منه أنموذجا للعقيدة العلوية لظلمنا العلويين فوق ظلمهم .

(١) المنتجب العاني ، ص ١١١

(٢) المنتجب العاني ص ١٩٣ ، ١٩٤ والباكورة السليمانية ص ٤٤

ويتفق سلمان الأدني مع المكزون السنجاري في ذكر أشخاص الصلاة وأعترف أنني حتى الآن ما فهمت أن هناك أشخاصا للصلاة وأشخاصا للصوم وأشخاصا للحج [1] .

الحق أن المنتجب شاعر بارع متمكن موهوب ، أما أن يكون المنتجب نفسه ذا صلة وثيقة بالديانين فهذا أمر يمكن الرجوع عنه بكثير من اليسر في ضوء النماذج السابقة التي أوردناها كأمثلة على تفكيره وعقيدته ، خاصة إذا كان هذا الفكر يُلْصَقُ بالعلويين ويستهدف استكناه ما يرويه البعض حول عقيدتهم .

إن أولى قصائد ديوان المنتجب على الرغم من عمده فيها إلى الإلغاز والتخفّي والإغراق في المصطلحات الباطنية والوقوف وراء الرموز لم يستطع أن يكون بمنجاة عن اقتناص القارىء اللبيب لأهدافه ومعانيه . إن أولى قصائده — وكانت في مدح المهاجري — مطلعها :

إنْ كُنْتَ لي صاحباً قِفْ لي بِيَهْبُودِ
وقلْ لِعَيْنَيْكَ في أطْلالِها جُودي

(١) المكزون السنجاري ٢/٢٧٠ والباكورة السليمانية سورة الفتح ص ١٨ ، ١٩

وفيها يقول :

بَنِي نُمَيْـرٍ رضاكمْ منتهـى أمَلِي
وأنتمُ دونَ خَلْقِ اللهِ مَقْصُـودِي

أيامُكُمْ ، فهي أيامي ، وقَوْلُكُـمُ
قَوْلي ، ومَعْبُودُكُمْ بالسِّرِّ ، مَعْبُودِي

وللحجابِ سُجُودِي مَعْ سُجُودِكُمُ
ولِلْعَلِيِّ العظيمِ الشّأنِ تَوْحِيدِي

والبابُ سلمانُ ، منه أصْلُ مَعْرِفَتِي
كما بِهِ طابَ في الفِرْدَوْسِ تَخْلِيدِي[1]

إن سمات الغلوّ واضحة كل الوضوح خصوصا في قوله : معبودكم في السر معبودي ، إذ ليس في العبادة سر ، كما أن البيت التالي مخيف مفزع مهما كان مدى الرمز الذي قصد إليه الشاعر ، فالرمز هنا لا يكاد يكون رمزا وإن سمة الوضوح فيه أبين من لمحة الغموض :

وللحجابِ سُجُودِي مَعْ سُجُودِكُمُ
ولِلْعَلِيِّ العظيمِ الشّأنِ تَوْحِيدِي

والمنتجب هنا يفصح عن المصطلحات الباطنية حول الحجاب

(١) مستدرك الأعلام ص ١٩٥

والاسم والباب ، فقد ذكر صراحة أن سلمان الفارسي الصحابي الجليل هو الباب الذي يحتل المقام الثالث المقدس في الرمز العلوي ع م س وأنه سيكون سبب تخليده في الفردوس .

هذا وإن شارح الديوان ابراهيم عبد اللطيف عبد الرحمن مرهج علق على لفظ « هبود » الذي جاء في المصراع الأول من مطلع القصيدة بقوله : « هبود – علما – اسم مكان ، وقد استعمل عند بعض السادة المتقدمين إشارة إلى المحل المعلوم عند أهل العلوم الموصوف بالكوفة ومصر وما أشبهها من صفات الباب الكريم لذكره التعظيم ، والحق أن الشارح أراد أن يفصح ويبين وإذ به يزيد المعنى غموضا والمقصد إلغازا ، ولا نكاد نفهم منه إلا عبارة الباب الكريم لذكره التعظيم .

ربما كانت الأفكار الغالية التي مررنا بها مغلفة بشيء من أناقة العرض ورشاقة اللفظ ، غير أن العوام من الغلاة يحاولون أن تكون لهم مشاركة بدورهم في عرض بعض نواحي العقيدة موشحة « بفن القول » ولما كان باعهم القولي قاصرا لقصور ثقافتهم فإن بضاعتهم في هذا السبيل كانت رخيصة النسج فضلا عن رخص الأفكار التي فرضتها عليهم ظروف عزلتهم وقصور ثقافتهم .

لقد مر بنا أن هذا الفريق من الغلاة يقدس القمر ، ويرى أن عليـاً يحل فيه ، ولذلك فهم يجعلون منه موضوعا للمناجاة وغرضا للتمجيد وغاية للتقديس ، بل إنه جاء في « الدستور » أن

القمر هو ذات عليّ [1] . وإن كانوا يعمدون إلى الحديث عن القمر في صورة الحب ولغة الغزل فمن ذلك قول الشيخ محمد بن كلازو ، وليس أمام القارىء بدّ من أن يتحمل بصبر شديد ركاكة الشعر وخطأ الإعراب : [2]

قد شفاني إبريق عذباً لماكـا
يا غزالٌ بـوادي الأراكـا

وأسكرني سلافٌ عذبٌ رضـابٌ
من سنى وجهـك المنـير وفاكـا

وتمشيـت بالـدجى بـدلال
بين ندمـاء جالسين حـذاكـا

فاذهلني إبـريق وجهـك لمـا
في الدياجي أضاءَ بوادي الأراكا

فتوهمت قـلت أنت بـوادي
المنحنى أم بـدار نجـد رباكـا

حين أقبلت قـد سررت لقلـبي
في دجى الليل قلت روحي فداكا

يا فتى مـاس في بهـاء جمـال
أنت أمـلي ولا أوالي سـواك

(1) الباكورة السليمانية ص ٩٢
(2) المصدر السابق ص ٦٨ ، ٦٩

لامني العاذلـون فيـكَ وإنـي
لم أكـن قـط تاركٌ لهـواك

كيف أسلوبك يـا بديع جمـال
والدجى زاح من شعـاع سناكـا

أنت ربـي وغـايتي ومليـكي
وأنت أمـلي ولا أعبد سواكـا

عبدك الخـاضع الفقير يرجـو
منك عفواً فقلبـهُ قد حباكـا

فهو يسمـى محمـد الكـلازي
ذاكر الفضـل شاكرٌ لثناكـا

ومن « المشايخ » الذين كتبوا مناجاة للقمر بما تصوروه شعرا الشيخ يوسف الخطيب الذي عمد إلى التعمية أو الإلغاز أو التظرف – قل في ذلك ما شئت – حين ناجى القمر باسمه مقلوبا « رمق » . أنشأ الشيخ الخطيب قصيدة رديئة النسج ركيكة الشعر نجتزيء منها هذه الأبيات وفاء بالغرض : [1]

رمق تجلاّ لنا من بعـد غيبتـه
في تاج يزهو بهِ الآفاق في الدّجنِ

في روضةٍ أينعت ما مسها وهنـا
قاتُ المسيح ولدْ والروح والابنِ

(1) الباكورة السليمانية ص ٧٦

ابن العُلى من بـني خاقان كنيتهُ
ظبيٌ غريرٌ ربي في جنّـة العدنِ
سمعي وبصري وكل فيه مرتهَنَ
لا تبدّي عـلى عرجونة السفنِ
تذري هبوب الصبا في سير خطفته
ويخجل المـاءُ ليناً عندما يدن
شاه متوّج بمصر اليـاء قد سكنَ
فكل مخلـوق حار بحسنـه اللدن

وفريق الغلاة يقسمون مشايخهم إلى رتب ودرجات ، وهم في ذلك يشبهون الاسماعيلية إلى حد ما ، فأولى رتب المشيخة « الإمام » ثم تليها رتبة « النقيب » وثالثها رتبة « النجيب » (١) ، ولكل من الإمام والنقيب والنجيب سلطانه وحدوده وحقوقه ، ولقد بدأت هذه الرتب على زمن السيد الخصيبي معتمدة على درجات المعرفة في نطاق المذهب ، ولكنها في الأزمنة الأخيرة افتقدت هذه المؤهلات ، ولعل المؤهل الغالب هو قوة شخصية صاحب الرتبة بغض النظر عن تأهيله العلمي والديني ، وقد وردت هذه الرتب في شعر بعض من جنحوا إلى الغلو مثل المنتجب العاني . لقد أنشأ المنتجب قصيدة بائية طويلة أطلق عليها « جذوة التوحيد » تحدث من خلالها عن الرموز العلوية « المعنى والاسم والباب » ووضعها على طريقته ثم انتقل إلى ذكر المراتب « العلوية » بما لا يخالف فيه

(١) الباكورة السليمانية ص ٣٦

كثيرا ما جاء به صاحب الباكورة السليمانية ، فبعد ذكر الأبواب يذكر الأيتام السبعة — وقد مر ذكرهم — ثم ينتقل إلى النقباء ثم النجباء ، ويلح على السبعة العلوية المنسوبة إلى السبعة الشهب ، والسبعة السفلية المنسوبة إلى التراب : (١)

فتلك « الأبْوَابُ » و « الأيْتَامُ » تَتْبَعُهُمْ
وخَلْفَهُمْ « نُقَبَاءٌ » سَادَةٌ نُجُبُ
وإثْرَهُمْ « نُجَبَاءٌ » كُلُّهُمْ سَلَكُوا
نَهْجَ الهُدَى وإلى نَيْلِ العُلاَ وَثَبُوا
وبَعْدَ ذلكَ مُخْتَصُّـونَ تَرْفَعُهُمْ
ومُخْلِصُونَ إلى مَـوْلاَهُمُ قَرُبُوا
فهذه « سَبْعَـةٌ عُلْوِيَّـةٌ » ظَهَرَتْ
دُونَ الأوَائِلِ منْهَا السَّبْعَةُ الشُّهُبُ
وبَعْدَهُمْ « سَبْعَةٌ سُفْلِيَّةٌ » نُسِبُوا
إلى التّرابِ ومَـا وَارَتْهُـم التُّرَبُ

ولقد أورد المكزون السنجاري أيضا هذه الرتب وجعلها تسعة ورتبها ووصفها على النسق التالي : (٢)

١ — الأصل ، أي المعنى ، الأزل ، الباري ، الحق الأول
٢ — الفرع ، أي الحجاب الأول ، الأبد ، العقل ، خالق الباب

(١) المنتجب العاني ص ٥٢ ، ٥٣
(٢) معرفة الله والمكزون السنجاري ٣٢٦/١

٣ ـ الثمر ، أي الباب ، السرمد ، مختص الأيتام

٤ ـ اليتيم

٥ ـ النقيب

٦ ـ النجيب

٧ ـ المختص

٨ ـ المخاص

٩ ـ الممتحن

وبترجمة بسيطة لمصطلحيْ المعنى والباب نستطيع أن نلمس جانب الغلو الشديد في خلع صفات الخلق والتقديس على بعض أصحاب هذه الرتب .

ويرى الغلاة من العلويين ضرورة كتمان العقيدة. ولكن المتدين الحصيف ينكر هذا المبدأ بداهة إذ كيف تحترم عقيدة نفسها وتختفي بالمؤمنين بها ثم تتذرع بأسباب للكتمان ، إن للقوم على كل حال وجهة نظرهم في ذلك ، ويعرضها السيد محمد الطويل على لسانهم بقوله « إنه لما أعان كمال الإسلام كان لا يزال بعض العقائد مكتوما وخفيا ، ولذلك بقي إلى هذا اليوم مكتوما لخصوصيته . وبتعبير أصح : إن بقاء عقيدة العلويين مكتومة هو من كمال الإسلام وإعلانها مضرّ به (كذا) لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر المؤمنين بولاية علي ، وبذلك كمل الإسلام ولكنه بقي حريصا على كتمان البقية ، ولذلك كان كتمان البقية من

كمال الإسلام أيضاً » (١) .

وإذا كان صاحب « التاريخ » قد شرح وجهة نظره في السرية نثرا ، فإن المنتجب العاني يعرضها شعرا حوى سلاسة اللفظ ورونق الأساوب ولكنه افتقد صاب الإبانه ووضوح المعاني ، ولكن لا عايه في ذلك فإنه يتحدث عن « السرية » ويباركها : (٢)

وسرٌّ يقلقلُ صُمَّ الجبا
لِ ويُفْجِرُ مِنْ صَخْرِها أعْيُنَا
عَجَائِبُهُ كثرةٌ لا تُعَدُّ
فطوبَى لطرفٍ إليها رَنَا
وفيه جواهرُ للمبصرين
بألْبَابِ أهْلِ الوفَا تُجْتَنَى
وفي طَيِّ أسرارِ أهْلِ الحفَا
ظِ تُصَانُ ومِنْ عندهم تُقْتَنَى
وفي قَعْرِه دُرَرٌ لا وُصُو
لَ إليهنَّ إلاَّ بطولِ العَنَا
ونُمْسِكُ مِنْ بعدِ هذا المقال
حِذَاراً ونَقْطَعُهُ مِنْ هُنَا

---

(١) تاريخ العلويين ص ٧٥

(٢) من قصيدة التقية : المنتجب العاني ص ٥١ ، ٥٢

لكيْ لا تَلُوحَ معانِي الكَـلام
فيَظْهرَ ضِدٌ عـلى سِرِّنَـا

الحق أن هذا الكلام نثرا كان أو شعرا غير مفهوم ، أو على الأقل ليس مفهوما لديّ من جهة التبرير ولكن في نطاق الغلو يمكن أن يقال أي شيء .

فإذا سأل سائل عن الكتب التي يعتمد عليها هذا الفريق الغالي الذي سبب الكثير من المضايقات والحرج ليس للصادقين من العلويين وحدهم ولكن لبقية المسلمين ، فإننا نجيبه بذكر بعض هذه الكتب التي قرأنا بعضا من نصوصها والأخرى التي لم يكن لنا نصيب من التعرف عليها إلا من خلال قراءة عناوينها والسماع بها ، فإن الوصول إلى الكثير منها دونه الكثير من العقبات ، وهذه الكتب هي : كتاب المجموع ، كتاب الدلائل ، كتاب التأييد للشيخ محمد الكلازي ، كتاب جدول النوراني ، كتاب الباطن ، كتاب الدستور ، كتاب الهفت أو الهفة الذي ينسبه القوم خطأ إلى الإمام جعفر الصادق ، عينية الطوسي ، دواوين أبي عبد الله الحسين الخصيبي ، ديوان المنتجب العاني .

لقد كان الجهل سببا من أسباب انتشار الغلو ، وكان الغلو سببا من أسباب الانحراف ، وكان المنافقون يشجعون الغلو قديما كما أن الاستعمار يباركه حديثا ، لقد كان من حصاد ذلك في نطاق بعض عشائر القوم أن ادعى الألوهية بينهم شخص اسمه سلمان المرشد وآمنوا به ، وكان سلمان هذا ذكيـاً مثّل الدور

تمثيلاً جيداً فكان يلبس فيما يروى عنه — ثياباً فيها أزرار كهربائية ويحمل في جيبه بطارية صغيرة متصلة بالأزرار ، فإذا أوصل التيار أضاءت الأنوار من الأزرار فيخر له أنصاره ساجدين ، ومن الطريف أن المستشار الفرنسي الذي كان وراء هذه الألوهية المزيفة كان يسجد مع الساجدين ويخاطب سلمان بقوله : « يا إلهي » . وقد اتخذ سلمان المرشد رسولاً اسمه سلمان الميدة كان يشتغل جمّالاً عند أحد المزارعين في حمص ، ومن الطريف أن سلمان المرشد مدعي الألوهية كان راعي أبقار ، وهكذا يكون « الإله » راعياً « والرسول » جمّالاً .

وقد اختلفت العشائر بصدد سلمان هذا وأكثرهم سخروا منه وأما المواخسة فقد انقسمت قسمين ، قسماً اتبعه وقسماً آخر ظل على حاله من السير على العقيدة العلوية العادية .

ومن الطريف أن بعض البناوية وأنصارهم من المواخسة ظلوا مخلصين لسلمان المرشد ، فبعد أن قتل ألهوا ابنه « مجيب » . وبالرغم من أن « مجيب » قتل هو الآخر ، فإنهم لا يزالون يؤلهونه ولا يزالون يذبحون على اسمه فيقولون « باسم المجيب أكبر ، من يدي لرقبة أبي بكر وعمر » . ويقال إن الأنظار متجهة إلى تأليه واحد من إخوة « مجيب » أي ولد آخر من أولاد سلمان المرشد الذين لا يزالون يتمتعون ببعض النفوذ عند بعض العوام ، أو الضعاف النفوس الذين لا يزالون يرتاعون فرقاً كلما ذكروا ما أوقعه سلمان بالذين عصوا أوامره ولم ينصاعوا لدعوته من قتل ونهب وتعذيب في ظل الحكم الفرنسي .

ولعل من الطرائف أن نقدم سورة الصلاة المرشدية (نسبة إلى مجيب المرشد) التي كان يتلوها البسطاء الذين انخدعوا بدعوى الألوهية التي خرج عليهم بها سلمان ومن بعده مجيب ، وسنرى أنها تبشير بالاستعمار أكثر منها دعوى دينية جادة .

« تسبيح إلى مولانا مجيب بن سلمان المرشد الرب العظيم .
مولانا لك العزة والمجد والتهليل والتكبير ، سبحانك ربنا ، أشياعك الذين يسبحونك وينزهونك عن الصورة البشرية ، وإنك أنت وعدتنا قبل أن تصعد إلى سمائك وتجلس على عرشك العظيم ، كما أنك وعدتنا وأنت خير من يوعد بأن ترسل على الذين يظلمون من الحكام والبشر النقمة والغضب ، وتنقذنا من يدي الأشرار ، كما قلت إنني سأجعل لكل من لدني عوناً ونصيراً غريباً عن دينكم وغريباً عن وطنكم ، ليكون سنداً لكم إلى يوم الحساب الأكبر . إننا ثابتون على صحة يقيننا وعلى صحة هذا الدين ، ولا نشك بوعودك الصادقة أنك كريم رحيم يا مولانا يا مجيب المرشد ، سبحانك أنت الرب العظيم ، ارحمنا من الحكام الأشرار ، وارسل لنا الذين وعدتنا بهم ينقذوننا من الحكام الفجار ، والقوم الأشرار ، إنك على ذلك لقدير . لقد بزغت شمس وجودك من المغرب كما كان غيابك في المغرب . مولانا أرسل لنا الجحافل والناصرين لإنقاذنا من الظالمين الذين يمنعوننا من عبادتك وعن مديد التسبيح لأهل بيتك إنك على ذلك لقدير . نختتم دعاءنا بكلمة سبحانك أنت الرب العظيم . نقدم هذا التسبيح إلى البهاليل المؤمنين ليذكروا

ربهم في كل حين » (١) .

وإذا كنا قد أتينا بهذا الدعاء الغريب فإنما جئنا به لطرافته وسذاجته في نفس الوقت ، فمَنْ هؤلاء النصراء الذين سيأتون من المغرب غير المستعمرين ؟ الأمر الذي يدل على أن الذين أوعزوا لسلمان وولده مجيب بادعاء الألوهية إنما هم المستعمرون أنفسهم . ومن حسن الحظ أن هذه الظاهرة لم تتعد الحدود الضيقة جداً عند جمهور العلويين الذين كانوا أول من سخر منها واستنكرها .

العلوية الصحيحة :

لقد كابد المؤمنون العلويون — ولا يزالون — الكثير من المتاعب الوجدانية والنفسية نتيجة لتصرفات فئات الغلاة الذين اندسوا بينهم فنالوا بغلوهم — قولا وفعلا — من جلال المذهب الذي هو في حقيقته إمامي جعفري شيعيّ ، أو حسب تعريف الشيخ عبد الرحمن الخيّر : (٢) إن العلويين لم يفترقوا عن الشيعة الإمامية وليسوا غيرهم وكل علوي يحفظ ويعتقد ويشهد مؤمنا بالآية الكريمة « إنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإسْلامَ » وبقوله تعالى « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فلنْ يُقْبَلَ مِنْه » . وإذن فلا ينبغي أن يعول — حسب قول الشيخ محمود الصالح — على ما يرى في بعض مصنفات علماء العلويين القديمة مما يتنافى ومحض

(١) من كتاب « إخوتنا في جبال اللاذقية » للأستاذ محمد المجذوب المجذوب (مخطوط تحت الطبع)

(٢) مقدمة تاريخ العلويين صفحة ح وصفحة ظ

اعتقادهم بتوحيد الله ، ولا يصح أن يعتبر دليلا على إدانتهم بما دسته يد الإرجاف والإجحاف في حقول مؤلفاتهم من تهم يعرف الجميع أنها من مخلفات العصور الحالكة التي مرت بهم ومن مولدات غلاة الشيعة الذين أتاحت لهم ظلمات تلك الأجيال أن يجوسوا خلال ديارهم ويملؤوها عليهم بدعا وأضاليل [1] .

ويلتمس الشيخ الصالح – والحق معه – العذر للفئات العامية الجاهلية إذا ما غلب على تفكيرها بعض الغلو طالما أنه وجد من وجهاء المسلمين من أمثال ابن أبي الحديد من يقول في الإمام عليّ :

صِفَاتُكَ أسماءٌ وذاتُكَ جَوْهَرٌ
بريءُ المعالِي مِنْ صِفَاتِ الجَوَاهِرِ
يَجِلُّ عنِ الأعْراضِ والأيْنِ والمتى
ويكبُرُ عنْ تَشْبِيهِهِ بالعَنَاصِرِ

أو يزداد شططاً وغلواً فيقول :

تَقَيَّلْتَ أفْعَالَ الرُّبُوبِيَّةِ التي
عَذَرْتُ بها مَنْ شَكَّ أنَّكَ مَرْبُوبُ

ويردف مؤلف النبأ اليقين قائلا : وإذا وجدت الآن في أوساطهم أو بين أكنافهم من هذا شأنه فهو – ولا ريب – دخيل عليهم أو من بعض أدعيائهم ، وهم من إسرافه وتبذيره برءاء [2] .

(١) النبأ اليقين عن العلويين ص ١٢
(٢) المصدر السابق ص ١٦ ، ١٧ ، ١٨

إن المتاعب لم تقف بالقوم عند المندسين المشتطين الغلاة الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى مجتمعهم ، وإنما جسّم من خطورتها وزاد من تعقيداتها وجود فئة من المشايخ استسلمت للجهل وتعصبت له ، وحاربت العلم وناصبته العداء ، وأصرت على أن العلم يتنافى مع الدين الأمر الذي جعل الشيخ الجليل أحمد حيدر يؤلف كتابا في الإيمان بالله وبالعلم أسماه « ما بعد القمر » حمل فيه على جهل هذه الفئة من المشايخ واستنكر آراءهم التي تقول بأن العلم يتنافى مع الدين – فضلا عن مقاصد أخرى سوف نعرض لها فيما بعد – ويقول الشيخ الجليل : وقد أتحير حتى الدهش في محاربة هذه الاكتشافات الجديدة وما في تكذيبها الذي يعطي صاحبه لقب الكاذب المغفل [1] ، ويمضي الشيخ في تمجيد العلم مستشهدا بآيات كثيرة من الكتاب العزيز مستطردا في القول بأنه « لا تصبح العبادة فضيلة سامية إلا بالعلم ، وإن ركعة من عالم خير من ألف ركعة من زاهد ، فمن زعم أن العلم يتنافى مع الدين فقد رضي من العلم مبلغ الرعاع وحصة الأعمى من الشعاع [2] .

ويذكر الشيخ حيدر أخبارا مثيرة عن هذه الفئة من المشايخ وكيف أنها لم تكتف بإنكار العلم وإنما تفننت في التحايل إلى محاربة التعليم بين الناس وتشجيع الجهل فيقول في جرأة وغيرة وصدق وإيمان . [3] .

(١) ما بعد القمر ص ٢٥ – ٢٨
(٢) المصدر السابق ص ٣١
(٣) المصدر السابق ص ١٢٩

«وقد كنا نحرّم عليهم (العوام) تعلّم اللغة العربية وحتى القراءة في أي كتاب إن لم يكن مخطوطا ، ويستطرد قائلا في التدليل على تشجيع الجهل : « وأعرف قرية من قرانا حسب لها منجم بأن كل ولد يتعلم بها القراءة يموت ، فلم يتجاسر بها أب أن يعلم ابنه فن القراءة حتّى جاءها بعض الشيوخ فتزكى من عدة رجال بها تعليم أولادهم فزكوه بأن يعلموا أولادهم فن القراءة مضحيّن بأولادهم ، خوفا من أن يردوا طلب الشيخ فيقعوا تحت عقاب أمرّ من التضحية » .

وبحذق المجرب وأمانة الغيور ينتهي الشيخ إلى النتيجة الحتمية التي يصل إليها شباب حرموا التعرف على دينهم إلا ما يذيعه المشايخ من أنه ضد العلم ، فتكون الطامة أن ينشأ شباب منكر للدين جاحد لقيمه ومقاصده . يقول الشيخ في ذلك [1] :

« والمؤسف القاتل أن الشباب المثقف قلّما أعطى من وقته شيئا لفهم شيء من كتابٍ أو سنّة ، وقد ابتلوا منا (أي من بعض المشايخ) بمن لا يعلم إلا أن العلم نسف الدين نسفا حتّى لم يُبق منه ولم يذر ، فحينئذ صار كالمتيقن أن الدين خرافة ، وزاده تيقُّناً بظنه هذا إفتاء بعضنا بأن العلم يتنافى مع الدين » .

هي إذن تركة ثقيلة ورثها القوم ممثلة في أحمال التاريخ وأوزاره من ظلم حل بهم واضطهاد وقع عليهم وغلاة يسيئون بغلوهم ، وجهلاء يعطون أسوأ صورة عن الغلوية كمذهب ، وحتّى العلوي

(١) المصدر السابق ص ١٣٦

كصاحب عقيدة منغلقة غالية ، خارجة عن الجادة ، متمردة على النهج القويم ، وهو في حقيقته ليس كذلك ، بل هو أقرب إلى سبيل الإيمان ، فما العلوي — كما يعرّفه صاحب النبأ اليقين — إلا كل إمامي منتسب بولائه للإمام عليّ عليه السلام [1] ومن ثم فهو واحد من الشيعة الإمامية ، والشيعة الإمامية — حسبما مر بنا في الفصل الذي كتبناه عنها — فئة كريمة من المجموعة الإسلامية ومذهب وضيء رضيّ سليم العقيدة وافر الإيمان كامل الإسلام .

إنه في يقظة الجهل وغيبة الإيمان لم يكن العلوي الجاهل يجد كبير غضاضة في أن يذكر أنه ينتمي إلى دين آخر . لقد وقعت حادثة من هذا القبيل على صعيد القضاء فكانت بمثابة المنبه الذي هز وجدان العلماء هزة عنيفة ، فبدأوا على إثرها يتدبرون الأمر ويعملون على إعادة العامة أو بالأحرى إلى وضعهم على نهج الإيمان، وتتلخص الحادثة التي رواها الشيخ الجليل السيد عبدالله الفضل في كتابه — تحت راية لا إله إلا الله — في أن رجلا سنيا فقيرا رفع دعوى نفقه على أخويه العلويين الموسرين ، فقد كان أبوه وهو علوي تزوج بامرأتين إحداهما سنية والثانية علوية ، فنشأ ابنه من الزوجة السنية سنيا ، ونشأ ابناه من الزوجة العلوية علويَّيْن . المهم في الأمر أن المحكمة حكمت في أول درجة بحق الأخ السني في الحصول على نفقة من أخويه العلويين ، وهنا اعترض الأخوان على الحكم بحجة اختلاف الدين وأنهما ليسا بمسلمين ودلل المحامي الذي كان يتولى الدفاع عنهما على هذا

(١) النبأ اليقين ص ١٣٦

الدفع بأسلوب شيطاني، الأمر الذي جعل المحكمة تعود فتحكم برفض النفقة لاختلاف الدين (١) .

هنا ثارت ثائرة العلماء العلويين، واعترضوا على كل الادعاءات التي تصورهم بعيدين عن الإسلام ، وأعلنوا براءتهم من كل ما يخالف جوهر العقيدة الإسلامية في بيان أصدروه في ٩ جمادي الآخرة سنة ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) .

والحق ان القوم ما أن أحسوا بآثار الظلم تنزاح عن كواهلهم « حتى حطموا قيود العزلة وانفلتوا من عقال الانكماش وجروا في ميادين الانطلاق سراعا لتشييد بيوت الله وإعلان شعائرهم الإسلامية — وفق فقه مذهبهم — مرتفعة أصوات مؤذنيهم كل يوم وليلة خمس مرات تشق عنان الفضاء بالتكبير لمن له الملك الكبير ، وتنطلق حناجر خطبائهم في أيام الجمع والأعياد بالثناء والحمد له سبحانه ... ها هم العلويون يعلنون — وقد أذن لهم بالإعلان — من على رءوس الأشهاد إقرارا بألسنتهم ، واعتقادا بأفئدتهم ، وعملا بجوارحهم بأنهم يبرأون إلى الله من أية عبادة ما سوى عبادة الله رب العالمين » (٢) .

هذا الكلام العميق الإيمان ، وهذا الإشهاد المخلص آثرت أن أنقله بحرفيته للشيخ العلوي محمود الصالح يعلن فيه ويصحح به ما قد وقر في عقول الناس من تصورات الانحراف عند العلويين

(١) تحت راية لا آله إلا الله ص ٢٤
(٢) النبأ اليقين ص ٢٨

نتيجة غلو الذين ذكر الشيخ نماذج لهم وذكرنا نحن أيضا بعض هذه النماذج ، وحسبما يذكر الشيخ أحمد حيدر .

ويمضي العلماء الواعون الصادقون من العلويين المحدثين في طريقهم الطويل يزيحون الخرافات التي أصبحت عقائد ويحاربون البدع التي صارت شرائع . لقد مر بنا كيف أن بعض الغلاة قدسوا القمر وقالوا فيه شعرا وإن يكن ركيكا متخاذلا ، ينشط القوم في عملية التصحيح والعودة بالجاهلين إلى رحاب الإيمان ، وما أن يصل العلم الحديث والعقل البشري المتطور بالانسان إلى القمر فيحط عليه بقدميه ويسير على ترابه برجليه ، حتى ينطلق الشيخ أحمد حيدر — من علمائهم ومشايخهم المستنيرين — ويصدر كتابه الذي مر بنا ذكره « ما بعد القمر » يصور فيه حقيقة القمر كما هي علميا وواقعيا قائلا : (١)

أجمع العلماء والحكماء والفلاسفة من اليونان والمسلمين أن القمر ليس منيرا بذاته ، بل يكتسب نوره من الشمس ، ويردّ نور الشمس عنه كما تردّ نورها المرآة ، فهو منير ما دام يرد إليه نور الشمس ، فإذا عرض له أن يحول بينهما ظل الأرض ، انخسف وأظلم ، فالنور للشمس بالأصالة ، وللقمر بمجرد الاستعارة .

وفي المقدمة التي كتبها محمد أحمد حيدر لكتاب أبيه يقول معرّيا القمر عن كل قداسة مستخفاً بهؤلاء الذين مجدوه في نطاق

(١) ما بعد القمر ص ٤١

القدسية والعبودية وخلعوا عليه صفات روحانية [1] :

« بعد أن اكتشفت مادية القمر ، وتبدد عنه غشاء الروحانية ، أباح هذا التدين المفروض بغير علم ومعرفة ، وبدون شرع وكتاب ، أباح للعقل أن ينطلق من عقاله وأن ينشط من قيوده الوهمية – قيود المادة – راجعا إلى عالمه ، عالم الإطلاق الذي لا يحدّ إلا بعدم تحديده .

لقد حدّ الاعتقاد بروحانية القمر من نشاط العقل وضرب دونه ودون الحقائق سدًّا من الأوهام ، وباكتشاف مادية القمر أتيح للعقل أن ينشط من عقاله ... أتيح لهذا العقل المعتقل أن يكسر القيود ويحطم الحواجز بينه وبين عالمه المطلق » .

ولم يقع كاهل التركة الثقيلة على المستنيرين من المشايخ وحدهم من أمثال صاحبي كتاب « ما بعد القمر » وكتاب « النبأ اليقين عن العلويين » ومن أمثال السيد عبد الله الفضل ، والأستاذ الشيخ عبد الرحمن الخيّر وغيرهم من صفوة الرجال الذين عملوا في الساحة بإخلاص ونشطوا بيقين، وإنما انتقل الأمر إلى الشباب المثقف الذي أخذ يحس بما هو واقع في مجتمعه وما هو متوارث من العهود الماضية، فأخذ على نفسه العهد أن يوضح الحقيقة ويحمل المشعل في سماحة وتحمس مقرونين بالأسى ، إن واحدا من هؤلاء الشباب كان تلميذا لي في كلية الآداب بجامعة بيروت العربية

(١) مقدمة الكتاب ص ٤١

وقرأ الفصل الخاص بمذهبه في الطبعة السابقة من هذا الكتاب ، ولم أكن قد فَصَلْتُ فصلا منهجيا واضحا بين جماعة الغلاة وبين الجمهرة ، وربما كانت هناك أيضا أخطاء غير المعصوم الذي يضرب في أرض غير ممهدة تعوزه المراجع التي يمكن الاطمئنان إليها ، وكالعادة ذهبت أفتح صندوق بريدي في الجامعة ذات يوم وإذ بي أجد رسالة تحمل تعليقا على فصل «العلويين» من أحد طلابي العلويين آثر ألا يبوح باسمه ، ربما خجلا مني لما في تعليقه مما قد يكون تصور أنه تجاوزٌ من طالب تجاه أستاذه في الجامعة، وفي الحق إن سروري بهذا التعليق كان كبيرا ، فقد أحسست بأن طالبي هذا مؤمن بكل كلمة خطها يراعه في تعليقه ، كما لمست سمات الإيمان والصدق والصراحة تنبثق من خلال عباراته ومعانيه، وحاولت أن أتعرف على تلميذي هذا بالكثير من الوسائل ولكن ربما منعه حياؤه من مواجهتي ، وبرغم أن التعليق غير ممهور بإمضاء الطالب اكتفاء بتذييله بعبارة « طالب مسلم علوي » فإني أعتبر تعليقه هذا وثيقة نفيسة وتصويبا أعتز به ، وبادرة خير وبركة وصدق وإيمان في محيط الشباب العلوي سوف تؤتي ثمارها المباركة بإذن الله .

يقول الطالب في رسالته من غير أن أسقط منها حرفا واحدا ما نصه :

إلى السيد الدكتور مصطفى الشكعه

تحية الإسلام والعروبة وبعد . أرجو دراسة ما يلي بعين الاعتبار والانتباه والاهتمام .

حضرة الأديب الباحث، إنني معجب بكتابتك لأنني أراك تحكي الصواب وتنشر ما فيه الفائدة ولكن – سبحان من لا يخطئ لقد ابتعد بك القلم عن الحقيقة في بحث من كتابك إسلام بلا مذاهب هذا البحث عن العلويين .

أيها الاستاذ النبيل ما أقوله لك هو الصدق قسماً بالله وأنا معجب بك ومتأمل منك الإنصاف ولولا ذلك لما أرسلت لك رسالتي .

حقاً أيها الأديب نحن شيعة ولنا الشرف بحب النبي محمد وآله وصحابته وكل ما ذكرته عن تاريخنا ومكاننا لا بأس به وإن كان ينقصه التركيز .

لقد تعرضنا خلال تاريخنا لحوادث جسام فرضت علينا الانطواء والانكماش ولكن كل شيء تبدل حالياً ولقد حاول الفرنسيون تحويلنا إلى مسيحيين فرفضنا بعنف ، كل مباحثك في هذه النواحي مقبولة .

أما عن العقيدة والعبادات فهنا الأخطاء التي وقعت بها دون قصد والتي أرجو أن تنتبه لها آملاً منك حسن التقدير والنظر وتغيير ما يستحق التغيير .

عندما تريد التحدث عنا يجب أن تعاشرنا تزور جبالنا وتشاهد ما عندنا من تراث عربي اسلامي وترى عقائدنا ثم تتحدث عنا ولا شك في أن الأقوال ستختلف في الحالة الثانية عن الاولى

أيها الأستاذ المحترم .

نحن لا نلعن الصحابة – (فئة نادرة) – وعقيدتنا كأي مسلم وهناك بعض الأشياء التي ستزول من تلقاء نفسها في هذا العصر ونحن نعمل على أن نُبْعِدَ كل ما من شأنه أن يجعل الاختلاف بيننا وبين المسلمين من النواحي المذهبية مع تمسكنا المطلق بحب علي مع عدم المغالاة وهو الذي قال « هلك فيَّ اثنان مغالٍ مفرط وكاره قالٍ » نهج البلاغه .

ونحن نؤمن بيوم القيامة جميعاً كباراً وصغاراً وإذا كان عندنا نظرة إلى التقمص فهي علمية تختلف جداً عن نظرة غيرنا .

أما بعض الأشياء التي تصورنا مبتعدين فلقد جاءت نتيجة الجهل حتى أن قسماً غشه الاستعمار فاعتقد أن الحيوان سليمان المرشد إلاه البشر . هل هناك أكثر من هذا الغباء والجهل والضعف .

ونحن عندنا جوامع عديدة ومن قال لك لا يوجد عندنا ؟ شيء غريب أن يقال الكلام وشيء غريب جدا أن ينشره باحث منصف مثلك دون أن يرى بعينه الحقيقة . نحن لنا الجوامع والصلاة ذاتها عند أي مسلم وصلاة الجمعة وكل ما عند المسلمين ، والجوامع عديدة حسب وجودنا وعددنا ، حمص فيها جامع ، اللاذقية فيها جامع في حي الرمل وهو مشهور وكبير ، بانياس الساحل

فيها اثنان ، طرطوس فيها واحد ونحن نطبق الشعائر الدينية كأي مسلم ، واسأل الاخوان السنيين من هذه المناطق ترى صدق ما أقول والوضوء عندنا كالعادة ونحن لا ننكر أن بعض الشيوخ من جهلهم وغبائهم شوهوا كثيراً من الأشياء .

والصيام كسائر المسلمين لا فرق أبداً ، والله العظيم قسماً به لا أكتب لك إلا الصدق وحبذا لو ذهبت إلى جبلنا الأشم ، بانياس على الساحل واللاذقية ، كنت ترى علماءنا وتتباحث معهم .

أما في الحج ويا للأسف أن تذكر أننا لا نحج ويا للأسف أن تضيف لنا ذنباً كبيراً وهو أننا نعتبر الحج كفراً . أهذا حق يا دكتور ؟ أهذا علم ؟ أعدل ؟ أن لا نقول بما هو واقع .

والله العظيم إننا نحج ونعظم كل ما تعظمونه وسنوياً يذهب عدد ضخم للحج إلى مكة المكرمة واسأل السنيين في مناطقنا يدلونك على صدق ما أقول .

ويلاه إن كنا نعتبر الحج كفراً ويلاه من العقاب وويل من لا يقول عنا الصدق من العقاب . لقد كنا في حالة فقر وخوف لا نستطيع الحج أما الآن فكل شيء عاد إلى طبيعته العادية .

أما الأعياد فأهمها وأكبرها — والصدقأقول أقسم بالله — عيد الأضحى — رمضان — الغدير — عاشوراء وأعياد أخرى ليس بها أي عيب بل أعمال خير وصدقة .

أما الأعياد السخيفة التي يظن البعض أنها من عقيدتنا فنحن لا نكن لها أي احترام بل أدخلها المستعمر الفرنسي عندما حاول ادخالنا في المسيحية ، مثل البربارة والميلادي وغير ذلك من السخافات التي يُقْضَى عليها بالتدريج ، لقد حاربها رجال الدين كثيراً ولكن عامة الناس ما يزالون يتمسكون بها ، والله العظيم رجال الدين لا يأكلونها ولا يعملونها بل السخيفون فقط .

إن الاستعمار جنى علينا كثيراً وحاول إبعادنا عن الاسلام ونلنا ظلماً عديداً من مختلف الجهات السنية والاسماعيلية خاصة الأخيرة في العصر المتأخر حيث احتضن الاستعمار الفرنسي الاسماعيليين وقاموا بكثير من الأعمال ضدنا .

ويا حضرة الأديب

إن حلال القرآن حلالنا وحرامه حرامنا وإن كان البعض يقولون بعدم محبة أكل الانثى من الحيوانات فلا يحرمونها مطاقاً واذهب ترى ذلك بل إننا كأي مسلم في الطعام وغيره .

أرجو أن تزور مناطقنا وهي قريبة وتتعرف على المثقفين منا لا على الاساطير والخرافات التي سيطرت على عقول الآباء المستضعفين ونحن نملك نهضة ثقافية رائعة وصار منا العدد الكبير من كبار الشخصيات الثقافية والسياسية مع أننا أكثر الطوائف إنكاراً للطائفية ، فيا دكتورنا الحبيب تحية إليك وأتمنى لك الخير والصواب وأدام الله المسلمين بخير .

طالب مسلم علوي في الجامعة العربية بيروت

وإذا كان تلميذي الشاب العلوي صاحب الرسالة التي مرت سطورها قد حجب نفسه عن مواجهتي ، فإن هناك كثيرين غيره من الشباب العلوي الذي يدعو إلى عملية التصحيح ويبشر بها في سماحة ويتحرك في نطاق هدفها في إيمان وإعلان ، لقد زارني في بيتي من هذا الطراز من الشباب شيخ شباب هو السيد علي عزيز ابراهيم العلوي — وكان قد عرف أني أعيد كتابة الفصل المتعلق بقومه من كتابي هذا — وقضى عندي بعض الوقت يبين لي أن العلويين ليسوا بالصورة التي صورها بها أعداؤهم سواء أكان هؤلاء الأعداء من داخلهم — أي الجهال الذين ادعوا العلم — أو كانوا من دعاة الفرقة ومن تلاميذ المستشرقين ، وذكر أن المساجد تبنى بالعشرات والمآذن ترتفع سامقة تدعو المؤمنين إلى الصلاة في كل القرى العلوية ، وعادت المساجد بوفرتها تمتلىء بالمصلين المؤمنين من شيوخ وشباب ، ثم أهدى إليّ الشيخ الشاب كتيباً ألفه في المدة الأخيرة تحت عنوان « العلويون فدائيو الشيعة المجهولون » وإذا كان محتوى الكتيب لا يحمل الكثير من مدلول عنوانه فإن محتواه أنفس من العنوان ، وهو يرد العلويين فيه إلى أصلهم الإمامي ومن ثم يقدم دراسة طيبة عن الشيعة الإمامية .

هي إذن عقيدة إمامية إثنا عشرية تؤمن بأن الإمام علياً وصيّ الرسول صلى الله عليه وسلم على الدعوة وأن الإمامية منصب إلهي كالنبوة ، وأن الأئمة معصومون ، وهم إثنا عشر يبدأون بالإمام عليّ وينتهون عند الإمام محمد بن الحسن العسكري المستور

الحيّ الذي ينتظرون ظهوره حتى يملأ الأرض هداية وعدلا [1] .

وهذا الجانب من العقيدة يشكل ركناً خامسا بالإضافة إلى الأركان الأربعة المتعارف عليها عند جمهرة المسلمين بعد الشهادتين ، وعلى هذا الأساس تكون عقيدة العلوي التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق ، والإقرار بنبوة سيد الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، والاعتقاد بالمعاد ، والعمل بدعائم الإسلام الخمس ، والاعتقاد بالإمامة [2] .

ولقد أعجبني كثيرا ما كتبه الشيخ حسين سعود في سياق رسالة طويلة يقرظ بها جهد الشيخ محمود الصالح في كتابه « النبأ اليقين » حين يقول في إحدى فقرات رسالته :

« حاشا لله أن يكون ذلك العلوي ، كما يعلمه الله وكما يعلمه أحفاده من طريق مخلفاته الفقهية وتقاليده الموروثة ممن يدين بغير توحيد الله ، أو يستسن بغير سنة رسول الله ، أو يولي وجهه في صلاته لغير بيت الله ، أو يأخذ أحكامه وفرائضه وحلاله وحرامه من غير القرآن كتاب الله » ويستطرد الشيخ حسين سعود قائلا : « ولما كان الشيء بالشيء يذكر ، أود أن أورد قصة مثّل دورها في عهد الانتداب الغاشم ، إذ حضر أحد الحكام الفرنسيين البارزين عند شيخ من شيوخنا ، ولغرض في نفسه وجّه إليه

(١) راجع أسماء الأئمة وتسلسلهم في فصل الشيعة الإمامية من هذا الكتاب

(٢) النبأ اليقين ص ٣٥

السؤال التالي : ما هي حقيقة أنسابكم ومعتقداتكم وأعيادكم وعاداتكم ؟ فنهض الشيخ دون أن يجيبه وتناول القرآن من مكتبته المتواضعة وقال : هذا هو القرآن الكريم كتاب الله يجيبك عن جميع ما سألتني عنه ، ففيه أنسابنا ومعتقداتنا وأعيادنا وعاداتنا ، فسكت ذلك المستعمر وكأنه ألقمه حجرا [١] » .

هذا ونلاحظ أن فريقا من العلويين يتحلون بالسماحة الكاملة حين يذكرون الصحابة الكرام وبخاصة الراشدين الأول أبا بكر وعمر وعثمان ، إن المكزون السنجاري أحد أمراء العلويين ومتصوف شيوخهم وكبير شعرائهم يقول في مقام الاعتراف بفضل الراشدين الأول [٢] :

بِأَبِي عديٍّ وابْنِهِ نِلْتُ المنَى / وغدوتُ مِنْ بَعْدِ الجهالةِ مُوقِنَا
بعقيدةٍ بَكْرِيَّةٍ عُمَرِيَّةٍ / مَالِي إذَا غَيْرِي انْثَنَى عنها انْثِنَا
وبِنُورِ هَدْيِهِمَا هُدِيتُ إلى الهدَى / فَعَلَيْهِمَا مِنِّي التحيةُ والسَّنَا
إنِّي بِدِينِهِمَا وإنْ رُغِمَ العدَا / أَمْسَيْتُ مِنْ دونِ الورَا مُتَدَيِّنَا

(١) المصدر السابق ص ١٤٩
(٢) ديوان المكزون ، مخطوطة المكتبة الظاهرية ، رقم ٨٧٥٨ عام . الورقة ٨٩ .

وَبِسُنَّةٍ لله عُثْمَانِيَّةٍ / فازَ امرؤٌ أَمْسَى بها مُتَسَنِّنَا

هذا ما كان من أمر المكزون واحترامه للثلاثة الراشدين ، ومن بين المشايخ المعاصرين قد وجد من استطاع أن يكبح جماح مشاعر الكراهية المتوارثة ويحكّم عقاه في التعامل مع الثلاثة البررة في نطاق الاحترام والإجلال ، فهم صحابة الرسول وناصروه ومؤيدوه ، وهم أصدقاء عليّ وأحباؤه ، فلم يظهر منه رضي الله عنه تجاه واحد منهم إلا الاجلال والاحترام ، وقد فهم ذلك بعض عقلاء الشيعة فأقلعوا عن عادة سب الراشدين بل وضعوهم موضع التكريم مثل ما فعل الأمير حسن المكزون السنجاري في أبياته السابقة ، ومثل ما وقع عليه بصري عرضا وأنا أقرأ كتاب ما بعد القمر ، فإذا بصدري ينشرح عندما وقع بصري على ذكر عمر مسبوقا بلقب الإمام تماما كذكره عليّاً مسبوقا بلقب الإمام[١] ، على أن لقب الإمام الذي سبق اسم عمر لا يعني أكثر مما تحتمله الكلمة بمعناها اللغوي وليس بمفهومها الديني الشيعي .

قد لا يرى القارىء المتعجل في ذلك أي أمر ذي بال ، ولكن حقيقة الأمر تختلف تماما ، إنها بادرة طيبة نحو التخلي عن عصبية غير كريمة تجاه قوم كرام جديرين بكل تكريم واحترام .

هذا وقد بدا المكزون في أكثر فترات حياته مثالا للاعتدال ، حربا على الغلو والشطط ، ففي أحداث سنة ٦٢٢ هـ عندما أوشك

(١) ما بعد القمر ص ٢٨

على إتمام النصر لإعزاز قومه من العلويين جمع علماء الإسحاقية والذهيبية — وقد مر بنا القول أنهم من غلاة الغلاة — وناظرهم فغلبهم وأمر بقتلهم ، وجمع كتبهم وأحرقها (١) .

الإيمان الباطني :

هذا وتبقى بعد ذلك بعض قضايا تشكل خلافا بين العلويين وجمهرة المسلمين ، بل بين العلويين والشيعة الإمامية ذاتها الذين يعتبر العلويون أنفسهم فريقا منهم .

فمن هذه القضايا المختلف عليها العمد إلى الرمز في الدين والتمسك بما تسميه الصورة الباطنية للعقيدة والعبادة ، ويحاول العالم الشاعر العلوي المكزون السنجاري أن يعلل ذلك فلا يشفي غلة وذلك في قوله : (٢)

قالوا تَحَدَّثْ بالصَّحيـ ـحِ من الحديثِ بغيْرِ رَمْزِ
فأجَبْتُهُمْ هَـلْ عاقـلٌ يَرْمِي الكنوزَ بغيرِ حِرْزِ

ويقذف بنا المكزون ببيتيه هذين — فضلا عن قصائد أخرى مطولات — إلى صلب علم الباطن الذي يبدأ تعليله بأن بعض الأحكام الدينية لا يعلمها إلا الخواص ، وأن علوم أهل البيت غير معلومة لعامة المسلمين ، وأن لهم — أي آل البيت علوما خفية

(١) معرفة الله والمكزون السنجاري ٢/٣٤٦
(٢) المصدر السابق ٢/١٣٨

كالجفر مثلا ، وينسب إلى الإمام الجليل عليّ زين العابدين قوله :

وَرُبَّ جَوْهَرِ علمٍ لوْ أبُوحُ بـه
لَقيلَ لِي أنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْوَثَنَا (١)

والحق أنني لا أعلم مدى ثقة نسبة هذا البيت إلى الإمام الجليل غير أن الفكرة في مجملها قد عرضت العقيدة السمحة إلى متاهات من التعليلات والتفسيرات الصحيحة حينا وغير الصحيحة حينا آخر ، الأمر الذي يتحقق ضرره ولم يثبت نفعه ، ذلك أن جوهر عظمة الإسلام كعقيدة سماوية ربانية لاقت الاقتناع الحق بها والايمان المطلق بمبادئها قد تجلى في البساطة والوضوح والمنطقية ، وليس الأمر كذلك حين يكون الأمر إلغازاً وإبهاما وباطنية وأسرارا خفية ؛

أغْبَى الْوَرَى مَنْ لمْ يجدْ نَفْسَهُ
تَخُصُّـهُ إلاّ بِـرأيِ العَـوَامِ
وأبْعَدُ الْخَلْقِ عَـنِ الحقِّ مَنْ
يحاولُ الحَـقَّ بعلمِ الكَلاَمِ
بل باقْتِفَا الباطِنِ مِنْ ظَاهِـرِ
أنْزَلَهُ اللهُ هُـدىً لِلأنَامِ (٢)

ويصل الأمر إلى حدّ الخطورة حين ينسحب على القرآن

(١) تاريخ العلويين ص ١٩٦ — ١٩٩
(٢) معرفة الله والمكزون السنجاري ٢/٢١٣

الكريم كتاب الاسلام الأول فيصبح لآياته بدلا من المعنى الواضح المحدد معنيان ، معنى ظاهر وآخر باطن .

هذه خطرة مؤمن يسوقها لمجرد التدبر لفريق من المسلمين أومن بصدق طويتهم وسلامة عقيدتهم وسرعة انطلاقهم وتفتحهم وحتّى العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج لها ظاهر وباطن ، فمن جملة ما كتب الأمير حسن المكزون السنجاري المتوفى ٦٣٨ هـ ، وهو من كبار أئمة المذهب العلوي رسالة أسماها « تزكية النفس في معرفة بواطن العبادات الخمس » بناها على مقدمة وسبعة أبواب هي حسب نص تقسيمه : (١)

الباب الأول : في معرفة العبادة وبواطنها وأقسامها .

الباب الثاني : في معرفة باطن الإسلام وأقسامه ومستقر الإيمان ومستودعه .

الباب الثالث : في بواطن الصلاة ولوازمها ومعرفة أشخاصها .

الباب الرابع : في معرفة بواطن الصيام ولوازمه ومعرفة أشخاصه

الباب الخامس : في معرفة بواطن الزكاة ولوازمها وأقسامها .

الباب السادس : في معرفة باطن الحج ولوازمه وأشخاصه .

الباب السابع : في معرفة الجهاد ولوازمه وأقسامه .

والمسألة التي تدعو إلى التساؤل هنا هو أن المكزون في معرض ذكره بواطن الصلاة والصيام والحج جعل لكل فريضة أشخاصا ،

---

(١) معرفة الله والمكزون السنجاري ٢/٢٦٩ ، ٢٧٠

أي أن لكل صلاة شخصا أو أشخاصا ترتبط هذه الصلاة أو تلك به أو بهم بشكل أو بآخر ، ونفس الشيء ينسحب على الصيام والحج ، وهنا يكمن الخطر على العقيدة من خلال تصورات النزعة الباطنية التي فُرِضَتْ على هذه الفروض وربطتها بأشخاص ، ومصدر الخطر أن بعض من كتبوا عن العقيدة العلوية — ممن لا نحب أن نجعل من أخبارهم أسسا موثوقة حين تناولنا للعلوية السليمة — قد ذكروا ارتباط الفرائض التي ذكرت بأشخاص بعينهم ممن يحتلون مكانة في نطاق الرتب العلوية وحددوا أسماءهم .

إننا لم نستطع الاطلاع على أقوال المؤلف في أبواب الصلاة والصوم والحج ولكن تيسر لنا الاطلاع على فحوى الفصل الأول الذي جعله المكزون لمعرفة أقسام العبادة وصفة باطنها ، ومحور الفكرة عنده يدور حول معرفة الله لقوله تعالى : وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ » وبعد أن يعرض المكزون لصنوف الناس وتصور معرفتهم لله يتحدث عن « المعرفة الحقيقية » التي هي « شجرة ذات أصل ثابت وفرع باسق ، لا تنال ثمرتها إلا برفع أيدي السؤال إلى فروعها الزكية : فأصلها الأزل ، وفرعها الأبد ، وثمرها السرمد » ويستطرد المكزون قائلا : « وهذه الرتب الثلاث هي التي عبر عنها أهل التوحيد بـ « المعنى » ، و « الحجاب » ، و « الباب » . وقد عبر عنها الحكماء بالباري ، والعقل ، والنفس ، وهي التي تعرف بمعرفتها سائر الأشياء . فـ « المعنى » من هذه الرتب الثلاث هو الحق الأول الذي ابتدع « الحجاب » الأول ، و « الحجاب الأول » هو الذي خلق « الباب »

و « الباب » هو الذي اختص « الأيتام » بقدرة المشيئة الظاهرة فيه ، وكذلك ظهرت « المقامات الخمس » من العالم الكبير النوراني ، رتبة رتبة ، وعن الرتب الأخيرة تكونت سائر الموجودات مما دونهم » ويستطرد المكزون في هذا الباب الذي خصصه لمعرفة أقسام العبادة وصفة باطنها قائلا : « وإنما ذكرت ذلك ليعرف العبد الوسائط التي بينه وبين باريه الحق ، ولا سبيل إلى معرفة هذه المقامات إلا بمعرفته ، ومعرفته لا تصح إلا بذاته ، وذاته لا تعرف إلا برؤيته ، ورؤيته لا تمكن إلا بتجليه وتجليه لا يدرك بكماله ... » [1]

لقد تمنينا مخلصين لو ذكرت معرفة الله وكمال الإيمان به من منطلق الفطنة الإنسانية السهلة البسيطة الميسرة التي فطر الإنسان عليها والتي جعلت من يسر الإسلام وبساطته دين الفطرة الإنسانية والتي مزقت كل وساطة بين المخلوق والخالق « وقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » .

إن المكزون يضمن أفكاره الباطنية السابقة في مجموعة أبيات من قصيدة طويلة أسماها الرائية الصغرى أو القمرية ولعله عمد إلى الاستعانة بحساب الجمّل في بعض الأبيات التي تضمنتها القصيدة[2] .

فكـم إلى الجناتِ سُقْـتُ مِنْ بني النُّـور زُمَرْ
ومـن بني النار فكـم ألقيـتُ في قعرِ سقَـرْ

(١) معرفة الله والمكزون السنجاري ٢/٢٨٣ ، ٢٨٩
(٢) المصدر السابق ٢/١١٠

لـذا وقفـتُ في الطريـقِ داعيـاً من بـه مَـر
إلى دخـولِ البـابِ والبـابُ فيـه خمسُ نَفَـرْ
بـدونِ فهـمِ رقمهمْ ما فيه مخلوقٌ عَبَـرْ
والنُّقبـاءُ لهـمُ بـلا مِراءٍ اثْنـا عَشَرْ
والنجبـاءُ عـدُّ أحـرفِ الكتـابِ المسْتَطـرْ
والهـاءُ في الغيـنِ لَهُمْ وأهلُهـم عـدًّا حُصِرْ
والغينُ في القـافِ وفـي اليـاءِ وفي الطـاء عَبَـرْ
هـمُ السّمـاواتُ لأرْ ضينِ بـه الميتُ نُشِرْ

أعود مرة ثانية فأسجل أنه ربما كان للمكزون شطحات مغلّفة بالغموض ولكن الذي أحس به أن الرجل شخصية فذة في نطاق التفكير العلوي المنطلق في سماحة وشاعرية فذة وإلهام وشفافية . لقد مرت بنا قبل قليل أبياته الجليلة في أبي بكر وعمر وعثمان واعتماده إياهم — على علويته — أئمة أجلة اهتدى بهديهم واستضاء بسناهم واقتفى سنتهم . وعلى رسله يمضي المكزون في سماحة خلقه وصفاء نفسه ، إنه لم يغضب من الذين ناصبوه العداء لحبه آل البيت بل يقابل بغضاءهم بحب يبديه تجاههم [1] :

قَدْ بَدَتْ البغْضَاءُ منهم لنَا
كما لَهُمْ مِنَّا بدَا الحُبْ

(١) المكزون ٢/٣٣

وَمَـــا لَنَـــا إلاّ مُوَالاتُنَـــا
لآلِ طَـهَ عِنْدَهُـمْ ذَنْبُ

نزعة التصوف والزهد :

والرأي عندي أن هذه السماحة والشفافية قد حلتا في صدر المكزون وقلبه كصدى للحياة الصوفية التي كان يحياها الرجل ، وكردة فعل للنهج المتسامي الذي إن لم يكن جزءا من سجيته فهو في الواقع يمثل حدود طريقته ، ولقد مر بنا أن العلوية أقرب إلى الطريقة الصوفية بشفافيتها وأعماقها وألغازها وتطرفها ، ولعل ذلك يفسر لنا الشطحات البعيدة والشطط المخيف الذي كان يتورط فيه بعض أعلام المذهب .

إن الأمير المكزون يسجل على نفسه ويعبر عن جماعته بأنهم متصوفة زهاد لا يعتدون على الناس ولكن إذا ما اضطروا إلى الحرب فإنما يكون ذلك لإعلاء كلمة الله وليس لشيء آخر . لقد كان المكزون أميرا على سنجار وأرسل إليه العلويون الذين يسكنون جبال النصيرة يطلبون العون والحماية ضد الأكراد والاسماعيلية الذين يوقعون بهم الأذى والاضطهاد فسار إليهم مرتين حتى انتصف لأبناء مذهبه وهيأ لهم أسباب الأمان ، وفي تلك الأثناء حثه بعض أتباعه على القضاء على الإسماعيليين في مصياف ، فكان رده على هؤلاء الأتباع : « نحن جماعة معدودة من أهل الإيمان تميل إلى التصوف والزهد ، وما جئنا إلى هنا إلا

لإعلاء كلمة الله وإظهار معالم دينه ، فإن بغى الاسماعيليون فنحن بحيث يعرفون »[1] .

ان للمكزون شعرا كثيرا يترجم عن حال جماعته وفلسفتها في التصوف والزهد ، إنه يتحدث عن التصوف ويعرّف به فيقول :

عِلْمُ التَّصَوُّفِ لَيْسَ يُدْ ... رَكُ بالإشَارَةِ والعِبَارَهْ
إلاّ لقَلْـبٍ مُخلِـصٍ ... بالرُّوحِ مُلْقِيهَا أمَـارَهْ
فجَـلا اليَقِينُ الظَّـنَّ عَنْـ ... هُ بِحَقِّهِ وجَلاَ غُبَارَهْ

ومن قصائد المكزون الغارقة في بحور الأجواء الصوفية من عشق وشوق وصدّ ووصال قوله عامدا إلى الرمز ، وهو في ذلك ترجمان صادق لأبناء مذهبه :

لِعَلْـوَةَ دُونَ العاشقينَ حِجَـابُ
وبَـابٌ إليـهِ بالسُّجُودِ أنَابُـوا
وعَقْدٌ وثيـقٌ لا يُحَـلُّ وذِمَّـةٌ
لهـا شاهدٌ عـدلٌ بهـا وكتَـابُ
فإنْ أنْكَرَ العُذَّالُ وجْدِي بحُبِّهَا
فما ذاك إلا أنْ حَضَرْتُ وغابُوا
عَرَفْتُ فآثَرْتُ الهوَى ، وبِجَهْلِهِمْ
بمعرفَتِي لي بالصَّبَابَةِ عَـابُوا

---

(١) فصل هجرة المكزون الملحق بكتاب معرفة الله والمكزون السنجاري ٢/٣٤٧

وشاهدْتُ أوصافَ الكمالِ لوجْهِهَا
ولمْ يَثْنِنِي عمَّا شَهِدْتُ نِقَاب

ولي ولها بين الظِّلالِ تواصلٌ
بغير مِزَاجٍ والجسومُ تُرَابُ

وبالخمسةِ الأكْوانِ ما زلتُ سالكاً
إلى كونها المائيِّ وهْوَ عُبَابُ

وفي كونها النُّوريِّ شاهدْتُ نارَهَا
بغيرِ حجابٍ والمثالُ حِجَابُ

وما حَجَبَتْنِي عنْ مَلالٍ وإنَّما
لمعنىً لأهْلِ العِشْقِ فيهِ جوابُ (١)

إنه شعر صوفي ناعم المعاني لم ينل من جملته بعض المعميات التي يمكن فهمها بالدربة والاجتهاد ، وديوان المكزون مليء بهذا اللون من الشعر الشفاف ، وإن لم يخل من بعض القصائد المجنحة بالشطحات الصوفية ذات المسحة العلوية .

وإذا كانت سمات التصوف في شعر المكزون متراوحة بين الاعتدال والشطط ، فإن قسمات الزهد فيه معتدلة كل الاعتدال ، فمذهبه واضح كل الوضوح في قوله : (٢)

(١) معرفة الله والمكزون السنجاري ٢/٣٩ (الديوان)
(٢) الديوان ٢/٣٥ من كتاب معرفة الله والمكزون السنجاري

ليسَ زُهْدُ الفتى بتحريمِ حِلٍّ
مِنْ نِكاحٍ ومَطْعَمٍ وشَرابِ

وارتباطٍ بالرُّبْطِ أو باعتزالٍ
في جبالٍ ولا بِرَقْعِ ثِيَابِ

بل بقصدٍ فيما أُحِلَّ وزُهْدٍ
في حرامٍ ورغْبةٍ في ثوابِ

والمكزون على تفلسفه وتصوفه وتزهده مرتبط بآل البيت غير منفصل عنهم ، ساهر على ذكرهم محتفل بذكراهم : (١)

إذا عَصَمَ التمسُّكُ من ضلالٍ
بأهْلِ البيْتِ أخْيَارَ النَّبِيِّ

فما وَالاهُمُ إلاَّ رَشِيدٌ
ولاَ عَادَاهُمُ غَيْرُ الغَوِيِّ

ومع احتفاله بأهل البيت والتغني بحبهم والتلذذ بذكرهم لا ينفصل فيلسوف العلويين وشاعرهم عن الحقيقة المحمدية ، إن محمدا هو رسول النور والهداية، وهو بذاته وصفاته مجمع المحاسن ومنتهاها ، ونوره أول ما خلق الله سبحانه ولذلك فإن المكزون ينشد هائما : (٢)

(١) المصدر السابق ٢/١٠٢
(٢) المصدر السابق ٢/٢٤٥

كلُّ المحاسنِ جزءُ حُسْنِ محمدٍ
وإليهِ مَرْجِعُهَا وعنْهُ صُدُورُهَا

وسَنَاهُ لو لَمْ يَغْشَ أنوارَ السَّما
واتِ العُلَى لمْ يَبْدُ فيها نُورُهَا

قَدُمَتْ مكارمُـهُ وجَلَّ ثَنَاؤُهُ
إذْ عزَّ في كُلِّ الوُجُودِ نَظيرُهَا

ومن بعد الحقيقة المحمدية ينطلق الشاعر المتبتل إلى الساحة الرحيبة، ساحة الإسلام ممثلة في شريعته، مرددا هذا المعنى الجميل[1]

أُمِّي الشَّرِيعَةُ والمقيمُ لهـا أَبِي
وبَنُو بَنِيهَـا كُلُّهُمْ إخْوَانِي

أأعزُّ والـدتي وأُنكِـرُ والدي
وإلى عِدَايَ أَفِرُّ مِنْ أعْوَانِي

وأفِرُّ مِنْ أُنْسِي إلى وحْشِ الفَلاَ
إنْ كنتُ ذاكَ فلستُ بالإنسَانِ

الواقع أن المكزون من العمق والشفافية والرقة ورجاحة العقل بحيث لا يمل المرء صحبته .

(١) المصدر السابق ٢٢٦/٢

الهبطة والتقمص :

وإذا كان لنا أن ننتقل خطوة أخرى مع الفكر العلوي فقد تكون هذه الخطوة حديثا سريعا عن فكرة الهبطة وعقيدة التقمص عند إخواننا ، وقد احتلت الهبطة والتقمص مساحات غير قليلة من تفكيرهم .

وفكرة الهبطة وعقيدة التقمص ترتبط الواحدة منهما بالأخرى ارتباطا وثيقا ، فلقد كانت الأرواح بغير أجساد يوم الأظلة ، ثم هبطت إلى الأرض وألبست كل روح قميصا لا تلبث أن تنتقل منه حين يبلى إلى قميص آخر ، وهذا القميص هو الجسم البشري ومن ثم فإن التقمص يكون قد بدأ بعد الهبطة ، إذ أن الروح لم تكن في حاجة إلى هذا القميص قبل ذلك .

ويجري ذكر الهبطة في الكتب العلوية في مناسبات عدة ، يجري ذلك في مقام تكليف الله سبحانه وتعالى للإنسان ، لقد كلف الله الإنسان — حسب فكر الإخوة العلويين — مرتين : التكليف الأول جرى في عالم الظل والشبح ، والتكليف الثاني جرى بعد الانهباط من دار القرار إلى دار الدوران ومقارعة الشيطان[1] .

والمنتجب العاني « يتذكر ما كان له يوم الأظله ، وما كان من تلبية وإنكار ، ولذلك يرافق في الأرض من كانوا رفاقه في السماء ، ويستعين بأكثرهم قربا من الحق في النشأة الأولى ، وقربا

(١) المكزون ٢٧١/٢ ، ٢٧٢

من النبي في النشأة الأخيرة »[1] .

ويبدي الشيخ الحسين الخصيبي حزنا وحسرة لمناسبة الهبطة التي غيرت الحال من رتاع وانطلاق إلى سجن وقصاص[2] :

كمْ قدْ رَتَعْنَا فَوْقَ أفلاكِ العُلَى
في ظِلِّ طُوبَى في رِضى رِضْوَانِ
حتى هَبَطْنَا بالذُّنُوبِ إلى التي
صارتْ لنا سِجناً مِنَ الأسْجَانِ

وأما المكزون فإنه يعطي الفكرة طابعا دراميا ، إنه قد أقنع نفسه بغير مراء بنشأتيه — اللتين مر ذكرهما في عالم الظل والشبح أولا ثم في دار الدوران ثانيا حسبما ذكرنا قبل قليل — ثم يجري مناجاة مع ربه حول الهبطة وما صاحبها من حرمان ، ويتساءل : هل من عودة إلى المنزلة الأولى :[3]

والذي مِنْـهُ بِهِ هـامَ الوَرَى
أثَـراً عَيْنـاً بَدَا فِـي مُقْلَتِي
فَشَهِدْتُ النَّشْأةَ الأولَـى بِهـا
فانْتَفَى عَنِّي المِرَا في نَشْأتي

(١) المنتجب العاني ص ٤٩٨
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٢
(٣) المكزون السنجاري ١/٣٧١

وتَفَاوَضْنَا حديثاً حَسَدَتْ
كُلُّ أعْضَائِي عَلَيْهِ أُذُنِي
قُلْتُ : بَعْدَ القُرْبِ مَا أبْعَدَنِي
عَنْكَ ؟ قَالَ : الشَّكُّ والردُّ عَلَيَّ
قلتُ : هلْ عَوْداً لأعْيَادِ الصَّفَا ؟
قال : كَيْ تَقْضِي وَتَقْضِي أجَلَيَّ
قلتُ : فالتَّوْبَةُ تَمْحُو زَلَّتِي
قالَ : لِلأوْبَةِ فِي الرُّجْعَى تَهَيَّ

وأغرم شعراء القوم ومفكروهم بالحديث في الهبطة وعنها نثرا وشعرا ، ولم يقف هذا الحديث عند الصفوة وحدهم ، بل تعداهم إلى بعض المشايخ المحدودي الثقافة الذين عاشوا في القرن الماضي فأكثروا القول فيها ، ولكنه كان من الرداءة والركاكة بحيث نضنّ بالتمثيل له بعدما ذكرنا من أمثلة جيدة الكلمة بارعة الشعر .

ما أن هبطت الأرواح من عالم الظل وحلت على الأرض حتى اتخذت قمصانا من الأجساد ومن هنا جاء اصطلاح التقمص ، والعلويون يؤمنون بالتقمص ، والدروز يؤمنون أيضا بالتقمص ، وكذلك البوذيون يؤمنون به ، ولكن يبدو أن لكل طائفة فلسفتها الخاصة ، وفكرتها المستقلة حول عقيدة التقمص ، لقد ذكر لي أحد الأصدقاء الدروز أن عقيدة التقمص ترتبط من وجهة نظرهم بفكرة العدل الإلهي ، فإن العدالة الإلهية أرحم من أن تحاسب

الإنسان على سلوك سوي أو منحرف لمرة واحدة عاشها على الأرض ، وإنما يعيش الإنسان أدوارا عديدة متوالية تنتقل خلالها روحه من قميص إلى قميص ، ويكون حسابه في النهاية على حصيلة ما قدم من خير أو ما اقترف من آثام في أدواره المختلفة ، هذا ما علل به صديق درزي عقيدة التقمص والأدوار ، ولكني لم أجد من الإخوة العلويين من يبدي وجهة النظر العلوية في هذا الشأن .

إن المكزون السنجاري يذكر التقمص بعبارة « قمص التأجيل » وهو يوردهـا مقتبسة من كتاب ذكره تحت عنوان « الصراط في مسالك المؤمنين » (١) .

وأما المنتجب العاني فإنه في داليته الطويلة الحافلة بالكثير من العقائد والقضايا في نطاق المائة بيت وستة التي جعلها حدود قصيدته قد عرض لقضية التقمص في دورها من دورة الكون بعد الهبطة فيقول : (٢)

وأخْرَجَنَا مِنْ عالَمِ الكوْنِ والفنَا
نُرَدَّدُ في « الأطْوَارِ » عَوْداً ومُبْتَدَا
وكَـرَّرَ آيـاتِ الظُّهُورِ مُذَكِّراً
بما كانَ مِنْ إقْرَارِنَا سَاعَةَ النِّدَا
فَذُو العِلْمِ والإيمـانِ زادَ تَيَقُّناً
وذُو الجهلِ والإنكارِ زادَ تَمَرُّدَا

(١) المكزون ٢/٢٧٢
(٢) المنتجب ٢١٩

وكلٌّ على قَدْرِ الأصُولِ فَمِنْهُمُ
خبيثٌ ومنهمْ طيِّبٌ طابَ مَوْلِدَا
وهَا نَحْنُ في الأجْسَادِ يَشْقَى أخُو الشَّقَا
ويَسْعَدُ فيهـا مَنْ لهُ اللهُ أسْعَدَا
يبايِنُ هَذا فِعْلَ هَذَا تناقُضـاً
ويُصْلِحُ هذَا مالَـهُ ذاكَ أفْسَدَا
إلى أنْ تَرَى منـكَ اللطيفَ مفارقـاً
كثيفاً به قـدْ كانَ أضْحَى مُقَيَّدَا
هناك يعودُ الجنسُ طالبَ جِنْسِـهِ
فمِنْ مُتْهِمٍ يَمْضِي مُنَافِيهِ مُنْجِدا

في الحياة الاجتماعية :

فإذا جاز لنا أن نتناول بعض جوانب الحياة الاجتماعية للعلويين فلا ينبغي إغفال الظروف التي حاطتهم خلال تاريخ طويل قسا عليهم قسوة ربما لم تتعرض لها جماعة إسلامية من قبل ، ومع ذلك فمجتمعهم مجتمع ينحو إلى التطور والانفتاح ، ومن ثم فإن العادات والتقاليد التي رسختها السنين بدأت بدورها تتطور وتتغير ، ولا بأس من أن يلقى ببعضها إلى زوايا الفناء فالنسيان .

لقد ذكرنا أعياد العلويين وقلنا إنها جمعت الأعياد الإسلامية إلى الأعياد المسيحية إلى الأعياد الفارسية ، وذكرنا أيضا أن ظروفاً

بعينها فرضت عليهم هذه الأعياد منذ فجر نشأة الفكرة العلوية ربما منذ وقت السيد الخصيبي وعاشت في نطاق الجماعة بأشكالها الثلاثة الإسلامية والفارسية والمسيحية منذ ذلك العهد البعيد ، وها هو المنتجب العاني ، أحد رواد الفكر الخصيبي يسجل ذلك في شعره بقوله : (١)

فجماعةُ الأعيادِ عندي تسعةٌ
وثلاثةٌ للمرءِ في حُسْبَانِهِ
منها ثمانيةٌ أتَتْ عربيّةٌ
نقلاً يقومُ الحقُّ في بُرْهَانِهِ
والفارسيةُ أربعٌ مَثْبُوتَةٌ
لمحقّقٍ للنقْلِ في ديوَانِهِ :
يَأتي بذكرِ المِهْرَجَانِ وإنّهُ
عيدٌ يقومُ الوقتُ في ميزانِهِ
مِنْ بَعْدِهِ الميلادُ وهو مُشَرَّفٌ
فتَغَنَّمِ اللذاتِ في إحْسَانِهِ
فيه لنا ظهرَ المسيحُ مُخَلِّصاً
ومبشّراً يدعو إلى دَيّانِهِ
يَتْلُوهُ آذارٌ وسابعُ عَشْرَةٍ
تَتَراكَضُ الأفْرَاحُ في مَيْدَانِهِ

(١) المنتجب العاني ص ٥٠

وقَرِينُهُ ميقَاتُ أُنْسٍ جيِّدَةٌ
في الرابعِ الميمونِ من نيسَانِهِ
يُضْحِي أخُو التَّحْقِيقِ نَشْوَاناً بها
وأَكِلَّةُ الزيتونِ مِنْ تيجَانِهِ

ونلاحظ أن هذه الأعياد قد ساقها المنتجب في شعر تعليمي وليس في شعر وجداني ، أي أنها كانت جزءا أساسيا من الحياة الاجتماعية في نطاق المذهب العلوي آنذاك ، وفي يقيننا أن ما لا يتفق من هذه الأعياد مع طبيعة الجماعة وتقاليدها وعقائدها في طريقه إلى الزوال .

وأما الزواج عند العلويين فيجوز فيه التعدد ولكنهم لا يعترفون بزواج المتعة المعروف عند الإمامية ، ولا يجوز عندهم أن يتزوج العلوي غير مسلمة ، كما لا يجوز أن تتزوج العلوية غير مسلم ، ولا يجوز عقد الزواج في الفترة بين العيدين ، كما أن من عادتهم — وليس ذلك من صلب العقيدة — أن يحسب رجال الدين أياماً سعيدة يعينونها للزواج فإذا كان يوم الزفاف من الأيام غير السعيدة أخروه إلى يوم مناسب ، هذا فضلاً عن طقوس أخرى وعادات بعضها محمود وبعضها الآخر مرذول تصاحب عادة مناسبات الزواج في كل البلاد .

وقد ظن في وقت ما أن المبادىء العامة عند العلويين تذهب إلى أن المرأة محرومة من حقوقها الدينية ، كما أنها لا ترث إذا كان لها

إخوة ذكور ، بل أن نظام المواريث كما جاء في الإسلام غير واجب عندهم بل الأخذ به سنة . ولكن قد تعطى المرأة في بعض الأحيان شيئاً من تركة أبيها على سبيل المساعدة .

ولم يكن يجوز للولد العلوي في الماضي أن يتعلم الدين قبل الخامسة عشرة من عمره ، وقد قيل أيضا ان العقيدة العلوية لا تسمح لغير العلوي أن يدخل فيها إلا بشروط قاسية .واختبارات مريرة وبعد أن يطمأن إلى الشخص الذي يريد اعتناقها كل الاطمئنان لأن العقيدة سرية باطنية . وهم في ذلك أيضاً ، أي في غلق باب مذهبهم والحيلولة بين الناس وبين اعتناقه ، شبيهون إلى حد ما بالدروز .

ومن عادات العلويين أنهم لا يأكلون أنثى الحيوان التي تحيض كما أنهم يحرمون أكل الجمال والأرانب والغزلان ، وإن كان هذا التحريم لا يستند إلى أحكام دينية ، ولكن لعله لظروف اجتماعية مرت بهم ثم أصبحت العادة أمراً يرتفع إلى مقام التشريع الديني .

والعلويون قوم فيهم هدوء وميالون إلى الطاعة ونفوسهم بعيدة عن الشر ، وهم أمناء يحافظون على حقوق الغير ، محافظون على الأعراض ، فيهم سماحة وكرم ، ولكنهم حذرون لطول ما سمعوا من آبائهم عن سوء المعاملة التي تعرضوا لها في العهد التركي ، ولعلهم كانوا على حق في ذلك وبخاصة كلما ذكروا حماقات الماضي كالفتوى الحامدية مثلا التي جعلت السلطان سليم العثماني يقتل أكثر من أربعين ألف علوي — حسب بعض الروايات —

في حلب في موقعة واحدة ، ولكن كل هذه الرواسب بدأت تأخذ طريقها إلى الزوال .

هذا ولا ينبغي — ونحن نطرق جوانب شتّى تتصل بالعلويين — أن نغفل كفاحهم ضد الاستعمار ، ومشاركتهم مواطنيهم في النضال ، وبسالة رجالهم في القتال ، ولعل الشيخ صالح العلي بثورته وبسالته وفروسيته وتقاه ودينه وإنسانيته يعتبر من أوضح الأمثلة على ذلك . لقد ثار الشيخ صالح العلي على الفرنسيين ثورة باسلة بين سنتي ١٩١٨ ، ١٩٢١ ، كانت ثورته مؤمنة مقدامة ، كان يصلي الفجر كل يوم ثم يتقدم برجاله ويقتحم أتون المعركة بحيث يكون أول من يهاجم وآخر من يتراجع ، وكانت له شمائل مع أسرى أعدائه تذكرنا بشمائل صلاح الدين ، فقد كان يعالج الجرحى والمرضى من أسراه ثم يطلق سراحهم بعد أن يأخذ عليهم العهد ألا يعودوا إلى محاربته ، وكان يتكفّل بأجور السفر للغرباء منهم . وعلى الرغم من أن الشيخ صالح العلي لم ينتصر في النهاية فقد كانت نهاية ثورته لا تقل شرفا عن بدايتها . لقد حكم الفرنسيون على الشيخ بالإعدام غيابيا ، وظلوا عاما كاملا يسعون في القبض عليه دون طائل ، ثم اضطروا في النهاية إلى إصدار عفو عنه بتوقيع الجنرال جورو ، ومع ذلك رفض الشيخ أن يقبل العفو لأن العفو لا يكون إلا عن آثم وهو لم يكن كذلك ، ولما اشتد بطش الفرنسيين بالناس قتلا وتعذيبا وتنكيلا وهدما لبيوتهم وحرقا لحقولهم رأى الشيخ أن يستسلم حتّى يكفي قومه مؤونة العذاب ، وعند لقائه مع الجنرال جورو جرى بين البطل الأعزل

وبين المستعمر المسلح حوار طويل يرفع من جبين كل عربي ، وكان أول الحوار قول الشيخ صالح للجنرال :

والله لو بقي معي عشرة رجال مجهزين بالسلاح والعتاد لما تركت ساحة القتال [1] .

وبعد فلقد فرقنا بين فئتين من العلويين ، فئة غالية قليلة العدد يتضاءل عددها وأثرها ، وهذه لا تصلح لأن تكون عنوانا للجماعة العلوية ولا للمذهب العلوي ، وأما الفئة الكبرى فهي إمامية إثنا عشرية عقيدتها عقيدتهم وأحكامها أحكامهم .

وحتى تأخذ الحقائق مجراها السليم في نطاق العقيدة والأحكام فإني أختم هذا الفصل ببيان أصدرته هيأة من كبار العلماء العلويين في شبه مؤتمر انعقد في أوائل اكتوبر « تشرين الأول ١٩٧٢ » في اللاذقية ناقشوا فيه المشكلات التي تثار حول عقيدتهم ووضحوا فيه تفصيلات المذهب وحدوده وأحكامه ، وهم بحكم مكانتهم العلمية والدينية مهيأون لإصدار مثل هذا البيان .

لقد استهلت الجماعة بيانها بالكلمة الطيبة التي تدعو إلى تأليف قلوب المسلمين ، والبعد عن تجسيم نقاط الخلاف التي رأت أنها تحدث عادة في الفروع دون الأصول وأن أكثرها اقتضاه الاجتهاد والقول بالرأي ، وترى الجماعة أنها في بيانها هذا تنسجم مع ما سبق لها من مواقف مماثلة ، وأنها لا تضيف جديداً بصدوره ولكنه

(١) ثورة الشيخ صالح العلي . ص ٢٢٧

تأكيد لما هم عليه وتجديد للعهد مع الله ورسوله بشهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وحكمة الله بالغة من إلزام المؤمنين بتجديد العهد، كل يوم عدداً من المرات .

وفيما يلي نص البيان الذي أصدرته جماعة العلماء :

الدين والاسلام والايمان

الدين :

نعتقد بأن الدين هو الإقرار بإله موجد للكائنات ، والقيام بعبادته تعالى بامتثال أوامره والانتهاء عن مناهيه . وآخر الأديان الإلهيّة وأكملها هو الدين الاسلامي .

الإسلام :

هو الإقرار بالشهادتين :

أشهد أن لا إله إلاّ الله . وأشهد أنّ محمدا رسول الله .

الإيمان :

هو الاعتقاد الصادق بوجود الخالق سبحانه ، والإقرار بالشهادتين ، والتزام العمل بأحكام الدين الإسلامي من أصول وفروع .

أصول الدين :

نعتقد بأن أصول الدين خمسة : التوحيد والعدل والنبوّة والإمامة والمعاد . وتجب معرفتها بالدليل الموجب للعلم لا بالظن ولا بالتقليد . ولهذا سميت بأصول العقائد .

فروع الدين :

نعتقد بأن فروع الدين كثيرة تتضمن العبادات والمعاملات وغير ذلك . ويخيّر المسلم في معرفتها بين الدليل الموجب للجزم بالصحّة (وهذا شأن العلماء العارفين) وبين تقليد العالم المجتهد الحيّ المؤمن العاقل البالغ العادل (وهذا شأن جماهير المسلمين) .

التوحيد :

نعتقد بوجود إله خالق للعالم المرئيّ وغير المرئيّ ، لا شريك له في الملك ، متصف بصفات الكمال ، منزّه عن صفات النقص والمحال ، « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وأنه كما نصّ القرآن الكريم بقوله تعالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ . لم يَلِدْ ولم يُولَدْ . ولمْ يَكُنْ لهُ كفواً أحَد » .

العدل :

نعتقد بأن الله تعالى عادل ، منزه عن الظلم ، لا يكلف

الناس غير ما هو في وسعهم وطاقتهم ، ولا يأمرهم إلا بما فيه صلاحهم ، ولا ينهاهم إلا عما فيه فسادهم . نعتقد هذا ولو جهل كثير من العباد وجه الصلاح والفساد في بعض أوامره ونواهيه تعالى .

النبوّة :

نعتقد بأن الله جلّ جلاله ، يصطفي من خيرة عباده الصالحين رسلا لإبلاغ رسالاته إلى الناس ، لكي يرشدوهم إلى ما فيه صلاحهم ، ويحذروهم عمّا فيه فسادهم في الدنيا والآخرة .

ونعتقد بأن الأنبياء كثيرون ذكر منهم في القرآن الكريم (٢٥) نبيا ورسولا ، أولهم سيدنا آدم (ع) وآخرهم سيدنا محمد بن عبد الله ، النبيّ العربيّ الهاشميّ ، (ص) . وشريعته هي آخر الشرائع الإلهية وأكملها . ونعتقد بأنها صالحة لكل زمان ومكان .

ونعتقد بعصمة جميع الأنبياء من السهو والنسيان وارتكاب الذنوب عمدا وخطأ ، وأنهم منزهون عن جميع العيوب والنقائص ، وأنهم أكمل أهل زمانهم وأفضلهم جميعهم للصفات الحميدة من كل الوجوه . (ص)

الإمامة :

نعتقد بأن الإمامة منصب إلهي تقتضيه الحكمة الإلهية لمصلحة الناس في مؤازرة الأنبياء بنشر الدعوة ، وفي القيام بعدهم بالمحافظة

على تطبيق الأحكام بين الناس ، ويصون الشريعة مـــن التغيير والتحريف والتفسيرات الخاطئة التي يسببها اختلاف آراء الناس واجتهاداتهم في النظر إلى مصالحهم الشخصية كما يسببها تفاوت درجاتهم في الإيمان بالرسالة والمعرفة بأحكامها .

ولهذا نعتقد اقتضاء اللطف الإلهي بأن يكون تعيين الإمام بالنص القاطع الصريح ، وأن يكون معصوما عن الذنب والسهو والخطأ ، مثل النبيّ سواء بسواء ، ليطمئنّ المؤمنون بالدين إلى الاقتداء بهما في جميع أعمالهما وأقوالهما .

والامام الذي نصّ عليه الله تعالى وبلّغنا عنه رسوله الصادق الامين (ص) في مواقف متعددة وأحاديث متواترة ، هو سيدنا الامام علي بن أبي طالب (ع) . ومن بعده ابناه الحسن فالحسين، سيدا شباب أهل الجنة (ع) . ثم تسعة من ذرية الحسين هم : الامام زين العابدين علي بن الحسين ، ثم ابنه الإمام الباقر محمد بن علي . ثم ابنه الإمام الصادق جعفر بن محمد ، ثم ابنه الإمام الكاظم موسى بن جعفر ، ثم ابنه الإمام الرضا علي بن موسى ، ثم ابنه الإمام الجواد محمد بن علي ، ثم ابنه الإمام الهادي على بن محمد ، ثم ابنه الإمام الذكي الحسن بن علي ، ويعرف بالعسكري هو وأبوه (ع) . ثم الإمام الثاني عشر الحجة بن الحسن ، عجل الله به فرج المؤمنين ، وهو سميّ جده المصطفى (ص) ومن ألقابه : المهديّ والمنتظر وأمر الله وصاحب العصر والزمان ، عليه وعلى آبائه وجده أفضل الصلاة والسلام .

ونعتقد بأن الإمام الثاني عشر (ع) حيّ موجود مغيّب عن أبصار الخلق لحكمة إلهيّة ، يظهره الله سبحانه في آخر الزمان ، فيجدّد به ما اندثر بين الناس من شريعة جده (ص) ، ويملأ الله به الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما .

المعاد :

نعتقد بأن الله سبحانه يبعث الناس بعد الموت للحساب ، فيجزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، لقوله تعالى : «يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليُرَوْا أعمالَهُم . فَمَن يَعْمَلْ مثقال ذَرَّةٍ خيراً يرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شرّاً يرَهُ .»

وكما نؤمن بالمعاد فإننا نؤمن بكل ما جاء في القرآن الكريم وبما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي (ص) من أخبار البعث والنشور ، والجنة والنار ، والعذاب والنعيم ، والصراط والميزان ، وغير ذلك .

فروع الدين :

نعتقد بأن فروع الدين كثيرة منها : الصلاة والصيام والخمس والزكاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتولي لأولياء الله والتبري من أعداء الله والاعتكاف والبيع والإجارة . والهبة والوقف والنكاح والطلاق والميراث والوصايا والشهادات والقضاء والتجارة والضمان والمزارعة والشركة وغير ذلك ممّا تذكره كتب الفقه الجامعة .

وأهم هذه الفروع عشرة : هي الصلاة والصيام والخمس والزكاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر والولاية لأولياء الله والبراءة من أعداء الله . وتسمى أركان الدين :

الصلاة :

نعتقد بأنها أهم العبادات التي فرضها الله على عباده ، وأحب الأعمال إليه تعالى (إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها) .

ونعتقد بأن الصلوات اليومية المكتوبة هي خمس : الظهر (أربع ركعات) والعصر (أربع) والمغرب (ثلاث) والعشاء (أربع) والصبح (اثنتان) فيكون مجموع الفرائض في الصلوات اليومية سبع عشرة ركعة .

وفي السفر والخوف تقصر الرباعية فتصير ركعتين وتظل المغرب ثلاثا دون قصر . ونعتقد بأن من شروط صحة الصلاة الاتجاه إلى القبلة ، والساتر . والطهارة من الحدث والخبث . وتحصل الطهارة بالغسل بالماء الطاهر في حالات ، وبالوضوء في أخرى . فإن فقد الماء أو تعذر استعماله أجزى عنه التيمم بالصعيد الطيب وهو التراب . ومورد تفصيل ذلك كتب الفقه .

ونعتقد باستحباب الأذان والإقامة قبل الدخول في الصلاة .

والأذان :

ثمانية عشر فصلا هي : الله أكبر (أربع مرات) أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على خير العمل ، الله أكبر لا إله إلا الله (مرتين مرتين لكل من هذه الفصول) .

والإقامة :

سبعة عشر فصلا هي : الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح ، حي على خير العمل ، قد قامت الصلاة الله أكبر (مرتين مرتين لكل منها) لا إله إلا الله (مرة واحدة) .

أما الشهادة لعلي (ع) بالولاية فنعتقد استحباب ذكرها في الأذان والإقامة بعد الشهادة لمحمد (ص) بالرسالة . كما نعتقد بأن عدم ذكرها لا يؤثر في صحة الأذان والإقامة .

القراءة :

نعتقد بوجوب قراءة سورة كاملة بعد الفاتحة في كل من الركعتين الأولين من صلاة الفريضة . ويخير المصلي فيما تبقى منها بين قراءة الفاتحة وحدها أو التسبيحات الأربع بدلا منها . (والتسبيحات الأربع هي : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر .) يقولها المصلي ثلاثا استحبابا ويجزى مرة واحدة .

النوافل أو السنن :

نعتقد بأن الرواتب اليومية المأثورة في الصلوات اليومية هي : ثماني ركعات للظهر قبل الفريضة ، وثمان للعصر قبلها ، وأربع للمغرب بعدها ، وركعتان من جلوس الشفع وركعة واحدة نافلة الوتر . وأخيرا ركعتان للصبح قبلها . فيكون مجموع هذه النوافل يوميا أربع وثلاثون ركعة .

ويجوز عندنا الاقتصار على بعض هذه الركعات المستحبة في الصلاة الواحدة أو تركها جميعا والاكتفاء بالفرائض .

ويجب التشهد بعد الركعتين الأوليين من صلاة الفريضة والتشهد والتسليم في نهاية كل صلاة فريضة ، وبعد كل ركعتين من النافلة ، وبعد ركعتي الشفع ، وبعد ركعة الوتر . ويستحب القنوت (أيّ الدّعاء) في الركعة الثانية من كل صلاة مكتوبة ومن النوافل اليومية ، وبعد ركعة الوتر خاصة . ومحل القنوت بعد القراءة وقبل الركوع .

ويجوز في الصلاة النافلة قراءة سورة بعد الفاتحة ويجوز جمع سورتين مع الفاتحة في الركعة الواحدة منها .

ونعتقد بحصول الثواب على فعل المستحبات ، وبعدم العقوبة على ترك فعلها . وفي كل أفعال الصلاة تفصيلات تبينها كتب الفقه .

الصيام :

نعتقد بأن الصيام هو أحد أركان الإسلام ، وفرضه شهر رمضان (من بياض الفجر الصادق كلّ يوم إلى الليل منه) ونعرف ابتداء شهر رمضان وانتهائه من رؤية الهلال ، استنادا إلى الحديث الشريف : « (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته . وإذا خفي الشهر (أي الهلال من الظهور والاشتهار) فأتموا عدة شعبان ثلاثين يوما وصوموا) .

الخمس :

ونعتقد بأن الله تعالى فرض على كل مسلم الخمس وهو ٢٠ ٪ في غنائم الحرب والمعدن والكنز والمال الحلال المختاط بالحرام وما يستخرج بالغوص في البحار والأرض التي انتقلت من مسلم إلى ذمي وفي أرباح المكاسب كلها .

الزكاة :

نعتقد بأن الزكاة الشرعية هي أحد الأركان التي بني عليها الإسلام ووجوبها من ضروريات الدين . وهي في الأنعام الثلاثة : (الإبل والبقر والغنم) وفي الغلات الأربع : (الحنطة والشعير والتمر والزبيب) وفي النقدين : (الذهب والفضة) وتستحب في غير ما ذكر . والتفصيل مورده كتب الفقه .

الحج :

نعتقد بأن الحج من أركان الإسلام مثل الصلاة والصيام والزكاة . ومنكر وجوبه كافر خارج عن الإسلام . ويجب في العمر مرة واحدة على المسلم البالغ العاقل : (ذكرا كان أو أنثى) بشرط الاستطاعة وتخلية السرب : (أي الأمن على النفس والمال والعرض) ويستحب كل عام ويتأكد استحبابه كل خمسة أعوام للمستطيع . وتصح النيابة عندنا في الحج كما ثبت عن النبي (ص) وعن أئمتنا (ع) ويشترط في القائم بحج النيابة الإيمان والبلوغ ، والعقل ، والوثوق بدينه وأمانته ، والمعرفة بأفعال الحج (ولو بمعونة مرشد) وأن لا تكون ذمته مشغولة بحج واجب . وتصح النيابة مع عدم المماثلة في الذكور والأنوثة .

الجهاد :

هو من أعظم أركان الاسلام ، للإجماع عليه ، ولضرورة الدين . ونعتقد بوجوبه في سبيل الله مثل اعتقادنا بوجوب بقية الأركان . وهو عندنا على نوعين :

الأول منهما الجهاد من أجل الدعوة إلى الاسلام . ووجوبه كفائي ، وله شروط لا يجب إلاّ بها . والثاني منهما : الدفاع عن الإسلام وبلاد المسلمين وعن النفس والمال والعرض . ويجب عينا على كل من في دفاعه نفع ، ذكرا كان أو أنثى ، صحيحا أو مريضا .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

نعتقد بأن الله تعالى أمر بكل خير أمر إيجاب أو أمر ندب وسمى الخير (معروفا) ونهى عن كل شر نهي تحريم أو نهي تنزيه وسمى الشر (منكرا) وبما أن بعض الناس يتركون المعروف ويأتون بالمنكر فإنه تعالى أمر المسلمين بأن يأمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر . ففي القرآن الكريم (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ) .

الولاية لأولياء الله والتبري من أعداء الله :

نعتقد بأن الولاية لأولياء الله والبراءة من أعداء الله من فروع الدين التي تكرس المسلم عاطفيا في الاتجاه الإسلامي العام ، كما ان أصول الدين تكرّس المسلم فكريا في هذا الاتجاه . فالإنسان إذا أحب شخصا تقرب إليه وإذا تقرب إلى شخص اقتدى به في أعماله وأقواله كما أن الإنسان إذا كره شخصا ابتعد عنه وإذا ابتعد عن شخص خالفه في أعماله وأقواله والحب هو الولاية ، والكره هو البراءة فيجب الولاية لله ولرسوله وللائمة الطاهرين ولكل الصالحين كما يجب البراءة من أعدائهم . (قال الله تعالى « لا تجد قوماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ يوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورسُولَه ولوْ كانُوا آباءهم أو إخْوَانَهم » .

أما بقية فروع الدين ، فنعتقد وجوب العمل بها وفق أحكام مذهبنا الإسلامي (الجعفري) الشريف . والمراجع فيه كثيرة أهمها :

١ ـ للمجتهد الأحاديث الموثقة التي تتضمنها كتب الحديث وأهمها الكتب الأربعة : وهي : الكافي للكليني ، والتهذيب والاستبصار للطوسي ، ومن لا يحضره الفقيه للصدوق .

٢ ـ للمقلدين ، الرسائل العملية التي تتضمن فتاوى مراجع التقليد ، وكذلك فتاواهم المكتوبة والشفوية .

أدلة التشريع :

أدلة التشريع عندنا هي: القرآن الكريم ، والسنة النبوية، والإجماع ، والعقل .

القرآن :

نعتقد بأن الكتاب الكريم الموجودة منه ملايين النسخ بين أيدي المسلمين والمؤمنين في جميع بلاد الإسلام هو كلام الله تعالى، لا تحريف فيه ولا تبديل .

السنة النبوية :

هي عندنا قول النبي (ص) وفعاله وتقريره . ونعتقد بأنها المصدر الثاني للتشريع وأن من أنكر حكما من أحكامها الثابتة فهو كافر كمن أنكر حكما من أحكام القرآن وهي لا تتعارض مع الكتاب الكريم البتة، ويلحق بها كل ما ثبت عن الأئمة الطاهرين قولا أو فعلا أو تقريرا .

الإجماع :

نعتقد بأن ما أجمع عليه المسلمون من أحكام الدين (وفيهم الإمام المعصوم) فهو دليل قطعي ولو خفي علينا مستنده من الكتاب والسنة . والإجماع بهذا التعريف لا تعارض فيه مع نصوص الكتاب والسنة .

العقل :

وهو حجة إذا وقع في سلسلة العلل أو كان من المستقلات العقلية ، ويقتصر استعماله دليلا فقهيا على المجتهد وهو من حصلت عنده ملكة تساعده على استنباط الاحكام الفرعية من أدلتها التفصيلية ، كما ان مرجع التقليد هو المجتهد الجامع لشرائط تسعة ، وتشهد له مؤلفاته الفقهية وفتاواه وسلوكه العملي في حياته . على أنه (صائن لنفسه حافظ لدينه مخالف لهواه مطيع لأمر مولاه) كما في بعض الأحاديث الارجاعية .

هذه هي معتقداتنا نحن المسلمين العلويين . ومن يتقول علينا غيرها فإننا نعتبره إما مفترياً مغرضاً ، وإما جاهلا ظالماً . ومن البديهي أنه لا قيمة لقول أحدهما عند العقلاء المتقين .

وأما ما يرى عند بعض جماعاتنا من جهل بالعقيدة أو قول بالرأي او أعمال لا تتفق وهذه العقائد ، فذلك لا يجوز لعاقل منصف أن يعتبره دينا أو مذهبا ، لوجود مثله عند الكثيرين من أتباع المذاهب الإسلامية الأخرى . والجهل واللامبالاة والكسل

أمراض ، وليست دينا ولا مذهبا ، وهي أدواء منتشرة — مع الأسف — في أكثر الأوساط والمجتمعات الإسلامية العربية ، كما أثبتنا ذلك في شواهد منقولة نصوصها عن مجلة الازهر ومن مقالات كبار العلماء المعاصرين يراجع كتاب (عقيدة العلويين وواقعهم) لفضيلة الشيخ عبد الرحمن الخير . يشاهدها الخاصة من العلماء ويتألمون منها ، ويعملون في سبيل مكافحتها في أوساط مجتمعاتهم ، مثلما نعمل نحن في أوساط مجتمعاتنا .

ومن الله سبحانه نستمد العون في أعمالنا ، ونسأله التوفيق إلى ما به وحدة أمة محمد (ص) وصلاحها في دينها ودنياها ، بتعارفها وتآلفها وتعاونها على البر والتقوى ، وعلى جهاد عدوها المشترك ، المتربّص شرّا بنا جميعا دون استثناء .

والحمد لله أولا وأخيرا . ولا حول ولا قوة الا باللهالعلي العظيم .

من الامضاءات

الشيخ عبد اللطيف ابراهيم مرهج صافيتا — الدبدابه	الشيخ حسين سعود جبله
الشيخ عبد الرحمن الخير دمشق	الشيخ سليمان العيسى بانياس — حريصون
الشيخ حيدر محمد جبله	الشيخ كامل حاتم اللاذقية — حرف مشقيتا
الشيخ محمود صالح عمران حمص	الشيخ عبد الكريم علي حسين طرطوس

القاديانية والأحمدية

نشأتها :

تنتسب هذه الفرقة إلى ميرزا غلام أحمد القادياني نسبة إلى قاديان إحدى مدن إقليم البنجاب ،وأسس غلام عقيدته المعروفة باسمه وسجل مذهبه رسمياً سنة ١٩٠٠م وأنشأ مجلة تنطق باسمه وتعبر عن فكرة المذهب أسماها مجلة الأديان ، كما ألف كتاباً شرح فيه فلسفته سماه « براهين الأحمدية » .

ولعل الذي دفعنا إلى أن نلحق هذا الفصل من كتابنا بفصول الشيعة ما لاحظناه من تشابه بين القاديانية وبين الغالين من الشيعة ، لأن ميرزا غلام قد ادعى أنه المهدي المنتظر وهو الأمر الذي ينفرد به الشيعة دون بقية العقائد الإسلامية ومن هنا كان ارتباطه بهم أقرب إلى نسبته لغيرهم .

لقد نشأ المذهب القادياني على يد ميرزا سالف الذكر ووجد أنصاراً لا زالوا يعيشون إلى اليوم في البنجاب وأفغانستان وإيران ، ولكن كثرت حولهم الآراء والاتهامات ، فهناك من يجعل منهم خدّاماً

للاستعمار وهناك من يجعل منهم مارقين خارجين على أصول الإسلام وتعاليمه ، وهناك من ينسبهم إلى الإسلام على أنهم فرقة صاحبة رأي متسم بالغلوّ والاندفاع .

ومن نسبهم إلى خدمة الاستعمار وجد الكثير من الحجج التي أقامها ضدهم وإن كانت كلها ليست في مقام واحد من القوة ، بل تتفاوت قوة وضعفاً .

من ذلك على سبيل المثال من جعلهم خلفاء لرسالة السيد أحمد خان الزعيم الهندي المتوفي سنة ١٨٩٨م بعد حياة استمرت واحداً وثمانين عاماً .

والسيد أحمد خان اختلفت فيه الآراء أيضاً ، فالبعض يذهب إلى أنه خادم للاستعمار عميل للانجليز محطم للشريعة مارق عن الإسلام ، والبعض الآخر يرى أنه مصلح عظيم أدى للشعب الإسلامي والدين الإسلامي في الهند أجل الخدمات .

فأما خصوم السيد أحمد خان فقد وجهوا إليه تهماً خطيرة أهمها أنه تقرب إلى الإنجليز وألف كتاباً أسماه « تبيان الكلام » ذكر فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرفين ، وظهر بمظهر الدهريين والطبيعيين ونادى بألا وجود إلا للطبيعة ، وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالإله الذي جاءت به الشرائع ، وكتب تفسيراً للقرآن فحرف الكلم عن مواضعه وبدل ما أنزل الله وأنشأ جريدة باسم « تهذيب الأخلاق » لا ينشر فيها إلا كل ضلال وكل ما يؤدي إلى فرقة المسلمين في الهند ، وكان ينادي بأن ما أصابته أوربا من تقدم لم

يكن إلا نتيجة لنبذ الأديان والرجوع إلى مسالك الطبيعة ، وعندما فسر القرآن أنكر المعجزات وخوارق العادات ، وجعل النبوة غاية يمكن تحصيلها واكتسابها بالترويض النفسي ، وأضعف من قيمة فرضية الجهاد ، ونادى بالتعاون بين المسلمين والغربيين ، ودعا إلى ما أسماه « إنسانية الأديان » ولذلك فقد وجد الإنجليز فيه ضالتهم المنشودة بخاصة وأنه عارض الثورات التي قامت ضدهم وأوذي من جراء ذلك فأنشأوا له « كلية » ينشر فيها مذهبه هي كلية « عليكره » (١)

تلك آراء من خاصموا السيد أحمد خان وجعلوا منه صنيعة إنجليزية فرسم القادياني على منواله من بعده واتسع في جموحه إلى الصورة التي سنعرض لها بعد قليل .

ولكن هناك من جعل من السيد أحمد **خان.** زعيماً كبيراً من زعماء الإصلاح في القرن التاسع عشر ، فالمرحوم الدكتور أحمد أمين يفرد له فصلاً طويلاً في كتابه «زعماء الإصلاح» ويجعله في الهند شبيهاً بالإمام محمد عبده في مصر ، ويذكر أن الإصلاح عند كليهما هو إصلاح العقلية بالتهذيب والتثقيف ، ويمضي الدكتور أحمد أمين فيقول : أن السيد أحمد خان وجد أن المسلمين في الهند لن يستطيعوا مقاومة الإنجليز في وقت فسد فيه أمرء المسلمين وتفرغوا لمنافعهم الشخصية ولو على حساب الأمة ففكر في أن المصلحة تقتضي مسالمة

(١) انظر رأي جمال الدين الأفغاني في مجموعة العروة الوثقى ص ٩٦ ، ٤٧٢ وانظر الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي ص ١٢ — ١٦ .

الإنجليز والتفاهم معهم وأخذ ما يستطيع آخذه منهم لنفع الشعب وتحميلهم مسئولية جهل الشعوب وفقر الأمم التي يحكمونها .

ويبرر الدكتور أحمد أمين عدم انقياد السيد أحمد خان للثورة الجماهيرية ضد الإنجليز فيقول : إن السيد أحمد كان هادئاً متزناً مخالفاً للرأي العام لأنه لم يؤمن بنتيجة الثورة ، بل إنها برغم ضحاياها من الطرفين ستمكن للإنجليز مرة ثانية ، وتجعل سيطرتهم أقوى مما كانت عليه ، ولذلك فقد ضحى بالكثير من ماله وتعرض لعداوة الجماهير .

وسار السيد أحمد خان في طريقه الإصلاحي فسعى إلى إنشاء كلية عليكره وأشرف بنفسه على وضع برامجها ومناهجها وحرص على أن تقدم لأبناء المسلمين زاداً من الثقافة الغربية والشرقية في غير ما تعصب ولا جمود ، وأن تعنى الكلية بحياة الطلبة الاجتماعية فتيسر لهم السكن والإقامة ، كما تعني بترقية العقل وتربية البدن وتهذيب الخلق

ولما فرغ السيد أحمد خان من إنشاء الكلية أنشأ مجلة أسماها « تهذيب الأخلاق » عالج فيها المشاكل الدينية والاجتماعية في جرأة وصراحة ، ودعا إلى النظر إلى روح القرآن أكثر من النظر إلى حرفيته وإلى التفسير على ضوء العقل والضمير ، ثم تطرف فقال إن الوحي كان بالمعنى لا باللفظ .

ونادى أحمد خان بالإقبال على العلم والاغتراف من موارده ، وكان يأمل في أن ينشأ من أبناء المسلمين أشباه لابن سينا وابن رشد من الفلاسفة : وابن موسى من المخترعين ، والطوسي من الفلكيين ، وحض على مشاركة

الأمم الغربية في معارفها ومزاحمتها بالمناكب والأقدام ، فإن ذلك يؤدي إلى نوع من التكافؤ ينتهي بالمسلمين إلى المدنية ثم إلى الاستقلال .

ويذكر الأستاذ أحمد أمين سجلاً طويلاً حافلاً للسيد أحمد خان كما يذكر أنه لما أسلم الروح في الحادية والثمانين من العمر بكاه الأوربيون والهندوس والمسلمون على اختلاف عقائدهم وطبقاتهم ومذاهبهم السياسية والاجتماعية [1] .

تلك هي الآراء المختلفة حول شخصية السيد أحمد خان اضطررنا إلى الإشارة إليها لأن هناك من جعل القاديانية امتداداً لمدرسته وإن كان يبدو لنا أن الأمر مختلف عن ذلك ، فالسيد أحمد خان وجد من يدافع عنه أما ميرزا غلام أحمد فإن تصريحاته الشخصية قد ربطته إلى السياسة الإنجليزية برباط متين .

العقيدة القاديانية :

مر بنا أن منشىء العقيدة القاديانية هو ميرزا غلام أحمد المتوفى سنة ١٩٠٨م الذي اتصل بالإنجليز وهادنهم وربط نفسه بعجلتهم فقدموا له الكثير من المساعدات الأدبية والمادية التي جعلته يطفو بوضوح على مسرح الحياتين الدينية والسياسية في الهند في أول الأمر ثم امتدت أفكاره إلى الأقطار المجاورة للهند فيما بعد .

وقد بدأ أمره حينما أعلن أنه عثر على قبر المسيح في قرية اسمها سرنجار بمنطقة كشمير ، وزعم أن السيد المسيح قد هاجر إلى

---

(١) انظر أيضا فيض الخاطر ٣٠١/٥ – ٣١٧ .

كشمير بعد تألب اليهود عليه ومحاولة قتله ، وظل في تلك المنطقة حتى بلغ من العمر مائة وعشرين عاماً ثم توفي في تلك البلدة ودفن في هذا القبر ، ولم يقدم السيد ميرزا أي دليل عامي أو ديني على زعمه هذا ولكنه وجد من يصدق به .

بعد ذلك أعلن السيد ميرزا من نفسه إماماً مهدياً بعث ليجدد الإسلام، واستعان بالحديث الشريف : « إن الله يبعث لهذه الأمة كل مائة سنة رجلاً يجدد لها أمر دينها » . ونادى بأنه رجل المائة الأخيرة أي المائة الرابعة عشرة .

ولو وقف الأمر بالسيد ميرزا عند هذا الحد لكان الأمر يحتمل النظر ، ولكنه مضى في الاندفاع نحو الطريق الذي رسمه لنفسه فادعى أن روح المسيح قد حلت فيه ، كما ادعى أن محمداً كذلك حل فيه، فتجمعت فيه روح عيسى ومحمد[1] ولذلك فهو نبي ، أي أنه بدأ بادعاء الإصلاح وتجديد الدين ثم ثنى بادعائه أنه المهدي المنتظر الذي ينادي به الشيعة، ويبدو أنه شك في جدوى هذه الدعوى الثانية فقفز قفزة واسعة وادعى النبوة .

ولما كانت الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات ومحمد خاتم النبيين فإن « النبي القادياني » قد بحث للمسألة عن مخرج فقال : إن محمداً خاتم النبيين بمعنى أنه صاحب الختم وليس لأحد أن يحظى بنعمة الوحي إلا بفيض خاتمة ، وأن أمته لن يغلق في وجهها باب المكالمة

(١) الفكر الإسلامي الحديث للبهي ص ١٨ .

والمخاطبة الربانية إلى يوم القيامة ، فلا صاحب للختم الآن إلا هو ، وخاتمة وحده يكسب النبوة التي تستلزم أن يكون صاحبها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم [1] .

وهكذا نرى أن « القادياني » تخلص من حلول عيسى فيه ومن ادعائه « المهدية » وانتهى أو اكتفى بالنبوة في ظل الإسلام والتزام تشريعه دون ان يوحي إليه ، بل عليه أن يسهر على تنفيذ العقيدة وتجديدها شاهداً أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ولما كانت النبوة تحتاج في إثباتها لبعض المعجزات فقد ذهب السيد « القادياني » إلى أن معجزاته تتلخص في أنه تنبأ بالكسوف والخسوف .

إن نشأة العقيدة القاديانية بهذا الأسلوب الذي مر ذكره تكفي لأن تكون هدفاً للهجوم الشديد والاستنكار من عامة المسلمين ، ولكن سبباً آخر زاد من حدة هجوم الناس عليها ، ذلك هو استشعارهم أن هذه العقيدة تسير في ركاب الاستعمار وتعمل بوحي من الإنجليز ، فمن ذلك مثلا قول القادياني : « اعتقادي الذي دأبت على إبدائه للناس المرة تلو المرة هو أن الإسلام قائم على أصلين : الأول ، أن نطيع الله تبارك وتعالى ، والثاني ألا نبغي على الحكومات التي وطدت دعائم الأمن وصانت أرواحنا من اعتداء المعتدين وإن كانت هنا هي الحكومة البريطانية » .

(١) المذاهب الإسلامية لأبي زهرة نقلا عن حقيقة الوحي ص ٢٧ .

ولا يكتفي « ميرزا غلام » بهذه الدعوة الصريحة للإنجليز ، بل إنه يعطل مشروعية الجهاد في الإسلام لأن الجهاد هنا منصبّ على الإنجليز وحدهم باعتبارهم الغاصبين للوطن الهندي فيقول : « منْ من الكفار يرفع سيفه اليوم بداعي الدين ، ومن يصدّ المسلمين عن دينهم ومن يحول بين المسلمين والأذان في المساجد ؟ فإن ظهر المسيح في مثل أيام الأمن هذه واستخف بهذا الأمن ، وأراد أن يرفع السيف بلا مبرر لأجل الدين ، فإني أقسم بالله أن هذا الشخص كذاب مفترٍ وليس هو المسيح الصادق البتة » .

ويقول في موضع آخر معرِّضاً بمشروعية الجهاد : « أنا لا أعتقد أني مهدي هاشمي قرشي سفاح ينتظره الناس من بني فاطمة يملأ الأرض دماً ، ولا أرى مثل هذه الأحاديث صحيحة ، بل هي كومة من الموضوعات ، نعم أدعي لنفسي أنني أنا المسيح الموعود الذي يعيش متواضعاً مثل المسيح متبرئاً من القتال والحرب كاشفاً عن وجه ذي الجلال بالطريق السلمي والملاطفة » (١) .

والحق أن « نبوة » ميرزا غلام أحمد كانت من السذاجة بحيث تضع نفسها موضع الشبهات التي لا تتفق مع النبوات ، لأن « النبي » القادياني يعلن صراحة أن « نبوته » قامت لخدمة الإنجليز ووجوب طاعتهم في قوله : « لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها ، وقد ألفت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولي الأمر الإنجليز من الكتب والنشرات ما لو جمع بعضه إلى بعض

(١) تبليغ الرسالة ص ١٧ .

لملأ خمسين خزانة ، وقد نشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربية ومصر والشام وكابل » (١) .

والقادياني لا يكفر غير المؤمنين به من المسلمين إلا إذا تصدّوا له وكفروه ، حينئذ يحكم عليكم بالكفر ويفتي بعدم صلاة الجنازة على موتاهم ، ويتلخص رأيه في ذلك في قوله : « لا شك أنني أعتبر كل منحرف عن الحق والصدق ملوثا ، ولكنني لا أسمي الناطق بالشهادتين كافراً ما لم يكفرني هو ويكذبني ويكتب الكفر على نفسه وهكذا ، ففي هذه المعاملة كان المخالفون أسبق مني دائماً ، فهم كفروني وأفتوا عليّ بذلك فبتكفيرهم إياي يصبحون هم من الكافرين تبعاً لفتوى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنا لا أكفرهم بل هم الذين يدخلون أنفسهم في فتوى رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢) .

تلك هي أهم الأركان العقائدية التي جاء بها غلام أحمد القادياني ولا شك أن فيها كثيراً من الغلو والانزلاق عن جادة الطريق السويّ ، ولما مات سنة ١٩٠٨ خلفه مولاي نور الدين عن طريق الانتخاب ، فلما مات هذا الأخير خلفه ميرزا بشير أحمد الذي بقي على عقيدته مؤمناً بنبوة مؤسس المذهب وألف كتاباً أسماه حقيقة النبوة ذكر فيه أن غلام أحمد أفضل من بعض أولى العزم من الرسل ، وذكر في أحاديث أخر أنه كان أفضل من كثير من الأنبياء ويمكن أن يكون أفضل من جميع الأنبياء ، ثم يستبد به الانحراف فيقول : إن ميرزا

(١) كتاب ترياق القلوب للقادياني ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٠ .

هو محمد صلى الله عايه وسلم وهو مصداق قول القرآن الكريم : اسمه أحمد (١) .

الأحمدية :

بعد موت ميرزا مؤسس الفرقة بفترة غير طويلة انقسم القاديانيون إلى قسمين ، قسم متطرف في أفكاره أصرّ على أن ميرزا كان نبيًّا وعلى رأس هؤلاء مولاي نور الدين الخليفة الأول وميرزا بشير أحمد الخليفة الثاني ، وقسم آخر لم يعجبه هذا التطرف بل رأى فيه خروجاً على جوهر الدين الإسلامي ، وهذا الفريق هو الذي يعرف باسم جماعة لاهور أو الأحمدية ، والأحمدية **لا تقول** بنبوة ميرزا ولا تعترف بمعجزاته ، ولكنهم يعتبرونه مصلحاً **ملهماً** ، وهم يحاولون إصلاح الآراء المتطرفة التي تردى فيها زعيمهم **خصوصاً** فيما يتعلق بنسخ الجهاد فيقولون إن نسخ الجهاد ليس المقصود به الحرب الدفاعية وإنما المقصود الحرب الهجومية .

وعلى رأس هذه الجماعة الأخيرة المعتدلة خوجه كمال الدين ومولاي محمد علي ، وهذا الأخير قد أسدى للإسلام خدمات جليلة فقد ترجم القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية وألف كتاباً قيماً أسماه « دين الإسلام » ونسج على منواله كثير من المعتدلين من أبناء هذه الطائفة فكتبوا كتابات كثيرة طيبة عن الإسلام . ولو أمكن كبح جماح المشتطين الغالين منهم وإقناعهم وإعادتهم إلى الجادة — بخاصة وقد خرج الإنجليز من الهند — لأفادوا الإسلام فوائد جليلة.

(١) الفكر الإسلامي الحديث ٢١ ، ٢٢ .

المعتزلة

نشأتهم :

المعتزلة واحدة من الفرق الإسلامية الكثيرة انتهجت وسائل عقائدية معينة اعتمدت فيها على العقل والجدل وتأثرت إلى حد كبير بالفلسفة اليونانية ، ولكن الذي يميز المعتزلة عن غيرهم من الفرق الإسلامية السابقة التي تعرضنا لها بالحديث أن المعتزلة لم تكن فرقة سياسية كما هو الأمر بالنسبة للشيعة والخوارج ، أو على الأقل لم تكن الفرقة في أول نشأتها ذات اتجاه سياسي معين أو نتيجة لعقيدة سياسية معينة ، بل كانت تعتمد في تأويلاتها على العقل ، ثم ما لبثت بمرور الزمن أن دخلت خضم السياسة وغرقت فيه إلى الأذقان حينما استعان أئمتها ببعض الخلفاء العباسيين كالمأمون والمعتصم اللذين اعتنقا مذهب الاعتزال وأنزلا بخصومه الكثير من الضر والأذى والانتقام .

أما كيف نشأت فرقة المعتزلة ولماذا سميت بهذا الاسم فيقال :
إن واصل بن عطاء رأس المعتزلة كان تلميذا للحسن البصري وكان حاضرا حلقته الدراسية في مسجد البصرة حين تقدم رجل يسأل الحسن عن رأي الدين في مرتكب الكبيرة فأجابه بأنه منافق ، ولكن واصل بن

عطاء — وكان حاضرا — اعترض على هذا الرأي ، وقال إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن بإطلاق ، أي ليس مؤمنا مطلقا ولا كافرا مطلقا بل هو في منزلة بين المنزلتين ، ومن ثم انسلخ عن حلقة الدرس واعتزلها واتخذ لنفسه مجلسا في مكان آخر من المسجد بجوار أحد الأعمدة ومن حوله تلامذته ومريدوه وأنصاره في الرأي ، ومنذ تلك الآونة نشأت فرقة المعتزلة وكان رأسها واصل بن عطاء الغزّال .

ورأي آخر يقول إن تسمية المعتزلة جاءت من تلك الصفة التي لازمت رجال الاعتزال من تقى وتقشف وبعد عن ملاذ الحياة ومفاتنها فهم بذلك معتزلون الدنيا زاهدون فيها .

ورأي ثالث يقول إنهم جعلوا مرتكب الكبيرة يعتزل المؤمنين والكافرين .

ورأي رابع يقول إن «الاعتزال» أقدم من ذلك ، فالمعتزلة هم الذين لم يشتركوا في حرب الجمل ، ولم يشهروا سيوفهم في موقعة صفين نتيجة لعقيدة معينة تتلخص في أنهم لم يستبينوا أي الفريقين كان صاحب حق وأيهما الباغي والتمسوا الآية الكريمة « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ » ولما لم يعرفوا الباغي التزموا جانب الاعتزال (1) .

ورأي آخر يقول إن مذهب الاعتزال من حيث الفكرة والعقيدة

(1) فجر الإسلام ٢٩١ .

اللتين قال بهما واصل وعمرو بن عبيد تنتهيان إلى عليّ بن أبي طالب ، لأن واصلا أخذ عن محمد بن علي بن أبي طالب وأن محمدا أخذ عن أبيه (1) . ويؤيد هذا الرأي أن الزيدية وهم شيعة يوافقون المعتزلة في أصولهم كلها إلا مسألة الإمامة ، وأن زيدا كان تلميذا لواصل ، وأن الشيعة عموما يميلون في عقائدهم إلى الاعتزال ويتفقون مع المعتزلة في أكثر الأصول .

تلك هي الظروف التي أحاطت بتسمية هذه الفرقة ، ومهما كان الأمر فإن مدرسة الاعتزال المتميزة لم تظهر وتتخذ طابعا مستقلا إلا على يد واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد اللذين اعتزلا مجلس الحسن البصري لاختلافهما معه في موقف مرتكب الكبيرة .

وإذا كانت «المعتزلة» نشأت أول أمرها بعيدة عن دعاوى السياسة نائية عن خضمها ، فإنها لم تلبث أن خاضت لجتها في شطط وقوة حتى الأذقان ، فقد هاجموا «الخليفة» الأموي المتهتك الوليد بن يزيد ووقفوا بجانب يزيد بن الوليد بن عبد الملك حتى تولى الخلافة فقربهم واعتنق مذهبهم ، ولم يكن يزيد الوحيد من بني أمية الذي اعتنق الاعتزال بل نجد مروان بن محمد هو الآخر قد اعتنق الاعتزال ، ومعنى ذلك أن هذا المذهب قد خاض معركة السياسة وأنه كان قوة تشد من عضد الخلفاء أو على الأقل ظن الخلفاء فيه هذا الرأي ، لأننا لاحظنا أن خلفاء بني أمية اعتنقوا الاعتزال إبان مغيب دولتهم وقبيل سقوطها.

ولم يضعف الاعتزال لمجرد سقوط دولة بني أمية بل انزوى بعض

(1) متز ١٠٦/١ .

الوقت بعيدا عن تيارات السياسة ، وناصبه بعض الخلفاء العباسيين العداء مثل هرون الرشيد ، فقد سمع هرون الرشيد أن بشرا المريسى يرى أن القرآن مخلوق فهدده بقتله بطريقة لم يقتل بها أحد من قبله ، ولكن لا يكاد يمضي وقت طويل حتى يسيطر المعتزلة على الخلفاء العباسيين كما سيطروا على بعض خلفاء بني أمية من قبل ، فنجد أن المأمون والمعتصم يأخذان بالاعتزال ويذهبان فيه مذاهب خطيرة ويسخرهما المعتزلة لنشر المذهب وإيقاع الأذى بخصومهم لدرجة إسالة الدماء كما سيأتي بعد قليل .

عقيدتهم :

قام المذهب المعتزلي على العقل والجدل وتتلخص عقائدهم الكبرى فيما يلي :

أولا : التوحيد وتبعا لذلك نفوا أن يكون لله صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر ، غير ذاته بل هو عالم قدير حي سميع بصير بذاته ، وقالوا إن وجود صفات قديمة إنما هو قول بالتعدد وحاربوا الثنوية من الفرس القائلين بنظريتي النور والظلمة ، وحملوا على المشبهة الذين ذهبوا إلى تجسيد الذات الإلهية .

ثانيا : العدل : بمعنى أن الله سبحانه وتعالى عادل ، وأن عدله اقتضى أن يجعل الناس يخلقون أفعالهم ، أما هو فلا يخلق تلك الأفعال ، وما دام الإنسان يخلق أفعاله فهو مسئول عنها من خير وشر ، يثاب لفعله الخير ويعاقب لاقترافه الشر ، وهم بذلك يخالفون جمهور

الجبرية الذين يقولون إن الإنسان مجبر لا مختار . والمعتزلة حينما يقولون إن الإنسان مسئول مختار محاسب على أفعاله إنما يقولون بذلك لكي يقيموا الحجة على عدل الله ، وأنه تبعا لذلك لا يمكن أن تصدر عنه معاصي الإنسان ، لأن الإنسان خالق لأفعاله ، وهم من أجل ذلك كانوا يطلقون على أنفسهم لقب «أهل العدل» ، ومسألة الاختيار التي نادى بها المعتزلة دفعت كثيرا من المسلمين إلى مناصبتهم العداء فنسبوا إليهم أنهم متأثرون فيها بمذهب زرادشت(١) وذهب البعض إلى تسميتهم « بمجوس الأمة الإسلامية» .

وهكذا يكون المعتزلة قد نادوا أولا بالتوحيد ودللوا عليه ثم قالوا بالعدل الإلهي الذي خاضوا من أجله تلك المعركة المريرة القديمة غير المعروفة الشطآن ، ونعني بها مسألة الجبر والاختيار التي ترجع جذورها إلى أيام الصحابة ، ولم يصل فريق إلى رأي قاطع فيها فقد تعددت فيها الأفكار والمناظرات ، ومال أكثر الأدباء إلى القول بالجبر والسخرية من مذهب المعتزلة ، فهذا بديع الزمان الهمذاني يجري سخريته منهم على اسان مجنون يوجه الحديث إلى أبي داود المتكلم فيقول : «شاهت الوجوه ، إن الخيرة لله لا لعبده ، والأمور بيد الله لا بيده ، وأنتم يا مجوس هذه الأمة تعيشون جبرا ، وتموتون صبرا ، وتساقون إلى المقدور قهرا ، واو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، أفلا تنصفون وتقولون خالق الظلم ظالم ، أفلا تقولون خالق الهلك هالك (٢)» ومن الطريف أن الخلاف في الجبر والاختيار

(١) متز ١/٣٥٤ .

(٢) المقامة المارستانية لبديع الزمان الهمذاني – راجع بديع الزمان للمؤلف ٢٥١ ، ٣٥٢.

انتقل إلى الشعراء فقد كان ذو الرمة قدريا وكان رؤبة جبريا ولهما في ذلك حوار طريف [1] .

ثالثا : قولهم بالمنزلة بين المنزلتين ؛ وقد سلف الحديث عنها عند اعتزال واصل مجلس الحسن البصري ، والمعنى أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الكفر والإيمان وهي منزلة الفسق ، وهذا الحكم يعتبر وسطا بين الخوارج الذين كفروا صاحب الكبيرة والمرجئة الذين اعتبروه مؤمنا ، ويقول واصل إن صاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا على غير توبة فهو من أهل النار خالد فيها لكنه يخفف عنه العذاب .

رابعا : الوعد والوعيد : ومقتضى ذلك أن الوعد والوعيد أمران نافذان ، فوعد الله بالثواب ووعيده بالعقاب ووعده بقبول توبة التائب أمور نافذة لا بد من الإيمان بها ، وبذلك لا يكون العفو بغير توبة كما أن فاعل الخير لا بد من أن ينال جزاءه من الثواب ، والمعتزلة في ذلك يردون على المرجئة الذين يقولون : لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، إذ لو صح ذلك لكان وعيد الله تعالى في مقام اللغو .

خامسا : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد التزم المعتزلة أمر هذه الدعوة أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الزندقة كانت قد انتشرت بين الناس انتشارا كبيرا وتعددت أوكارها وتفشت أخطارها فأصبح أمر العقيدة في خطر ، ولذلك حتم المعتزلة على المسلمين — حفاظا على العقيدة — أن يسارعوا إلى الأمر بالمعروف

---

(1) فجر الإسلام ٣٠١ ، ٣٠٢ .

وهو هنا الدفاع عن العقيدة والمنافحة عنها ، والنهي عن المنكر أي محاربة الفساق والمجان والزنادقة ولذلك استحل المعتزلة الاستعانة بالخلفاء على القضاء على الزنادقة ثم استطال بهم الأمر حتى استغلوا الخلفاء في نشر مذهبهم بطرق شتى كانت القسوة والعذاب والقتل بعض وسائلها ، وما فتنة خلق القرآن إلا صورة من صور القسوة التي عمد إليها المعتزلة في إنزال الأذى بخصومهم .

فتنة خلق القرآن :

رأى المعتزلة أن الاعتقاد بقدم القرآن إلى جانب قدم الله شرك ، فقد مر بنا أنهم لا يقولون بصفات الله ، فإذا كان الكلام صفة قديمة لله كان القرآن — باعتباره كلاما إلهيا — قديماً ، وهم ينكرون القدم إلا على الذات الإلهية وحدها .

والمهم أن بطل فتنة خلق القرآن كان الخليفة المأمون الذي تأثر بالمعتزلة وقربهم لأنه كان تلميذا لأبي الهذيل العلاف أحد أئمتهم ، وتبنى المأمون هذه القضية ، يدفعه إليها دفعا رجال المعتزلة وفي مقدمتهم كبير قضاته أحمد بن أبي دؤاد .

ومن العجيب أن يكون الولد على نقيض أبيه ، فقد مر بنا أن بشرا المريسي نادى في عهد الرشيد بخلق القرآن فهدده الرشيد بالقتل ، الأمر الذي اضطره للاختفاء عشرين سنة ، وكان المريسى هذا تلميذا لأبي يوسف تلميذ أبي حنيفة ؛ وقد غضب عليه شيخه لمقالته تلك وطرده من مجلسه .

نادى المعتزلة أن الكلام مخلوق لله تعالى وأن القرآن كلام الله فهو بالتالي مخلوق، وتبنى المأمون الفكرة وأصدر منشورا صور فيه انزعاجه لما أصاب الدين وما حل بالإسلام من ضر «فتبين عظيم خطره وجليل ما يرجع في الدين وكفر وضرر ما ينال المسلمين بينهم من القول في القرآن وبخاصة اشتباهه على كثير منهم حتى حسن عندهم وتزين ألا يكون مخلوقا فيتعرضوا بذلك لدفع خلق الله، الذي بان به عن خلقه وتفرد بجلالته من اتباع الأشياء كلها بحكمته وإنشائها بقدرته والتقدم عليها بأوليته التي لا يبلغ أولاها ولا يدرك مداها، وكان كل شيء دونه خلقا من خلقه، وحدثا هو المحدث له، وإن كان القرآن ناطقا به ودالا عليه وقاطعا للاختلاف فيه .... وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال هذه المقالة حظا في الدين ولا نصيبا من الإيمان واليقين[1] .

وبدأ المأمون بقضاته وعماله وجعل يطلب إليهم الإيمان بخلق القرآن، ومن لا يؤمن بذلك يعزل فورا إذ أنه يصبح غير موثوق بدينه «حتى لا تنفذ أحكام الله تعالى إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد».

كان المأمون في الرقة حينما أرسل إلى نائبه في بغداد إسحق بن إبراهيم أن يجمع القضاة والفقهاء والمحدثين والمفتين وينذرهم بالعقوبة إن لم يستجيبوا للقول بخلق القرآن، فعمد بعضهم إلى المكر والحيلة والمراوغة في القول هربا مما ينتظرهم من الأذى، وكان ممن وقع عليهم

(١) الطبري ٣/١١١٨ .

الأذى حتى استشهد في قيده الفقية محمد بن نوح، وقد وقع على الإمام أحمد بن حنبل من جراء تلك الفتنة أذى شديد، إذ سيق في القيود الحديد لكي يقابل المأمون في طرسوس، ولكن المأمون مات قبل أن يصل الفقيه العظيم إليه، وظن المسلمون أن الفتنة قد ماتت بموت المأمون غير أنه كان قد أوصى أخاه وخليفته المعتصم بالسير في طريق الفتنة فمزق جسم الإمام بالسياط .

وظل الأمر كذلك في عهد المعتصم ثم في عهد ابنه الواثق الذي عهد إلى قتل بعض معارضي فكرة خلق القرآن وصلبهم، وظل الأمر على هذا الاضطهاد الذي وقع على فقهاء المسلمين حتى جاء المتوكل ففك قيود الفقهاء وانتصر لهم ضد المعتزلة فقويت بمساندته شوكة أهل السنة.

وهكذا انتهت هذه المحنة التي كانت ولا شك ضربا من الهوس المذهبي الذي لا يستحق كل هذا الغلو والذي لا يقدم ولا يؤخر في صلب عقيدة الإسلام .

وإذا ما نظرنا إلى أفكار المعتزلة بصفة عامة وجدناهم أكثر الفرق الإسلامية أخذاً بلباب الفلسفة اليونانية والانتفاع بها، فلا نكاد نقرأ لواحد من أئمتهم حتى نلمس ظلال الفلسفة اليونانية متمشية في جنبات أفكاره، الفلسفة اليونانية بميتافيزيقيتها وجدلها ومنطقها، ولعل هذه الفلسفة كانت أوضح ما تكون عند أبي الهذيل العلاف وإبراهيم النظام والجاحظ .

ولمحة أخرى نلمسها في أفكار المعتزلة وهي تلك الثقافات الكثيرة العريضة الملتمعة في مناهجهم فقد كانوا حينما يعمدون إلى

الجدل يتسلحون بأسلحة مجادليهم وأعدائهم سواء أكان هؤلاء المجادلون من أبناء الفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج أو من الزنادقة والدهرية أو من النصارى واليهود .

ومن الأمثلة الطريفة التي تصور لنا مقدرة المعتزلة على الجدل ذلك الحوار الذي جرى بين أبي الهذيل وتلميذه إبراهيم النظام المعتزلي من ناحية وصالح بن عبد القدوس السفسطائي الشاك المنكر لحقائق الأشياء من ناحية أخرى .

كان صالح بن عبد القدوس قد مات وله ولد فمضى إليه أبو الهذيل العلاف يرافقه تلميذه النظام ، وكان صالح حزينا الحزن كله جزعاً الجزع كله ، فقال له أبو الهذيل : لا أدري لجزعك وجها إذا كان الناس عندك كالزرع ، فقال صالح : يا أبا الهذيل إنما جزعت عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل وما كتاب الشكوك؟ قال : كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وشك فيما لم يكن حتى يتوهم أنه كان ، فلما سمع النظام – وهو التلميذ الصغير – صالحا يقول هذا القول أردف موجها الحديث لصالح : فشك أنت في موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشُكَّ أيضاً في أنه قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه . (1)

أعلام المعتزلة :

وأعلام مفكري المعتزلة كثيرون ولكل واحد منهم أفكاره المتميزة

(1) ابن خلكان ١/٤٨١ .

عن أفكار سالفيه أو معاصريه حتى أصبح لكل واحد من هؤلاء المفكرين مذهب ينمى إليه ، فهناك الواصلية نسبة إلى واصل بن عطاء رأس المعتزلة وقد مر علينا ما نادى به من أفكار حينما تحدثنا عن عقيدة المعتزلة ، وكان واصل ورعا تقيا مجتهداً واسع الأفق بليغاً في قوله متحكماً في معانيه وألفاظه حتى أنه كان يتحاشى أن يأتي بكلمة واحدة فيها حرف الراء – وكان ألثغ في الراء – ولو استمر يتحدث الساعات الطوال وقد توفي واصل سنة ١٣١ هـ .

ومن أعلامهم أيضا أبو الهذيل حمدان بن الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ هـ وقد عمّر حوالي قرن من الزمان ، وله فرقة تسمى الهذيلية ، وقد عمد أبو الهذيل إلى الإيغال في فلسفة العقيدة والصفات متأثرا بمذاهب الفلاسفة اليونان وفلسفة النصرانية ، قال : إن الباري تعالى عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، قادر بقدره وقدرته ذاته ، حي بحياة وحياته ذاته . ويفسر الشهرستاني القضية بقوله : الفرق بين قول القائل : عالم بذاته لا بعلم ، وبين قول القائل : عالم بعلم هو ذاته أن الأول نفى الصفة ، والثاني إثبات ذات هو بعينه صفة ، أو إثبات صفة هي بعينها ذات (1) .

ولما كان أبو الهذيل يجعل القدم لله وحده فإنه قال باختيار الإنسان في الدنيا فقط ، أما الآخرة فإنها ليست دار تكليف شرعي ، فليس فيها اختيار ، وكل شيء هناك راجع إلى إرادة الله وحده ، ولن يكون في الحياة الآخرة حركة ، لأن الحركة لما كان لها مبدأ فلا بد أن تنتهي

(1) ابن خلكان ١/٤٨١ .

بانتهاء العالم ، وتبعا لذلك فإن الناس في الآخرة يصيرون إلى سكون دائم خامد ، وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة ، وتجتمع الآلام في ذلك السكون لأهل النار .

وتحدث أبو الهذيل عن الآجال فقال : إن الرجل إن لم يقتل مات في ذلك الوقت ولا يجوز أن يزاد العمر أو ينقص .

ويقول أبو الهذيل إنه يجب على الإنسان أن يعرف الله بالدليل من غير خاطر وإن قصر في المعرفة وجبت عليه العقوبة ، كما ينبغي عليه التمييز بين الحسن والقبيح ، فيقدم على الحسن من صدق وعدل ويعرض عن القبيح من كذب وظلم .

ومن فرق المعتزلة «النَّظَّامية» نسبة إلى أبي إسحاق ابراهيم بن سيار بن هانىء البلخي المشهور بالنَّظَّام المتوفى سنة ٢٢١هـ والذي مر ذكره قبل قليل ، والنظام تلميذ لأبي الهذيل وكان عنيفا في تعبيره عما يعتقد لا يتوخى الصيغ المهذبة عندما يتحدث عن الذات الإلهية ، كقوله إن الله لا يقدر على فعل الشر ولا يقدر أن يفعل إلا ما يعلم أنه الأصلح لعباده ، وأنه لا يقدر على أن يخلق أكثر مما خلق بالفعل وإلا فما الذي يمنعه من أن يظهر كل ما عنده من القدرة على خلق أشياء جديدة .

ويقول النظّام إن الله خلق الدنيا دفعة واحدة على ما هي عليه الآن من معادن ونبات وحيوان وإنسان ، ويتحدث عن إعجاز القرآن فيقول إنه معجز من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والأمور الآتية ، أما من

حيث البلاغة فإن الله صرف العرب عن أن يأتوا بمثله ولو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بمثله بلاغة وفصاحة ونظما .

وينكر النظّام الإجماع والقياس ، فمن الممكن ـ من وجهة نظره ـ أن يجتمع المسلمون على ضلال كإجماعهم على أن محمداً ـ دون سائر الرسل ـ قد أرسل إلى الناس كافة ، والله يرسل الرسل إلى الناس كافة .

وكان للنظّام اتجاه شيعي فقد كان يعترف بوجود الإمام المعصوم. والنظام رغم أنه لم يعمر طويلا ورغم شطحاته وعنفه في جدله إلا أنه قد أسلم على يديه خلق كثيرون .

ومن أشهر فرق المعتزلة غير التي ذكرنا البِشْرِيَّة وهي فرقة بشر بن المعتمر وكان من أفضل علماء المعتزلة ، والجاحظية وهي فرقة أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب المشهور بالجاحظ المتوفى ٢٥٥هـ وكان أديبا أريبا بليغا كاتبا واسع المعرفة فكها ظريفا عاقلا ولذلك اتجهت فلسفته كلها نحو العلم والمعرفة ، فيقول إن المعرفة ضرورية طباع ، وجنح إلى الفلسفة شأنه في ذلك شأن أستاذه النظام وأستاذ أستاذه أبي الهذيل ، وكان يسخر من رجال الفقه والحديث ويقول عنهم إنهم عوام لأنهم يقلدون ولا يبتكرون .

ومهما كان الأمر فبالرغم من جنوح المعتزلة في كثير من الأحيان إلى الشطح في التفكير والتعبير ، وبالرغم من انتهاج الشدة والاستعانة بالحكام والخلفاء في نشر مذهبهم فقد كانوا يمثلون المدرسة الإسلامية

المفكرة، فقد اتفقوا مع الشيعة في كثير من عقائدهم، واتفقوا مع أهل السنة في العبادات وإن اختلفوا في مسائل علم الكلام ، كما أنهم دافعوا عن الإسلام دفاعا مجيدا ضد الزنادقة والمجسمة والرافضة وغيرهم ممن لو تركوا وشأنهم لكان خطرهم على المسلمين شديدا .

أهل السنة

أهل الحديث والرأي :

في الوقت الذي ظهرت فيه بعض الأفكار الدينية المتطرفة أو الاعتقادات المذهبية الغالية يخوض معتنقوها في المسائل الاعتقادية بصور مختلفة ينسبونها إلى تحكيم العقل حينا أو إلى أصول مختلف على قيمتها حينا آخر ، كانت هناك طائفة من المسلمين ترجع الحكم في كل أمر إلى الكتاب العزيز وإلى السنة مكتوبة في شكل أحاديث أو مأثورة في شكل أفعال ، كما كانت هناك طائفة أخرى تقول بالرأي .

كان أمرا طبيعيا وقد اتسعت رقعة البلاد الإسلامية ودخل في الإسلام أشتات من الناس من مختلف الأجناس والثقافات أن تجد أمور وتستحدث مشاكل في البيئات الجديدة لم ترد بصددها نصوص صريحة في الكتاب أو الحديث ، فقد صادف العرب المسلمون في تلك البلاد الجديدة مشاكل لم يألفوها من قبل ، وأمورا جديدة بالنسبة إلى بيئتهم ، وجرائم لم يسبق أن ارتكبت في بلادهم ، وأحوال زواج

غير معروفة لديهم ، والشئون التي تتعلق بالدولة من إدارية ومالية وتشريعية إلى غير ذلك من أمور لم يشر إليها القرآن ولم تعن بها الأحاديث النبوية ، ولما كان الإسلام ضد الجمود في الأحكام فقد كان الصحابة أو الفقهاء يتناقشون في المسألة المستغلقة ثم يخرجون منها برأي يعتبر واجب التطبيق .

مثال ذلك في الميراث مسألة الجد مع الإخوة . وهل يرث الإخوة فالقرآن لم ينص على هذه المسألة وإنما نص على الأب مع الإخوة ، عرض الصحابة المسألة للرأي والمناقشة فقال أبو بكر وابن العباس بأنه يحجبهم كالأب ، وذهب زيد بن ثابت وعمر وعلي إلى إرثهم معه . وحين استشير زيد بن ثابت في مسألة أخرى هي حكم الميراث فيمن مات عن زوج وأبوين أفتى بأن تعطى الأم ثلث ما بقي ، فلما سأله ابن عباس : اين وجدت في كتاب الله ثلث ما بقي أجاب زيد : أقول برأيي وتقول برأيك . وحين رفع إلى عمر أمر زوجة قتلت زوجها بمساعدة خليلها تردد أول الأمر هل يقتل الكثير بالواحد ، ثم استشار علي بن طالب فأفتى بقتل الكثرة التي تشترك في قتل الواحد فأخذ عمر برأيه وكتب إلى عامله أن اقتلهما فلو اشترك في قتله أهل صنعاء جميعا لقتلتهم (١) .

كانت تلك طبيعة عمر إذا استغلق عليه أمر وأعياه أن يجد فيه حلا من سنة رسول الله جمع رءوس الصحابة وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمعوا على شيء أخذ به ، يفعل عمر كل ذلك مع عميق فهمه

(١) انظر فجر الإسلام ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

للدين وجودة تفقهه فيه .

هذا النهج من التفكير الإسلامي سمي «بالرأي» وسمي العاملون به «أهل الرأي» وكان يعمل بالرأي في المدينة على أيام الصحابة ثم انتقل العمل به في العراق على أيام بني أمية وبني العباس ، وكان على رأس أهل الرأي الإمام أبو حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفي ، فقد كان عظيم الحجة قوي البرهان واسع العقل والإدراك ، إذا لم يجد من الكتاب والسنة ما يسعفه أعمل «الرأي» في حكمة وروية ونزاهة واتزان.

وكان يعارض هذا الفريق من المسلمين فريق آخر هم أهل الحديث ، وكانوا إذا سئلوا عن قضية من القضايا بحثوا عن إجابتها في الكتاب أو السنة ، فإن لم يجدوا امتنعوا عن الإجابة ، وكان من أنصار هذا الفريق بعض الصحابة كالزبير بن العوام وعبد الله بن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص ، واستمرت مدرسة الحديث في التابعين وعلى رأسهم الشعبي .

لم يكن أمرا طبيعيا أن يطول الخلاف بين أهل الرأي وأهل الحديث ، فكل من الفريقين ممن حسن إسلامه ونأى عن الشهوات وابتعد عن الاندفاع والخطل ، ولذلك قامت مدرسة جديدة تقرب شقة الخلاف فجمعت بين الرأي والحديث ولا تعمل بالرأي إلا إذا انعدم النص ، ومن أعلام هذه المدرسة الإمامان الفاضلان مالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعي .

ولما كانت هذه المدرسة الجديدة من المرونة وسعة الأفق بمكان، فقد انتقلت نحو التيسير نقلة أوسع فنظمت فكرة الرأي وارتقت بها

وضعت له قواعد وشروطا وسمته «القياس» الذي كان لفكرته أجل الفوائد فيما يتعلق بمسائل التشريع الإسلامي .

على أن هناك من يقول إن القياس قد جرى على أوسع صورة عند أصحاب الرأي أي عند الحنفية ثم أخذ به بعدهم الشافعية (١) .

ولكن ليس معنى ذلك أن نهمل «الإجماع» فإنه من أقوى أركان التشريع عند أهل السنة ، بل إنه سبق «القياس» من الناحية التاريخية ، وقد مر بنا قبل قليل أن عمر بن الخطاب كان إذا استبدت به الحيرة في مشكلة من المشاكل جمع الصحابة وعرضها عليهم فإذا أجمعوا على رأي أخذ به ، هذا هو أصل فكرة «الإجماع» التي أصبحت فيما بعد عنصرا أساسيا من عناصر التشريع والفقه الإسلامي.

(١) دي بور ص ٤٩ .

أئمة أهل السنّة

يختلف مفهوم الإمامة عند أهل السنة عنه عند الشيعة اختلافاً بيّناً ، فليست الإمامة السنيّة وظيفة أو وراثة كما أنها ليست حقاً دينيا أو شرفا موقوفا على أحد بعينه أو وصاية متلقاة ، كما أنه ليس للإمام أية حصانة أو عصمة أو انتماء أسري أو أيّة ميزة من تلك التي يتميز بها الإمام عند الشيعة على اختلاف مدارسها اعتدالا وغلوّا ، وإنما الإمام عند السنة هو مجرد مسلم عرف بالاستقامة والعلم والعدل واتساع الأفق وامتداد الثقافة والتّفَقّه في الدين من كتاب وسنة ، وهو بعد ذلك قادر على حسن الاستنباط واستخراج روح المعاني وإصدار الأحكام ، ولا يشترط فيه بعد ذلك لون أو جنس أو نسب ؛ وليست له عصمة أو حصانة ، وإنما تفرض شخصيته على الناس احترامها وإجلالها ، كما تفرض آراؤه الدينية وأحكامه الفقهية على المسلمين اتباعها والعمل بها ، وبالتالي فإن الإمام عند أهل السنة لا يولد إماما وإنما يكتسب لقب الإمامة لاستقامته والإقبال على العلم والتفقه في الدين تفقها يجعله يسلس له القياد ويلين له ما استعظم من معضلاته ،

واستمر من مشكلاته، بل إن الواحد من الأئمة عند أهل السنة ربما لم يمنح هذا اللقب في حياته وإنما أطلقه عليه المؤمنون برأيه وفقهه من جماعات المسلمين بعد وفاته .

ومجمل القول في الإمام عند أهل السنة أنه أحد أبرز علماء المسلمين المعروفين بالاستقامة وكامل الإيمان المتفقهين في مسائل الدين القادرين على فهم روح الشريعة واستنباط أحكامها استنباطا سليما وإصدار الفتاوى فيما قد استغلق فهمه على المسلمين على أن يكون مستمدا براهينه من الكتاب والسنة استمدادا مباشرا ومن سابق الإجماع على الرأي والقياس عليه قياسا سليماً دقيقامن غير ماتساهل أو تعصب.

وأئمة أهل السنة كثيرون منهم أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل والأوزاعي والليث وابن حزم وغيرهم ، فكلٌ من هؤلاء كان له اجتهاداته وأحكامه المستمدة من روح الشريعة ، وبالتالي فقد أصبح لكل منهم جمهور من المسلمين يفضل الأخذ بأحكام هذا أو ذاك حسب قربها من منطق الشريعة أو اتجاهها إلى التيسير ، فكان هناك الأحناف أي أصحاب أبي حنيفة والشافعية أو الشوافع أصحاب الشافعي ، والمالكية أصحاب مالك ، والحنابلة أصحاب ابن حنبل ، والأوزاعية أصحاب الأوزاعي ، والحزمية اصحاب ابن حزم وهكذا ، غير أنه لظروف سياسية حينا واجتماعية حينا آخر تبددت بعض المسميات على فضل في جوهرها ، وبقي البعض الآخر منها ، وهي الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، وقد يكون من المفيد النافع أن نلم بطرف من المعرفة عن كل إمام من هؤلاء ،

وشيء من فقهه وفكره وآرائه وسيرته ، على أن الشيء الجدير بالمعرفة والاعتبار أنَّ هؤلاء الأئمة ممن ذكرنا لم يعرفوا في زمانهم أو بعده بعدّة قرون باسم أئمة أهل السنة، وإنما كانوا أئمة لعامة المسلمين إلا من رأى غير رأيهم ، ذلك أن تسمية جمهرة المسلمين بأهل السنة تسميه متأخرة يرجع تاريخها إلى حوالي القرن السابع الهجري أي بعد عصر آخر الأئمة المشهورين وهو ابن حنبل بحوالي أربعة قرون .

الإمام أبو حنيفة ٨٠ ــ ١٥٠ هـ

هو النعمان بن ثابت العالم الفاضل الفقيه المحقق، ولد في الكوفة سنة ثمانين من الهجرة وبذلك يكون أول أئمة أهل السنة ميلادا ، توفر على طلب العلم منذ صباه ، وكان يقسم وقته بين التوفر على العلم والتكسب للرزق ، فكان يبيع الخزّ ، وربما كان ذلك سببا في تفتح عبقريته الفقهية في المعاملات فيما بعد ، ولم يلبث الإمام الجليل بعد أن اكتملت عنده أداة العلم أن جلس للتدريس والإفتاء .

علمه وتقواه :

وتجمع المصادر التي عرضت لحياة أبي حنيفة على أنه كان عالما عاملا زاهدا عابدا ورعا تقيا كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله ، فالإمام مالك يصفه وقد سئل عما إذا كان رآه ، فيقول ، نعم رأيت رجلا لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهب لقام بحجته [١] . ويؤثر عن الإمام الشافعي قوله : الناس عيال على هؤلاء الخمسة ،

(١) وفيات الأعيان ٥/٤٢ .

من أراد التبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة ، ومن أراد أن يتبحر في الشعر فهو عيال على زهير بن أبي سلمى ، ومن أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق ، ومن أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي ، ومن أراد أن يتبحر في التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان . وهذا يحيى بن معين يقول : القراءة عندي قراءة حمزة ، والفقه عندي فقه أبي حنيفة [1] .

وإذن لقد توفرت صفة العلم الغزير عند أبي حنيفة ، على أن العلم وحده لا يكفي للانفتاح خاصة في الدراسات الدينية التي تحتاج إلى رابطة قوية بين العالم وخالقه ، ولقد كانت رابطة أبي حنيفة بربه موصولة فقد أثر أنه صلى صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة ، ولما مات أبو حنيفة قام بغسله الحسن بن عمارة ، وما إن انتهى من ذلك حتى وجه الخطاب إلى الجسد المسجى أمامه قائلا : رحمك الله وغفر لك ، لم تفطر منذ ثلاثين سنة ، ولم تتوسد يمينك في الليل منذ أربعين سنة ، وقد اتعبت من بعدك وفضحت القراء .

رفضه تولي القضاء :

هكذا كان أبو حنيفة في ورعه ، وأخباره في ذلك كثيرة ، وهكذا كان أيضا في حياته وفرة تقى ووفرة علم ، والتقوى والعلم يورثان الانفتاح والفيض والإلهام ، ولذلك فقد رفض أبو حنيفة أن يلي القضاء خشية أن يظلم في حكم دون قصد ، وقد تمثل الحديث الشريف

(١) المصدر السابق ٥/٤٢ .

قاضيان في النار وقاض في الجنة ، وهو يحمل على تولي القضاء حملا فيرفض رفضا يتعرض بسببه للضر والأذى ، فقد أراده يزيد بن عمر بن هبيرة على القضاء بالكوفة أيام مروان بن محمد فرفض ، فضربه مائة سوط ، وظل يضربه كل يوم عشرة أسواط لاقتناعه ، فلما يئس منه خلى سبيله .

ولما قامت دولة بني العباس وبنى المنصور مدينة بغداد استقدم أبا حنيفة من الكوفة حيث يقيم وعرض عليه أن يلي قضاء الرصافة ، فاعتذر أبو حنيفة عن ذلك ولقي عسفا وعنتا ، ويجري بين أبي حنيفة والملك العباسي حوار في هذا السبيل يجمع إلى الطرافة الفطنة والذكاء والتقوى ، يقول الإمام للملك : اتق الله ، ولا ترع من أمانتك إلا من يخاف الله ، والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجه الحكم عليك ، ثم تهددتني أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق ، ولك حاشية تحتاج إلى من يكرمهم لك ، ولا أصلح لذلك . فيقول له المنصور : كذبت ، فيسرع أبو حنيفة وقد وجد المخرج قائلا : قد حكمت لي على نفسك كيف يحل لك أن تولي قاضيا على أمانتك وهو كذاب [1]

أبو حنيفة والبلاط العباسي

وكانت عشيرة الملك العباسي أبي جعفر المنصور من حجاب وقضاة يعكسون من تصرفاتهم إزاء أبي حنيفة صورة لمشاعر المنصور

(١) الوفيات ٥/٤٠ .

نحوه ، وكان المنصور يحس أن عواطف أبي حنيفة ليست معه ، وإنما هي مع الحق ، هذا فضلا عن تسفيه الإمام لآراء الحاشية وتخطئتهم ، والأخبار في ذلك كثيرة ولا تخلو من جدة وطرافة ، ثم هي في نفس الوقت أحكام فقهية جادة صدرت في مقام النقد تارة وفي مقام ردّ كيد مرة ثانية ، وفي مناسبة الإفلات من وقيعة مرة ثالثة وهكذا .

فهذا ابن أبي ليلى قاضي الكوفة من قبل المنصور ينظر في أمر امرأة مجنونة سبّت رجلا وقالت له : يا ابن الزانيين ، فيقيم ابن أبي ليلى عليها الحد في المسجد ، وهي قائمة ، ويحدها حدين حدّاً لقذف الأب وحدا لقذف الأم ، فبلغ ذلك أبا حنيفة ، فقال : إن ابن أبي ليلى أخطأ في ستة مواضع ، الموضع الأول أنه أقام الحد في المسجد ، ولا تقام الحدود في المساجد ، والموضع الثاني أنه ضربها قائمة والنساء يضربن قعودا ، والموضع الثالث أنه ضرب لأبيه حدّاً ولأمه حدّاً ، ولو أن رجلا قذف في جماعة كان عليه حدٌّ واحد ، والموضع الرابع أنه جمع بين حدين ، ولا يجمع بين حدين حتى يخفّ أحدهما ، والموضع الخامس أن المجنونة ليس عليها حدّ ، والموضع السادس أن حدّ للأبوين وهما غائبان ولم يحضرا فيدعيا (1) . فأي براعة وأي دقة هذا النقد الفقهي الطريف الذي أوقع ابن أبي ليلى في هذه الزمرة من الأخطاء الفريدة .

ويحاول الربيع حاجب المنصور ان يؤلب سيده على أبي حنيفة

(1) تاريخ بغداد ١٣/٣٥٦ .

وأن يوقع به الأذى ، ويعد العدة لذلك بحيث يفاجىء أبا حنيفة بالأمر ، إن المنصور يدعو أبا حنيفة للحضور أمامه ، فيقول الربيع : يا أمير المؤمنين إن أبا حنيفة يخالف جدّك عبدالله بن عباس في قوله : إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء ، ويقول أبوحنيفة : لايجوز الاستثناء إلا متصلاباليمين ، فقال أبو حنيفة : يا أمير المؤمنين ، إن الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جندك بيعة ، قال : وكيف ، قال : يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون ، فتبطل أيمانهم ، فضحك المنصور وقال : يا ربيع لا تعرض لأبي حنيفة ، فلما خرج قال الربيع : اردت أن تشيط بدمي ، فقال أبو حنيفة : لا ولكنك أردت أن تشيط بدمي فخلصتك وخلصت نفسي (1) .

عطفه على جاره السكير :

وأبو حنيفة إلى جانب ذلك كله إنسان برّ يحب الناس ويرعى حقوقهم ويعطف على الجار ولو كان على إثم ، فقد كان لأبي حنيفة إبان مقامه بالكوفة جار إسكاف يعمل نهاره أجمع حتى إذا جنّه الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه أو سمكة فشواها ثم لا يزال يشرب حتى إذا أخذ به الشراب مأخذه رفع عقيرتهمغنيا :

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ... ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثَغْرِ

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وكان

(1) تاريخ بغداد ١٣/٣٦٥ .

أبو حنيفة يسمع جلبة الرجل السكران بينما هو مقبل على تهجده وسهره طوال الليل، وذات ليلة افتقد أبو حنيفة صوت الرجل، فسأل عنه فقيل إن العسس أخذوه منذ ليال وحبسوه ، فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر ، وفي الغداة ركب بغلته واتجه إلى أمير الكوفة مستأذنا عليه ، فقال الأمير : ائذنوا له وأقبلوا به راكبا ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته ، ففعل ، ولم يزل الأمير يوسع له في مجلسه سائلا عن حاجته ، فقال : لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال ، يأمر الأمير بتخليته ، فاستجاب الأمير قائلا : نعم ، وكل من أخذ في تلك الليلة إلى يومنا هذا ، فخلّي عنهم أجمعين ، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشي وراءه ، فلما نزل أبو حنيفة التفت إلى الاسكاف وقال : يا فتى ! ! أضعناك ؟ فقال الاسكاف : لا ، بل حفظت ورعيت ، جزاك الله خيرا عن حرمة الجوار ورعاية الحق ، وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان عليه [1]

أبو حنيفة والرأي :

هذا هو أبو حنيفة العالم والإنسان ، وأما أبو حنيفة الامام فإمامته مستمدة من علمه وانسانيته ، ذلك أن اجتهاده جعله يصدر فتاواه نابعة من رأي مستمد من أحكام الكتاب والسنة ، وهو في مصدره الثاني لا يأخذ إلا بالأحاديث الصحيحة الإسناد ولا يقيم للضعيفة منها وزنا في مجال الأحكام ، كانت هناك فئتان من الفقهاء منهم أهل الحديث ومنهم أهل الرأي ،وكان أبوحنيفة زعيم المدرسة

(١) ابن خلكان ٥/٤٣ .

الثانية ، ولم يكن الخلاف بين الفئتين إلا خلاف من ينشد الحق ويبتغي الحفاظ على روح الشريعة ، وقد أخذ الفريقان في آخر عصر أبي حنيفة يتقاربان ويلتقيان للدراسة أو الجدل والمناظرة [1] مستهدفين الخير لهذه الأمة .

لقد لخص أبو حنيفة منهج تفكيره الرائد في قوله : «آخذ بكتاب الله تعالى فما لم أجد فبسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما لم أجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذت بقول أصحابه ، آخذ بقول من شئت منهم ، وأدع من شئت منهم ، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم»

ويخرج أخونا الدكتور أحمد الشرباصي من الجزء الأخير من قول الإمام بأن تلك كانت الخطوة الأولى نحو الاجتهاد والرأي ، وإعطاء الرأي حقه في المقارنة بين الأقوال ، واختيار بعضها دون البعض الآخر [2] .

والإمام أبو حنيفة في مجال «الرأي» يقول : إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذنا به ، وإذا جاءنا عن الصحابة تخيرنا وإذا جاءنا عن التابعين زاحمناهم» .

فأبو حنيفة وقد ولد سنة ثمانين للهجرة وبلغ مرحلة من النضوج العلمي على نهاية القرن الأول يمكن اعتباره من جيل تابعي التابعين ، ومن ثم فقد حُقّ له على النطاق الزمني ، وعلى بساط العلم أن يتعامل

(١) أبو حنيفة للشيخ « أبوزهرة » ١٠٢ .
(٢) الأئمة الأربعة ص ٣٨ .

مع الجيل السابق له بعامل الصيرفي الذي ينقد الجيد من الرديء والأصيل من الدخيل من الأحاديث والأخبار وأن يكون صاحب رأي في هذا القبيل من القول أو ذاك ، وهو حين لا يجد من وجهة نظره الشخصية أن أقوال التابعين غير ملزمة له ما لم تكن على سند من كتاب الله وسنة رسوله ولا قول من أقوال الصحابة حق له أن يُعمل فكره وعلمه وعدله — وقد سُلّم له بالفكر والعلم والعدل — في أن يجتهد وينتهي إلى الرأي الذي يراه صحيحا ويصلح لأن يعتمده المسلمون ويأخذوا به .

آراؤه السياسية :

واجتهاد أبي حنيفة وقد جعل الرأي أساسا له دفع به الى أن يطبق أحكامه على الوضع السياسي العام للأمة الاسلامية طبقا لفهمه صلب الشريعة ونظام الحكم في الاسلام الذي يتحتّم أن يكون شوريا تسانده بيعة صحيحة ، عادلا بعيداً عن التحايـل والاغتصاب أو سمات الملك ، ولذلك فهو يرى أن الخلافة الاسلامية الصحيحة انتهت بمقتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وتروى لأبي حنيفة في ذلك آراء عديدة حول الذين خرجوا على عليّ ، من ذلك قوله : «ما قاتل أحد علياً إلا وعليّ أولى بالحق منه»(١) وهذا الحكم ينسحب على حرب عليّ ومعاوية وبالتالي فهو يسلب الأمويين شرعية ما ادعوه من خلافة .

(١) أبو حنيفة عن المناقب للمكي ٢/٨٣ .

بل إن ابا حنيفة يصدر أحكاما صريحة في مختلف المعارك التي خاضها عليّ أو بالأحرى التي فرض عليه أن يخوضها مثل يوم الجمل وحرب طلحة والزبير ، فيقول عن يوم الجمل إن عليا سار فيه بالعدل «وهو أعلم المسلمين في قتال أهل البغي» ويقول عن الزبير وطلحة إن عليا «قاتل طلحة والزبير بعد أن بايعاه وخالفاه» (١)

وأبو حنيفة يرى رأيا صريحا أن الحكم الأموي غير شرعي لعدم استناده على أصول الحكم في الاسلام ، ولذلك فإنه لم يتحرج في مناصرة زيد بن علي زين العابدين — رأس الزيدية — حينما خرج على ملك بني أمية متسلحاً ببيعة من جمهرة من المسلمين ، وكان يرى نفس الرأي في ملك بني العباس وآية ذلك أنه كان يحض الناس على مناصرة إبراهيم الإمام وأخيه محمد النفس الزكية ابني عبدالله بن الحسن ، وذلك حين خرجا على المنصور العباسي ، وإن كان تأييد أبي حنيفة في الحالين لم يزد عن التأييد الأدبي فهو أمر طبيعي بالنسبة اليه ، لأن أبا حنيفة لم يكن رجل حرب حتى يخرج ويخوض المعارك بحد السيف في صف من رآهم على حق ، ولقد روي أن محمد بن عبدالله بن حسن قد ذُكر عند أبي حنيفة فكانت عيناه تدمعان»(٢) .

ولقد كان حب آل البيت ظاهرا في هذه الأحكام التي أصدرها أبو حنيفة بالنسبة لعليّ في خلافته ، وبالنسبة أيضا إلى زيد بن عليّ ، والأخوين محمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن الأمر الذي جعل

(١) راجع المناقب للمكي ٢/٨٣ ، ٨٩ .
(٢) أبو حنيفة لأبي زهرة ص ١٦٣ عن مناقب المكي ٢/٨٤ والمناقب للبزازي ٢/٧٢ .

الاستاذ الجليل الشيخ محمد أبا زهرة يعتقد أن أبا حنيفة كان فيه تشيع وأنه بتشيعه أراد أن ينقي التشيع لآل البيت مما علق به من أدران مسخته وشوهته، ولعل الاستاذ ابا زهرة قد استند في حكمه هذا— بالإضافة إلى مواقف أبي حنيفة السابقة — إلى أن أبا حنيفة قد روى عن محمد الباقر ، كما كان يروي عن جعفر الصادق ، وهما إمامان جليلان من أئمة الشيعة خاصة وأئمة المسلمين عامة .

والحق أنه إذا كانت أحكام أبي حنيفة قبل عليّ وخلافته وخلافه مع الأمويين ، ومع طلحة والزبير ومع السيدة عائشة ، وإذا كانت آراؤه في خروج زيد ومحمد وابراهيم ابني عبد الله تتفق مع احكام الشريعة الاسلامية فلا حاجة بنا إلى خلع صفة التشيع على الإمام الجليل لأن معنى ذلك أنه في أحكامه تلك قد صدر عن حب أو هوى ، وهو ما نجل أبا حنيفة عنه ، وإنما قد اعتمد الإمام الجليل في آرائه على أحكام الدين وضرورات التشريع وروح العقيدة ، وأما روايته عن الباقر والصادق فهو أمر طبيعي بالنسبة إلى أي مسلم منصف معتدل التفكير عادل الأحكام ، ذلك أن الباقر والصادق إمامان جليلان من أئمة المسلمين وليسا وقفاً على طائفة من المسلمين دون الأخرى ، وكما روى أبو حنيفة لهما فقد روى لغيرهما أيضا .

وإذا كان لأبي حنيفة أن يحب آل بيت الرسول وأن يكرمهم فهذا واجبه وواجب كل مسلم ، وأي مسلم ذلك الذي لا يحب آل البيت ويتعاطف معهم ويتعلق بهم ، وكيف يكون إسلام مسلم لا يحب آل بيت رسول الإسلام .

وإذن فتشيع أبي حنيفة لآل البيت إنما هو من قبيل العاطفة والحب والتقدير ، هي مشاعر يكنها كل المسلمين لآل الرسول العظيم . يستوي في ذلك السنة مع الشيعة ، ونحن جميعا من وجهة النظر تلك شيعة متحمسون ، ولكن لا علينا إذا اختلفنا مع المذهب نفسه في بعض أحكامه ، وإذا اختلفنا مع القوم في بعض عاداتهم المستحدثة التي هي في صلبها بعيدة عن التشيع كيوم عاشوراء وطقوسه وإبطال الجمعة والدفن في كربلاء والسجود على التربة وما إلى ذلك .

رأيه في الخلافة :

ولأبي حنيفة في الخلافة رأي يتفق كل الاتفاق مع الشريعة الإسلامية نصا وروحا وهو في ذلك يختلف مع كل الفئات السياسية المعاصرة له والسابقة لزمانه من شيعة وخوارج وأموية وعباسية ، وقد استطاع الأستاذ أبو زهرة بتتبعه لحياة أبي حنيفة وآرائه أن ينتهي إلى رأي للامام الأعظم يرى بمقتضاه أن الاختيار العام للخليفة يجب أن يكون سابقا على توليه السلطة[1] مستندا على رواية للربيع بن يونس حاجب المنصور تفيد أنه أي المنصور جمع الإمام مالك وابن أبي ذؤيب والإمام أبا حنيفة ليسألهم عن خلافته ، فقال مالك قولا لينا ، وقال ابن أبي ذؤيب قولا صريحا شديدا وقال أبو حنيفة ما نصّه : المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب ، إن أنت نصحت لنفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا ، فإنما أردت أن تعلم العامة أننا نقول فيك ما تهواه

(١) أبو حنيفة ١٦٥ .

مخافة منك ، ولقد وليت الخلافة وما اجتمع عليك اثنان من أهـل الفتوى ، والخلافة تكون باجتماع المؤمنين ومشورتهم (١)

هذا وإن فقه أبي حنيفة قد اهتم به تلامذته فدونوه وبسطوه للناس في كتب شتى ومؤلفات عديدة وأما أبو حنيفة نفسه فلم يترك من المؤلفات إلا القليل وهي فيما يذكر المؤرخون : كتاب الفقه الأكبر وهو كتاب صغير ، وكتاب العالم والمتعلم ، ورسالة إلى عثمان بن مسلم البتي ، وكتاب في الرد على القدرية .

فقه أبي حنيفة :

وإذا كان لنا أن نلخص أهم الأصول التي يقام عليها مذهب أبي حنيفة — وجدناه يعتمد بعد الكتاب والسنة على الرأي وقد سبق الحديث في شأنه ، كما أنه يعتمد على القياس وهو أمر أثار عليه بعض الذين لم يرتفع مستوى تفكيرهم إلى القدر الذي يسمح لهم بهضم فكرة أبي حنيفة ، كما أثارهم عليه أخذه بالاستحسان والعرف الأمر الذي يستدل منه على أن الرجل الجليل كان واسع الأفق الى الدرجة التي يتطلبها الإسلام من علماء المسلمين ، فالاسلام دين سمح ميسر فيه انطلاق مع الواقع وانسجام مع العقل وانفتاح على المستحدث ، وأبو حنيفة من كل آرائه وفتاواه لم يقدم شيئا على كتاب الله وسنة رسوله ، وكان يرد على خصومه قائلا : كذب والله وافترى علينا من من يقول إننا نقدم القياس على النص ، وهل يحتاج بعد النص إلى

(١) المناقب لابن البزازي ١٦/٢ .

قياس ؟ ويقول مستطردا : نحن لا نقيس إلا عند الضرورة الشديدة ، فإن لم نجد دليلا قسنا حينئذ مسكوتا عنه على منطوق به ، ويقول أيضا في نفس القضية : إنا نأخذ أولا بكتاب الله ثم بالسنة ثم بأقضية الصحابة ، ونعمل بما يتفقون عليه ، فإن اختلفوا قسنا حكما على حكم بجامع العلة بين المسألتين حتى يتضح المعنى (١) .

ومع كل ذلك فإن العلماء بعد أبي حنيفة وفي مقدمتهم الشافعي قد ضبطوا القياس بما يتفق مع منهج أبي حنيفة تماما حين قالوا : إن القياس هو بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بأمر معلوم حكمه بالكتاب أو السنة أو الاجماع لاشتراكه معه في علة الحكم (٢) ، ومن ثم فإن الشيخ أبا زهرة يرى أن اجتهاد أبي حنيفة ومسلكه في فهم الأحاديث مع البيئة التي عاش فيها من شأنه أن يجعله يكثر من القياس ويفرع الفروع على مقتضاه ، وأبو حنيفة بسعة أفقه لم يكن يقف به تفكيره عند بحث المسائل التي تقع أمامه بل يتسع في استنباطه ليشمل المسائل المتوقع حدوثها (٣)

ولقد فطن أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة إلى قوة استنتاجه وقدرته على التقاط الأحكام من بطون الأحاديث حين قال : ما رأيت أحدا أعلم بتفسير الحديث ومواضع النكت التي فيه من الفقه من أبي حنيفة .

(١) الأئمة الأربعة ص ٤٣ .
(٢) أبو حنيفة ٣٢٤ .
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

هذا وأبو حنيفة في صلب مذهبه يعمد إلى التيسير على المسلمين لا التعسير ، فالدين في روحه ومفهومه يسر لا عسر ، فهو ييسر على المسلمين في العبادات والمعاملات إلى الحد الذي يلفت النظر ، فإذا كان الحكم الشرعي لإزالة نجاسة الثوب بكل مائع طاهر يزيلها ، فإنه يجيز إزالة النجاسة بماء الورد أو الخل على سبيل المثال. وإذا تعذر على المرء تعيين القبلة للصلاة في ليلة مظلمة وتحرى مكانها بقدر استطاعته ثم صلى ، وفي الصباح تبين أنه اخطأ الاجتهاد فإن صلاته تكون صحيحة .

وفي مجال الزكاة يقف أبو حنيفة في صف الفقراء حين يوجب الزكاة على الحليّ من الذهب والفضة ، وفي تشجيع فرصة الزكاة مستهدفا التوسعة على الفقير ، بل إنه يقول إن الزكاة لا تجب على مدين يستغرق دينه كل ماله .

وأبو حنيفة يجعل للمرأة البالغة الرشيدة الحق في الزواج بمن تختار لا سلطان لأحد عليها من أب أو أخ ، ويجعل لها الحق في أن تباشر بنفسها عقد زواجها . كما يرى أن الشهادة في عقد الزواج تجوز برجل وسيدتين ويرى أيضا أن الأب إذا زوج ابنته البالغة زواجا ترفضه وتكرهه لم يصح الزواج .

ومن طرائف أحكام أبي حنيفة وقد كان ذا عقلية اقتصادية ممتازة أنه جعل من حق ولي أمر المسلمين تمليك الأرض الموات لمن يحييها ويجعلها صالحة للزراعة ، كما أجاز شراء الثمر قبل أن ينضج ، كما أجاز الاتجار بمال اليتيم .

لا غرابة إذن وهذه شخصية أبي حنيفة وهذا مذهبه أن يشكل معتنقوه الأكثرية الساحقة من أهل السنة من المسلمين ، بقي أن نذكر أنه توفي سنة ١٥٠ في اليوم الذي ولد فيه الإمام الشافعي [١] فيكون قد انطوى علم من أعلام الإسلام لينتشر علم آخر من أعلام الإسلام ، ولكن بين وفاة هذا ونضوج ذاك ، ظهر فيما بين الفترتين إمام آخر جليل القدر رفيع الشأن هو الإمام مالك بن أنس .

(١) معجم الأدباء ٢٨٢/١٧ .

الإمام مالك ٩٣ ــ ١٧٩هـ

إنه إمام دار الهجرة وشيخ المدينة وعالم أهل الحجاز أبو عبدالله مالك بن أنس ابن مالك بن أبي عامر الأصبحي الذي نشأ في رحاب العلم مخلصا له منقطعا إليه شأن كل إمام جليل ، يترهب في محراب العلم في أول حياته فلا يلبث العلم أن يشمله بفضله ويغمره ببركته ويكون له هادي طريق ونور بصيرة وواقياً من الزلل ودافعا إلى الخير ومخلدا على الزمان .

ومن الطريف أن مالكا قد رأى لنفسه رأيا في مستهل حياته لو أنه قام بتنفيذه لحرم العلم والدين شيخا من شيوخه وإماماً من أئمته ، ذلك أنه قد راق له في باكر صباه أن يشتغل بالغناء ، ولعله قد أنس في نفسه صوتا رخيما وأداء جذابا ، ولكن أمه وكانت سيدة فاضلة سارعت إلى تقبيح الفكرة لديه موهمة إياه أنه قبيح المنظر والناس لا يقبلون سماع المغني إذا لم يكن جميل المحيا وضيء القسمات ونصحته

بالإقبال على الفقه فأذعن لرأيها ، وأقبل على الفقه والحديث ذلك الإقبال الذي هيأ منه إماما جليلا من أئمة الإسلام . ونحن نتساءل الآن عن الموقف الذي كان يتخذه مالك فيما لو نظر في المرآة ووجد أن أمه لم تكن على حق فيما ذهبت إليه من أن ابنها كان قبيح الوجه ، ذلك أن مالكا كان جميل المحيا مكتمل البنية ابيض اللون إلى شقرة ، وظلت هذه السمات معه فكسته بالإضافة إلى حسن هندامه في الكبر هيبة ووقارا قلما توفر إلا عند القلائل من عظماء التاريخ ، فهذا سعيد بن هند الأندلسي يدخل على الإمام مالك فتأخذه هيبته فيقول : ما هبت أحدا هيبتي عبد الرحمن بن معاوية — يقصد عبد الرحمن الداخل — فدخلت على مالك فهبته هيبة شديدة صغرت معها هيبة ابن معاوية . وحتى حكومة المدينة ممثلة في واليها كانت تهابه وتحترمه ، والإمام الشافعي نفسه يقول : ما هبت أحدا قط هيبتي من مالك بن أنس .

على أن الهيبة التي جاءت مالكا كانت هيبة العلم ووقاره ، فكم من أنيق جميل المحيا لا يزن قدره عند الله والناس مقدار خردلة ، فلولا العلم والتقى اللذان خلعا على مالك رونقهما ما دخلت هيبته في قلوب الناس فضلا عن الحكام . إن الإمام الشافعي يقص قصة مقدمه صغيرا إلى المدينة مع خطاب توصية إلى واليها من والي مكة لكي يصله بمالك فيقول (١) : « دخلت إلى والي مكة وأخذت كتابه إلى والي المدينة وإلى مالك بن أنس ، فقدمت

(١) معجم الأدباء ٢٨٥/١٧.

المدينة فأبلغت الكتاب إلى الوالي ، فلما قرأه قال : يا فتى ، إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيا أهون عليّ من المشي إلى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذل حتى أقف ببابه ، فقلت : أصلح الله الأمير ، إن رأى الأمير يوجه إليه حتى يحضر ، فقال : هيهات ، ليت أني إذا ركبت أنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا ، فواعدته العصر وركبنا جميعا ، فوالله لكان كما قال ، أصابنا من تراب العقيق ، فتقدم رجل فقرع الباب ، فخرجت إلينا جارية سوداء ، فقال لها الأمير : قولي لمولاك إني بالباب ، فدخلت فأبطأت ، ثم خرجت فقالت : إن مولاي يقرئك السلام ويقول : إن كانت لديك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب ، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرفْ ، فقال لها : قولي له إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة ، فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي فوضعته ، ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار ، وهو شيخ طويل ، فجلس وهو متطلس ، فرفع إليه الوالي الكتاب ، فبلغ إلى هذا — أي إلى هذا الموطن من خطاب التوصية — «إن هذا رجل من أمره وحاله فتحدثه ، وتفعل وتصنع» فرمى بالكتاب من يده ثم قال : سبحان الله ، أو صار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ بالوسائل ؟ فرأيت الوالي قد تهيبه أن يكلمه ، فتقدمت إليه وقلت : أصلحك الله إني رجل مطلبي ، ومن حالي وقصتي ، فلما سمع كلامي نظر إليّ ساعة ، وكان لمالك فراسة ، فقال : ما اسمك ؟ قلت : محمد فقال لي : يا محمد ، اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن من الشأن».

هذا هو مالك بن أنس ذو الهيبة التي جعلت الحكام يقفون على بابه فلا يؤذن لهم بالدخول عليه إلا بمشقة وربما بشيء من المهانة ، إنه سلطان العلم ، فللعلم هيبة ، وللعلماء إجلال واحترام في نفوس الكبار قبل الصغار طالما حفظوا للعلم مقامه ، وحفظوا لأنفسهم أقدارهم وقد فعل مالك ذلك ، حافظ على العلم فحافظ العلم عليه ومنحه الحصانة التي حاول أن يتعداها أحد كبار بني العباس فكاد مُلك بني العباس أن يتزلزل تحت أقدامهم ، لولا أن الملك أبا جعفر المنصور قد اعتذر لمالك بنفسه على ما سوف نبين بعد قليل ، فما هي خطوات مالك في سبيل العلم .

مالك يتعلم ويعلم :

لقد كان مالك يتمتع بذاكرة حافظة لاقطة بحيث يسمع الثلاثين من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظها جميعا ، هذه الذاكرة التي أسعفته بحفظ كتاب الله في سن مبكرة كل الإبكار .

لقد تتلمذ مالك على عدد كبير من أعلام عصره في المدينة مثل نافع ابن أبي نعيم والزهري ونافع مولي عبدالله بن عمر (1) .

كما تردد مالك أيضا على ربيعة بن عبد الرحمن المعروف باسم ربيعة الرأي ، ومن الطريف أن أمه ، تلك المرأة الفاضلة التي حولت وجهته من الغناء إلى الفقه كانت تلبسه أحسن الثياب وتعممه ثم تقول

(1) الوفيات ٣/٢٨٤ .

له : اذهب إلى ربيعة فتعلم علمه قبل أدبه . (1)

وفي الوقت الذي كان يتردد فيه مالك على عدد من علماء عصره يجلس إليهم وينهل من علمهم ، كان يؤمن بالتفرغ إلى الجلوس إلى عالم كبير لأطول وقت ممكن ، فقد ذكر أنه انقطع إلى ابن هرمز سبع سنين كاملة لم يخلطه بغيره ، وكثيرا ما كان يجلس على بابه ساعات طويلة حتى يجد من وقت أستاذه فراغا يسمح له بالجلوس إليه .

ويصيب مالك علما كثيرا ويصبح أستاذا لكبار الأئمة الذين عاصروه مثل الأوزاعي * أو جاءوا بعده بقليل مثل الشافعي ويحيى بن سعيد ، بل إن بعض شيوخه من العلماء الكبار مثل يحيى الأنصاري ومحمد بن مسلم الزهري قد جلسوا إليه وترددوا على ندوته العلمية واستمعوا منه حديث رسول الله ، وتزداد ثقة العلماء بعلم مالك فينادي المنادي بالمدينة المنورة : ألا لا يفتي الناس إلا مالك بن أنس وابن أبي ذئب (2) ، وفي رأي أن الذي كان يأمر بذلك هو المنصور العباسي .

وكان الإمام مالك يضع نفسه في مكانها الصحيح من الناحية العلمية فيقول : لا خير فيمن يرى نفسه في حالة لا يراه الناس أهلا

(1) مالك لأبي زهرة ص ٣١ عن ترتيب المدارك للقاضي عياض ص ١١٥ .
(2) الوفيات ٣/٢٨٤ ، وابن أبي ذئب هو أحد العلماء الكبار من تابعي التابعين واسمه أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة وكان يسمى فقيه المدينة .
* الأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو عاش بين سنتي ٨٨ — ١٥٧هـ

لها ، ثم يقول في مناسبة جلوسه للإفتاء: ليس كل من أَحَبَّ أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل والجهة من المسجد ، فإن رأوه لذلك أهلا جلس . وما جلست حتّى شهد لي سبعون شيخا من أهل العلم أني موضع لذلك».[1]

ويكرر الإمام هذا المعنى بصيغ شتى ، فمن ذلك قوله في مجلس له بالمسجد: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين – أي عند أعمدة المسجد – فما أخذت عنهم شيء ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينا ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن ، أي لم يكونوا أهلا لرواية الحديث ، ومعنى ذلك أن مالكا كان يدقق كل التدقيق في تقبل أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث لا يرويها إلا إذا تحقق من صحة نسبتها إلى قائلها عليه الصلاة والسلام ، ومن هنا جاء قول الشافعي : كان مالك إذا شك في شيء من الحديث تركه .[2]

وكان الإمام مالك – وهو إمام أهل الحديث – إذا أراد أن يحدث قام فتوضأ ثم جلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث ، وقد سئل في ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به إلا متمكنا على طهارة ، وكان حتّى وهو في شيخوخته لا يركب في

(١) المدارك ١٢٧ .

(٢) أنظر الأئمة الأربعة ٩٣ .

المدينة ، ويقول : لا أركب في مدينة فيها جثة رسول الله صلى الله عليه وسلم مدفونة[1] . كما كان مالك أيضا محبّاً لمدينة الرسول مستمسكا بالإقامة فيها لا يرضى عنها بديلا ، وكان الملوك من بني العباس إذا أرسلوا إليه يستقدمونه إلى العراق اعتذر وأرجأ مناسبة اللقاء إلى موسم الحج حيث يفدون هم إليه ولا يذهب هو إليهم وكان يقول في ذلك : المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وهو لذلك لم يطوِّف في البلاد تطواف أبي حنيفة أو الشافعي .

لقد كرّم مالك حديث رسول الله ومنحه ذوب نفسه وخلاصة عمره فكرمه الحديث وألقى إليه مقاليده وأسلس له قياده وفتح عليه بنوره ونور الله فكان أن أصبح مالك إمام الحديث وزعيم مدرسته بين علماء الإسلام والمحدّثين من رجاله .

مالك والسياسة :

لم يحاول مالك أن يسهم في السياسة والحكم برأي إلا في نطاق الشريعة وفي هدي من روح الإسلام ، ولقد تعرض للأذى بسبب ذلك شأنه في ذلك شأن الإمام أبي حنيفة ، وإن كان أبو حنيفة قد تعرض للأذى مرتين ، أما الإمام مالك فقد تعرض مرة واحدة ، وذلك حينما سُعي به إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس ، وهو عم أبي جعفر المنصور الملك العباسي ، وقيل له : إن مالكا لا يرى إيمان بيعتكم هذه بشيء ، فغضب جعفر ودعا به ،

(١) الوفيات ٣/٢٨٤ .

وجرده من ثيابه وضربه بالسياط ، ومدت يده حتى خلعت كتفه[١] ، ومهما اختلفت الروايات في طبيعة الوشاية التي أوذي مالك بسببها فإن الراجح أن السبب هو أنه كان يحدث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس على مستكره طلاق» فقال الوشاة لجعفر هذا الذي مر ذكره : إن مالكا يفتي بألا يمين على مستكره ، ومعنى ذلك أن ما أبرمتموه من بيعة الناس بالاستكراه ينقضه مالك بفتواه ، فكان الأذى الذي لحق بمالك من جراء تصميمه على صحة الحديث والتحديث به في وقت كان ملك بني العباس مهددا بسبب خروج محمد النفس الزكية ، ولكن الأذى الذي لحق مالكا أهاج خواطر الناس وبلغ بهم الغضب مبلغا شديدا أقلق المنصور نفسه واضطره إلى عزل جعفر من ولاية المدينة وإحضاره إلى عاصمة الملك على قتب ، وأرسل للإمام يستقدمه ولكنه اعتذر عن ترك المدينة ، وتأجل اللقاء إلى موسم الحج فكان استرضاء المنصور لمالك من التكريم ما جعل مالكا يغفر هذه الزلة للحكم العباسي ويثني على المنصور وعلمه وفضله .

والإمام مالك لم يؤيد ملك بني أمية ولا ملك بني العباس لأنه يعلم أن كلا من النظامين نظام ملكي كسروي بعيد عن الشورى والاسلام ، وقد سئل مالك مرة هل يجوز قتال الخارجين على الخلفاء ، فأجاب إجابة تتسم بالدقة والعدل قائلا : يجوز إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز . ومعنى ذلك أنه لا تجوز مقاتلة الخارجين على بقية ملوك الأمويين والعباسيين — وقد عاش مالك في العهدين —

(١) الوفيات ٣/٢٨٥ .

ويستطرد السائل قائلا : فإن لم يكونوا مثله ، أي مثل عمر بن عبد العزيز ، فيجيب مالك : دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم من كليهما .

ويفسر الاستاذ أبو زهرة هذا الموقف من مالك بأنه ما دامت أحكام الشورى معطلة ولا سبيل إلى الوصول إليها ، فإن الرضى بالسيء خير من الانتقال إلى الأسوأ ، ففي الخروج فوضى وفساد واضطراب وهتك للحرمات وتعريض الأعراض والأنفس والأموال للضرر ، وفوضى ساعة قد يرتكب فيها من المظالم ما لم يرتكب في ظلم منظم في سنين ، ومن ثم فإن الرضى بالأمر الواقع خير من التعرض لضرر أشد وفساد أعم [١] .

وهناك في آراء مالك السياسة أمر يدعو إلى بعض الغرابة وخاصة فيما يتعلق بالخلفاء الراشدين ، فهو يرى أنهم ثلاثة وليسوا أربعة ، إذ هو يجعل خلافة الراشدين في أبي بكر وعمر وعثمان ويجعلهم في مرتبة دونها سائر الناس ، وأما علي فإنه في نظره واحد من جملة الصحابة لا يزيد عنهم في شيء الأمر الذي جعل الاستاذ أبا زهرة يذكر أن مالكا قد اتهم بان فيه نزعة أموية [٢] رغم كونه غير راض عنهم مما يستفاد من استثنائه عمر بن عبد العزيز من بينهم ، والاستنتاج الذي أفضى إلى تصور الميول الأموية عند مالك يفهم من سؤال وجه إليه أثناء درسه : من خير الناس بعد رسول الله صلى

(١) الإمام مالك ٦٠ ، ٦١ .
(٢) المصدر السابق ص ٧١ .

الله عليه وسلم ؟ فأجاب : أبو بكر ، فسئل ثم من ؟ قال : ثم عمر ، فسئل ثم من؟ قال : عثمان . فسئل ثم من؟ قال : هنا وقف الناس، هؤلاء خيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمر أبا بكر على الصلاة، واختار أبو بكر عمر ، وجعلها عمر إلى ستة ، فاختاروا عثمان ، ووقف الناس ها هنا ، وفي رواية ، زيدت عبارة : وليس من طلب الأمر كمن لم يطلبه. [1]

وهناك رواية ذكرها ابن عبد ربه تدخل عثمان في دائرة اعتراض مالك ، فقد روي أنه كان يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير فيقول [2] : «والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر» يعني الأبيض الممتلىء بالادام ، والمعنى في رأيه أنهم اقتتلوا على دنيا وليس على دين.

على أننا نرى أن مالكا لم يكن ذا هوى سياسي وإنما كان يحكّم دينه وعقله وعدله في المواقف السياسية ، إن تفضيله للراشدين الثلاثة وإيثاره إياهم دون عليّ لا يحمل طعنا في عليّ ، فقد وضعه مع بقية الصحابة الأخيار ، ولو كان مالك أموي الهوى لتناول عليا بالطريقة التي تناوله بها الأمويون وأشياعهم ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى كان الحديث الشريف الذي ردده مالك وأوذي وضرب بسببه يؤدي بشكل مباشر إلى نصرة الطالبيين من آل الحسن ، فالحديث الشريف الذي ردده مالك وتمسك به رغم طلب العباسيين منه السكوت عن روايته هو : «ليس على مستكره يمين» ، لقد ردد

(1) المدارك ٢٠٤ .
(2) العقد الفريد ٢/٢٣٥ .

مالك هذا الحديث في وقت خرج فيه محمد بن عبدالله بن الحسن على العباسيين ودعا لنفسه بالخلافة ، وكان ذلك تشجيعا مباشرا للمسلمين على خلع بيعة العباسيين التي أكرهوا عليها إكراها ، ومنحها للطالبي محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن عليّ رضي الله عنه، فلو كان مالك أموي الهوى ما عرض نفسه للأذى بسبب حديث فسر على أنه تشجيع للمسلمين على مبايعة سليل عليّ بالخلافة، وليس ثمة شك في أن انتشار مذهب مالك في المغرب كان على يد إدريس بن عبدالله بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة هناك ، وهو القائل — في مجال التقدير لمالك — نحن أولى بمذهبه ، ومن ثم انتشر في المغرب وظل منتشرا بها حتى اليوم .

وهكذا يكون مالك بعيدا عن الانغماس في السياسة غير مرتبط بهذا أو بذاك وإنما آراؤه تصدر عن ارتباط باقتناع شخصي موصول دائما بمعنى ديني وليس بموقف سياسي .

فقه مالك :

كان مالك يعرف بالفقه والحديث ولم يرض لعلمه صورة أخرى من صور التفكير الإسلامي الذي كان يعايشه من اعتزال وتشيع وقدرية إلى غير ذلك من تلك الاتجاهات التي لم تكن في نظره ونظر الكثيرين من المسلمين مأمونة العواقب، لقد كان الإمام إذن فقيه المدينة ومحدثها ، وكان كثير الاستثناء في إصدار الأحكام ، ومن ثم في اختيار السبيل الذي ألزم نفسه به في تفكيره وبالتالي في فقهه .

لذلك كان المصدر الأول لفقه مالك هو القرآن الكريم كتاب

الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكان يستعين في فهمه بالإضافة إلى مداركه الواسعة ومكتسباته الجمة بالحديث والسنة ، والمصدر الثاني للفقه والتشريع عند الإمام هو السنة النبوية الشريفة ، ذلك أن السنة مبيّنة لأحكام القرآن شارحة لنصوصه مفسرة لما جاء به من قضايا تحتاج إلى شرح وتبيان ، وكان الإمام كثيرا ما يتمثل في هذا السبيل الآيات الكريمة التي توجه إلى الانتفاع بالسنة النبوية كقوله تعالى :

« وما آتاكُم الرسولُ فخُذُوهُ ، وما نهاكُمْ عنه فانْتَهُوا » أو قوله تعالى : « فَلاَ وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » أو قوله تعالى : لَقَدْ كانَ لكُمْ في رسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَة » .

وكان مالك في مقام تعلقه بالسنة الشريفة يردد دائما قول الشاعر :

وخيرُ أُمورِ الدِّينِ ما كان سُنَّةً
وشَرُّ الأُمورِ المُحْدَثَاتُ البَدَائِعُ

والمصدر الثالث من مصادر فقه مالك هو قول الصحابة ، فقد كانوا قريبين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مرتبطين به في حياتهم وتصرفاتهم ، وقد شاهدوا أفعاله وسمعوا أقواله وتتلمذوا له وتعلموا على

يديه ، ويستوي في ذلك عند مالك المهاجرون من الصحابة والأنصار .

وكان المصدر الرابع لفقه مالك الإجماع ، وهو ما يجتمع عليه أهل الفقه والعلم على حد سواء .

وكان مصدره الخامس هو ما يعمله أهل المدينة ، لأنهم أبناء أولئك الذين صاحبوا رسول الله ، ولأن الاحكام العامة تعيش في المكان لعدة أجيال .

وكان الإمام مالك بالإضافة إلى ذلك كله ، إذا أعوزه النص أو الدليل القريب ، يأخذ بالقياس والاستحسان والعرف وسد الذرائع والمصالح المرسلة ، ولكنه في هذه الأخيرة — أي المصالح المرسلة — يشترط للأخذ بها عدة شروط أهمها :

١ — ألا تنافي المصلحة أصلا من أصول الإسلام ولا دليلا قطعيا من أدلته .

٢ — أن تكون المصلحة مقبولة عند ذوي العقول .

٣ — أن يرتفع بها الحرج لقول الله تعالى «وما جَعَلَ عليكُمْ في الدين مِنْ حَرَج» [1]

على أن هناك نصا في المعارف لابن قتيبة يجعل فيه الإمام مالكا من أصحاب الرأي ويضعه مع ابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن[2] ، ويلتقط الاستاذ أبو زهرة هذا النص ويجري

(١) أنظر الأئمة الأربعة ٩٨ — ١٠٢ .
(٢) المعارف ص ٢١٨ .

دراسة على فقه مالك ينتهي به إلى الموافقة على أنه فقيه رأي بالاضافة إلى كونه فقيه أثر، وإن كان الرأي الذي ارتضاه مالك ليس هو الرأي الذي اختاره أبو حنيفة وأصحابه وسائر العراقيين من كل الوجوه ، وأن الفرق بينهما فرق في طريقة الاستنباط بالرأي وليس في مقداره [١]

على أن الأمر الجدير بالذكر فيما يتعلق بفتاوى الإمام مالك أنه لم يكن يبدي رأيه سريعاً فيما يسأل عنه ، وإنما كان يقتل المسألة درساً وتمحيصاً ، وكان يقول إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة ما اتفق إلى رأي فيها إلى الآن ، ومالك صادق الحس والنية عندما يقف طويلاً أمام مسألة قبل الإفتاء فيها ، ويقول « ما من شيء أشدّ عليّ من أن أسأل مسألة من الحلال والحرام، لأن هذا هو القطع في حكم الله » وكثيراً ما كان يردد « إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين » وكان تمثل اليوم الآخر والحساب دائماً في قلبه وعقله وهو يفتي في قضايا المسلمين ، ولذلك فإنه عندما كان يسأل كان يقول لسائله : انصرف حتى أنظر ، أي أنه لم يكن يرتجل الإجابة وإنما كان يرجع إلى ما تحت يديه من أسانيد ومصادر وأحكام ، ويقلب الرأي من جميع وجوهه قبل أن يبت فيه ، وقد حدثه بعض الناس في ذلك فبكى خشية وورعاً وقال « إني أخاف أن يكون لي من هذه المسائل يوم أي يوم » .

ولذلك فإن مالكاً كان في فتاواه يلتزم الإجابة عن الأمور التي وقعت ولا يحبّ أن يخوض في أمور مفترضة أو أحداث متوقعة ،

(١) مالك ص ٢٢ .

كما كان يفعل أبو حنيفة ، ولعل من أسباب ذلك أن مالكاً كان يعيش في نطاق محدد من الأرض وهو الحجاز — هذا بالاضافة إلى رأيه في عدم التوسع في الفتاوى — أما أبو حنيفة فقد كان يطوف في الأرض ويكثر من اتصاله بالناس سواء في أول حياته عندما تعاطى التجارة ، أو في وسطها وآخرها عند توفره على الدرس ، فكانت مشاكل الناس أمامه أكثر وضوحاً وأشد استشكالا ، الأمر الذي دفعه دفعاً إلى التشريع لما سوف يستقبل من أمور ومشاكل توقع ببعد نظره ضرورة ظهورها على مسرح الحياة .

لقد كان مالك يردد عبارة تكشف عن احتياطه في اجاباته وهي : اذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتلة [١] . وفي بعض الأحيان كان إذا سئل سؤالا استغلقت عليه الإجابة عليه عمد إلى توبيخ السائل ، فقد سأله رجل عن قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » كيف الاستواء ؟ قال مالك : الاستواء معقول ، والكيف مجهول ، ولا أظنك إلا رجل سوء [٢]

مالك يؤلف كتاب «الموطأ»

يذهب كثير من العلماء إلى أن الموطأ هو أول كتاب مؤلف في الاسلام ثابت النسبة إلى مؤلفه وتناولته الأجيال جيلاً بعد جيل. [٣]

(١) العقد الفريد ٢/٢١٧ .
(٢) العقد الفريد ٢/٢٢٦ .
(٣) مالك ٢٠٧ .

وأما مناسبة تأليف الكتاب فقد كانت نتيجة غير مباشرة للمحنة التي تعرض لها الإمام مالك حين ضربه والي المدينة العباسي بالسياط ، على ما مر بنا قبل قليل، ثم رأى الملك العباسي المنصور أن يسترضيه، وتم التراضي على أن يلتقي الإمام والمنصور في منى في موسم الحج ، وتمّ اللقاء بينهما وكرم المنصور مالكاً وجرى بينهما حديث طويل في شئون شتى اتسم بالمجاملة ولم يخل من حوار في الفقه أو الحديث أو العلم ، ولم يلبث الملك العباسي أن قال لمالك : يا أبا عبدالله ، ضع هذا العلم ودوّنه ، ودوّن منه كتباً ، وتجنب فيه شدائد عبد الله بن عمر ، ورخص عبدالله بن عباس ، وشواذ عبدالله بن مسعود ، واقصد إلى أوسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله عنهم لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك، ونبثها في الأمصار ، ونعهد إليهم ألا يخالفوها ، ولا يقضوا بسواها ، فقال مالك ، أصلح الله الأمير ، إن أهل العراق لا يرضون علمنا ، ولا يرون في علمهم رأينا . وفي رواية أخرى قال المنصور لمالك : اجعل العلم يا أبا عبدالله علماً واحداً ، فقال له مالك : إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في البلاد فأفتى كلّ في مصره بما رأى ، وإن لأهل هذا البلد — يعني مكة فقد كان اللقاء في منى — قولا ، ولأهل المدينة قولا ، ولأهل العراق قولا تعدوا فيه طورهم ، فقال المنصور ، أما أهل العراق فلا أقبل منهم صرفاً ولا عدلاً ، وإنما العلم عند أهل المدينة ، فضع للناس العلم [1]

هكذا كانت ثقة أبي جعفر المنصور في علم أهل المدينة

(١) المدارك صفحات ٣٠ — ٣٣ .

بعامة وفي علم مالك بخاصة ، وكان مالك من رقة الأدب في التعبير عن علم أهل العراق وعدم موافقته عليه بحيث قال كلمته الرائقة : إن أهل العراق لا يرضون علمنا ولا يرون في علمهم رأينا .

وينصرف مالك إلى هذا العمل العلمي الجليل الذي كلفه به ابو جعفر المنصور ، ويجمع في كتابه الحديث والسنة وأقوال أهل المدينة — أولئك الذين زكاهم المنصور وجعل العلم فيهم — ويظل عاكفاً على عمله العلمي الكبير لمدة إحدى عشرة سنة من سنة ١٤٨ إلى ١٥٩هـ ويطلق على كتابه عنواناً طريفاً هو « الموطأ » والموطأ لغة هو المهمد الميسر المعبد ، ولا شك أن مالكاً حين أطلق هذا العنوان على كتابه فإنما صدر في ذلك عن اقتناع أن هذا الكتاب الذي جمع الفقه والحديث قد يسّر للمسلمين فهم دينهم على طريق ممهد معبد بعيد عن تلك الصعاب التي ذكرها المنصور وهو يصف لمالك الكتاب كما تصوره ، بعيداً عن شدائد عبدالله بن عمر ورخص عبدالله بن عباس وشواذ عبدالله بن مسعود .

ويقدم لنا الإمام مالك النهج الذي اتبعه في تأليف كتابه موضحاً سبيله في الفقه فيقول : « أما أكثر ما في الكتاب فرأي لعمري ما هو برأيي ، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل ، والأئمة المقتدي بهم الذين أخذت عنهم ، وهم الذين كانوا يتقون الله وكثر عليّ ، فقلت رأيي ، وكان رأيهم مثل رأيي مثل رأي الصحابة الذين أدركوهم عليه . وأدركتهم أنا على ذلك ، فهذا وراثة توارثوها قرناً عن قرن إلى زماننا ، فهو رأي جماعة ممن تقدم من

الأئمة » ويستطرد الإمام مالك في شرح منهجه في تأليف « الموطأ » فيقول :

« وما كان فيه الأمر المجتمع عليه ، فهو ما اجتمع عليه قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه ، وما قلت الأمر عندي فهو ما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام وعرفه العام والخاص ، وكذلك ما قلت ببلدنا فيه ، وما قلت فيه بعض أهل العلم فهو شيء استحسنته من قول العلماء ، وأما ما لم أسمعه منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته حتى وقع ذلك موقع الحق أو قريباً منه ، حتى لا نخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم ، وإن لم أسمع ذلك بعينه فنسبت الرأي بعد الاجتهاد مع السنة وما مضى عليه أهل العلم المقتدى بهم والأمر المعمول به عندنا من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة الراشدين ، فذلك رأيهم ما خرجت إلى غيرهم ».(١)

وكان الإمام مالك نقادة للرجال لا يأخذ العلم إلا ممن وثق منهم وتأكد أنهم أهل لذلك، وكان له في ذلك أقوال حكيمة يمكن أن تدخل في نطاق الوسيلة التي اتبعها في جمع الأحكام والأحاديث التي ضمنها كتابه ، فهو يقول مثلاً : « لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سواهم ، لا يؤخذ من سفيه ، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعة ، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يتهّم على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث به. »(٢)

(١) المدارك ٢٣٤ .
(٢) الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء لابن عبد البر ص ١٦ .

لقد كان مالك حسن الرواية للأحاديث حسن التمييز بين الضعيف والمتواتر وصحيح الإسناد ، ثم هو إلى جانب ذلك خبير بالرواة بارع التمييز بينهم براعة الصيرفي الماهر في اختبار الدراهم ، يعرف تمام المعرفة ممن يأخذ وممن يدع ، ولذلك جاء كتابه شيئاً فريداً اعتز به كبار العلماء وامتدحه جهابذة الفقهاء ، حتى ان الشافعي يقول عنه « ما في الارض — حتى زمانه طبعاً — كتاب من العلم أكثر صواباً من موطأ مالك » ويعجب بالموطأ مالك له شأنه في فهم علوم الدين والأدب مثل الرشيد ويبلغ به الإعجاب الحد الذي يجعله يعرض على مالك أن يعلق كتابه على الكعبة تكريماً له وإكباراً ، ولكن مالكاً الإمام المتواضع في علمه يقول : « يا أمير المؤمنين أما تعليق الموطأ في الكعبة ، فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع ، وافترقوا في البلدان ، وكل عند نفسه مصيب » . وتتبدى سماحة مالك في تفكيره ومحاولة التيسير على المسلمين في أمور دينهم حين يقول في نفس المناسبة موجهاً خطابه إلى الرشيد : « يا أمير المؤمنين ، إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة ، كل يتبع ما صحّ عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد الله »

لعل هذا القول المفعم بالسماحة واليسر والإيمان كان الصورة الحقيقية لشخصية مالك الإمام الكبير الذي يرى أن الدين يسر وليس عسراً .

هذا وللامام مالك مشاركة فعّالة في التأليف ، فليس الموطأ أثره العلمي الوحيد ، وإنما له آثار علمية أخرى قيمة منها تفسير

غريب القرآن ، رسالة في الرد على القدرية ، رسالة في الأقضية ، رسالة في الفتوى إلى أبي غسّان . كتاب السرور ، وأخيراً رسالته الممتعة إلى الليث بن سعد إمام أهل مصر في زمانه .

ورسالة مالك إلى الليث حوت بعض ملاحظات يأخذ فيها عليه أنه أفتى بأشياء خالف فيها فقه أهـــل المدينة ، وكانت كلها قضايا فقهية في محيط العبادات والمعاملات ، ومن الطريف أن الليث قد ردّ على مالك رداً مسهباً مدعوماً بالأسانيد الفقهية الأمر الذي جعل بعض الأئمة يحكم بأن الليث كان أفقه من مالك ، ونحن نشير بذلك إلى قول الإمام الشافعي : وكان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه » .

الإمام الشافعي ١٥٠ – ٢٠٤ هـ

هذا علم من أعلام الإسلام ، كل نظرة خاطفة فضلاً عن المتفحصة إلى شخصيته وسلوكه وتراثه تلزم صاحبها بالوقوف إجلالاً والتريث إعظاماً والإقبال عليه حباً وولاء وتقديراً وإكباراً ، إنه أبو عبدالله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب القرشي الذي حدد معالم شخصيته القول الشريف « عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً » .

إنه ثالث الأئمة الأربعة المشهورين من حيث حياتهم في الزمان ، ولكنه في نفس الوقت واسطة العقد بينهم من حيث شخصيته المتطورة المتجددة الدائمة التفتح ، ومن حيث نظرته للقضايا الفقهية وتناوله للمسائل الدينية وتعرضه للمعضلات الجدلية وهجومه على علوم زمانه المختلفة شكلا ، المتكاملة موضوعاً ، التي من حصيلتها تتكون الشخصية العلمية للإنسان ، فتوسع من آفاق مداركه ، وتضعه في المكان الذي يمكّنه من العطاء والنفع ووزن الأمور وزناً صحيحاً والالتفات إلى الجواهر منها ورمي العرض بعيداً دون حرج أو مبالاة .

وإذا كان الإمامان الجليلان السابقان على الشافعي زمناً وهما أبو حنيفة ومالك ، قد تزعم أولهما مدرسة الرأي ، وتبوأ ثانيهما رأس مدرسة الحديث ، فإن الشافعي قد أخذ من منهج كل من المدرستين بطرف في نطاق فهمه للكتاب والسنة وفي مجال فهمه الصحيح للفقه الاسلامي حتى ان العالم الفاضل الشيخ محمد أبا زهرة يرى أنه قد جمع بين فقه أهل الرأي وفقه أهل الحديث بمقادير متعادلة (١) وأن الأخ الجليل الدكتور احمد الشرباصي قد رأى أنه أقرب إلى مدرسة الحديث والنقل منه إلى مدرسة الرأي والعقل (٢) ، وكلا الرأيين للعالمين الجليلين يثبت مشاركة الشافعي في منهج المدرستين السابقتين له ، هذا يرى مشاركة متوازنة وذاك يرى مشاركة يرجح أحد جانبيها الجانب الآخر.

ومهما كان أمر الاتفاق أو الاختلاف ، فإن شخصية الشافعي وعلمه وأدبه ودينه وسلوكه كل ذلك يشكل طرازا فريدا في دنيا العلم والعلماء ، بحيث ذهب الإمام احمد بن حنبل تلميذه ومريده إلى أنه مجدد القرن الثاني معتمداً على الحديث الشريف « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يقرر لها دينها » ويرى ابن حنبل أن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى ، ورجا أن يكون الشافعي على رأس المائة الثانية (٣).

إن الإمام ابن حنبل يرى بفراسة المؤمن وببصيرة العالم وبنظرة الدارس وبحكم المخالط — فقد كان منقطعاً إلى الشافعي زمناً طويلاً —

(١) الشافعي : حياته وعصر — آراؤه وفقهه ص ١١ .
(٢) الأئمة الأربعة ص ١٥٠ .
(٣) معجم الأدباء ٣١٤/١٧ .

أن الإمام الجليل كان مجدد القرن الثاني وإماماً هادياً لما تلا من قرون .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن أبا عاصم العبادي صاحب طبقات الشافعية يرى أن حديث الرسول عن « عالم قريش » لا ينطبق على أحد من قريش قدر انطباقه على الإمام الشافعي ، والحديث هو « لا تسبّوا قريشاً فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً » . ويستطرد أبو عاصم قائلاً : « وما سارت من قريش من الكتب في الأقطار استظهرها الكبار وأدّتها إلى الصغار ، وشاع ذلك في البلاد بين العباد كما سار عنه ، فإن ما يروى عن الصحابة أصول معدودة ، وهو — أي الشافعي — أولى بهذا الخبر ، أي بهذا الحديث ، وبه الترجيح على مالك وأبي حنيفة ، ولأنه صنّف الأصول ثم بنى عليها الفروع ، فيكون أحوط لأنه أكثر احتياطاً في الطهارات وشرائط العبادات والأنكحة والبياعات وذلك معروف في بيان مذهبه » (١) .

شخصيته العلمية

للشافعي شخصية علمية واعية واكبت مسيرة حياته منذ أن كان طفلاً وظلت ترافقه إلى أن لقي ربه في مصر سنة مائتين وأربعة هجرية وله من العمر أربعة وخمسون عاماً .

إنه يقول عن نفسه حينما كان طفلاً : كنت وأنا في الكتّاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا » . وكان فقيراً لا يجد

(١) طبقات الشافعية ص ٩ .

من أدوات الكتابة ما يستعين به على تسجيل دروسه فيقول : « لما خرجت من الكتّاب كنت أتلقط الخزف والدفوف وكَرَبَ النخل وأكتاف الجمال أكتب فيها الحديث وأجيء إلى الداوين فأستوهب منها الظهور » (١) ، ويعد الشافعي نفسه للقاء مالك والتلقي عنه ، ذلك اللقاء الذي ذكرنا قصته في الفصل السابق ، فيستعير الموطأ – وهو صفوة فكر مالك وفقهه وجماع الحديث الصحيح – من رجل بالمدينة فيحفظه – حسب رواية ياقوت – في تسع ليال ، فإذا ما تم لقاء الشيخ الكبير والفتى الصغير ، تفرض شخصية الصغير على الكبير أن يستمع إليه وأن يمحضه العطف والود فيقرئه كتابه في أيام يسيرة .

ولكن الشافعي كان قبل ذلك قد أعد نفسه إعداداً آخر ، كان أعد نفسه للغة والأدب ورواية الشعر وقوله ، فقد لزم قبيلة هذيل في البادية لسنوات غير قليلة حتى حفظ أشعارهم وروى أخبارهم ، وهذيل أفصح العرب وأشعرها ، وعاد إلى مكة وتلك حاله من رواية الشعر فوجهه رجل من الزبيريين إلى الفقه قائلاً له : يا أبا عبدالله عزّ عليّ ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه ، فتكون قد سُدْت أهل زمانك ، ويذكر له الزبيريّ مالك بن أنس ، ويضمن له التتلمذ عليه ، ومن الطريف في هذا المقام أن نذكر أن الأصمعي كبير رواة شعر العرب يقول إنه قرأ أشعار الهذليين على فتى من قريش اسمه محمد بن إدريس (٢) .

(١) المعجم ٢٨٤/١٧ . الدفوف الجلود التي يعمل منها الطبل ، كرب النخل أصول السعف الغلاظ العراض ، الظهور الأوراق .

(٢) وفيات الأعيان ٣٠٥/٣ ومعجم الأدباء ٢٩٩/١٧ .

وتكتمل للشافعي أسباب النضوج ويجلس في ثوبه الأبيض ووجهه المشرق الذي تعلوه سمرة خفيفة على مقربة من بئر زمزم ينثر على الناس درر علمه في يسر وسخاء وتواضع ، ويجيب على أسئلتهم في ثقة وعدل وأمانة ، ويجادل مخالفيه في الرأي بإيمان وثبات ومنطق نابع من كتاب الله وسنة رسوله ، وحصيلة علم ، وجماع ذكاء وعبقرية ، فيذيع اسمه ويكثر تلاميذه وفي مقدمتهم الإمام الجليل أحمد بن حنبل ، ويجمع الناس على فضله وعلمه ودينه فتنطلق الأحكام من ألسنة الخلق مقرظة مادحة معجبة ، وهي في تقريظها ومدحها وإعجابها لم تَعْدُ كبد الحقيقة أو تخرج عن جادة المحجة ، ذلك أن الشافعي إلى خلقه السمح كان بحراً من العلم قراره عميق وشاطئه بعيد ، علوم الدين من قرآن وحديث وفقه ولغة ، وعلوم الدنيا من نحو وعروض وشعر ونوادر وأخبار وأيام وفلك ورحلة ، فكان كما قال ابن حنبل لابنه « يا بني : كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن وهل لهذين من خلف أو لهما من عوض » (١) . لقد ألمّ بعلوم زمانه جميعاً فكان كما قال ابن خلكان (٢) : اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو وغير ذلك على ثقته وأمانته وعدالته وزهده وورعه ونزاهة عرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلوّ قدره وسخائه ، وهذا يونس بن عبد الأعلى يقول (٣) : كان الشافعي إذا أخذ في العربية قلت هو بهذا أعلم ،

(١) الوفيات ٣٠٥/٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٧/٣ .

(٣) معجم الأدباء ٣٠٠/١٧ .

وإذا تكلم في الشعر وإنشاده قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الفقه قلت هو بهذا أعلم ، ويشير ابن حنبل إلى فضل الشافعي على كل متعلم في جملة بليغة مانعة جامعة بقوله : ما من أحد بيده محبرة إلا وللشافعي في رقبته منّة (١)

ثم يصف ابن حنبل فروع المعرفة التي بزّ فيها استاذُه غيره من العلماء فيقول : الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء ، في اللغة واختلاف الناس والمعاني والفقه .

ويذكر الربيع بن سليمان خادم الإمام وتلميذه ومريده أن الشافعي كان يجلس في حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر ، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر ، فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار (٢)

وإذا كان مالك قد توفر على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حفظاً وتدويناً وتعليماً ، فإن الشافعي قد توفر عليه حفظاً وتعليماً وتلقيناً واستنتاجاً لأحكامه وفهماً لأصوله وتنبيها إلى شأنه ومكانته ، فهذا ابن حنبل على خطر قدره وجلال علمه يقول : (٣) ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي ، وينبه

(١) الوفيات ٣/٣٠٦ .
(٢) معجم الأدباء ١٧/٣٠٤ .
(٣) الوفيات ٣/٣٠٥ .

الزعفراني إلى فضل الشافعي على علماء الحديث بقوله (١) : كان أصحاب الحديث رقوداً حتى جاء الشافعي فأيقظهم فتيقظوا . وعلى هذا النهج من ترديد الاعتراف بفضل الشافعي على طلاب الحديث يقول ابن حنبل (٢) : قدم علينا نُعَيْم بن حماد فحضنا على طلب المسند (يعني الحديث المسند) فلما قدم الشافعي وضعنا على المحجة البيضاء .

فالإمام الشافعي وهذه ثقافته ، وهذا إيمان العلماء بتقدمه عليهم وريادته لهم وتذليل الطريق أمامهم ومبايعتهم له ، كل ذلك بالإضافة إلى تطوافه في الارض الإسلامية ورحلته إلى العديد من أقطارها من حجاز ويمن وعراق ومصر ، ومناقشته علماءها ومجادلته فقهاءها لا يكون مستغرباً منه أن يأتي في ميدان العلوم الدينية بالجديد غير المبتدع ، فهو بإشراقة إيمانه ، وصافي علمه ووافي معرفته ، وصافي بصيرته ، وشمول نظرته ، كان أول من تكلم في أصول الفقه وأول من استنبطه ، هذا فضلاً عن قضايا أخرى عديدة سوف نعرض لها عند الحديث على الفقه الشافعي .

الشافعي والسياسة :

ما دمنا قد عرضنا لكل من الإمامين الجليلين أبي حنيفة ومالك في نطاق حديث السياسة ، فقد يقتضي الأمر أن نعرض شخصية الشافعي من الناحية السياسية ، وليس من الضروري أن يكون له

(١) المصدر السابق ٣/٣٠٦ .
(٢) معجم الأدباء ١٧/٣٠١ .

ولاء سياسي بعينه ، ذلك أنه إذا كان لأبي حنيفة نظرة سياسية بعينها أشرنا إليها في موضعها ، وإذا كان مالك قد تصرف في نطاق ما أملاه عليه دينه في ارتباطاته بهؤلاء وأولئك حيناً ورفضه لمسلكهم حيناً آخر بحيث يمكن ألا ننسب إليه ولاء سياسياً معيناً رغم أن له رأياً في مجريات الأمور ، فإن الشافعي لم يكن له بدوره ولاء سياسي يرتبط به ولكن كان ولاؤه لما يمليه عليه دينه ، لقد كان دينه يملي عليه أن يحب أبا بكر صدّيق الرسول ورفيقه في أقدس رحلة وأول خليفة على المسلمين ، ولقد كان دينه أيضاً يملي عليه أن يحب علياً صهر الرسول وابن عمه وأول من أسلم من الصبيان وفاديه ليلة الهجرة ، وهو بحبيه يعلم أنه سيرمي من قبل الشيعة بأنه **ناصبي** ، ومن قبل خصومهم بأنه **رافضي** ولكنه مصر على عاطفته تلك الرحبة التي عمرها الحب للجديرين بالحب جميعاً ، ولذلك فهو ينشد شعراً طريفاً يقول فيه :

إذا نحن فضّلنا علياً فإننـــا
روافضُ بالتفضيلِ عند ذوي الجهلِ

وفضلُ أبي بكرٍ إذا ما ذكرتُه
رُميتُ بنصْبٍ عند ذكريَ للفضلِ

فلازلتُ ذا رفضٍ ونصْبٍ كلاهما
أُدينُ به حتى أُوسَّدَ في اللَّحْـدِ

على أن مسحة الحزن التي رانت على المسلمين جميعـاً باضطهاد آل البيت من قبل الأمويين والعباسيين على السواء وما تعرضت له العترة الطاهرة من تعذيب وتقتيل قد جعلت المسلمين الصادقين جميعاً — والشافعي في مكان الصدارة منهم — يرتبطون بآل البيت عطفاً ثم يتعلقون بهم حباً ، ولكن حب الشافعي حبٌ شجاع لأنه صادر من إنسان له قيمته وخطره ولأنه معلنٌ ذلك شعراً رقيقاً سهل الحفظ خفيف الوقع على القلب والسمع ، ولأنه بعد ذلك كله قيل في ثوب من التحدي وإطار من الإعلان على رءوس الأشهاد (١) :

يا راكباً قف بالمحصَّبِ من مِنىً
واهتفْ بقاعدِ خيْفِها والناهضِ

سحراً إذَا فاض الحجيجُ إلى مِنىً
فَيْضاً بمُلْتَطِمِ الفُراتِ الفائِضِ

إنْ كان رَفْضاً حُبُّ آلِ مُحمَّد
فَلْيشْهدِ الثَّقَلانِ أنِّي رافِضِي

إن هذا الحب الذي يعلنه الشافعي لعترة الرسول الكريمة لا يعتبر ميلاً سياسياً بقدر ما يفسر على حقيقته الفعلية ، وهو تعلق مسلم مخلص بأهل رسول الإسلام وعترته الطاهرة .

(١) معجم الأدباء ١٧/٣١٠ .

على أن للشافعي رأياً في الإمامة وهو بمعنى آخر رأي في السياسة ، ولكنه رأي نابع من صميم تفكيره الاسلامي واجتهاده الفقهي وتخريجه الديني ، بعيداً عن أي مؤثر آخر غير تلك التي ذكرنا ، فأما الإمامة عنده فلا بد منها ، يعمل تحت ظلها المؤمن ويستمتع بها الكافر ، ويُقاتَل بها العدو ، وتأمن بها السبل ، ويؤخذ بها للضعيف من القوى ، حتى يستريح برّ ، ويستراح من فاجر (١)

والشافعي يرى الإمامة في قريش دون تعيين بطن بعينها من بطونها يستوي في ذلك الهاشميون والأمويون وغير الهاشميين وغير الأمويين ، فقد كان عليّ كرم الله وجهه هاشمياً ، وكان عثمان وعمر بن عبدالعزيز– قد اعتبره الشافعي خامس الخلفاء الراشدين– أمويين ، وكان عمر مخزومياً ، والشافعي يرى أن الإمامة قد تجيء من غير بيعة إن كان ثمة ضرورة ، بل لقد أثر عنه رأي أبعد من ذلك وأشد جرأة رواه عنه تلميذه حرملة بن يحي التجيبي وهو ان كل قرشي غلب على الخلافة بالسيف حتى سمي خليفة واجتمع عليه الناس فهو خليفة (٢) وإذن فالعبرة عنده في الخلافة حسب ما رأى الشيخ أبو زهرة في أمرين : كون المتصدي لها قرشياً ، واجتماع الناس عليه سواء أكان الاجتماع سابقاً على إقامته خليفة كما هو الأمر في حالة الانتخاب أو البيعة ، أم لاحقاً لتنصيب نفسه خليفة كحال المتغلب الذي أشار إليه (٣)

---

(١) الشافعي ١٣٨ .

(٢) طبقات الشافعية ص ١٧ .

(٣) الشافعي ١٣٨ .

والحق أنه رأي خطير من الإمام الجليل لأنه إذا صحت نسبة هذا الرأي إليه كانت خلافة معاوية صحيحة بل و«خلافة» يزيد صحيحة إذا صح لها أن تسمى خلافة ، وأخشى أن أقول إن بيعة الحسين وبيعة زيد لا تكونان صحيحتين في ظل فتوى الإمام الشافعي واجتهاده ، ذلك أن الحسين عليه السلام كان يحمل بيعة صحيحة كل الصحة وكذلك كان زيد يحمل بيعة صحيحة كل الصحة .

على كل حال ، إن آراء الشافعي هذه – رغم أنها السياسة بعينها – اجتهادات فقهية صرفة ، ولعل هذه الآراء إن كانت صدرت قبل لقائه مع الرشيد ، ذلك اللقاء الذي كانت حياته فيه على حافة الهاوية ، فإنها تكون السبب الحقيقي في نجاته من تهمة الخروج على دولة الرشيد ، وهو ما نحن بسبيل الحديث عنه بعد قليل ، غير أني لا استطيع إلا أن أقف وقفة غير قصيرة اتدبّر فيها هذا الرأي الذي يلفت النظر ويصطدم اصطداماً مباشراً بالحديث الشريف الصحيح الإسناد : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » وأن الشورى هي أساس الحكم في الإسلام ، وأن هذه الشورى واحدة من مفاخر الإسلام العظمى .

براعة حواره وسرعة بديهته .

كان الشافعي من ذلاقة اللسان وإشراق البيان وسرعة البديهة ورباطة الجأش وجدية الحوار بحيث يستطيع إقناع من يستعصي إقناعهم ، وإفحام من يظنون أنهم أفضل الناس علماً وبياناً ، بل إن حواراً جرى بين الشافعي والرشيد والسيف مرفوع في وجهه والنطع مفروش تحت قدميه ليتلقى دمه ، فإذا بالحوار يحول الرشيد من

آمر بالقتل إلى طالب علم وودّ ، ويحوّل الشافعي من متهم بجرم إلى رائد ومعلم ، ذلك أن الشافعي قد اتّهم مع تسعة من العلويين في اليمن — وقيل في مكة على اختلاف الروايات — بالخروج على الدولة العباسية فألقي القبض عليهم ومن بينهم الشافعي ، وكان إذ ذاك يتولى عملاً بنجران ، وأرسلوا إلى بغداد ، فضربت رقاب العلويين ، وجاء دور الشافعي وكان الفقيه الحنفي محمد بن ا لحسن بن فرقد جالساً فألتفت إلى الرشيد وقال : يا أمير المؤمنين ، هذا المطّلبي لا يغلبنّك بفصاحته فإنه رجل لسن ، فقال الشافعي وهو في موقفه الرهيب بين السيف والنطع : « مهلاً يا أمير المؤمنين فإنك الداعي وأنا المدعو ، وأنت القادر على ما تريد مني ، ولست القادر على ما أريد منك ، يا أمير المؤمنين ، ما تقول في رجلين أحدهما يراني أخاه والآخر يراني عبده ؟ أيهما أحبُّ إلي ؟ قال : الذي يراك أخاه ، قال : فذاك أنت يا أمير المؤمنين ، إنكم ولد العباس ، وهم ولد عليّ ، ونحن بنو المطلب ، فأنتم ولد العباس ترونا إخوتكم ، وهم يرونا عبيدهم »، وهنا يهدأ الرشيد ويسرّى عنه ويستوي جالساً ويقول : يا ابن إدريس : كيف علمك بالقرآن ؟ فيجيب الشافعي : عن أي علومه تسألني ؟ عن حفظه ، فقد حفظته ووعيته بين جنبي وعرفت وقفه وابتداءه ، وناسخه ومنسوخه ، وليليّهُ ونهاريّهُ ، ووحشيّهُ وإنسيّهُ ، وما خوطب به العام يراد به الخاص ، وما خوطب به الخاص يراد به العام . فيقول الرشيد : والله يا ابن ادريس لقد ادعيت علماً فكيف علمك بالنجوم ؟ فيجيب الشافعي : إني لأعرف منها البريّ من البحريّ ، والسهليّ والجبليّ والفيلق والمصبح وما تجب معرفته .

قال : فكيف علمك بأنساب العرب ؟ قال الشافعي : إني لأعرف أنساب اللئام وأنساب الكرام ونسبي ونسب أمير المؤمنين ، قال لقد ادعيت علماً ، فهل من موعظة تعظ بها أمير المؤمنين ، فذكر الشافعي موعظة الطاووس اليماني فوعظه بها فبكى ، وأمر له بخمسين ألفاً — لعلها من الدراهم — وحمل على فرس وركب بين يدي الرشيد ، فما أن وصل الباب حتّى فرقها جميعاً على الحجاب والبوابين (١) .

إنه موقف لا يستطيع التغلب عليه والإفلات منه إلا ذو جأش رابط وإيمان بالله عميق وعلم غزير وبيان ناصع وبديهة سريعة ، وهكذا كان الشافعي .

ومناظرات الشافعي مع من عارضوه في مذهبه كثيرة ، وما حاور واحداً منهم إلا غلبه ، ولا ناقشه إلا ظفر به وانتصر عليه، فمن محاوراته المشهورة تلك التي جرت بينه وبين محمد بن الحسن الذي مر ذكره وكان من أصحاب أبي حنيفة ، والشافعي كما نعرف لا يكنُّ لأبي حنيفة وعلمه إلا كل تقدير واحترام ، وله في ذلك أقوال ومأثورات مشهورة مثل قوله: من أراد أن يتبحر في العلم فهو عيال على أبي حنيفة (٢) ، ولكن المريدين والتابعين كثيراً ما يكونون أشد تطرفاً في الأمور من شيوخهم وأساتذتهم ، وهكذا فعل محمد بن الحسن مع الشافعي ، كان هو الذي يطلب المناظرة ولكن بتعبير

(١) المعجم ٢٨٧/١٧ .
(٢) طبقات الشافعية ص ١٧ .

استفزازي وروح كلها تحدٍّ وتعالٍ على غيره من العلماء الكبار ، إن الشافعي يقص علينا موقعة له مع محمد بن الحسن دفع إلى خوضها وفقاً للظروف التي أحاطت بها وبمكانها . يقول الشافعي : اجتمعنا أنا ومحمد بن الحسن على باب هارون وكان يجلس فيه القضاة والأشراف ووجوه الناس إلى أن يؤذن لهم ، وضم الجمع بعض بني هاشم وقريش والأنصار ، والجميع يعظّمون محمد بن الحسن لقربه من أمير المؤمنين وتمكنه . ويستطرد الشافعي قائلاً : فاندفع يعرض بي ويذم أهل المدينة ويقول : « من أهل المدينة ؟ وأي شيء يحسن أهل المدينة ؟ والله لقد وضعت كتاباً على أهل المدينة كلها لا يخالفني فيه أحد ، ولو علمت أحداً يخالفني في كتابي هذا تبلغني إليه آباط الإبل لصرت حتى أردّ عليه » . لقد عمد بن فرقد إلى وسيلة لا ينهجها العلماء الكبار ، فالعالم الكبير متواضع كبير ، ومحمد بن الحسن بن فرقد لم يسلك النهج الكبير ، وكان من الطبيعي ألا يتخلف الشافعي عن مواجهته مواجهة سريعة ناجزة ، يقول الشافعي : « فقلت إن أنا سكتُّ نكّستُ رءوس مَنْ ها هنا من قريش ، وإن أنا رددت عليه أسخطت عليّ السلطان ، ثم إني استخرت الله في الرد عليه فتقدمت إليه فقلت : — أصلحك الله — طعنُك على أهل المدينة وذمك لأهل المدينة ، إن كنت أردت رجلاً واحداً وهو مالك بن أنس ، فألاّ ذكرت ذلك الرجل بعينه ولم تطعن على أهل حرم الله وحرم رسوله ، وكلهم على خلاف

ما ادعيته ، وأما كتابك الذي ذكرت أنك وضعته على أهل المدينة[1] فكتابك من بعد « بسم الله الرحمن الرحيم » خطأ إلى آخره » وفندّ الشافعي كل المسائل والقضايا التي حواها الكتاب ، فاصفرّ محمد بن الحسن ولم يحر جواباً ، ورفع الخبر إلى الرشيد فضحك وعلق قائلاً : ماذا ننكر لرجل من ولد المطلب أن يقطع مثل محمد بن الحسن . ويمضي الشافعي مكملاً قصة هذا اللقاء الطريف فيقول : « فعارضني رجل من أهل المجلس من أصحابه فقال : ما تقول في رجل دخل منزل رجل فرأى بطة ففقأ عينها ماذا يجب عليه ؟ قلت ينظر إلى قيمتها وهي صحيحة ، وقيمتها وقد ذهبت عينها فيقوَّم ما بين القيمتين » . ويحس الشافعي بأن أسئلة القوم تافهة مضحكة ، فيتوجه إليهم بسؤال لا يخطر لهم على بال حتى يربكهم ويوقع الاضطراب في صفوفهم قائلاً : « ولكن ماذا تقول أنت وصاحبك في رجل مُحْرِم نظر إلى فرج امرأة فأنزل ؟ » يرتبك القوم بالفعل إذ لم يكن لمحمد حذاقة بمناسك الحج فيصيح بصاحبه قائلاً : ألم أقل لك لا تسأله ؟ ! ! »

كان هذا هو الشطر الأول من المناظرة ، أو بتعبير أصح كانت هذه مقدمتها ، وكان محمد هو الذي دفع الشافعي إلى النيل منه لسابق تحرشه به وبأهل المدينة ، وأما الجزء الثاني من المناظرة فقد جرى بعد أن أدخل القوم إلى الرشيد واستووا بين يديه ، هنا يحاول محمد أن يثأر لنفسه من الشافعي أمام الملك العباسي ، ولعل

(١) كان الشافعي قد قرأ كل ما كتبه محمد بن الحسن في الليلة السابقة ليعجم عوده من الناحية العلمية لمكانته من الرشيد ولأنه حضر حوار الشافعي مع الرشيد .

الشافعي نفسه كان يريد الموقف نفسه ليظهر قيمة علمه وتقصير محمد بن الحسن . يقول محمد موجهاً الحديث إلى الشافعي : يا أبا عبدالله ، تسأل ؟ أو أسأل ؟ فيقول الشافعي : ذاك إليك . فيقول محمد : أخبرني عن صلاة الخوف ، أواجبة هي ؟ فيجيب الشافعي : نعم ، فيقول محمد : ولِم ؟ فيجيب الشافعي : يقول الله عز وجل « وإذا كُنْتَ فيهم فأقَمْتَ لهم الصَّلاة فَلْتَقُمْ طائفةٌ مِنْهُم مَعَك » فدلّ أنها واجبة فقال محمد : وما تنكر من قائل قال لك : إنما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وهو فيهم ، فلما زال عنهم النبي صلى الله عليه وسم زالت تلك الصلاة . فقال الشافعي : وكذلك قال الله عزّ وجلّ لنبيّه : « خُذْ مِنْ أمْوالِهِم صَدَقَةً تُزَكّيهِم وتُطَهِّرُهُم بها » فلما أن زال عنهم النبي صلى الله عليه وسلم زالت الصدقة ؟ فقال : لا . قال الشافعي : وما الفرق بينهما والنبي صلى الله عليه وسلم هو المأمور بها جميعا » وهنا يكون الشافعي قد استردّ من صاحبه الزمام ويوقعه في المأزق من حيث لا يتوقع فلا يجد أمامه إلا محاولة إلصاق تهمة تطاول أهل المدينة ومنهم الشافعي على كتاب الله دون سند منطقي في الاتهام ، فيقول محمد بن الحسن بعد تفكير قصير : يا أهل المدينة ما أجرأكم على كتاب الله ؟ فيقول الشافعي : الأجرأ على كتاب الله من خالفه . ويجري الحوار مستمرا على الشكل التالي :

ابن فرقد: فقد قال عز وجل « وأشهِدُوا ذَوَي عَدْلٍ منكم» فقلتم أنتم : نقضي باليمين مع الشاهد .

الشافعي : لكنا نقول بما قال الله ، ونقضي بما قضى به رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنك أنت إذا خالفت قضاء رسول الله صلى الله عليهُ وسلم فقد خالفت كتاب الله .

ابن فرقد : وأين لكم رد اليمين

الشافعي : سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ابن فرقد : وأين ؟

الشافعي : قصة حُوَيْصَة ومحيصة وعبد الرحمن حين قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصة القتيل: تحلفون وتستحقون دم صاحبكم ؟ قالوا لم نشهد ولم نعاين . قال : فيحلف لكم يهود، فلما أن نكلوا ردّ اليمين إلى اليهود

ابن فرقد : إنما كان ذلك استفهاماً من رسول الله عليه وسلم .

وهنا يكون الشافعي قد ورّط محمد بن الحسن بن فرقد فيما لا ينبغي أن يقع فيه ذكي خصوصاً إذا كان من الفقهاء ، ويلتفت الشافعي إلى الرشيد قائلاً : يا أمير المؤمنين ، هذا بحضرتك يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفهم من اليهود . فيقول الرشيد وقد استشاط غضباً : ثكلتك أمك يا ابن الحسن . رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفهم من اليهود ؟ نطع وسيف. ويتهدد الموت حياة محمد بن الحسن ، ولكن الشافعي الذكي الألمعي السمح الرحيب الأفق وقد رأى الجد من الرشيد يسارع إلى دفع الأذى عن غريمه قائلاً : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فإن الخصمين إذا اجتمعا تكلم كل واحد منهما بما لا يعتقده ليقطع به صاحبه ، وما أرى أن محمداً يرى نقصاً

لرسول الله صلى الله عليه وسلم [١] .

وللشافعي مناظرات أخرى عديدة مع ابن الحسن لا تقل طرافة وعمقاً عن هذه التي ذكرنا ، وله مناظرات أخرى مع غيره لعل أطولها وأطرفها تلك التي جرت بينه وبين اسحاق بن راهويه التي يمكن مراجعتها في مصادرها لطولها .

الشافعي والشعر :

للشافعي كما ذكرنا مشاركة في جميع علوم زمانه دينيّها ودنيويّها ، ولقد مرّ بنا أنه تفرغ في صباه الأول للغة والشعر والأخبار ، وأنه عاش في قبيلة هذيل يقوم لسانه ويحفظ أشعارها بضع سنين ، وأن الاصمعي صحح عليه شعر هذيل ، ومرّ بنا أن مجلس الشافعي كان يبدأ بأهل القرآن وينتهي برجال الشعر والأدب ، ومرّ بنا أيضاً قول يونس بن عبد الأعلى فيه : إذا أخذ في العربية قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الشعر وإنشاده قلت هو بهذا أعلم ..... وينسب إلى الشافعي أيضاً قوله : « من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر في الفقه نبل قدره ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر في اللغة رق طبعه ، ومن نظر في الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه » [٢] واللغة التي يعنيها الشافعي هنا هو الأدب لأنه لا يرقق الطبع من علوم اللغة غير الأدب وكان أكثره

(١) معجم الأدباء ١٧/٢٨٩ – ٢٩٣ .

(٢) طبقات الشافعية ص ٤٢ .

على عهده شعراً » .

إن النصوص الشعرية التي تركها الشافعي تنبىء عن موهبة شعرية خصبة وملكة قادرة دربها العلم وصقلها التحصيل ، ولولا أن الشافعي رفض أن يخرط نفسه في سلك الشعراء لكان له نصيب من شهرة في صفوفهم ، ولكنه التمس العظمة فيما هو أسمى من الشعر وهو الفقه والحديث وعلوم الدين ، وهذا الصنف من الرجال يرون أنه لا يجمل بهم أن يعرفوا بين جمهرة الناس كشعراء وهم في نفس الوقت لا يحاولونه ، فإذا حاولوه لا ينطلقون فيه إلى آخر الشوط ، ولعل خير ترجمان على هذا الرأي قول الشافعي نفسه :

ولولا الشعرُ بالعلماء يُـزْري
لكنتُ اليومَ أشْعَرَ مـن لبيدِ

وهو مع ذلك لا يفتأ يصطنع الشعر ويفخر بأن له فيه نصيباً طيباً ، فمن ذلك قوله : [١]

عندي يواقيتُ القريض ودُرُّهُ
وعليَّ إكليلُ الكـلامِ وتاجُـهُ
تُرْبِي على روْض الرُّبـا أزهـارُهُ
ويَرِفُّ في نادِي الندى ديباجُـهُ

(١) الوفيات ٣/٣٠٨ .

والشاعرُ المنطِيقُ أَسودُ سالخٌ
والشعرُ منه لعابُهُ ومجاجُهُ

وعداوةُ الشعراءِ داءٌ مُعضِلٌ
ولقد يهونُ على الكريم علاجُهُ

والواقع أن الفكرة في شعر الشافعي أكبر من ثوب الشعر نفسه أو بعبارة أخرى إن شعر الشافعي لا يسع أفكاره العميقة المتزاحمة والمثال على ذلك تلك الأبيات القافيّة التي يصبّ فيها بعض أفكاره الحكيمة : (١)

إنَّ الذي رُزِقَ اليسارَ ولم يُصِبْ
حمداً ولا أجراً لَغَيْرُ موفَّقِ

الجِدُّ يُدْني كلَّ أَمرٍ شاسعٍ
والجَدُّ يَفْتَحُ كلَّ بابٍ مُغْلَقِ

وإذا سمعتَ بأَنَّ مجدوداً حوى
عوداً فأَثْمَرَ في يديْهِ فَصَدِّقِ

وإذا سمعتَ بأَنَّ محروماً أتى
ماءً ليَشْرَبَهُ فَغَاضَ فحقِّقِ

(١) الوفيات ٣/٣٠٧ ، ٣٠٨ .

لو كان بالحِيَلِ الغِنى لوجدْتَني
بنجومِ أقطارِ السمَّاءِ تَعَلُّقِي

لكنَّ مَنْ رُزِقَ الحِجَى حُرِمَ الغِنى
ضدّانِ مفترقانِ أيَّ تفرُّقِ

ومن الدليلِ على القضاء وكونِه
بؤسُ اللبيبِ وطِيبُ عيشِ الأَحْمَقِ

لا شك أن القدرة على اصطناع الحكمة خلال هذه الأبيات أكبر من القدرة على اصطناع الشعر الذي يلائم زنتها وقيمتها .

وللشافعي أبيات في الفخر لعل النسج والمعنى، فيها قد سارا جنب إلى جنب في تساوق ومساواة ، غير أننا لا ننتظر من العالم الجليل والإمام المقدم فخراً جاهليّ المعنى والمذهب ، وإنما هو فخر في نطاق العلم ، والبيان والأخلاق (١) :

إذا المشكلاتُ تصدَّيْنَ لِي
كَشفْتُ حقائِقَها بالنَّظَرْ

لسانٌ كشقْشَقَةِ الأَرْحَبِـ
يِّ أو كالحسامِ اليماني الذكرْ

ولستُ بإمَّعَةٍ في الرِّجا
لِ أُسائِلُ هذا وذَا ما الخبرْ

(١) المعجم ١٧/٣٠٩ .

ولكنّني مـذرةُ الأصْغَـــريْـــ
ـــنِ جلاّبُ خيْـــرٍ وفـــرّاجُ شَرّ

ومن لطائف شعر الشافعي في الفخر إثر محنة تعرض لها حين قطع عليه الطريق فدخل مسجداً وقد ارتدى ثوباً بالياً والناس يدخلون ويخرجون دون أن يلتفتوا إليه : [١]

علـيّ ثيابٌ لو يُباع جميعُهـا
بفَلْسٍ لكان الفلْسُ منهنّ أكْثَرَا
وفيهنّ نفسٌ لو يُقاسُ ببعضِها
نفوسُ الورَى كانتْ أجلَّ وأكبرَا
وما ضَرَّ نصلُ السيفِ إخلاقُ غمدِه
إذَا كانَ عَضْباً أين وجَّهْتَــهُ فَرَى

وإذا كانت النفس تفخر حيناً فإنها تشكو أحياناً ، ولا يضر النفس الكريمة أن تشكو ما دامت شكواها مما لا ينال من قدرها ، بل إن الشكوى خليقة بأن تصدر من النفس الكريمة إذا ما أحسّت بشيء ، من الهوان ، فمن شعر الشافعي الذي يخاطب القلب خطاباً مباشراً قوله : [٢]

---

(١) المعجم ١٧/٣٢٠ .
(٢) المصدر السابق ١٧/٣١٩ .

أصبحتُ مُطَّرَحاً في معشر جَهِلوا
حقَّ الأديبِ فباعوا الرأس بالذنَبِ
والناسُ يجمعُهُمْ شَمْلٌ وبينَهم
فِي العقلِ فرقٌ وفي الآدابِ والحسَبِ
كمثلِ ما الذهبِ الإبْريزِ يَشْرَكُهُ
في لونِه الصُّفْرُ والتفضيلُ للذهبِ
والعودُ لوْ لم تَطِبْ منهُ روائحُهُ
لم يَفْرِقِ الناسُ بينَ العُودِ والحَطَبِ

ويذكر الربيع بن سليمان المرادي خادم الشافعي وتلميذه ومريده أن سيده لما دخل مصر حين قدومه إليها جفاه الناس فلم يجلس إليه أحد ، فقال له بعض من قدم معه لو قلت شيئاً يجتمع إليك الناس ، فقال : إليك عني وأنشأ يقول [١]

أأنْثُرُ دُرًّا بين سارِحَةِ البَهَـمْ
وأنظِمُ منثوراً لراعيــةِ الغَنَـمْ
لعمري لئنْ ضُيِّعْتُ في شرِّ بلــدة
فلستُ مُضَيِّعاً فيهمُ غُرَرَ الكلِمْ
لئن سهَّلَ اللهُ العزيزُ بلطفِــهِ
وصادفْتُ أهلاً للعلومِ وللحِكَمْ

---

(١) المصدر ١٧/٣٠٩ .

بَثَثْتُ مفيداً واستفدْتُ ودَادَهُمْ
وإلاَّ فمكنونٌ لـديَّ ومكتَتَـمْ
ومَنْ مَنحَ الجهَّالَ علماً أضاعَـهُ
ومَنْ منعَ المستوجِبين فقدْ ظَلَمْ

وتستبد بالشافعي شكواه من مصاحبة من هو غير جدير بصحبته في غربته فيعبر عن ذلك في بيتين من الشعر الإنساني الرفيع قائلاً (١) :

وأنزلني طولُ النَّوَى دارَ غُرْبَـةٍ
إذا شئتُ لاقيتُ امْرءاً لا أشَاكِلُهْ
أُحَامِقُهُ حـتّى تُقَـالَ سَجِيَّـةٌ
ولو كان ذا عقلٍ لكنْتُ أُعَاقِلُهْ

والشافعي كثير الترحل محب للأسفار ، لقد حمل صغيراً من غزة إلى الحجاز . وفي الحجاز تنقل بين مكة والمدينة والبادية حيث تلقى الفصاحة والشعر في هذيل ، وحينما اشتد عوده سافر ليتقلد بعض الأعمال في اليمن،ويزور العراق غير مرة ويقيم فيها مرة ثلاث سنين ومرة شهراً ، ويختم حياته بزيارة مصر ، ومن ألف السفر ذاق لذته وأحس بقيمة ما يكتسبه منه من فوائد في العقل والنفس والبدن لا تقدر إلا بالثمن الربيح ، ولذلك فإن الشافعي يدفع نفسه إلى السفر دفعاً رغم ما فيه من مخاطر وفجاءات فيقول :

(١) المصدر ٣١٠/١٧ .

سأضربُ فِي طولِ البلادِ وعَرْضِها
أنالُ مرادي أو أمُـوتَ غرِيبا
فإنْ تَلِفَتْ نفسي فَلِلَّهِ دَرُّهـا
وإنْ سلِمَتْ كان الرجوعُ قريبَا

ولا تتلف نفس الشافعي من سفر بل تراض على الخبرة بالحياة والانتفاع بكل خطوة تخطوها في رحابها فيجعل من نفسه داعية للارتحال ، ويدعو الناس إلى مشاركته حب السفر ، ويقول أبياته النفيسة المشهورة المحفوظة عند كثرة من عقلاء الناس :

سافِرْ تجدْ عوضاً عمَّنْ تفارقُـهُ
وانْصَبْ فإنَّ لذيذَ العيشِ في النَّصَبِ
إنِّي رأيتُ وقوفَ المـاءِ يُفْسِدُهُ
إنْ سالَ طابَ وإنْ لمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ
والأُسْدُ لولا فِراقُ الغابِ ما افْترستْ
والسَّهمُ لولا فِراقُ القَوْسِ لم تُصِبِ
والتِّبْرُ كالتُّربِ مُلْقىً في أماكِنِهِ
والعُودُ في أرْضِهِ نوعٌ من الحَطَبِ

وإذا عمد الشافعي إلى كتابة شعر وجداني فإنه يكون من أرق الشعراء لولا أن مكانته الدينية كانت تمنعه من التمادي فيه ، ولكنه

ينهج سبيله في بعض المناسبات ، فقد مرض محمد بن عبد الحكم ابن أعين القرشي المصري تلميذ الشافعي وصاحبه وكان قريباً إلى قلب الشافعي كل القرب ، بل كان أبوه وإخوته الثلاثة الحكم وعبد الرحمن وسعد — فيما يروي صاحب الطبقات [1] — من الملازمين للإمام ، وذهب الشافعي ليعود محمد وعاد من زيارته وقد تألم لصديقه وتلميذه فقال هذين البيتين الطريفين :

مَرِضَ الحبيبُ فعُدْتُهُ   فمرضْتُ من حَذَرِي عَلَيْه
وأتَى الحبيبُ يَعُودني   فبرِئْتُ من نظري إلَيْه

والحديث عن شعر الشافعي حديث قد يطول لو أطلقنا لأنفسنا فيه العنان ، لأن الشافعي كان شاعراً متمكناً ، وقد راض نفسه على فنون كثيرة من فنون العلم والقول ، وإذا كان هذا البحث لا يهتم بالشافعي الأديب قدر اهتمامه بالشافعي الإمام المجتهد ، فقد كان من الضرورة بمكان ونحن بسبيل استكناه شخصيته واستكشاف عبقريته أن نعرج على جانب الشعر فيه ، وأن نلم به إلمامة سريعة ، لأن الشعر واجهة من واجهات الأدب ، ولقد كان للشافعي مشاركة كبرى فعالة في الشعر والأدب حسبما تقدم من حديث .

فقه الشافعي :

سبقت الإشارة إلى أن الشافعي يجمع بين فقه أهل الرأي وفقه أهل

(1) طبقات الشافعية ص ٢٠ .

الحديث ولكن بمقادير اختلف العلماء وبخاصة المحدثين منهم على ضبطها فمنهم من يرى أن الجمع بين مدرستي الفقه كان بمقادير متعادلة [1] ، ومنهم من يرى أنه في جمعه بين رأي المدرستين كان إلى مدرسة الحديث أقرب منه إلى مدرسة الرأي [2] .

ومهما كان الرأي في الشافعي من حيث ارتباطه بهذه أو بتلك من مدارس الفقه ، فالذي لا شك فيه أنه كان فقيهاً مستقلا في رأيه متكاملاً في شخصيته ، غير متأثر كليًّا بهذا أو بذاك من الأئمة الأجلاء الذين سبقوه ، لقد كانوا موضوع التقدير والامتداح لديه في مواطن شتى ، كما كانوا موضع النقد الشديد متى دعت الحاجة العلمية والحقائق الفقهية إلى ذلك، وأقرب دليل على هذا الرأي الأخير نقده لأستاذه مالك ، لقد ربي الشافعي علميا وروحيا بين يدي مالك وظل ملازماً له حتى وفاته ، ورغم استكمال أسباب النجاح وأدوات الإفتاء فإنه لم يجلس للفتيا في حياة أستاذه مع ما ذاع عنه من قدرة علمية فائقة أهلته للإفتاء في الخامسة عشرة من عمره .

لقد نقد الشافعي آراء لأبي حنيفة مع احترامه الكامل لشخصه وعلمه وما أثر عنه فيه من أقوال كريمة ، ولقد نقد كذلك الأوزاعي إمام أهل الشام وفقيههم ، ولا بأس في ذلك ما دام النقد لآراء أبديا واختلف معهما فيها مع حفاظه على تقدير شخصية كل منهم .

أما الأمر فيما يخص الإمام مالك فمختلف إلى حد كبير ، ذلك

(1) راجع أبا زهرة في كتابه « الإمام الشافعي » ص ١٢ .
(2) راجع الشرباصي في كتابه « الأئمة الأربعة » ص ١٥٠ .

أن الشافعي نشأ علميا في حجره كما يقولون ، ولكن حينما اشتد عوده واكتملت شخصيته واستقلت آراؤه المستمدة من حصيلته العلمية وملكته المجتهدة الخلاقة ، بدأ في إصدار أحكامه التي كانت تتفق حيناً مع آراء استاذه وتختلف معها حيناً آخر ، دون أن يقول شيئاً عن مدى اتفاقه أو اختلافه مع أستاذه الذي كان قد رحل عن الدنيا وبقي فقهه في كتبه وصدور تلامذته ومريديه .

لقد كان واضحاً أن الشافعي ذو شخصية فقهية مستقلة مما كان يصدر عنه من آراء شفهية في أمور الدين في مجالسه في المدينة ومكة ، أو ما كان يصدر عنه مكتوباً مثل تلك الآراء التي صدرت عنه في «الرسالة» وقد كتبها في ريعان شبابه وبيّن فيها شروط الاستدلال بالقرآن والسنة والإجماع والقياس وبيان الناسخ والمنسوخ ومراتب العموم والخصوص ، إلى غير ذلك من الموضوعات الدينية والقضايا الفقهية التي جعلت رجلاً مثل عبد الرحمن بن مهدي اللؤلؤي البصري أحد كبار حفاظ الحديث يقول حين قرأها : ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل ، يعني الإمام الشافعي .

وإذن فالشافعي حينما يعارض آراء أستاذه مالك فما كان ذلك طلباً لشهرة أو محاولة لاستقطاب الأنظار إليه ، فإن ذلك الأمر لم يكن في نطاق تفكيره ، وإنما لأن قدرته الاستنباطية وملكته الفقهيه قد أهلته لمكانة من التفكير المستقل عن غيره والاستدلال المبني على أسس من العقيدة وأصول من الشريعة ودعامات من الكتاب والسنة لم يستطع غيره أن يفهمها فهمه إياها أو أن يجعلها قاعدة لاستنباطه ومصدراً لاجتهاده .

ولكن الأمر الذي يدعو إلى النظر هو أن معارضة الشافعي لأستاذه مالك كانت عالية الصوت ، لأنه ألف في ذلك كتاباً أسماه « خلاف مالك » تردد في إعلانه على الناس بعض الوقت ثم ما لبث أن دفعته بعض الأسباب إلى إعلانه ، أهمها أن بعض المسلمين في الأندلس اتجهوا إلى جعل مالك شخصاً مقدساً ، بل إنهم قدسوا آثاره وثيابه ، وقد كان له قلنسوة بالأندلس فأخذ الناس يتبركون بها ؛ وزاد الأمر بلّة أن قوماً من المسلمين كانوا إذا قالوا في مجال الاستشهاد: قال رسول الله ، رد قوم آخرون قائلين : قال مالك، الأمر الذي تهدّد العقيدة كلها بفتنة لا يعرف مداها إذا ما غُضّ الطرف عنها إلا الله، هنا يتقدم الشافعي ويقدم على تخطئة مالك فيما لم يكن موفقاً فيه من آراء ليثبت للناس وخاصة اولئك الذين فتنوا به ووضعوا أقواله في مواجهة أقوال الرسول ، أن مالكاً بشر يخطىء ويصيب وأنه من الخروج على سنن هذا الدين أن يواجه قول الرسول بأي قول آخر غير كتاب الله إذا كانت هناك ثمة أسباب إلى ذلك ، وهو ما لم يحدث الا في مجالات الإفصاح عن قضية جاء بها الكتاب العزيز مجملة فجاء الحديث الشريف ففصلها ، هذه هي في الحقيقة جوهر الأسباب التي دعت الشافعي إلى مخالفة أستاذه إلى المدى الذي جعله يؤلف كتاباً يثبت فيه ما هو كائن بينهما من خلاف ، ولكن الشافعي رغم هذا الخلاف في وجهة النظر لم ينل من أستاذه بكلمة واحدة خارجة عن الجادة أو بجملة واحدة قد ندت عن النهج المهذب في أدب النقد.

وإذن وقد ألممنا بالمرحلة التي هيأت للشافعي أسباب الاستقلال يمكن أن نلخص أهم آرائه الفقهية في النقاط الآتية .

أولاً : يقوم مذهب الشافعي على الأخذ بالكتاب والسنة والإجماع والقياس وهي المبادىء التي ذكرها في كتابه « الرسالة » فكانت بمثابة العناصر الجديدة المعالم في محيط الفقه الإسلامي عند جمهرة الفقهاء ، حتّى أن واحداً من الفقهاء هو الكرابيسي يقول : ما كنا ندري ما الكتاب ولا السنة ولا الإجماع حتّى سمعنا الشافعي يقول الكتاب والسنة والإجماع ، وحتّى ان عالماً كأبي ثور يقول : لما قدم علينا الشافعي كان يقول : إن الله تعالى قد يذكر العام ويريد به الخاص ، وقد يذكر الخاص ويريد به العام وكنا لا نعرف هذه الأشياء فسألناه عنها فقال : إن الله تعالى يقول « إنَّ النَّاسَ قد جمعُوا لكُمْ » والمراد أبو سفيان ، وقال « يا أيُّهَا النبيُّ إنْ طلَّقْتُمُ النِّساء » فهذا خاص والمراد به عام (١) هذا نهج من الكلام في الفقه والأصول لم يكن المسلمون يعرفون عنه شيئاً قبل الشافعي .

ثانياً : فقه الشافعي مزيج من فقه أصحاب الرأي وهم أصحاب أبي حنيفة ، وأصحاب الحديث وهم أصحاب مالك، وقد كان لكل من الفريقين سلوكه الخاص في الفهم والتفكير والاستنباط ، أهل الرأي أصحاب نظر وجدل وسعة أفق وقدرتهم على استيعاب الآثار والسنن محدودة ، وأصحاب الحديث حافظون لأحاديث الرسول متمكنون من أخباره وآثاره وأفعاله غير أنهم ليسوا أصحاب جدل أو عميق استنباط ، ولا بد للفقه وصاحب الفقه أن يكون على مقدرة من الاستعانة بالحديث والرأي جميعاً. والإمام الشافعي صاحب

(١) الشافعي ١٤٥ .

رأي وجدل وحسن نقاش وسرعة بديهة ، وقد مرّ علينا شيء من ذلك في حواره مع الرشيد وجدله مع محمد بن الحسن ، وهو في نفس الوقت عالم بالحديث ، أيقظ رجاله من ثباتهم فتيقظوا ،وهو الذي وضعهم على المحجة البيضاء حسبما مر بنا قبل صفحات ، وهو في الجملة « ناصر الحديث » ذلك اللقب الذي خلعه عليه علماء عصره عن عدل وجدارة واقتناع ،وإذن فقد أصبح الشافعي ذلك الإمام القادر على المزج بين مقدرة أهل الحديث وإمكانية أهل الرأي فجاء فقهه مزيجاً من المدرستين السابقتين .ومن ثم فقد اعتبر الشافعي مؤسس علم أصول الفقه الذي صار أساساً من أسس مدرسته وعماداً من أعمدة مذهبه حتى أن الفخر الرازي قال في ذلك : إن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة ارسطو إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض ، وليس من شك في أن الذي يقرأ « الرسالة » للشافعي يستطيع في يسر أن يلمح الجهد الذي بذله في وضع القوانين التي يمكن الرجوع إليها في معرفة مراتب الاستدلال في نطاق الشريعة الغراء .

ثالثاً : تبدو مدرسة الحديث عند الشافعي أوضح أصولاً وأقرب متناولاً ، ذلك أنه يعتمد أول ما يعتمد على القرآن الكريم في جميع الأحكام وأصول التشريع ، ويتبع الكتاب بالسنة التي أظهر وجوهها الحديث ، وهو ليس في حاجة إلى الأخذ بالرأي ما دام الحديث الشريف قد سد الثغرة التي أمامه في حكم أو رأي ، وكان دستوره في ذلك قوله : مهما قلت من قول أو أصّلت من أصل وفيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قولي . ولعل هذا الملحظ بالذات يفسر

لنا الدافع الذي حدا بالشافعي إلى الحملة على بعض آراء مالك حين جعل بعض أصحابه من آرائه أهلاً لأن تواجه الأحاديث الشريفة كمصدر للتشريع .

رابعاً : يأخذ فقه الشافعي بمبدأ الإجماع ، ذلك أن الحقائق الشرعية جميعاً تحمله على أن يعتبره حجة يجب الأخذ بها فوضع له المقاييس التي تنظمه والموازين التي تكشف بطلان دعوى من يعمد إلى استغلاله دون برهان ثابت أو أساس من الدين مكين ، على أن الشافعي جعل الإجماع — وهذا منطق — يأتي في المرتبة بعد مرتبة الكتاب والسنة لا يتقدم عليهما حتى ولو كان هناك حديث خبر آحاد .

خامساً : يأخذ فقه الشافعي بالقياس، وكان الشافعي أول من تكلم فيه حين لاحظ أن الفقهاء لم يضعوا حداً بين الرأي الصحيح والرأي غير الصحيح ، فجاء الشافعي فقعّد القواعد للرأي الذي يعتقده صحيحاً والاستنباطات التي لا تكون صحيحة « فرسم حدود القياس ورتب مراتبه ، وقوة الفقه المأخوذ عن القياس بالنسبة للفقه المأخوذ عن النص ، ثم بيّن الشروط التي يجب توافرها في الفقيه الذي يقيس »(١) وبين الشافعي أن هناك فرقا كبيرا بين أنواع الاستنباطات الأخرى وبين القياس في نطاق الحدود التي رسمها له .

سادساً : أبطل الشافعي مبدأ الاستحسان ، وألف في ذلك كتاباً سماه « إبطال الاستحسان » وهو المبدأ الذي أخذ به أبو حنيفة ،

(١) الشافعي لأبي زهرة ص ٢٦٧ وانظر بقية فصل القياس عنده .

ويعلل الشافعي نظريته في إبطال الاستحسان ، بأن الفقيه حين يأخذ بهذا المبدأ بعد أن استشار الكتاب والسنة والأثر والإجماع والقياس يكون قد أخذ بما استحسنه هو وليس بما أعطاه الدليل من الكتاب والسنة ، وثمة دليل آخر يسوقه الشافعي على إبطال الاستحسان هو أن الاجتهاد بطريق الاستحسان من غير الاعتماد على أصل من الشرع أو نص من الكتاب والسنة يكون اجتهاداً باطلاً ونتيجته تبعاً لذلك باطلة .

مؤلفات الشافعي :

للشافعي عديد من المؤلفات التي كتبها جميعاً متصلة بعلوم الفقه والحديث . لقد أورد ياقوت الحموي للشافعي مائة وسبعة وأربعين كتاباً (١) ، هذا بخلاف المؤلفين الكبيرين « الرسالة » و « الأم » وباستعراض أسماء الكتب لم نستطع أن نتبين كتاباً واحداً كتبه الشافعي في غير ما وهب له نفسه وعقله إلا كتاب السبق والرمي ، بل ربما كان هذا الكتاب نفسه ذا سمة دينية فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً ما كان يوصي بتعلم الرمي . على أننا نستطيع الحكم بأن هذه الكتب العديدة كلها — وفي أحسن الفروض أكثرها — ليست كتباً بالمعنى الصحيح ، وإنما هي رسائل أو مباحث قصيرة لا يسمح العنوان الذي تحمله بأن يؤلف فيها كتاب ، مثال ذلك كتاب صلاة الكسوف ، كتاب صلاة الاستسقاء ، كتاب صلاة الجنائز ، كتاب اليمين مع الشاهد ، كتاب كري الإبل والرواحل ، كتاب المزارعة ،

(١) المعجم ١٧ /٣٢٤ — ٣٢٧ .

كتاب المساقاة ، كتاب الرضاع ، كتاب بيع المصاحف ، كتاب خطأ الطبيب ، كتاب جناية البيطار والحجام ، كتاب صلاة الخوف .. وهكذا ولا شك أن هذه الكتب ليست إلا مجرد رسائل محدودة الصفحات فضلا عن أن المتصفح لكتاب «الأم » يجد أن أكثرها مضمّنا موضوعاته . وإذن فإن أشهر ما للشافعي من كتب كتابان اثنان نفيسان هما كتاب « الرسالة » وكتاب «الأم»

وكان الشافعي شأن كل عالم متفتح يعيد النظر في كتبه وأفكاره بين الفينة والفينة، يستبعد منه ما يكتشف أن لم يعد يتفق مع وجهة نظره، ويضيف إليها ما قد استمدت من أفكار .

فأما « الرسالة » فقد قرئت ببغداد وإن كان اختلف في مكان تأليفها ، هل ألفت بمكة أم ألفت ببغداد؟ وهي من أنفس ما أُلِّفَ في الفقه بل إن الشافعي وضع فيها علم أصول الفقه ، وقد انتفع بها القدامى والمحدثون، فهذا اسماعيل بن يحيى المزني الفقيه يقول : إني أنظر في الرسالة منذ خمسين سنة ما أعلم أني نظرت فيها مرة إلا استفدت منها شيئاً لم أكن أعرفه . ولقد ألف الشافعي « الرسالة » استجابة لرغبة محدِّث أهل العراق محمد بن المهدي ، وقد أعاد الشافعي النظر فيها وفي غيرها عند استقراره بمصر، ولقد تُرْجِم هذا المؤلف النفيس إلى اللغة الانجليزية ونشر في أمريكا قبل سنوات قليلة.

وأما « كتاب الأم » فهو ثاني كتب الشافعي الكبيرة، ونصيبه من الشهرة والتقدير لا يقل عن نصيب أخيه « كتاب الرسالة » وهو كتاب فقه ضم أكثر أفكار الشافعي في مسائل الفقه العديدة من

عبادات ومعاملات، وهي نفس الموضوعات التي ذكرها ياقوت في معجم الأدباء على أنها كتب مستقلة كما سبق القول .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن « كتاب الأم » ليس من تأليف الشافعي وإنما هو من تأليف تلميذه العالم الجليل أبي يعقوب يوسف بن يحيى البويطي ، على أن في الأمر كثيراً من اضطراب الروايات التي ينبغي أن نأخذها بالحذر الشديد . فإن الشافعي كان يملي أفكاره حيناً ويكتبها حيناً آخر ، وحينما توفي لم تكن بعض كتبه قد جمعت، وبالتالي فإن الذين قاموا بجمعها هم تلاميذه ومن بينهم البويطي والربيع بن سليمان ، ومن هنا حدث اللبس والغموض اللذان أثيرا حول كتاب الأم ، وقد ذهبت الكثرة من المحققين والفقهاء إلى تأكيد صحة نسبة « الأم » إلى الشافعي .

وهناك كتاب ثالث للشافعي ألفه في العراق عرف باسم « كتاب الحجة » اشتمل أيضاً على مسائل فقهية وعلى كثير من الفروع

ومهما كان الأمر ومهما اختلف على نسبة بعض كتب الشافعي إليه فإنه الإمام العلم الذي ملأ جوانب الأرض الإسلامية علماً وفضلاً .

لقد قضى الشافعي السنوات الأخيرة القليلة من حياته في مصر وكان شديد الحنين إليها ، فقد طوف في كثير من أرض المسلمين من حجاز وعراق ويمن وبقيت أمامه مصر التي تنبأ بأن ترابه سوف يكون فيها رغم أنه كان دون الخمسين حين وفد إليها ، مستجيباً لدعوة واليها العباس بن عبدالله . فقد قال في ذلك :

لقد أصبحتْ نفسي تتوقُ إلى مِصْرِ
ومِنْ دونِها قَطْعُ المَهامِـهِ والقَفْـرِ
فواللهِ مـا أدْرِي أَلِلْفَـوزِ والغِـنى
أُسَاقُ إليها أم أُساقُ إلى القبْـرِ

لقد أصاب الشافعي فيها الاثنين ، أصاب الفوز وغنى الشهرة واو أراد لأصاب من غنى المال ، ولكن المال لم يكن يعنيه ، وأصاب أيضاً نهاية رحلة حياته ، لقد كانت رحلة الشافعي إلى مصر وإقامته فيها أول الأمر محفوفة بالمتاعب لكثرة أنصار مالك الذين كانوا يشغبون عليه ، ثم ما لبث القوم أن عرفوا قدره وتجمعوا من حوله وطابت له الحياة وفاض نبع علمه ونضجت ثمار فقهه فألفّ كتاب الأم ، ولكن أصحاب الرأي معرضون لاعتداء الحمقى في كل زمان ومكان ، فقد كان رجل من أنصار مالك اسمه فتيان يناظر الشافعي في بعض المسائل الفقهية فأفحمه ، فلم يعجبه ذلك فشتم الشافعي الذي لم يقابل فتيان إلا بالتجاهل ، ولكن والي مصر آنذاك السريّ البلخي علم بما جرى من تطاول فتيان على الإمام الجليل فأوقع به عقوبة الضرب بالسياط والتشهير على جمل يطوف به وقد جعل مناد ينادي هذا جزاءُ من سبّ آل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن قوماً من السّفهاء تعصبوا لفتيان وتوجهوا إلى حلقة الشافعي حتى إذا رأوا انصراف تلاميذه هجموا عليه وضربوه ، فحمل إلى منزله ولم يزل به عليلاً حتى اختاره الله إلى جواره في رجب سنه مائتين واربعة للهجرة ، وكان وصوله إلى مصر سنة ثمان وتسعين ومائة وفي رواية

سنة تسع وتسعين ومائة ، وكانت آخر أقوال للشافعي هذة الكلمات البليغة المؤثرة الحزينة : أصبحت من الدنيا راحلاً ، والإخوان مفارقاً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله عز وجل وارداً، ولا والله ما أدري روحي تصير إلى الجنة أو إلى النار فأُعزيها،ثم أنشأ يقول :

فلمّا قسَا قَلْبي رضاقَتْ مذاهِبِي
جَعلْتُ رَجَائِي نحوَ عفوكَ سُلَّمَا
تَعاظَمَني ذنْبِـي فلمَّـا قَرَنْتُـهُ
بعفْوكَ ربِّي كانَ عَفْوُكَ أعْظَمَـا
فما زِلتَ ذا عفوٍ عَنِ الذنْبِ لمْ تزلْ
تجودُ وتَعْفُـو مِنَّـةً وتَكَرُّمَـا
فلولاكَ لم يُقْدَرْ بِإِبْلِيسَ عَابِـدٌ
فكيْفَ وقَدْ أغْوَى صفيَّكَ آدَمَا

الإمام أحمد بن حنبل ١٦٤ – ٢٤١هـ

يأتي ترتيب الإمام أحمد بن حنبل بين أصحابه المشهورين من أئمة السنة الرابع من حيث الترتيب الزمني ،فقد ولد سنة مائة وأربع وستين وتوفي سنة مائتين وواحد وأربعين هجرية ، وأما من حيث وزنه العلمي والديني فنحن أمام رجل فريد في عقيدته وعلمه ، شجاع في رأيه ومسلكه ، لا يخشى في الله لومة لائم ، خاشع لربه ، صائم قانت ، ورع زاهد ، يرعى الله في كل قول وفعل ، ويخشاه في كل لمحة وحركة ، ويتمثله في كل لحظة وطرفة عين .

لقد كان ابن حنبل ملء السمع والبصر بحياته الحافلة بألوان من المجابهات الشديدة التي امتحن بسببها امتحاناً شديداً لم يتعرض لمثله الأئمة السابقون له ، رغم ما صادفهم من شدائد لا بد لأصحاب الرسالات دائماً من أن يصادفوها وأن يكتووا بنارها .

إن اسمه كاملاً أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني وكنيته أبو عبدالله ، فهو عربي النجار وإن ولد بمرو حيث كان يعمل أبوه ،

حمل إلى بغداد رضيعاً ورُبي يتيماً ، ونشأ فقيراً ، وأحب العلم حبًّا شديداً ولم يكن لديه من المال ما يقيم أوده ، لم يتردد في الإقدام على أيٍّ من الأعمال ليكسب قوت يومه ما دام هذا العمل شريفاً ، كان ينسج الثياب ويبيعها ، وكان يكتب بالأجرة ، وكان يلتقط بقايا الزرع من الحقول بعد الحصاد ، وكان يعمل حمالا مع الحمالين في بعض الأوقات إذا اقتضته الضرورة ، لقد صنع ذلك وهو في طريقه إلى اليمن لتحصيل حديث رسول الله الذي شغف به وتفرغ له حتى أصبح يلقب « إمام المحدِّثين ».

علمه وزهده :

هذا الرجل الفقير — أحمد بن حنبل — يجلس إلى كبار علماء زمانه يتلقى عنهم ، فيجلس إلى أبي يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب أبي حنيفة ، وهشيم بن بشير بن أبي حازم الواسطي أستاذ الحديث ببغداد ويلازمه سنوات أربع ويكتب عنه ثلاثة آلاف حديث ، ويطوف في الآفاق ويرحل إلى اليمن والكوفة والبصرة والمدينة ومكة ، والرحلة أمر ضروري لكل رجال الحديث ، ولقد سبق أن فعل الشافعي ذلك حين أحب السفر ومجّد الارتحال . وفي مكة يلتقي أحمد بالشافعي ويسمع عنه فيعجب به ويلزم مجلسه ، ثم ينتقل الشافعي إلى بغداد فتزداد صلة أحمد به توثقاً ، فيطيل الجلوس إليه ويتعلم منه الفهم والاستنباط واستخراج الأحكام ، ويرحل الشافعي إلى مصر ، ويكاد أحمد يلحق به غير أن ظروفه لم تساعده على ذلك ، فيبقى في بغداد ، وتظل المراسلات قائمة

بينه وبين الإمام الشافعي على بعد الشقة وطول المسافة بين البلدين .

ولكن الشافعي لا يغادر بغداد حتّى يشهد لأحمد شهادة تضعه على رأس علمائها ، ذلك أن الشافعي بوزنه العلمي الديني الكبير لا بد من أن تكون لشهادته قيمة تعدل وزنه ، ولذلك فهو يقول : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل (١) .

وكان الشافعي يقول له : أنتم أعلم بالحديث وبالرجال ، بل إنه — أي الشافعي — تقديراً منه لابن حنبل وشهادة منه له بالفضل قال يوماً لتلميذه الربيع بن سليمان في مصر : أحمد إمام في ثماني خصال : إمام في الحديث ، إمام في الفقه ، إمام في اللغة ، إمام في القرآن، إمام في الفقر ، إمام في الزهد، إمام في الورع ، إمام في السنة (٢) .

لقد صدق الشافعي في كل صفة من هذه الصفات التي وصف بها ابن حنبل فإن ما جمع من أحاديث صحيحة ضمنها المسند وغير المسند تشهد لجامعها بإمامة الحديث ، وإذا كان أصحابه على عادتهم في المبالغة، قد نسبوا إليه حفظ ألف ألف حديث وهذا مستحيل طبعاً لأن الأحاديث المنسوبة إلى الرسول لم تزد عن سبعمائة ألف حديث ، فإن المعروف أن ابن حنبل كان يسافر من قطر إلى قطر ليجمع أي عدد من الأحاديث مهما قلّ ، ولو رجع بحديث واحد لاعتبر نفسه فائزاً ، بل إن صفته التحديثية قد حجبت صفته

(١) وفيات الأعيان ١٠/٤٨ .
(٢) طبقات الحنابلة ١/٥ .

الفقهية ، ولذلك حكم كثير من أهل التخصص بأنه محدّث أكثر منه فقيهاً[1] والحق أن ابن حنبل اهتم بالحديث اهتماماً بالغاً ، وهل هناك شيء أخلق بالاهتمام والحفظ والتدوين – بعد كتاب الله – من حديث رسول الله. لقد كان ابن حنبل حفاظاً منه على الحديث يدونه ويقول : الكتاب – يقصد التدوين – أحفظ شيء، وكان يقول لتلميذه ابن المديني لا تتحدث إلا من كتاب ، ومثل هذا القول يدل من ابن حنبل على شعور كامل بمسئولية العلم وأمانته ، فلا زالت أسلم الطرق للتحدث أو إلقاء الدروس أن يستعين المتحدث بشيء مكتوب أمامه ، تفادياً لخطأ غير متوقع وأماناً من زلل مفاجىء .

على أن هذا الذي نعتبره فضلاً عند ابن حنبل قد ذهب بعض معارضيه إلى اعتباره عيباً فيه وفي أصحابه ، لأنهم دائمو التدوين ، وبالتالي فليس لديهم الوقت للتفكر وإبداء الرأي ، فكان ابن حنبل يرد عليهم بقوله : أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر ، وقد أرسل في ذلك جملته الشهيرة الرائعة : مع المحبرة إلى المقبرة .

والإمام ابن حنبل مع علمه كان تقيًّا ورعاً فقد ذكر ابنه عبدالله أنه كان يقرأ القرآن كل أسبوع ختمتين ، واحدة بالليل وواحدة بالنهار ، كما أثر عنه أنه كان يصلي في الليلة ثلاثمائة ركعة فلما ضعفت صحته بدافع المرض جعلها مائة وخمسين .

وبالرغم من كونه محدثاً وفقيهاً فقد كان يناجي الله مناجاة الصوفية على ما بين الفقهاء والصوفية من خلاف أصيل ، كان ابن

(١) الأئمة الأربعة ص ٢٠٤ .

حنبل يقول: اللهم إن كنت تعلم أني أحبك خوفاً من نارك فعذّبني بها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمْنيها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك حبًّا مني لك وشوقاً إلى وجهك الكريم فأبحنيه مرة واصنع بي ما شئت [1] ، ومهما اختلف البعض في طبيعة هذا الدعاء وضرورة الشعور نحو الله جل وعلا بالخشية والرهبة إلى جانب الحب ، فإن دعاء ابن حنبل يدل على تعلق وفناء في الذات الالهية بدرجة عالية لا تتوفر إلا للقليل من الصالحين .

وأحمد بعد ذلك زاهد إلى الحد الذي جعله يرفض الجلوس على الحصير لأنه ترف ، ومن ثم فقد آثر أن يجلس على التراب ، ويسعى إليه المجد من قبل الخليفة المتوكل ليتولى ابنه المعتز بالعلم والرعاية ولكنه يعتذر ، وليته فعل ، فقد كان الحكم آنذاك في حاجة إلى ملك يربيه إمام عظيم مثل ابن حنبل ، ولكن الإمام العظيم كانت له وجهة نظره الخاصة بالاضافة إلى أنه كان في تلك الفترة من حياته قد آلى على نفسه أن يمتنع عن التحدث .

إن أحمد بن حنبل قد استجمع كل صفات الإمامة ومقوماتها ، ولذلك فقد كان شيخ العراق وإمام مشايخ بغداد ، وكان الناس يسعون إلى درسه العام بالآلاف ، لقد كان له درس خاص في بيته ، ودرس عام في المسجد يحضره عادة من المريدين ما يناهز الخمسة آلاف ، من بينهم خمسمائة يمسكون الأقلام ويكتبون ، والباقون يتعظون أو يتبركون [2] .

(١) طبقات الحنابلة ١/٢٣١ .
(٢) الأئمة الأربعة ص ٢٠٦ .

ولم يكن الإمام أستاذاً للعامة وحسب ، لقد كان استاذاً وإماماً لخاصة الخاصة ، كان أستاذاً للمحدث عبد الرحمن بن مهدي ولأبي حاتم الرازي وموسى بن هارون وبقي بن مخلد الأندلسي ، وعلى ابن المديني ، ثم هو إلى ذلك كله استاذ شيخي الحديث وعلميه الخفاقين محمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري[1]

ولكن في غمرة هذه الشهرة كثيراً ما تجري أحداث مضحكة حيناً ومؤسفة حيناً آخر ، فأما الأحداث المضحكة فمنها أن الإمام ابن حنبل دخل مسجد المنصور ببغداد ذات يوم ومعه يحيى بن معين المحدث فوجدا فيه رجلاً قصاصاً — أي واعظاً — يقول : حدثني أحمد بن حنبل ويحيى بن معين بكذا وكذا » ولم يكن أحد منهما حدثه بشيء ، وإنما أراد الرجل أن يدخل في روع سامعيه أنه مخالط لكبار المحدثين متلق عنهم ، وليته كان يقول حديثاً صحيحاً وإنما كان كلامه مليئاً بالخلط والأكاذيب ، فالتفت ابن حنبل إلى يحيى وقال له مغيظاً : أنت حدثته بهذا . فأجاب يحيى بالنفي ، فقال له أحمد : قم إليه فانصحه ، فرأى يحيى أنه من الأفضل لو نصحه ابن حنبل نفسه ، وتقدم إلى الرجل وقال له : أنا احمد بن حنبل وهذا يحيى بن معين ، فمتى حدثناك بهذا ؟ ولكن الرجل كان من الوقاحة وسرعة البديهة وحدة الجواب بحيث قال لهما : ما زلت اسمع بحماقتكما حتى رأيتكما . ألا يوجد في الدنيا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين غيركما ، فلم يجد ابن حنبل ويحيى بداً من أن يضحكا وينصرفا .

(١) وفيات الأعيان ١/٤٨ .

هذه واحدة وأما الأخرى فتتمثل في الشدة والخشونة والمبالغة التي اتصف بها أنصار ابن حنبل وأتباعه وتلاميذه ، يصفهم واحد من أجلة الفقهاء الحنابلة وهو شيخ الإسلام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي فيقول إنهم «قوم خشن تقلصت أخلاقهم عن المخالطة وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجد ، وقل عندهم الهزل ، وغربت نفوسهم عن ذل المراءاة ، وفزعوا عن الآراء إلى الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تحرجاً عن التأويل ، وغلبت عليهم الأعمال الصالحة فلم يدققوا في العلوم الغامضة ، بل دققوا في الورع وأخذوا ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها من خشية باريها »[1]

ومن الأمور التي بدت فيها حدة التصرف والاندفاع ذهابهم إلى الطبري وعتابهم له لأنه في كتابه « اختلاف الفقهاء » عدّ ابن حنبل محدثاً ولم يعدّه فقيهاً ، فلما أجابهم بقوله : ما رأيته رُوي عنه ولا رأيت له أصحاباً يعول عليهم ، وثبوا عليه ورموه بمحابرهم ثم قذفوا داره بالحجارة إلى أن تدخلت الشرطة واضطر الرجل حفاظاً على نفسه أن يعتذر لهم ، وعندما مات الطبري منع الاحتفال به ودفن في داره ليلاً .

وهكذا يصفهم أحد أعلامهم بما يمكن أن يسمى بالسلبية الفكرية في العصر الحديث . هذا وللقوم مبالغات في بعض الآراء والأخبار دفع بهم إليها حماسهم لمذهبهم وتعلقهم بشيخهم وإمامهم

(١) الأئمة الأربعة ٢١٢ .

وإمام المسلمين لأنه يستحق ذلك عن جدارة ، ولكن ما كان ذلك سبباً يذهب بأحدهم وهو علي بن المديني إلى القول بأن الله أيد هذا الدين باثنين لا ثالث لهما هما أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة (١) ثم لا يلبث ابن المديني أن يقطع في الحماس لنفس الموضوع شوطاً أبعد من ذلك حين يروي الميموني على لسانه أنه ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قام أحمد بن حنبل . فقال له : يا أبا الحسن ولا أبو بكر الصديق ؟ قال : ولا أبو بكر الصديق . إن إبا بكر كان له أعوان وأصحاب وأحمد لم يكن له أعوان وأصحاب (٢) ومن هذه المبالغات ما ذكره علي بن موفق المعروف بأبي الحسن العابد من أنه قرأ أن أحمد بن حنبل حج ستين حجة(٣) ، ومن المعروف أن أول حجة حجها ابن حنبل كانت سنة مائة وست وثمانين وأنه مات سنة مائتين وواحد وأربعين ، فلو أن ابن حنبل أدى الفريضة كل سنة منذ أول حجة حتى يوم وفاته ، وهو ما لم يحدث ، لما وصلت عدد المرات التي حج فيها إلى هذا القدر ، وعلى درب هذا اللون من الحماس يقول زكريا بن يحيي الساجي : أحمد بن حنبل أفضل عندي من مالك والأوزاعي والثوري والشافعي (٤) وهو أمر لو صح عنده واقتنع به فإن فضل هؤلاء الأئمة الأعلام ينبغي أن يقف بالساجي عند حد

(١) طبقات الحنابلة ١٣/١ .
(٢) طبقات الحنابلة ١٧/١ .
(٣) المصدر السابق.٣٣١/١ .
(٤) المصدر ١٨/١ .

المتعارف عليه من وجوب التوقير عند الحديث على الأئمة ، وينسب صاحب الطبقات إلى الربيع بن سليمان أنه سمع الشافعي يقول : من عاند أحمد بن حنبل فهو كافر ، ويكمل المؤلف الحوار حتى يمكّن الشافعي من الدفاع عن وجهة نظره . يقول الربيع : تطلق عليه اسم الكفر ؟ فيقول الشافعي ! من عاند أحمد بن حنبل عاند السنة ، ومن عاند السنة قصد الصحابة ، ومن قصد الصحابة أبغض النبي ، ومن أبغض النبي صلى الله عليه وسلم كفر بالله العظيم (١) . ومن هذه المبالغات أيضاً ما ذكر في طبقات الحنابلة من أنه « يوم موت بن حنبل وقع النوح في المسلمين واليهود والنصارى والمجوس وأسلم عشرون ألف منهم » (٢) الأمر الذي جعل الذهبي يعلق على ذلك وينكره قائلاً : لو أسلم عشرة لكان عظيماً ولرواه أكثر من عشرة .

والأمثلة على ذلك كثيرة وهي إن قصد بها تعظيم ابن حنبل وتمجيده فإنها قد تؤدي عند غير العالمين إلى عكس ذلك ، فإن أحمد بن حنبل بفضله وعلمه وورعه وزهده وتقواه وتوفره على حديث الرسول ودفاعه عن السنّة الشريفة وذوده عن صلب العقيدة وشجاعته التي لم تتكرر إلا عند القليل من أمثاله كل ذلك — دون تلك الحواشي الزائدة والمبالغات غير المقبولة — يضعه في مكان الصدارة بين علماء المسلمين وفي الصف الأول من أئمتهم العظام .

أحمد بن حنبل والسياسة :

لم يكن لأحمد بن حنبل عقيدة سياسية بعينها الأمر الذي قد

(١) المصدر ١٣/١ .
(٢) المصدر ١٨/١ .

يثير التساؤل عن الهدف من كتابة هذه الفقرة ، والواقع الذي نقصد إليه هو وجهة نظره في السياسة الاسلامية من خلافة و إمامة .

وحتى الرأي بأن ابن حنبل لم يكن له ميل سياسي معين لا بد أن يعاد النظر فيه ، ذلك أنه كان يقول الأئمة من قريش ويعين على إمامة ولد العباس ويقول العباس أبو الخلفاء ، وإذن فلقد كان الإمام ابن حنبل عباسي الميل السياسي ، ولعله الوحيد بين الأئمة الأربعة الذي يرى هذا الرأي ، على أن ذلك ينبغي أن يحسب له لا عليه ، فمهما اختلفت الآراء حول أحقية بني العباسي بالملك ، فإن تأييد ابن حنبل لملكهم ، أو لخلافتهم — وهم الذين أوقع ثلاثة منهم به صنوف العسف والجلد والسجن والعذاب — ليعتبر نوعاً من النزاهة الفريدة المثال والعدالة المنقطعة النظير ، إن الرجل العظيم يبدي رأيه في خلافتهم بِغَضٍّ النظر عن تصرفهم حياله، ويرى أنهم رغم ذلك أحق بالخلافة من غيرهم .

إن ابن حنبل يرى الخلافة في قريش ما بقي من الناس اثنان ليس لأحد آن ينازعهم فيها ولا يخرج عليهم ، ولا نقر لغيرهم إلى قيام الساعة (١) ، إنه في ذلك لا يقل حماساً عن أستاذه الشافعي . ويستطرد الإمام ابن حنبل قائلاً : « والجهاد قائم مع الأئمة برّوا أو فجروا ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل ، والجمعة والعيدان والحج مع السلطان وإن لم يكونوا بررة عدولا أتقياء .. والانقياد إلى من ولاه الله (٢) أمركم لا تنزع يداً من طاعته ، ولا تخرج عليه

(١) طبقات الحنابلة ١/٢٦ .
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

بسيفك حتى يجعل الله لك مخرجاً » .

ويقر ابن حنبل خلافة الراشدين على ترتيبهم التاريخي ويقف عند عليّ كما وقف قبله الإمام مالك فيقول : خير الأمة بعد النبي أبو بكر وعمر بعد أبي بكر ، وعثمان بعد عمر ، وعليّ بعد عثمان ، ثم يتحفظ قليلاً قائلاً « ووقف قوم عند عثمان » ثم لا يلبث أن يثبت علياً بين الراشدين فيقول : « وهم خلفاء راشدون مهديون ، ثم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء الأربعة خير الناس (١)

وابن حنبل يتمسك بالإمامة تمسكاً كاملاً ويقول : من مات ورقبته عريّة من اعتقاد الإمامة فميتته جاهلية ، وهو تشدد شبيه بتشدّد الشيعة في ذلك .

على أن لابن حنبل موقفاً نبيلاً من جميع أصحاب رسول الله مهما اختلفوا وتحاربوا ، إنه يطالب بالإمساك عن الخوض فيما شجر بينهم من خلاف وعدم التعليق على ذلك ، ويأمر بالثناء على الزبير وطلحة وعبد الرحمن ، بل إنه يذهب إلى تكفير من تبرأ من الخلفاء الراشدين ومن سبّ عائشة .

والإمام ابن حنبل لا يمس معاوية بسوء ويمسك عن الخوض فيما جرى بواقعتي صفين والجمل ، ويقول دماء صان الله يدي عن ملابستها فأصون لساني عن الخوض فيها ، ويردّ ما حدث إلى اجتهاد

(١) نفس المصدر ١/٣١ .

الفريقين ، وليس كل مجتهد مصيباً ، للمصيب أجران وللمخطىء أجر .

بل إن الإمام أحمد ذهب فيما يتصل بيزيد إلى مدى لم يره كثرة وافرة من المسلمين حين كان يمسك عن يزيد بن معاوية ويرى أن يكله إلى الله (١) .

أصول العقيدة :

الإمام ابن حنبل هو إمام السنة منها يقتبس وبها يهتدي وبنصها يلتزم ، ومصدر هذا الدين هو كتاب الله وسنة رسوله ، تؤخذ منهما العقيدة في غير ما تخريج ولا تحريف ولا تحايل ، ولا مكان لإعمال العقل أو تخريج الفكر ما دامت الأمور واضحة المحجة ظاهرة النهج غير معوجة ولا مستبهمة ، ومن ثم فقد نفر من أهل الكلام ورفض آراءهم وكفرهم .

يقول ابن حنبل : القدر خيره وشره ، وقليله وكثيره ، وظاهره وباطنه ، وحلوه ومره ، ومحبوبه ومكروهه ، وحسنه وسيئه ، وأوله وآخره من الله قضاءً قضاه ، وقدراً قدره عليهم ، بل هم كلهم صائرون إلى ما خلقهم له واقفون فيما قدر عليهم لأفعاله ، وهو عدل منه عزّ ربنا وجل . والزنا والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وأكل المال الحرام والشرك بالله والمعاصي كلها بقضاء وقدر ، من غير أن

---

(١) طبقات الحنابلة ٢/٢٧٢ — ٢٧٤ (مقدمة الامام أبي محمد بن تميم الحنبلي في أصول المذهب) .

يكون لأحد من الخلق على الله حجة ، بل لله الحجة البالغة على خلقه ، لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون ...

ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله عزّ وجل وأن ذلك بمشيئته في خلقه ، فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله ، وأي كفر أوضح من هذا ؟ بل ذلك بقضاء الله عزّ وجل وذلك بمشيئته في خلقه ، وتدبيره فيهم ، وما جرى من سابق علمه فيهم ، وهو العدل الحق الذي يفعل ما يريد (١) .

وعن الحياة الأخرى يقول ابن حنبل : « وعذاب القبر حق ، يسأل العبد عن دينه وعن ربه ، وعن الجنة وعن النـار ، ومنكر ونكير حق ، وهما فتّانا القبر ، نسأل الله الثبات »

« وحوض محمد صلى الله عليه وسلم حق ، ترده أمته ، وله آنية يشربون بها منه ، والصراط حق يوضع على سواء جهنم ، ويمرّ الناس عليه ، والجنة من وراء ذلك ، نسأل الله السلامة . والميزان حق توزن به الحسنات والسيئات كما يشاء الله أن توزن ، والصور حق ينفخ فيه إسرافيل فيموت الخلق ، ثم ينفخ فيه الأخرى فيقومون لرب العالمين للحساب والقضاء . والثواب والعقاب والجنة والنار واللوح المحفوظ تستنتج منه أعمال العباد لما سبق فيه من المقادير والقضاء . والقلم حق كتب به الله مقادير كل شيء وأحصاه في الذكر تبارك وتعالى »

« والشفاعة يوم القيامة حق ، يشفع قوم في قوم فلا يصيرون

---

(١) طبقات الحنابلة ١/٢٥ ، ٢٦ .

إلى النار ، ويخرج قوم من النار بشفاعة الشافعين .... ويذبح الموت يوم القيامة بين الجنة والنار [1] وقد خلقت الجنة وما فيها ، والنار وما فيها خلقهما الله عز وجل ، وخلق الخلق لهما ، لا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبداً » .

ويتحدث ابن حنبل عن القرآن — وسوف يكون لنا حديث عن محنته في ذلك بعد قليل — فيقول : والقرآن كلام الله ، تكلم به ، ليس بمخلوق ، ومن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر ، ومن زعم أن القرآن كلام الله ووقف ، ولم يقل ليس بمخلوق ، فهو أخبث من قول الأول ، ومن زعم أن ألفاظنا به وتلاوتنا له مخلوقة والقرآن كلام الله فهو جهمي ، ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم [2]

ويتحدث ابن حنبل عن الذات العلية فيقول: ولله عز وجل عرش ، وللعرش حملة يحملونه ، والله عز وجل على عرشه ليس له حد ، والله أعلم بحده والله عز وجل سميع لا يشك ، بصير لا يرتاب ، عليم لا يجهل ، جواد لا يبخل... ... يتحرك ويتكلم وينظر ويبصر ويضحك ويفرح ويحب ويكره ويبغض ويرضى ويغضب ويسخط ... ويمضي ابن حنبل في ذكر الأفعال المستمدة من أسماء الله الحسني إلى أن يقول : وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبها كيف يشاء ويودعها ما أراد . خلق آدم

(١) المصدر ١/٢٧ ، ٢٨ .
(٢) الطبقات ١/٢٩ .

بيده على صورته ، والسموات والأرض يوم القيامة في كفه ، ويضع قدمه في النار فَتَزْوَى ، ويخرج قوماً من النار بيده ، وينظر أهل الجنة إلى وجهه يرونه فيكرمهم ، ويتجلى لهم فيعطيهم ، ويعرض عليه العباد يوم القيامة ، ويتولى حسابهم بنفسه ، لا يلي ذلك غيره عزّ وجلّ . [1]

هذه هي أصول العقيدة كما صورها ابن حنبل لا يقبل في صورتها جدلاً ولا نقاشاً ، ومن لم يسلم بذلك فهو منكر كافر .

ابن حنبل ومحنة خلق القرآن .

لقد كانت فتنة خلق القرآن محنة تعرض لها المسلمون بغير وجه حق ، سالت فيها دماء زكية وضربت علماء كرام وجلد فيها أئمة أفاضل نتيجة ضيق الأفق من قوم عرفوا عند جمهرة المسلمين بسعة الأفق ، دفعوا بملك عرف عند الناس بمشجع الثقافة وراعي العلوم ، ولكن ما أقدم عليه من تعذيب الناس وإهانة العلماء قد سلب منه الصفات التي خلعتها عليه أعماله السابقة للمحنة .

لقد تسلط جماعة المعتزلة وفي مقدمتهم القاضي احمد بن أبي دؤاد على المأمون وأدخلوا في روعه مسألة لا يفيد التفكير فيها الدين في شيء بل إنها تسيء إليه وإلى جمهرة علماء المسلمين وتزرع الفرقة بينهم .

إن المأمون وهو على أهبة الخروج إلى طرطوس على حدود بلاد

(١) المصدر السابق نفس الصفحة .

الروم سنة ٢١٨ يبعث إلى اسحق بن ابراهيم عامله على بغداد كتاباً يأمره فيه أن يستحضر علماء بغداد وقضاتها وان يمتحنهم في موضوع خلق القرآن .

وكتاب المأمون هذا من أشنع الكتب التي حوت سبا وتطاولا على علماء المسلمين من أهل السنة ، فهو يصفهم بأخس الألفاظ وينعتهم بأقبح ما يُنعت به عالم . يقول المأمون في كتابه معرضاً بعلماء السنة بعد مقدمة طويلة :

« فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورءوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد والمخسوسون من الإيمان نصيباً ، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق في أوليائه والهائل على أعدائه من أهل دين الله ، وأحق من يتهم في صدقه وتطرح شهادته ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد ، ومن عَـمِيَ رشده وحظه عن الإيمان بالله وبتوحيده ، كان عمّا سوى ذلك من عمله والقصد من شهادته أعمى وأضلّ سبيلاً . ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب في قوله ، وتخرص الباطل في شهادته ، من كذب على الله في وحْيه ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وأن أولاهم برد شهادته في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله » .

« فاجمعْ من بحضرتك من القضاة ، وأقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما

يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه ، فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فمرهم بنصّ من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن ، وترك إثبات شهادة من لا يقرّ أنه مخلوق محدث ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده ..... واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله » (١)

لقد نشر كتاب المأمون في الأمصار الإسلامية وجرى امتحان القضاة فيها ، اما في بغداد عاصمة المقاومة فقد طلب المأمون ازاء ما رأى فيها من صمود يقوده أحمد بن حنبل أن يُرْسَلَ إليه سبعة من علمائها الكبار فأشخصوا إليه وانتزع منهم اعترافاً بوجهة نظره واذاع اعترافهم — وهم من أهل السنة — على الملأ حتى يضعف مقاومة ابن حنبل، ولكن احمد صمد في وجه هذه المحنة التي بدأت تتخذ أشكالاً من الضغوط لم يألفها المسلمون حتى ذلك العهد .

لقد اكتوى كثير من علماء المسلمين بنار تلك الفتنة وفي مقدمتهم الإمام احمد بن حنبل الذي تحمل النصيب الأوفى من أذاها والقدر الأكبر في الصمود أمام جهالة مشعلي نارها وكان كالطود الشامخ الذي تكسرت على قمته وجانبيه كل رياح الانحراف ، وكان يقاوم آراء مشعلي نار الفتنة بالحجة والبرهان والمجادلة وخلق

(١) الطبري ٢/١١١٢ وما بعدها .

الارتباك في وجهات نظرهم حتى اضطر المأمون وهو في طرطوس على حدود بلاد الروم أن يبعث في طلبه هو ومحمد بن نوح ، فحملا إليه حملاً غير كريم وقد استعدا إلى مقارعة الخليفة المتطرف فيما ذهب إليه من عقيدة شاردة ، وتشاء الأقدار أن يموت المأمون حيث هو ، وأحمد ورفيقه في الطريق إليه ، وكانا قد وصلا إلى أدنه مصعّدين إلى طرسوس ، فيعاد ابن حنبل مرة ثانية مقيداً إلى بغداد ويموت رفيقه ابن نوح في الرحلة فيصلي عليه ويدفنه ويودع أحمد السجن حتى يتم تعيين الملك الجديد ، ويعين المعتصم ويسير على نهج أخيه في طريق الفتنة بوصيّة منه ويجابه الملك الجديد ابن حنبل عدة مرات في حضور الرأس الأصلي للمحنة القاضي ابن أبي دؤاد ، ولا يستطيع المعتصم بعد شهور عديدة من السجن والقيد أن ينتزع من ابن حنبل الموافقة على قضية الانحراف فيجلد الإمام الجليل ويعذب ويودع السجن لمدة بلغت ثمانية وعشرين شهرا ، ثم لا تلبث الفتنة أن تخمد نارها أمام المقاومة الشديدة التي حمل لواءها واكتوى بنارها الإمام الجليل .

ولما كانت محنة خلق القرآن من أشد وأدهى المحن التي واجهت الاسلام والعهد غير بعيد بالرسالة فإنه لو قد كتب لخالقيها النجاح لكان الإسلام قد تعرض فيما تلا من قرون إلى شطحات بعض المشتطين في أفكارهم الغالين في تصوراتهم بحيث أنه كان من الممكن أن يكون إسلامنا الآن صورة مختلفة تماما عن طبيعة جوهره ، ولما كان الفضل في مقاومة الفكرة ومجابهتها يرجع إلى الإمام ابن حنبل ، ولما كانت الأمانة العلمية والتاريخية تقتضي سماع بعض

أطراف الجدل الذي جرى من خلالها على لسان كل من الفريقين فقد بات من الضروري أن نعرض نماذج من المجادلة التي جرت مرويّة عن كل من الحنابلة والمعتزلة .

فأما رواية الحنابلة فقد عرضها سليمان بن عبد الله السّجزي ، قال [1] « أتيت إلى باب المعتصم وإذا الناس قد ازدحموا على بابه كيوم العيد ، فدخلت الدار فرأيت بساطا مبسوطا وكرسيا مطروحا ، فوقفت بإزاء الكرسي ، فبينما أنا قائم فإذا المعتصم قد أقبل ، فجلس على الكرسي ، ونزع نعله من رجله ، ووضع رجلا على رجل . ثم قال : يحضر أحمد بن حنبل . فأحضر ، فلما وقف بين يديه وسلم عليه ، قال له : يا أحمد تكلم ولا تخف . فقال أحمد : والله يا أمير المؤمنين ، لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال حبة من الفزع . فقال له المعتصم : ما تقول في القرآن ؟ فقال : كلام الله ، قديم غير مخلوق ، قال الله عز وجل وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله) فقال له : عندك حجة غير هذا ؟ فقال أحمد : نعم ، يا أمير المؤمنين : قول الله عز وجل (الرحمن علّم القرآن) ولم يقل « الرحمن خلق القرآن » وقوله عز وجل (يس والقرآن الحكيم) ولم يقل « يس والقرآن المخلوق » فقال المعتصم : احبسوه ، فحبس وتفرق الناس . فلما أصبحتُ قصدت الباب ، فأدخل الناس ، فدخلت معهم . فأقبل المعتصم وجلس على كرسيه ، فقال : هاتوا

(١) طبقات الحنابلة ١/١٦٤ – ١٦٧ .

أحمد بن حنبل ؛ فجيء به . فلما أن وقف بين يديه قال له المعتصم : كيف كنت يا أحمد في مَحْبَسك البارحة ؟ فقال : بخير ، والحمد لله ، إلا أني رأيت يا أمير المؤمنين في محبسك أمراً عجباً ، قال له : وما رأيت ؟ قال : قمت في نصف الليل فتوضأت للصلاة ، وصليت ركعتين . فقرأت في ركعة (الحمد لله) و (قل أعوذ برب الناس) وفي الثانية (الحمد لله) و (قل أعوذ برب الفلق) ثم جلست وتشهدت وسلمت . ثم قمت فكبرت وقرأت (الحمد لله) وأردت أن أقرأ (قل هو الله أحد) فلم أقدر ، ثم اجتهدت أن أقرأ غير ذلك من القرآن فلم أقدر . فمددت عيني في زاوية السجن ، فإذا القرآن مُسَجّىً ميتا ، فغسلته وكفنته ، وصليت عليه ودفنته . فقال له : ويلك يا أحمد ، والقرآن يموت ؟ فقال له أحمد : فأنت كذا تقول : إنه مخلوق . وكل مخلوق يموت . فقال المعتصم : قهرنا أحمد ، قهرنا أحمد . فقال ابن أبي دؤاد وبشر المريسي : اقتله ، حتى نستريح منه، فقال: إني قد عاهدت الله أن لا أقتله بسيف ولا آمر بقتله بسيف ، فقال له ابن أبي دؤاد : اضربه بالسياط . فقال : نعم . ثم قال : أحضروا الجلاّدين . فأُحضروا . فقال المعتصم لواحد منهم : بكم سَوْط تقتله ؟ فقال : بعشرة يا أمير المؤمنين . فقال : خذه إليك . قال سليمان السجزي : فأخرج أحمد بن حنبل من ثيابه ، وائتزر بمئزر من الصوف ، وشُدّ في يديه حبلان جديدان . وأخذ السوط في يده ، وقال : أضربه يا أمير المؤمنين ؟ فقال المعتصم: اضرب . فضربه سوطاً. فقال أحمد : الحمد لله . وضربه ثانياً . فقال : ما شاء الله كان . فضربه ثالثاً ،

فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . فلما أراد أن يضربه السوط الرابع نظرت إلى المئزر من وسطه قد انحل ، ويريد أن يسقط . فرفع رأسه نحو السماء وحرك شفتيه ، وإذا الأرض قد انشقت . وخرج منها يدان فوزرتاه بقدرة الله عز وجل . فلما أن نظر المعتصم إلى ذلك قال : خلوه . فتقدم إليه ابن أبي دؤاد وقال له : يا أحمد ، قل في أذني : إن القرآن مخلوق ، حتى أخلصك من يد الخليفة . فقال له أحمد : يا ابن أبي دؤاد قل في أذني : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، حتى أخلصك من عذاب الله عز وجل . فقال المعتصم : أدخلوه الحبس . قال سليمان : فحمل إلى الحبس ، وانصرف الناس ، وانصرفت معهم . فلما كان الغد أقبل الناس ، وأقبلت معهم . فوقفت بإزاء الكرسي ، فخرج المعتصم ، وجلس على الكرسي ، وقال : هاتوا أحمد بن حنبل . فجيء به . فلما وقف بين يديه ، قال له المعتصم : كيف كنت في محبسك الليلة يا ابن حنبل ؟ قال : كنت بخير والحمد لله . فقال : يا أحمد ، إني رأيت البارحة رؤيا . قال : وما رأيت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت في منامي كأن أسدين قد أقبلا إليّ وأرادا أن يفترساني ، وإذا ملكان قد أقبلا ودفعاهما عني ، ودفعا إلى كتاباً . وقالا لي : هذا المكتوب رؤيا رآها أحمد بن حنبل في محبسه . فما الذي رأيت يا ابن حنبل ؟ فأقبل أحمد على المعتصم ، فقال له : يا أمير المؤمنين فالكتاب معك ؟ قال : نعم ، وقرأته لما أصبحت وفهمت ما فيه . فقال له أحمد : يا أمير المؤمنين ، رأيتُ كأن القيامة قد قامت ، وكأن الله قد جمع الأولين والآخرين في صعيد واحد . وهو يحاسبهم .

فبينما أنا قائم إذ نودي بي . فقدمت حتى وقفت بين يدي الله عز وجل . فقال لي : يا أحمد ، فيم ضربت ؟ فقلت : من جهة القرآن . فقال لي : وما القرآن ؟ فقلت : كلامك اللهم لك ، فقال لي : من أين قلت هذا ؟ فقلت : يا رب حدثني عبد الرزاق . فنودي بعبد الرزاق ، فجيء به حتى أقيم بين يدي الله عز وجل . فقال له : ما تقول في القرآن ، يا عبد الرزاق ؟ فقال : كلامك اللهم لك . فقال الله عز وجل : من أين قلت هذا ؟ فقال : حدثني معمر . فنودي بمعمر ، فجيء به حتى أوقف بين يدي الله عز وجل . فقال الله عز وجل له : ما تقول في القرآن يا معمر ؟ فقال معمر : كلامك اللهم لك . فقال له : من أين قلت هذا ؟ فقال معمر : حدثني الزهري ، فنودي بالزهري فجيء به ، حتى أوقف بين يدي الله عز وجل . فقال الله عز وجل له : يا زهري ، ما تقول في القرآن ؟ فقال الزهري : كلامك اللهم لك . فقال : يا زهري من أين لك هذا ؟ قال : حدثني عروة . فجيء به . فقال : ما تقول في القرآن ؟ فقال : كلامك اللهم لك . فقال له : يا عروة : من أين لك هذا ؟ فقال : حدثتني عائشة بنت أبي بكر الصديق . فنوديت عائشة ، فجيء بها ، فوقفت بين يدي الله عز وجل ، فقال الله عز وجل لها : يا عائشة : ما تقولين في القرآن ؟ فقالت : كلامك اللهم لك . فقال الله عز وجل لها : من أين لك هذا ؟ قالت : حدثني نبيك محمد صلى الله عليه وسلم . قال : فنودي بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فجيء به ، فوقف بين يدي الله عز وجل : فقال الله عز وجل له : يا محمد ، ما تقول في القرآن ؟

فقال له : كلامك اللهم لك . فقال الله له : من أين لك هذا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : حدثني به جبريل . فنودي بجبريل ، فجيء به ، حتى وقف بين يدي الله عز وجل فقال له : يا جبريل ، ما تقول في القرآن ؟ قال : كلامك اللهم لك . فقال الله تعالى له : من أين لك هذا ؟ فقال : هكذا حدثنا إسرافيل . فنودي بإسرافيل ، فجيء به ، حتى وقف بين يدي الله عز وجل . فقال الله سبحانه : يا إسرافيل : ما تقول في القرآن ؟ فقال : كلامك اللهم لك . فقال الله له : ومن أين لك هذا ؟ فقال إسرافيل : رأيت ذلك في اللوح المحفوظ ، فجيء باللوح ، فوقف بين يدي الله عز وجل . فقال له : أيها اللوح ، ما تقول في القرآن ؟ فقال : كلامك اللهم لك . فقال الله تعالى له : من أين لك هذا ؟ فقال اللوح : كذا جرى القلم عليّ . فأتى بالقلم حتى وقف بين يدي الله عز وجل . فقال الله عز وجل له : يا قلم ، ما تقول في القرآن ؟ فقال القلم : كلامك اللهم لك . فقال الله : من أين لك هذا ؟ فقال القلم : أنت نطقت وأنا جريت . فقال الله عز وجل : صدق القلم ، صدق اللوح ، صدق إسرافيل صدق جبريل صدق محمد ، صدقت عائشة ، صدق عروة ، صدق الزهري ، صدق معمر ، صدق عبد الرزاق ، صدق أحمد بن حنبل : القرآن كلامي غير مخلوق .

قال سليمان السجزي : فوثب عند ذلك المعتصم . فقال : صدقت يا ابن حنبل وتاب المعتصم . وأمر بضرب رقبة بشر المريسي وابن أبي دؤاد ، وأكرم أحمد بن حنبل . وخلع عليه . فامتنع من ذلك ، فأمر به فحمل إلى بيته .

وأما رواية فريق المعتزلة فيعبر عنها الجاحظ ، وهو معتزلي معروف وصاحب مدرسة معروفة باسم الجاحظية وقد عاصر المحنة وشهدها وكان أحد مؤيديها . قال الجاحظ [1] :

« وبعد فنحن لم نُكَفِّر الا من أوسعناه حجة، ولم نمتحن الا أهل التهمة . وليس كشف المتهم من التجسس ولا امتحان الظنين من هتك الأستار . ولو كان كل كشف هتكاً وكل امتحان تجسساً ، لكان القاضي أهتك الناس لستر ، وأشد الناس كشفاً لعورة . والذين خالفوا في العرش ، انما أرادوا نفي التشبيه ، فغلطوا والذين أنكروا أمر الميزان ، انما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً غلاظاً . فإن كانوا قد أصابوا ، فلا سبيل عليهم ، وان كانوا قد أخطأوا ، فان خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر ، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق ، فبين المذهبين أبين الفرق .

وقد قال صاحبكم (أي الامام أحمد بن حنبل) للخليفة المعتصم ، يوم جمع الفقهاء والمتكلمين ، والقضاة والمخلصين أعذاراً وانذاراً : امتحنتني ، وأنت تعرف ما في المحنة ، وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتني من بين جميع هذه الأمة . قال المعتصم : أخطأت بل كذبت ، وجدت الخليفة قبلي قد حبسك وقيدك . ولو لم يكن حبسك على تهمة ، لأمضي الحكم فيك ، ولو لم

(١) مقدمة كتاب أحمد بن حنبل والمحنة ص ١٢ — ١٤ .

يتخفك على الاسلام ، ما عرض لك . فسؤالي اياك عن نفسك ، ليس من المحنة ، ولا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كشف العورة ، اذ كانت حالُك هذه الحال ، وسبيلك هذه السبيل ، وقيل للمعتصم في ذلك المجلس : ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره ، ويعاينوا انقطاعه ، فينقض ذلك استبصارهم ، فلا يمكنه جحد ما أقر به عندهم ؟ فأبى أن يقبل ذلك ، وأنكره عليهم ، وقال : لا أريد أن أوتى بقوم ، ان اتهمتهم مُيِّزت فيهم بسيرتي فيهم ، وان بان لي أمرهم ، أنفذت حكم الله فيهم ، وهم ، ما لم أوت بهم ، كسائر الرعية ، وكغيرهم من عوام الأمة . وما شيء أحب إليَّ من الستر ، ولا شيء أولى بي من الأناة والرفق .

* * *

وما زال به رفيقا وعليه رقيقا ، ويقول : لأن أستحييك بحق ، أحب إلي من أن أقتلك بحق . حتى رآه يعاند الحجة ويكذب صراحاً عند الجواب ، وكان آخر ما عاند فيه ، وأنكر الحق وهو يراه ، أن أحمد ابن أبي دؤاد ، قال له : أليس لا شيء الا قديم أو حديث ؟ . قال : نعم ، قال : أو ليس القرآن شيئاً ؟ . قال : نعم . قال : أو ليس لا قديم الا الله ؟ قال : نعم . قال : فالقرآن اذاً حديث ؟ قال : ليس أنا متكلم . وكذلك كان يصنع في جميع مسائله ، حتى كان يجيبه في كل ما سأل عنه ، حتى اذا بلغ المُنْخَنَق ، والموضع الذي ان قال فيه كلمة واحدة ، برىء منه أصحابه ، قال : ليس أنا متكلم . فلا هو قال في أول الأمر :

لا علم لي بالكلام ، ولا هو حين تكلم ، فبلغ موضع ظهور الحجة ، خضع للحق ، فمقته الخليفة ، وقال عند ذلك : أف لهذا الجاهل مرة ، والمعاند مرة .

وأما الموضع الذي فيه واجه الخليفة بالكذب ، والجماعة بالقحة ، وقلة الاكتراث ، وشدة التصميم ، فهو حين قال له أحمد بن أبي دواد : أتزعم أن الله تعالى رب القرآن ؟ . قال : لو سمعت أحداً يقول ذلك ، لقلت . قال : أفما سمعت ذلك قط من خالف ولا سائــل ، ولا من قاص ، ولا في شعر ، ولا في حديث ؟ ... قال : فعرف الخليفة كذبه عند المسألة ، كما عرف عناده عند الحجة . وأحمد بن أبي دؤاد ، حفظك الله تعالى ، أعلم بهذا الكلام وبغيره من أجناس العلم ، من أن يجعل هذا الاستفهام مسألة ، ويعتمد عليها في مثل تلك الجماعة . ولكنه أراد أن يكشف لهم جرأته على الكذب ، كما كشف لهم جرأته في المعاندة ، فعند ذلك ضربه الخليفة .

« وأية حجة لكم في امتحاننا اياكم ، وفي اكفارنا لكم ؟ . وزعم (أي الامام أحمد بن حنبل) يومئذ أن حكم كلام الله تعالى كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن يكون علمه محدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً ومحدثاً . فقال (أي أحمد بن أبي دواد) له : أليس قد كان الله يقدر أن يُبَدل آية مكان آية ، وينسخ آية بآية . وأن يذهب بهذا القرآن ويأتي بغيره ، وكل ذلك في الكتاب مسطور ؟ قال : نعم . قال : فهل كان يجوز

هذا في العلم ، وهل كان جائزاً أن يُبَدل الله علمه ويذهب به ويأتي بغيره ؟ . قال : لا .

وقال (أي أحمد بن أبي دؤاد) له : روينا في تثبيت ما نقول الآثار ، وتلونا عليك الآية من الكتاب ، وأريناك الشاهد من العقول التي بها لزم الناس الفرائض ، وبها يفصلون بين الحق والباطل ، فعارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث . فلم يكن ذلك عنده ، ولا استخزى من الكذب في هذا المجلس ، لأن عدة من حضره ، أكثر من أن يطمع أحد أن يكون الكذب يجوز عليه .

« وقد كان صاحبكم هذا (أي الامام أحمد) يقول : لا تقية الا في دار الشرك ، فلو كان ما أقر به من خلق القرآن ، كان منه على وجه التقية ، فقد أعملها في دار الأسلام . وقد أكذب نفسه ، وان كان ما أقر به على الصحة والحقيقة ، فلستم منه وليس منكم . على أنه لم ير سيفاً مشهوراً ، ولا ضُرب ضرباً كثيراً ، ولا ضُرب الا بثلاثين سوطاً ، مقطوعة الثمار ، مشعبة الأطراف ، حتى أفصح بالاقرار مراراً ، ولا كان في مجلس ضيق ، ولا كانت حاله حال مؤيسة ، ولا كان مثقلا بالحديد ، ولا خُلِـع قلبه بشدة الوعيد . ولقد كان ينازع بألين الكلام ، ويجيب بأغلظ الجواب ، ويرزنون ويخف ، ويحلمون ويطيش ».

أما وقد بسطنا روايتين متقابلتين لطرفي النزاع ، فإننا مع احترامنا للجاحظ كعالم فذ من علماء الثقافة الإسلامية ، إلا أننا لا نستطيع أن نجرده عن الهوى ، فقد كان أحد أصحاب ابن أبي دؤاد رأس

الفتنة وخالقها ومشعل نيرانها ، وكان الجاحظ أيضا من القائلين بأن القرآن مخلوق والمكفرين لعباد الله من علماء المسلمين وعامتهم الذين لا يشاطرونه هذا الرأي ، وهو في رسالته يدافع عن فكر المعتزلة أكثر مما يدخل إلى موضوع الخلاف ولبه ، فيقول « إن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطأوا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر » والجاحظ قد حرم على الفريق الآخر ما أحله لنفسه حين جعل اجتهاد جماعته في قضية خلق القرآن ، نافعة إن أصابوا ، غير ضارة إن أخطأوا ، وليس الأمر كذلك ، وهو إلى ذلك قد حرمهم حق اجتهادهم من أن القرآن قديم وهو الرأي الذي قالوا به مؤيدا بالبرهان القرآني مقرونا بالشواهد التي مر ذكر شيء منها في أقوال الإمام أحمد . هذا من ناحية ومن ناحية فإن نتيجة الاجتهاد لا تفرض تكفير المعارضين ما داموا مؤمنين بالأسس الأصلية التي يكون المرء بها مسلما ، كما أن نتيجة الاجتهاد لا تستتبع ضرب الرقاب وإراقة الدماء وجلد العلماء أمام الأنظار وسجن المعارضين منهم ووضعهم في القيود والتمثيل بهم.

لقد جنح الجاحظ إلى جانب قومه مع تجنّيهم وارتكاب الحماقات والحجر على الفكر بالقتل والسجن ، وما علم أن السنة التي استنها جماعته لأنفسهم وشريعتهم قد تستعمل ضدهم غداً ، وهذا هو الذي حدث بالفعل عندما حرموا السلطان وزال عنهم الحكم وانتقل إلى غيرهم ، هناك أذيقوا نفس العذاب الذي أذاقوه معارضيهم وشربوا نفس الكأس التي سقوها خصومهم ، وهي سابقة خطيرة في تاريخ الفكر هم استنوها بأنفسهم فكانت وبالا على

الإسلام ونكالا على المسلمين .

ومهما يكن من أمر فإن الإمام أحمد بن حنبل قد واجه المحنة بقلب المؤمن وعزيمة الشجاع وسلاح العالم وصبر المنيب وكان له النصر في آخر المعركة وكان للعقيدة السلام على يديه .

فقه ابن حنبل :

يستمد أحمد بن حنبل فقهه من مناهل الدين الأصيلة الصافية ويقول : الدين إنما هو كتاب الله عز وجل وآثار وسنن وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة المعروفة ، يصدق بعضها بعضاً حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين وتابعي التابعين ، ومن بعدهم الأئمة المعروفين المقتدى بهم ، المتمسكين بالسنة ، والمتعلقين بالآثار لا يعرفون بدعة ولا يطعن فيهم بكذب ولا يرمون بخلاف ، وليسوا بأصحاب قياس ولا رأي ، لأن القياس في الدين باطل ، والرأي مثله وأبطل منه ، وأصحاب الرأي والقياس في الدين مبتدعة ضلاّل ، إلا أن يكون في ذلك أثر عمن سلف من الأئمة (١) .

وإذن فالإمام أحمد يبطل الرأي والقياس ثم يعمد إلى الاستثناء « إلا أن يكون في ذلك أثر عمن سلف من الأئمة » .

على أن المصادر التي لا تقبل الجدل عنده فيستمد منها فقهه هي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والإجماع .

(١) طبقات الحنابلة ٣١/١ .

الفتنة وخالقها ومشعل نيرانها ، وكان الجاحظ أيضا من القائلين بأن القرآن مخلوق،والمكفرين لعباد الله من علماء المسلمين وعامتهم الذين لا يشاطرونه هذا الرأي ، وهو في رسالته يدافع عن فكر المعتزلة أكثر مما يدخل إلى موضوع الخلاف ولبه ، فيقول « إن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطأوا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر » والجاحظ قد حرم على الفريق الآخر ما أحله لنفسه حين جعل اجتهاد جماعته في قضية خلق القرآن ، نافعة إن أصابوا ، غير ضارة إن أخطأوا ، وليس الأمر كذلك ، وهو إلى ذلك قد حرمهم حق اجتهادهم من أن القرآن قديم وهو الرأي الذي قالوا به مؤيدا بالبرهان القرآني مقرونا بالشواهد التي مر ذكر شيء منها في أقوال الإمام أحمد . هذا من ناحية ومن ناحية فإن نتيجة الاجتهاد لا تفرض تكفير المعارضين ما داموا مؤمنين بالأسس الأصلية التي يكون المرء بها مسلما ، كما أن نتيجة الاجتهاد لا تستتبع ضرب الرقاب وإراقة الدماء وجلد العلماء أمام الأنظار وسجن المعارضين منهم ووضعهم في القيود والتمثيل بهم.

لقد جنح الجاحظ إلى جانب قومه مع تجنّيهم وارتكاب الحماقات والحجر على الفكر بالقتل والسجن ، وما علم أن السنة التي استنها جماعته لأنفسهم وشريعتهم قد تستعمل ضدهم غداً ، وهذا هو الذي حدث بالفعل عندما حرموا السلطان وزال عنهم الحكم وانتقل إلى غيرهم ، هناك أذيقوا نفس العذاب الذي أذاقوه معارضيهم وشربوا نفس الكأس التي سقوها خصومهم ، وهي سابقة خطيرة في تاريخ الفكر هم استنوها بأنفسهم فكانت وبالا على

الإسلام ونكالا على المسلمين .

ومهما يكن من أمر فإن الإمام أحمد بن حنبل قد واجه المحنة بقلب المؤمن وعزيمة الشجاع وسلاح العالم وصبر المنيب وكان له النصر في آخر المعركة وكان للعقيدة السلام على يديه .

فقه ابن حنبل :

يستمد أحمد بن حنبل فقهه من مناهل الدين الأصيلة الصافية ويقول : الدين إنما هو كتاب الله عز وجل وآثار وسنن وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة المعروفة ، يصدق بعضها بعضاً حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين وتابعي التابعين ، ومن بعدهم الأئمة المعروفين المقتدى بهم ، المتمسكين بالسنة ، والمتعلقين بالآثار لا يعرفون ببدعة ولا يطعن فيهم بكذب ولا يرمون بخلاف ، وليسوا بأصحاب قياس ولا رأي ، لأن القياس في الدين باطل ، والرأي مثله وأبطل منه ، وأصحاب الرأي والقياس في الدين مبتدعة ضلاّل ، إلا أن يكون في ذلك أثر عمن سلف من الأئمة (١) .

وإذن فالإمام أحمد يبطل الرأي والقياس ثم يعمد إلى الاستثناء « إلا أن يكون في ذلك أثر عمن سلف من الأئمة » .

على أن المصادر التي لا تقبل الجدل عنده فيستمد منها فقهه هي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والإجماع .

---

(١) طبقات الحنابلة ١/٣١ .

ولما كان تلاميذ الأئمة ومريدوهم المتوفرون على دراسة آرائهم واجتهادهم هم أكثر الناس فهما لها فإن الشيخ ابن تميم الحنبلي يوضح لنا بشكل أوسع أصول فقه الإمام ابن حنبل في مقدمته لأصول المذهب الملحقة بآخر كتاب الطبقات ويردها إلى مصادر خمسة :

أولها : كتاب الله معتمدا على الآية الكريمة « وَمَا فَرَّطْنَا في الكتابِ مِنْ شَيْء » .

وثانيها : سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمدا على الآية الكريمة :

« فإنْ تَنَازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وإلى الرَّسُول » وإلى الآية الكريمة « وما آتاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وما نَهاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا » وإلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « عليكم بِسُنَّتي »

وثالثها : إجماع أهل العصر من العلماء أهل العقد والحل إذا لم يختلفوا ، فإن خالف بعضهم ولو كان واحدا ، لم يكن إجماعا ، وإذا انتشر القول عن بعضهم وعلمه جميعهم فلم ينكروا شيئا منه فهو إجماع ، ويقول أيضا : الإجماع إجماع الصحابة ، ومن سواهم تبع لهم ، وذهب بعض أصحاب الإمام إلى أن إجماع كل عصر على الشرط الأول بمنزلة إجماع الصحابة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا تجتمع أمتي على ضلال » وكان الإمام أحمد يحبّ إجماع أهل المدينة ويقدمه على غيره لأنه أشد اتباعا

وأكثر رواية وأخص دراية بأفعال الرسول ومن كان بعده .

رابعا : قول الواحد من الصحابة اذا انتشر ولم يُعْرَفْ له مُنْكِرٌ أنكره ، معتمدا على الحديث الشريف « أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم » .

خامسا : القياس وهو الذي ذكره الإمام مشروطا وفي حالات الضرورة ، فالقياس عند الحنابلة هو رد الشيء إلى نظيره بعلة تجمع بين أصله وفرعه ، فإن انعدم ذلك فلا قياس ، ولا بد للقياس من أن يكون عن طريق الشبه والمقاربة حتى يكون له علة صحيحة تجمع بين الأصل والفرع .

والقياس عند ابن حنبل في الأدلة بمنزلة الميتة مع الضرورة والتراب عند عدم وجود الماء .

• كان الإمام أحمد يقبح الاستحسان ولا يأخذ به .

وكان ابن حنبل ورعا الورع كله الأمر الذي دفعه إلى تجلية الأحكام تجلية لا تترك أمامها لبسا ولا إبهاما ، ومن هنا كانت سمات التشدد والقطع واضحة في المذهب الحنبلي بحيث صارت فيما تلا من قرون صفة من صفاته وعلامة من علاماته .

تشدد المذهب في أمور الطهارة والنجاسة ، فقال إن نجاسة الكلب يجب أن تغسل ثماني مرات بينما هي سبع مرات عند الشافعي ، بل إن الكلب ليس بنجس عند مالك ، وابن حنبل يوجب غسل اليد عند القيام من النوم بينما ذلك سنة عند الأئمة الآخرين ، كما

أنه يوجب الوضوء بعد أكل لحم الأبل ، ويوجب المضمضة والاستنشاق في الوضوء وهي سنة في المذاهب الأخرى .

وابن حنبل يحرم الغناء ويشدد فيه ويأمر بكسر الملاهي ، وحرم الغناء والألحان في القرآن والشعر (١) ويروي حديث الرسول « بعثت بكسر الطبل » .

ويقول ابن حنبل بوقوع الطلاق الثلاث في لفظ واحد ، ولا يبيح الرجوع إلا بعد زوج آخر وإصابة (٢) ويذهب إلى حديث ابن عمر « يا رسول الله : أرأيت لو طلقتها ثلاثا ؟ فقال : بانت منك زوجك وعصيْتَ ربك » .

على أن الإمام أحمد رغم تشدده في الأحكام كانت له نظرات بناءة تدل على فهم للدين ينمي المجتمع ويستهدف صلاحه ، فهو مثلا يفضل الزواج على الحج في حالة خشية الرجل على نفسه وليس لديه إلا مال يكفيه لواحد من اثنين حج أو زواج . لقد سئل الإمام : « إذا كان مع الرجل مال ، فإن تزوج لم يبق معه فضل يحج به ، وإن حج خشي على نفسه ؟ فأجاب : إذا لم يكن له صبر عن التزوّج تزوج وترك الحج (٣) » .

وفي مجال العناية بالمجتمع والاهتمام بأفراده يرى الأمام ابن حنبل أن القرابة كلها توجب النفقة ، فكل من يرث الفقير العاجز

(١) طبقات الحنابلة ٢/٢٧٦ ، ٢٧٩ .

(٢) المصدر السابق ٢/٢٧٧ .

(٣) طبقات الحنابلة ١/٢٣ .

عن الكسب تجب عليه نفقته في حالة عجز هذا الفقير . والميراث عند ابن حنبل يشمل الأقارب من قاصين ودانين ، ومن أصول وفروع ، ويضم إليهم أصحاب الفروض وذوي الأرحام ، وهذا اتجاه عظيم من ابن حنبل يرى فيه الصديق الدكتور أحمد الشرباصي أنه أقرب شيء إلى روح التكافل الاجتماعي (١) .

مؤلفات ابن حنبل :

كان الإمام احمد بن حنبل منقطعا إلى العلم بصفة عامة وللحديث بصفة خاصة ، ولذلك فإنه ترك رصيدا نفيسا من المؤلفات تندرج جميعا تحت باب الحديث أكثر من اندراجها تحت أي باب آخر من العلوم الدينية ، وحتى تلك التي لا يدل اسمها على أنها كتب حديث تعتمد أكثر ما تعتمد على الأحاديث الشريفة تأخذ منها مادتها وتنسج منها موضوعاتها .

والكتب التي ذكرت لابن حنبل في طبقات الحنابلة هي كتابه العظيم « المسند »، والتفسير، والناسخ والمنسوخ ، وحديث شعبه ، والمقدم والمؤخر في كتاب الله ، وجوابات القرآن ، والمناسك الكبير ، والمناسك الصغير ، ثم يضيف المصدر ، وغير ذلك من التصانيف (٢) ، ومعنى ذلك أن للإمام تصانيف أخرى لم يُعن مصنف الطبقات بتسجيلها إما لشهرتها آنذاك أو لأنها رسائل صغيرة .

(١) الأئمة الأربعة ص ٢٠٩ .

(٢) طبقات الحنابلة ١/١٨٣ .

فإذا رجعنا إلى ما بين أيدينا من كتب للإمام وجدنا بعضها لم يذكر في النص السابق ووجدنا بعض الكتب التي ذكرت لم تصل إلينا .

والكتب التي بين أيدينا مطبوعة للإمام هي : المسند ، وكتاب الصلاة وهو كتاب صغير ، وكتاب السنة وهو رسالة صغيرة ، وكتاب الورع ، وكتاب الزهد ، وكتاب مسائل الإمام احمد الذي جمعه أبو داوود السجستاني وقام على نشره الشيخ رشيد رضا ، ورسالة الرد على الجهمية .

هذه هي كتب الإمام المنشورة إلا أنها جميعا على ما فيها من خير لا تقف منتصبة القامة أمام عمله الجليل الخالد « المسند » .

لقد توفر أحمد على جمع المسند طوال أيام حياته ، ضمنه ثلاثين ألف حديث حسب رواية أبي الحسين بن المناوي (1) ، وذهب قوم إلى أن عدد أحاديث المسند أربعون ألف ، وبعض المستشرقين ممن اهتموا بالحديث مثل جولدسيهر ونللينو يقدرون أنها دون الثلاثين ألف ، ومهما كان الأمر فلا بدّ من متخصص في الحديث لكي يتوفر عليها ، ويرسم حدود كل حديث مستقل بذاته ويقدم لنا الرقم الصحيح لعددها .

على أن أحاديث المسند قد انتقيت من سبعمائة وخمسين ألف حديث رويت من أكثر من سبعمائة صحابي ، والإمام أحمد قد أحس بخطر هذا العمل الذي قام به بأمانة ودقة وهما صفتان من صفات الإمام الجليل ، وكان الإمام يملي الأحاديث على خاصته وخصوصا ولده عبد الله الذي كني به ، كما كان يسجل بعضها في كثير من الأحيان بنفسه ، ولكنه توفي قبل أن يخرج العمل الكبير للناس بنفسه فقام ابنه عبد الله على إعداده ، وإضافة بعض ما سمع من أحاديث صحيحة نصّ على أنه أضافها بعد وفاة أبيه .

على أن شكل الكتاب كان متضحا في نظر ابن حنبل وكان قد اتخذ شكلا يجعله أقرب إلى التماسك بين دفتين منه إلى نثار مفرق من الأوراق وهو لذلك يقول « إن هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث فيما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارجعوا إليه ، فإن كان فيه ، وإلا ليس بحجة » ومعنى كلام الإمام أن حديثا ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يكون موجودا في المسند لا يلتفت إليه . وهو يعلم قدر كتابه كل العلم لأنه يكرر أنه المرجع الأخير في أحاديث الرسول بأكثر من عبارة فيقول مرة أخرى « عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس في سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رُجع إليه » .

والأمر المسلم به بين جمهور المشتغلين بالحديث والعلوم الدينية أن المسند أحد المصادر الكبرى لأحاديث الرسول بالرغم من أن كتبا أخرى قد ذاع صيتها ألفت بعده مثل صحيح تلميذيه البخاري ومسلم .

وفاة ابن حنبل :

لم يشغل مرض إمام من أئمة المسلمين الناس كما شغلهم مرض

الإمام ابن حنبل ، فلم يكد سكان بغداد يعلمون بمرضه حتى توافدوا في حشود ضخمة دافقة إلى بيته يسألون عنه ويتنسمون أخباره، وظل الأمر كذلك والإمام مريض حتى سُدَّت المسارب والدروب التي تؤدي إلى داره بأجسام البشر وحتى اضطرت الشرطة إلى التدخل وإلى اغلاق باب الدرب ، ولم يكن يسمح لأحد بزيارته إلا من يرغب هو في رؤيتهم بالاضافة إلى الأطباء الذين كانوا يترددون عليه .

على أن مرض الإمام لم يكن موضع قلق الناس وحدهم بل كان موضع قلق الدولة نفسها ، فكانت أخبار مرضه وحالته ترسل يوميا من بغداد إلى العسكر حيث يقيم الخليفة .

لم يكن أحمد إذن مجرد عالم ديني أو مجتهد أو فقيه أو محدِّث وإنما كان للناس إمام وزعيم قاد الدفة بصبر وجلد وإيمان في أيام المحنة حتى تغير وضع الخلافة واصبح الخليفة على آخر العهد يأخذ بنصائحه ويتبع مدرسته الفكرية .

ولم تطل فترة مرض ابن حنبل أكثر من تسعة أيام أسلم في نهايتها روحه الطاهرة إلى بارئها في يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٢٤١ هـ فخيم على بغداد الحزن العميق ، وشيعت جنازته بعد ظهر يوم وفاته واختلفت الروايات حول عدد المشيعين والمصلين عليه الذين تراوح عددهم بين ثمانمائة ألف مشيع ومشيعة ومليونين ونصف من المشيعين والمشيعات ، وفتح الناس أبواب منازلهم ينادون من أراد الوضوء ، وتقدم الوالي ابن طاهر يريد الصلاة عليه ولكن صالح بن الإمام رفض أن يصلي عليه الوالي وأصر أن يصلي هو على

أبيه ، فتقدم رجلان من رجال ابن طاهر وقبضا على يديه حتى صلى الأمير متصدرا الحشود الضخمة ، وظلت مئات الآلاف حول القبر تحيط به لعدة أيام من كل جانب بحيث أن أحد أصحاب الإمام وهو أبو الحسن التميمي مكث أياما يحاول أن يصل إلى القبر فلم يصل إليه إلا بعد أسبوع .

لقد كان ابن حنبل إماما جليلا عظيما في حياته عظيما يوم مماته كما أنه علم من أعلام تاريخ المسلمين وإمام كبير من أئمة المؤمنين .

الأشاعرة أول من سُمُّوا بأهل السنة :

مرّ بنا كيف نشأت فكرة الاعتزال ، وكيف غلا القوم في تعطيل صفات الله والتعسف في تناول قضية أفعال الإنسان وفتنة خلق القرآن وما أريق حولها من دماء المسلمين والإيغال في ربط العقيدة الإسلامية بالفلسفة اليونانية بحيث كان المعتزلة يمثلون دور التحرر المطلق في التفكير الإسلامي ، ولكن في نفس الوقت كانت هناك جماعات تمثل جانب التحفظ في التفكير الإسلامي حين تناولت مسائل الجبر والاختيار وفاعل الكبيرة والخلود في الجنة أو النار وغير ذلك من القضايا الدينية . تناولت كل ذلك من زاويتها

الخاصة مخالفة المعتزلة كل المخالفة بحيث أصبح المعسكران طرفي نقيض .

ولما كان التطرف والاندفاع في الأفكار دون روابط ينتهي إلى الشطط والزيغ ، ولما كان أيضاً الجمود والسلبية يؤديان إلى تجميد الدين ، وكل من الأمرين مرفوض مرذول ، فقد ظهر من بين صفوف المعتزلة المندفعين مفكر كان يؤمن بما يقولون أول الأمر ثم ما لبث أن اختط خطة معتدلة لا هي إلى الشطط فتؤذي ولا هي إلى الجمود فتضر ، هذا المفكر الإسلامي هو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري من نسل أبي موسى الأشعري صاحب قضية التحكيم المشهورة . ولد أبو الحسن سنة ٢٦٠ وتوفي سنة ٣٢٤ ﻫ وكان تلميذا لأبي هاشم الجبائي المعتزلي .

استطاع الأشعري أن يصدر أحكاما في قضايا العقائد في جو من الاعتدال والصفاء بعيدا عن التهور والاندفاع ، وبالرغم من أن بعض الفقهاء ارتابوا في عقيدته وأن الحنابلة رموه بالكفر ، فإن ذلك لم ينهض دليلا على زيغه ، بل نصره كبار العلماء كأبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين والاسفرائيني وغيرهم من الأعلام الذين تبنوا أفكاره بعد موته ، وقد سمى هؤلاء الأعلام رأي الأشعري بمذهب أهل السنة والجماعة (١) ، وهكذا نسمع لأول مرة عن هذا المذهب أي مذهب السنة والجماعة رغم أن أهل الحديث الذين سلفت الإشارة إليهم يعتبرون من أهل السنة ورغم أن كثيرا من

(١) رسالة التوحيد للامام محمد عبده ص ١٩ .

الصحابة والتابعين يعتبرون من أهل السنة أيضا .

لقد كان الأشعري معتزليا أول أمره ، لكنه رجع إلى مذهب السلف الصالح في أكثر مسائل الخلاف ، بل إنه صرح باتباع الإمام أحمد بن حنبل .

فإذا كان الجبرية يقولون إن الله خالق أفعال الإنسان ، وإذا كان المعتزلة يقولون إن الإنسان خالق أفعال نفسه فإن الأشعري يقول : إن أفعال الإنسان لله خلقا وإبداعا ، وإنها للإنسان خلقا ووقوعا عند قدرته ، فالإنسان يريد الفعل وتتجرد له همته والله يخلقه .

وفي قضية القرآن وهل هو مخلوق أو قديم يقول الأشعري ينبغي أن نفرق بين كلام الله القائم بذاته وهو قديم ، وبين الكتاب الذي بين أيدينا والذي أنزل على محمد في زمن بعينه فيقول ما نصه « كلامه واحد هو أمر ونهي وخبر واستخبار ووعد ووعيد وهذه الوجوه ترجع إلى اعتبارات في كلامه لا إلى عدد في نفس الكلام والعبارات ، والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلي ، والدلالة مخلوقة محدثة والمدلول قديم أزلي ، والفرق بين القراءة والمقروء والتلاوة والمتلو كالفرق بين الذكر والمذكور ، فالذكر محدث والمذكور قديم » (١)

« يقول في رؤية الله في الآخرة : إن المصحح للرؤية إنما هو الوجود ، والباري تعالى موجود فيصح أن يرى ولا يجوز أن تتعلق

(١) الملل والنحل ٨٧/١ .

الرؤية على جهة ومكان وصورة ومقابلة واتصال شعاع أو على سبيل انطباع فإن كل ذلك مستحيل .

وفيما يتعلق بنظرية العدل عند المعتزلة يرد عليها بقوله : إن الله قادر على مجازاة العبيد ثوابا وعقابا ، والثواب والنعيم واللطف كله منه فضل ، والعقاب والعذاب كله عدل . والايمان عنده بتوفيق الله ، والكفر والمعصية بخذلانه .

وتحدث عن الإمامة بما يخالف المعتزلة والشيعة فقال إن الإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار دون النص والتعيين ويجعل الخلفاء الراشدين مترتبين في الفضل ترتبهم في الإمامة أي أن أفضلهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي .

وهو حين يتحدث عن الذات الإلهية يتحدث بما يليق نابذا الأساليب السخيفة التي عمد إليها المعتزلة حين خاضوا في هذا الموضوع .

وهكذا نجد أن لقب « أهل السنة » أطلق أول ما أطلق على جماعة الأشاعرة ومن نحا نحوهم ثم اتسعت دائرته فشملت أصحاب المذاهب والفقهاء من أمثال الشافعي ومالك وأبي حنيفة وابن حنبل والأوزاعي وأهل الرأي والقياس والإجماع وابتعدوا عن خطل المعتزلة ولم يؤمنوا بالإمامة إلا على الأسلوب الذي جرى في انتخاب أبي بكر وعمر ثم عثمان ثم علي وأنه ليس هناك إمامة في أسرة بعينها ولا وصاية بل الإمامة تصح في أي مسلم صالح لها مهما كان جنسه ولونه ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

عقيدة أهل السنة :

وقد شرح البغدادي عقيدة أهل السنة وعدد أصنافهم فيما يلي :

أولا : من أحاطوا العلم بأبواب التوحيد والنبوة وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب وشروط الاجتهاد والإمامة والزعامة وسلكوا في هذا النوع من العلم طرق الصفاتية من المتكلمين الذين تبرأوا من التشبيه والتعطيل ومن بدع الرافضة والخوارج وسائر أهل الأهواء الضالة .

ثانياً : أئمة الفقه من أهل الرأي والحديث الذين اعتقدوا في أصول الدين مذاهب الصفاتية في الله ، وفي صفاته الأزلية ، وتبرأوا من القدر والاعتزال وأثبتوا رؤية الله تعالى بالأبصار من غير تشبيه ولا تعطيل ، وأثبتوا الحشر من القبور مع إثبات السؤال في القبر ، وإثبات الحوض والصراط ، والشفاعة وغفران الذنوب التي دون الشرك ، وقالوا بدوام نعيم أهل الجنة على أهلها ، ودوام عذاب النار على الكفرة ، وقالوا بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأمة ، ورأوا وجوب الجمعة خلف الأئمة الذين تبرأوا من أهل الأهواء الضالة ، ورأوا وجوب استنباط الشريعة من الكتاب والسنة ومن إجماع الصحابة ، ورأوا جواز المسح على الخفين ووقوع الطلاق الثلاث وتحريم المتعة ووجوب طاعة السلطان فيما ليس بمعصية ، ويدخل في هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعي والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة وأصحاب أحمد بن حنبل وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا في الأبواب العقلية أصول الصفاتية

ولم يخلطوا الفقه بشيء من أهواء أهل البدع الضالة .

ثالثاً : الذين أحاطوا علماً بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي وميزوا بين الصحيح والسقيم منها وعرفوا أسباب الجرح والتعديل[1] ولم يخلطوا علمهم بذلك بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة .

رابعاً : الذين أحاطوا علماً بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف وجروا على سمت أئمة اللغة كالخليل وأبي عمرو بن العلاء وسيبويه والفراء والأخفش والأصمعي والمازني وسائر أئمة النحو من الكوفيين والبصريين الذين لم يخلطوا علمهم بشيء من بدع القدرية أو الرافضة أو الخوارج .

خامساً : الذين أحاطوا علماً بوجوه قراءات القرآن ووجوه تفسير آياته وتأويلها وفق مذاهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة .

سادسا : الزهاد والصوفية الذين أبصروا فأقصروا واختبروا فاعتبروا ، ورضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور ، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك مسئول عن الخير والشر ، دينهم التوحيد ونفي التشبيه ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى والتوكل عليه والتسليم لأمره والقناعة بما رزقوا به والإعراض عن الاعتراض عليه .

سابعاً : المرابطون في ثغور المسلمين يحمون حمى الوطن الإسلامي

(١) الجرح : التجريح الذي يجعل الإنسان غير ثقة لرواية الحديث . والتعديل : إثبات الصفات التي تجعله غير عرضة للتجريح .

ويذبون عنه ويظهرون في ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة[1]

هؤلاء هم أهل السنة كما حددهم البغدادي وهو أحد علماء السنة ومن الخبراء الثقاة في أهل الفرق والمذاهب المتعددة ، وهكذا نرى أن أهل السنة هم هؤلاء الذين ساروا على درب الصحابة والسلف الصالح ولم يلتزموا الاتجاهات التي يغلب عليها الافتعال والتعسف ، بل كانوا واضحين فيما ارتضوه لأنفسهم من عقائد مرجعها جميعاً إلى الكتاب والسنة والرأي والإجماع والقياس والاجتهاد والبعد عن التطرف في العقيدة أو التعسف في إصدار الأحكام .

السلفيون :

حينما تعددت الآراء حول العقيدة الإسلامية ، وتعددت المذاهب التي يعتمد بعضها على الفلسفة حينا والعقل حينا آخر ، واشتدت الملاحاة بين هؤلاء وهؤلاء ، رأى فريق من أئمة الإسلام أن يردوا كل ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية إلى طبيعتها الأولى حسب ما كانت عليه في أيام الصحابة والتابعين فلا يأخذونها إلا من معينها الأصلي ومنابعها الأولى أي من الكتاب والسنة فنهج هؤلاء الطريقة التي كان يتبعها السلف الصالح ولذلك أطلقوا على أنفسهم لقب « السلفيين » .

لقد سبقت الإشارة إلى أن الأئمة الأربعة كانوا يستمدون العقيدة من الكتاب والسنة ولكنهم مع ذلك لم يعرفوا باسم السلفيين لأن الشقة

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٠٠ – ٣٠٣ .

الزمنية بينهم وبين الصحابة والتابعين لم تكن بعيدة بل لعلهم رأوا وتتلمذوا لكثير من التابعين ، ولكن مع امتداد الزمان وانشعاب الجماعات الإسلامية في أفكارها متمذهبة بالكثير من المذاهب بين قديمة كالشيعة والخوارج والمعتزلة وحديثة كالأشعرية والماتريدية (١) نظرت هذه الجماعات الجديدة نظرة جادة إلى الانحراف الذي أصاب صلب العقيدة عن طريق المذاهب السالفة خصوصا الأشاعرة الذين قويت شوكتهم وقوي سلطانهم ، واشتد الجدل بين السلفية وأصحاب المذاهب عامة ، وبينهم وبين الأشعرية خاصة لأن كلا من الفريقين يدعي لنفسه أنه الوحيد الذي يدعو إلى مذهب السلف ، وما لبث الفريق الجديد أن اشتد عضده حين قام الإمام أحمد بن تيمية في القرن السابع يقود حركته ويغذي منهجه بالتأليف والرد على خصوم المذهب ومحاجتهم وقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان .

وإذا كانت السلفية عرفت هكذا في القرن السابع الهجري فليس معنى ذلك أنها أتت بجديد ، فواقع الأمر أن هؤلاء السلفيين هم امتداد لمدرسة الإمام أحمد بن حنبل وأن الحنابلة هم الذين وضعوا الأسس التي سار عليها السلفيون من بعد مثل الكلام في التوحيد وصلة ذلك بالأضرحة كما تناولوا آيات التأويل والتشبيه .

(١) الماتريدية فرقة إسلامية أنشأها أبو منصور الماتريدي في بلاد ما وراء النهر ، وكان الماتريدي معاصراً للأشعري ، وكان مستهدفا في منهجه الحد من اندفاع المعتزلة وتهورهم في نسبة كل شيء إلى العقل فهو بذلك قريب الشبه بالأشاعرة وإن كان أقرب منهم إلى المعتزلة ، والماتريدية لم تشتط في الأحكام ولم تحكم على أحد مجتهدي المسلمين بالكفر وإنما كانت تستهدف أقرب المناهج إلى الصحابة والتابعين .

وعلى هذا الأساس ينكر ابن تيمية على « أهل العقل » من فلاسفة الإسلام منهجهم وينتهي إلى أنه لا سبيل إلى معرفة العقيدة والأحكام وكل ما يتصل بها إجمالا وتفصيلا واعتقادا واستدلالا إلا من القرآن والسنة المبينة له والسير في مسارهما ، فما يقرر القرآن وما تشرحه السنة مقبول لا يصح رده ، وإنكاره خروج على الدين ، وليس للعقل سلطان في تأويل القرآن وتفسيره أو تخريجه إلا بالقدر الذي تؤدي إليه العبارات وما تضافرت عليه الأخبار ، وإذا كان للعقل سلطان بعد ذلك فهو في التصديق والإذعان وبيان تقريب المنقول من المعقول وعدم المنافرة بينهما ، فالعقل يكون شاهدا ولا يكون حاكما ، ويكون مقررا مؤيدا ولا يكون ناقضا ولا رافضا ، ويكون موضحا لما اشتمل عليه القرآن من الأدلة (١) .

وهكذا حدّ السلفيون من سلطان العقل في القضايا الدينية ، وهذا النهج رغم خطورته وخشية أن يؤدي إلى الجمود قد اضطر السلفيون إلى مسايرته اضطرارا بعد الشطحات والانزلاقات الكثيرة التي تردى فيها المعتزلة نتيجة لإخضاعهم كل أمور الدين للعقل .

ولما كانت هناك بعض المشاكل الكبرى التي هزت كيان المجتمع الإسلامي العقائدي وخاض فيها أئمة الفرق المختلفة كالجبر والاختيار ، وخلق القرآن ، والوحدانية أو وحدة الذات والصفات ، فقد كان من الضروري أن يدلي السلفيون بدلوهم في هذه الموضوعات التي شغلت المسلمين فترة طويلة من الزمان .

(١) أبو زهرة : المذاهب الإسلامية ٣١٥ ، ٣١٦ .

ففي مسألة الجبر والاختيار ذهب ابن تيمية إلى وجوب الإيمان بالقدر سواء أكان ذلك خيرا أم شرا ، والله خالق كل شيء وليس في الكون شيء بغير إرادته ، وهذا يخالف بطبيعة الحال رأي المعتزلة كما مر بنا عند الحديث عن مشكلة الجبر والاختيار عندهم ، كما يرى ابن تيمية أن الله سبحانه ييسر فعل الخير ويرضاه ولا ييسر فعل الشر ولا يرضاه ، ويعلل هذا الرأي الذي يبدو فيه شيء من الغموض بأن للعبد مشيئة وإرادة كاملتين تجعلانه مسئولا عما يفعل ، وهكذا يختلف ابن تيمية مع المعتزلة حينا ويتفق معهم حينا آخر فرأيه في مشكلة الجبر والاختيار فيه الكثير من البساطة والسهولة واليسر .

فإذا تعرض السلفيون لمسألة خلق القرآن التي كان من شأنها وخطرها ما قد ذكرنا في صفحات سابقة عند الكلام عن الإمام ابن حنبل وعن المعتزلة ، رأيناهم يقولون إن القرآن كلام الله غير مخلوق ولكنه ليس قديما ، فيقول ابن تيمية في ذلك ، « السلف قالوا : لم يزل الله متكلما إذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربي ، وما تكلم به فهو قائم به وليس مخلوقا منفصلا عنه فلا تكون الحروف التي هي في أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة لأن الله تكلم بها » (١) . وبعد كثير من الجدل الذهني وضرب الأمثلة الكثيرة ينتهي ابن تيمية إلى أن صفة كلام الله قديمة وأما كلامه الذي يخاطب به الخلق كالتوراة والإنجيل والقرآن فلا يستطيع القول بأنه قديم كما لا يستطيع القول بأنه مخلوق .

(١) راجع الجزء الثالث من كتاب رسائل ومسائل ص ٢١ وما بعدها .

وأما رأي السلفيين في وحدانية الله وصفاته فيقولون بأن الله تعالى يوصف بما وصف به نفسه أو بما وصفه به رسوله ، ومن هنا كانت أوصافه مأخوذة من الكتاب والسنة ، فأثبتوا له صفات المحبة والغضب والرضا والسخط والكلام والاستقرار على العرش والنزول في ظلل من الغمام ، كما أثبتوا الوجه واليد ولكنهم يقولون إن اليد بغير كيف أو تشبيه والوجه من غير كيف وعلى ذلك يكون السلفيون قد اتخذوا موقفا بين المعطلة والمشبهة منهم لا يمثلون ذاته بذوات خلقه ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه وهم في قولهم هذا قد استمدوا تلك الآراء من الحنابلة الذين بنى السلفيون على آرائهم بحيث يمكن أن تعتبر المدرسة السلفية في ماضيها وحاضرها امتدادا لمدرسة أحمد بن حنبل .

وإذا كان المعتزلة والمتصوفة يكفرون خصومهم الذين خاضوا في الحديث عن وحدانية الذات والصفات ، فإن السلفيين لم يكفروا خصومهم ولكنهم اعتبروهم من أهل الزيغ خصوصا الصوفية الذين يقولون بالاتحاد والفناء في الذات الإلهية .

على أن لجمهور السلفية رأيا انفردوا به عن سائر المذاهب وتشددوا فيه إلى حد بعيد فيقولون إن التوسل بالأنبياء والأولياء نوع من الشرك وإفساد لعقيدة الوحدانية وأن زيارة الروضة النبوية مع استقبالها أو إقامة الشعائر حولها أو الدعاء لله مع استقبال ضريح نبي أو ولي كل ذلك مناف للوحدانية الأمر الذي دعا خلفاءهم الوهابيين أن يسووا أضرحة الصحابة الكرام بالأرض كما سيأتي بعد قليل .

وإذا كانت هذه الفرقة قد أطلقت على نفسها اسم « السلفيين »

باعتبار أنها تستمد روح الدين من الكتاب والسنة فإن جمهور أهل السنة قد وقف منها موقف غير اتفاق في كثير من المسائل ورد عليهم الحجة بالحجة وبخاصة في مسألة القرآن والتوسل .

الوهابيون :

يعتبر المذهب الوهابي امتدادا لمذهب السلفيين الذين كان على رأسهم أحمد بن تيمية ولكنه اتخذ هذا الاسم نسبة إلى منشئه محمد ابن عبد الوهاب الذي ولد في قرية من قرى نجد تسمى العيينة سنة ١١١٥ هـ (١٧٠٣ م) ثم أخذ من العلوم الدينية بنصيب كبير وطوف بلاد العالم الإسلامي مثل البصرة وبغداد وهمذان وأصفهان وقم والقاهرة ، وبعد رحلة متصلة الحلقات استمرت بضعة عشر عاما عاد إلى مسقط رأسه في نجد حيث اعتكف عدة شهور ثم خرج بعد ذلك يدعو الناس إلى مذهبه الجديد الذي ترسم فيه منهج ابن تيمية والحنابلة وإن كان تشدد في أمور لم يلتفت إليها أستاذه كتحريم التدخين وهدم شواهد القبور وشرب القهوة والتصوير وما إلى ذلك من المسائل التي تدخل في باب العادات أكثر منها دخولا في باب العبادات .

وشيء آخر خالف محمد بن عبد الوهاب فيه شيخه ابن تيمية ذلك أن مؤسس مذهب السلفيين كان يعمد إلى نشر منهجه بكتابة الرسائل والتأليف والمحاجة والمناقشة ، أما محمد بن عبد الوهاب فقد عمد إلى نشر دعوته بالسيف الأمر الذي أثار دولة الخلافة ضده فجردت له جيشا بقيادة محمدعلي والي مصر التحم مع اتباعه في عدة

معارك على ما هو مذكور في كتب التاريخ .

على أن ابن عبد الوهاب نفسه لم يكن صاحب قوة ولا عصبية تعينه على خوض تلك الأعمال الحربية ، بل إنه كان مضطهدا حتى في بلده نفسها ، واضطر أن يخرج منها باحثا عن مستقر ونصير ، وما لبث بعد قليل أن صادف هذا المستقر في « الدرعية » ووجد ذلك النصير في محمد ابن سعود أميرها الذي اعتنق المذهب الجديد وهنا بدأ ابن عبد الوهاب يدعو لمذهبه باللسان فمن استجاب فبها وإلا كان السيف خير ضمين لإدخال المتمردين على الدعوة إلى صفوفها ، وظل الأمر على تلك الحال وجرى نسب وإصهار بين الشيخ والأمير ، فلما ماتا تحالف أبناؤهما على الولاء للمذهب والسهر على نشره حتى عم الجزيرة كلها [1] .

وكما كان للمذهب الجديد خصوم وقفوا في طريقه وامتشقوا الحسام ليوقفوا تياره فقد كان له كذلك بريق جذب إليه الأنظار من خارج الجزيرة العربية نفسها فكثير من حجاج الأمصار الإسلامية وقفوا على طبيعة المذهب الجديد واقتنعوا به فعادوا إلى بلادهم داعين له مبشرين به وتبعا لذلك انتشر المذهب في بنجاب وشمال الهند على يد زعيم اسمه السيد أحمد الذي أنشأ دولة وهابية وأعلن الجهاد على من لم يؤمن بالدعوة الجديدة ويدخل فيها . وفي الجزائر انتشر المذهب على يد الإمام السنوسي وفي مصر بشر الشيخ محمد عبده بهذا المذهب وإن لم يتقيد بابن عبد الوهاب وحده بل رجع إلى

---

(١) فيض الخاطر ٥/٣٠٢ ، ٣٠٣ .

باعتبار أنها تستمد روح الدين من الكتاب والسنة فإن جمهور أهل السنة قد وقف منها موقف غير اتفاق في كثير من المسائل ورد عليهم الحجة بالحجة وبخاصة في مسألة القرآن والتوسل .

الوهابيون :

يعتبر المذهب الوهابي امتدادا لمذهب السلفيين الذين كان على رأسهم أحمد بن تيمية ولكنه اتخذ هذا الاسم نسبة إلى منشئه محمد ابن عبد الوهاب الذي ولد في قرية من قرى نجد تسمى العيينة سنة ١١١٥ هـ (١٧٠٣ م) ثم أخذ من العلوم الدينية بنصيب كبير وطوف ببلاد العالم الإسلامي مثل البصرة وبغداد وهمذان وأصفهان وقم والقاهرة، وبعد رحلة متصلة الحلقات استمرت بضعة عشر عاما عاد إلى مسقط رأسه في نجد حيث اعتكف عدة شهور ثم خرج بعد ذلك يدعو الناس إلى مذهبه الجديد الذي ترسم فيه منهج ابن تيمية والحنابلة وإن كان تشدد في أمور لم يلتفت إليها أستاذه كتحريم التدخين وهدم شواهد القبور وشرب القهوة والتصوير وما إلى ذلك من المسائل التي تدخل في باب العادات أكثر منها دخولا في باب العبادات .

وشيء آخر خالف محمد بن عبد الوهاب فيه شيخه ابن تيمية ذلك أن مؤسس مذهب السلفيين كان يعمد إلى نشر منهجه بكتابة الرسائل والتأليف والمحاجة والمناقشة ، أما محمد بن عبد الوهاب فقد عمد إلى نشر دعوته بالسيف الأمر الذي أثار دولة الخلافة ضده فجردت له جيشا بقيادة محمدعلي والي مصر التحم مع اتباعه في عدة

معارك على ما هو مذكور في كتب التاريخ .

على أن ابن عبد الوهاب نفسه لم يكن صاحب قوة ولا عصبية تعينه على خوض تلك الأعمال الحربية ، بل إنه كان مضطهدا حتى في بلده نفسها ، واضطر أن يخرج منها باحثا عن مستقر ونصير ، وما لبث بعد قليل أن صادف هذا المستقر في « الدرعية » ووجد ذلك النصير في محمد ابن سعود أميرها الذي اعتنق المذهب الجديد وهنا بدأ ابن عبد الوهاب يدعو لمذهبه باللسان فمن استجاب فبها وإلا كان السيف خير ضمين لإدخال المتمردين على الدعوة إلى صفوفها ، وظل الأمر على تلك الحال وجرى نسب وإصهار بين الشيخ والأمير ، فلما ماتا تحالف أبناؤهما على الولاء للمذهب والسهر على نشره حتى عم الجزيرة كلها [1] .

وكما كان للمذهب الجديد خصوم وقفوا في طريقه وامتشقوا الحسام ليوقفوا تياره فقد كان له كذلك بريق جذب إليه الأنظار من خارج الجزيرة العربية نفسها فكثير من حجاج الأمصار الإسلامية وقفوا على طبيعة المذهب الجديد واقتنعوا به فعادوا إلى بلادهم داعين له مبشرين به وتبعا لذلك انتشر المذهب في بنجاب وشمال الهند على يد زعيم اسمه السيد أحمد الذي أنشأ دولة وهابية وأعلن الجهاد على من لم يؤمن بالدعوة الجديدة ويدخل فيها . وفي الجزائر انتشر المذهب على يد الإمام السنوسي وفي مصر بشر الشيخ محمد عبده بهذا المذهب وإن لم يتقيد بابن عبد الوهاب وحده بل رجع إلى

(١) فيض الخاطر ٥/٣٠٢ ، ٣٠٣ .

أصول المذهب السلفي من عهد الرسول إلى عهد ابن تيمية إلى عهد ابن عبد الوهاب وبنى تعاليمه على النهج الذي بنى عليه زعيم الوهابية . وقد عبر المذهب الوهابي البحر إلى زنجبار في أفريقية الشرقية على يد بعض الحجاج من أبناء هذا الإقليم ، وهكذا وجدنا للمذهب المذكور مواطن جديدة عديدة فضلا عن موطنه الأصلي في نجد .

ويمكن تلخيص العقيدة الوهابية في نقطتين أساسيتين : الأولى تتركز في التوحيد الخالص من كل شائبة ، والنقطة الثانية تتركز في محاربة البدع . فأما التوحيد فيرى ابن عبد الوهاب أن الشريعة والحلال والحرام كل أولئك يؤخذ من منبع واحد هو كتاب الله وليس ثمة مصدر آخر بعد ذلك إلا سنة الرسول الكريم وأما كلام المتكلمين والفقهاء في التحليل والتحريم فليس بحجة ما لم يكن مصدره كتاب الله وسنة رسوله ، والمذهب الوهابي بعد ذلك لم يغلق باب الاجتهاد بل أباحه لكل من استوفى أدواته .

ورأى محمد بن عبد الوهاب في زيارة قبور الأولياء نوعا من الإشراك بالله وذهب إلى أن التوسل بهم مفسد لجوهر عقيدة التوحيد ، ولما كان المسلمون قد ورثوا من التقاليد ما جعلهم يترددون على أضرحة الأولياء وتقديم النذور لها من مال وطعام وذبائح والاعتقاد في كونها تجلب الخير وتدفع الشر ، وقد رأى ابن عبد الوهاب امتداد الخطر إلى الاعتقاد في الجماد بعد أن كان الأمر مقصورا على الأولياء فلمس بنفسه أن فريقا من مواطنيه باليمامة (الرياض

حاليا) يعتقدون في نخلة تجلب الزوج للعانس ، كما رأى قوما آخرين في « الدرعية » موطن دعوته يتبركون بغار يحجون إليه . نقول إن ابن عبد الوهاب لما رأى كل ذلك اعتبره نوعا من الشرك ولونا من الوثنية ودعا إلى عدم زيارة القبور إلا للعظة والاعتبار لا للشفاعة والتوسل ، وهكذا بدأ الوهابيون ينفذون عقيدتهم على هذا النحو فما دخلوا قرية أو مدينة إلا هدموا الأضرحة وسووها بالأرض حتى سماهم الأوربيون « هدامي المعابد » ويقول الأستاذ أبو زهرة تعليقا على ذلك : إنهم ربما عمدوا إلى هدم المساجد الملحقة بالأضرحة استنادا إلى الخبر الذي استنكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم عمل بني إسرائيل إذ اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد [1] .

ولم يقف الأمر بالوهابيين عند إزالة قبور الأولياء من غير ذوي المكانة المرموقة بل إنهم تجاوزوا ذلك إلى حد بعيد فما كادوا يدخلون مكة حتى هدموا كثيرا من القباب الأثرية كقبة السيدة عائشة وقباب مولد النبي ومولد أبي بكر ومولد عليّ . ولما دخلوا المدينة المنورة هدموا قبور صحابة رسول الله وسووها بالأرض واكتفوا بوضع شواهد تومىء إلى أمكنتها وكادوا يفعلون بقبر الرسول ما فعلوه بقبور صحابته لولا أنهم خشوا أن يقوم عليهم العالم الإسلامي فاكتفوا بتجريد الروضة الشريفة من التحف التي كانت بها .

هذا هو سبيل التوحيد الصافي الخالي من الشوائب عند الوهابيين ومن أجل ذلك أطلقوا على أنفسهم اسم « الموحدين » أما صفة الوهابيين

(١) المذاهب الإسلامية ٣٥٣ .

فقد أطلقها عليهم خصومهم أول الأمر ثم جرى بعد ذلك على الألسنة وأصبح الاسم المألوف الذي يطلق عليهم .

وأما النقطة الثانية في العقيدة الوهابيه فهي محاربة البدع أو ما يمكن أن يدخل في حكم البدع مثل التجمع في الموالد وخروج النساء وراء الجنائز ومهرجان المحمل وإقامة الأذكار التي يتغنى فيها من يدعون الصوفية ويرقصون على نغمات الأناشيد والمزامير بل إنهم صادروا الكتب المملوءة بالتوسلات مثل دلائل الخيرات وما شابهها .

ولم يقف الأمر بهم عند هذا الحد بل حملوا على بعض العادات واعتبروها بدعا كالتدخين والإغراق في شرب القهوة وارتداء الرجال للحرير والأطلس ، وما إلى ذلك من أدوات الزينة التي يعمد إليها الرجال كخضاب اللحية والتزين بخواتم الذهب .

هذا مجمل العقيدة الوهابية وهي في جوهرها امتداد لمنهج السلف الصالح الذين أخذوا أصول العقيدة والشريعة من الكتاب والسنة ، وقد اهتم ابن عبد الوهاب اهتماما خاصا بمنهج ابن تيمية بحيث جعل من نفسه تلميذاً وفيا من تلامذته .

وإذا كانت كل دعوة جديدة مصحوبة بشيء من العنف عرضة للطعن فيها فكان من الطبيعي أن تجد الحركة الوهابية لونا من هذا الطعن خصوصاً وأنها كانت حركة غير مجاملة لعواطف المسلمين ، فالمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها معتزون بروضة رسولهم محبون لصحابته ، وإن حرمان الروضة الشريفة من الزينة التي تلقي في روع المسلم نوعا من الرضا حينما يزور قبر رسوله ، وإن هدم قبور

الصحابة الكرام كل ذلك جعل كثيرا من المسلمين يحملون البغض للمذهب الوهابي ، ثم ما لبث المستشرقون أن تلقفوا تلك الكراهية فلعبوا دورهم ببراعة ونسبوا إلى الحركة الوهابية أمورا نعتقد أنهم منها براء .

فإذا كان هناك ثمة مأخذ على الحركة الوهابية فهو ذلك الذي ذكرنا من تجاهل عواطف المسلمين إزاء قبر الرسول وذكراه ثم جمودهم بحيث أهملوا الحياة العقلية والفكرية في بلادهم ولم يحاولوا أن يسايروا ركب التطور والتقدم . مع أن الإسلام بجوهره وتقاليده الأولى لا يجافيها ولا يصد عنها . على أن ذلك كله لا يطعن في شخصية محمد بن عبد الوهاب الثائر من أجل العقيدة الإسلامية وتنقيتها من الشوائب ، ولم يكن الزعيم الوهابي يعيش في برج عاجي يضع تعاليمه ثم يسعى لتنفيذها بالرغبة أو الرهبة وإنما كان يعرض آراءه للمناقشة وقد أرسل اثنين من أتباعه إلى مصر سنة ١٨١٥ م حيث عرضا فلسفة المذهب وتناقشا في المذهب الجديد مع علماء الأزهر ، مناقشة مسهبة انتهت بعدم استنكار ما أشيع عن المذهب الوهابي بل إن أحد العلماء الأزهريين وهو الشيخ أبو الهدى الصعيدي قال : إذّا كانت الوهابية كما سمعنا وطالعنا فإننا نحن أيضاً وهابيون[1] .

ولم يقف الإعجاب بابن عبد الوهاب على المسلمين وحدهم بل إن بعض المستشرقين أطلقوا عليه اسم « مارتن لوثر » فقال دوزي : « إن المصلح البروتستانتي مارتن لوثر قد أعلن الثورة على البدع التي

(١) بين الديانات والحضارات ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

أقحمت على الدين المسيحي وكذلك ثار محمد بن عبد الوهاب نفس الثورة على البدع الدخيلة في الإسلام » .

ومهما كان الأمر فالوهابيون سلفيون ، والسلفيون سنة حنابلة ، ومن هنا كان المذهب الوهابي واحداً من مذاهب أهل السنة الذين يستمدون أحكام الدين من كتاب الله وسنة رسوله .

المتصوفــة

مرّ بنا ونحن نعرض لعقيدة أهل السنة أن الزهاد والصوفية يعتبرون ممن احتواهم هذا اللواء فتفيأوا ظله واندرجوا تحت رايته، ذلك أن الزهاد والصوفية مهما بدا منهم من أمور لا تلقى رضى من بعض المسلمين ، فهم دون شك يسيرون في صدق وأمانة باحثين عن الحقيقة متبعين أسلوباً من العبادة ونهجاً من الرياضة كي يصلوا من خلالهما إلى الحب الإلهي. قد تتعدد السبل وتختلف الدروب وتتباين الوسائل ولكنها جميعا تتسربل بالإخلاص والصدق وتستهدف أنبل الغايات وأسمى المقاصد حتى يتم الوصول الذي تنشده النفس عن طريق المكابدة والرياضة وتصل إلى مبتغاها الأسمى وهو العشق الإلهـي .

وإذا كان لبعض ذوي الرأي مآخذ بعينها على مسلك التصوف ، فلأن التصوف يهدف – في الأغلب – إلى دفع النفس إلى الانشغال بالروحيات والفناء فيها دون الماديات ، والاهتمام بالجوهر دون العرض والإيمان بالباطن دون الظاهر الأمر الذي أثار جمهرة الفقهاء

على جماعة المتصوفة وتبع ذلك ما تبعه من عراك وجدال واتهامات شغلت الرأي العام الإسلامي حقبة من الزمان غير قصيرة ، بل إن ذيولاً لها ما تزال رواسبها كامنة في خواطر الفريقين إلى أيامنا هذه .

على أن الأمر الذي لا شك فيه أن التصوف في نطاق الاعتدال والبعد عن الإسراف في تنـاول الذات الإلهية عن طريق مـا هو معروف بالشطحات الصوفية إنما هو في مداه تعميق للإيمان وإثراء للعقيدة وتثبيت للنفس والروح على طريق الصواب .

وكيف ننكر مبدأ استهدف الوصول إليه – ولو بطرق متباينة – أعلام من رجالات الإسلام لا يستطيع مفكر أن يغض الطرف عن أقدارهم وأفكارهم وآرائهم ممن أثروا الفكر في نطاق العقيدة ومهدوا للروح على طريق الإيمان ، إنه من الصعب بل من الغفلة بمكان أن ننكر فكر الغزالي ٥٠٥هـ. والقشيري ٤٦٥هـ. والبسطامي ٢٦١هـ. والمحاسبي ٢٤٣هـ. ومن قبلهم ومن بعدهم الحسن البصري ١١٠هـ. ومن سار على الطريق من أمثال مالك بن دينار ١٣١هـ. ورابعة العدوية ١٨٥هـ. والجنيد البغدادي ٢٩٧ هـ. وأبي نصر السراج ٣٧٨ هـ. وعبد القادر الجيلاني ٥٦١هـ. والحلاج ٣٠٩هـ. وعمر بن الفارض ٦٣٢ هـ. ومحمد بن علي بن العربي المشهور بمحيي الدين بن عربي ٦٣٨هـ. ومحمد بن محمد البلخي القونوي المشهور باسم جلال الدين الرومي ٦٧٢هـ. ومحمد بن محمد بن حسين بن عبد الكريم المشهور بابن عبدك ٦٨٢ هـ. وأحمد الرفاعي ٥٧٨هـ. وأحمد بن علي بن ابراهيم الحسيني المعروف بالسيد البدوي ٦٧٥هـ. .

هذا ولم تكن لذة التصوف ومتعة الفناء في حب الله مقصورة على بعض المشارقة دون غيرهم من مسلمي المغرب والأندلس ، فإن هناك في ديار المسلمين بالأندلس من انصرفوا إلى سلوك أهل الطريق وكانت لهم تأملاتهم الصوفية وآثارهم الروحية ، فابن عربي الذي مر ذكره قبل قليل أندلسي المولد والنشأة ثم بدا له أن يرحل إلى المشرق شأن كثرة من علماء الأندلس الذين أقدموا على تلك الرحلة التي كانت تعتبر أمرا ذا قيمة سامية في نظرهم ، تماما كما فعل بعض المشارقة الذين هاجروا إلى الأندلس وألقوا هناك عصا الترحال .

لقد وجد على أرض الأندلس من الزهاد والعابدين والمتصوفة فريق ربما ناهز عددهم مثيله في المشرق الإسلامي أو زاد عليه ، حتى أن ابن بشكوال صنف كتابا في هذا الموضوع جعل عنوانه : « زهاد الأندلس وأئمتها » (١) ولكن هذا الكتاب لقي مصير غيره من مجموعات الكتب الإسلامية النفيسة التي تعرضت للضياع أو الغرق أو التلف ، غير أننا نستطيع أن نذكر من زهاد الأندلس الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ٣٣٩ هـ. وأبا بكر المغيلي ٣٦٤هـ. ، وأبا وهب بن عبد الرحمن العباسي ٣٤٤ هـ. وهو أمير من بني العباس رحل من بغداد إلى الأندلس حيث استقر في قرطبة ، وله وللمغيلي الذي ذكرناه قبل قليل شعر في الزهد من أرق وأمتع وأصفى ما كتب في هذا المقام .

---

١ – التكملة لابن الآبار ص ٧١٨ .

ومن زهاد الأندلس أيضاً عبد الرحمن بن مروان الأنصاري القنازعي صوام النهار قوام الليل الذي رفض أن يكون مستشارا لعليّ بن حمود مثلما رفض الحسن البصري أن يكون مستشارا لعمر بن عبد العزيز ، ومن متصوفة الأندلس أيضا بكار بن داود المرواني الذي شارك في الجهاد برغم تصوفه واستشهد وهو يحارب أعـداء الإسلام في النصف الثاني مـن القرن الخـامس ،ومنهم أبو الوليد الباجي إمام أهل الأندلس واسمه الأصلي سليمان بن خلف ، وهو الذي أثار الناس على ابن حزم حينما بدت من هذا الأخـير بعض الافكار الـتي اعتبرها فريق من المسلمين غير متمشية مـع جوهر فكر الإسلام وعقيدته وهو صاحب البيتين المؤمنين الزاهدين :

إذا كنت أعلم علمـاً يقينـاً   بأن جميـع حياتيَ ساعه
فَلِمْ لا أكونُ ضنينـاً بها   وأجعلُها في صلاحٍ وطاعه

وسليمان بن خلف هذا هو أستاذ أبي عمر بن عبدالبر صاحب كتاب الاستيعاب .

وإذا كنا قد ذكرنا قبل قليل محيي الدين بن عربي الأندلسي المولود في مرسية ، فإن من الخير أن نذكر أن تصوفه لم يكن من وحي ذاتـه ، وإنما هو تلميذ لمتصوف أندلسي كبير هو الشيخ أبو عبدالله الغزال رئيس المتصوفة على عهد الموحدين في مدينة المرية ،

والشيخ الغزال بدوره كان تلميذاً للزاهد الكبير ولي الله أبي العباس ابن العريف الذي يعتبر رأس الصوفية في الأندلس وصاحب كتاب « محاسن المجالس » الذي ضمنه أصول طريقته ، ولقد عاش أبو العباس بن العريف في المرية الشطر الأول مـن حياته وقضى الشطر الثاني منها في مراكش ، بعث بـه إليها يوسف بن تاشفين وفيها توفي سنة ٥٣٦ هـ. [١] ، ومن الثابت أن أبا الحسن الشاذلي قد تأثر بابن العريف في طريقته ، ومن هنا يكون للمدّ الصوفي الأندلسي طريقان الى المشرق أحدهما كان واسطته ابن عربي ، والثاني كان واسطته أبو الحسن الشاذلي الذي ولـد في غماره في أفريقية وتعلم في تونس ورحل الى المشرق ثم استقر في الاسكندرية وتوفي في عيذاب بمنطقة البحر الأحمر .

ونستطيع أن نضيف أيضاً أن المدّ الصوفي المغربي والأندلسي قد ترامت آثاره الى المشرق عن طريق قطبين جليلين من أقطاب الصوفية أحدهما السيد أحمد البدوي الذي ولد في المغرب ثم وفد إلى المشرق وأنشأ طريقة « الأحمدية» التي كان من أتباعها ملك مصر الجليل الظاهر بيبرس،والثاني هو أبو العباس أحمد بن عمر المرسي الفقيه المتصوف الذي وفد هو أو أبوه من مرسية في الأندلس ، واستقر به المقام في الاسكندرية ، وليس من شك في أنـه كان معاصراً للسيد البدوي وغير بعيد أن يكونا قد التقيا، فقد توفي الأول

١ – راجع فصل «تطرف أهل الاندلس» من كتابنا صور من الأدب الأندلسي .

في مدينة طنطا سنة ٦٧٥هـ. وتوفي الثاني في مدينة الإسكندرية سنة ٦٨٦هـ. بفارق أحد عشر عاما بين وفاة كل منهما .

سبق القول أن الصوفية مدرسة من مدارس السنة ، والحق أنهم كذلك رغم ما قد يتبادر إلى الأذهان من أن الأمر لم يكن كذلك للخلاف الشديد الذي جرى بينهم وبين الفقهاء . لقد حدث خلاف شديد ومقارعات بين الطرفين . ولكن الواقع أن هذه المقارعات والاتهامات كانت ضد المتطرفين الغلا ة من المتصوفة الذين خرجوا على نطاق مألوف العقيدة وذهبت بهم شطحاتهم مذاهب بعيدة تجعل عقلاء المتصوفة ومعتدليهم فضلا عن جمهرة المسلمين يستهجنون ما ذهبوا إليه من حلول وغلوّ . وفي أحيان أخرى كانت الفتنة تشتد بسبب تشدد بعض الفقهاء وليس بسبب غلوّ المتصوفة كما حدث على عهد القشيري المتصوف الزاهد المحدث الفارس الأشعري الشافعي فقد خاصمه جماعة من الحنابلة وتطور الخصام إلى اقتتال مات فيه عدد من الفريقين [1] .

لقد كان الحسن البصري والغزالي والسراج والقشيري والجنيد وابن المبارك والمحاسبي ومالك بن دينار وعبد القادر الجيلاني وأحمد البدوي وأحمد الرفاعي من المتصوفة ذوي الأثر العميق في مسلك المريدين ووضعهم على الطريق إلى معرفة الله . ولقد كان الحلاج

---

١ — وفيات الاعيان ترجمة رقم ٣٩٤ .

وابن عربي وجلال الدين الرومي وعمر بن الفارض متصوفين أيضا، ولكن هناك فارقا كبيرا بين سلوك الفريق الأول وطريقة تعبيره عن الحب الإلهي الذي هو غاية كل صوفي وبين الفريق الثاني الذي أثار جمهرة المسلمين عليهم بشططهم في التعبير عن حبهم حتى رموا باعتقاد الحلول والتجسيم ، ومن ثم كان عدد من هذا الفريق الثاني قريبا كل القرب من عواطف المستشرقين وخصوصا الحلاج على سبيل المثال الذي اهتم به كل من المستشرق الألماني جولدزيهر والمستشرق الفرنسي ماسينيون وكتب كل واحد منهما عنه كتابا ، والأمر في نظرنا لا يتعدى كون الحلاج بشططه في البحث عن طريق الوصول والاتحاد كان غير بعيد عن المفهوم المسيحي لفكرة الله وإمكان تجسيم الخالق وحلوله في جسم إنسان .

فإذا ما تركنا الشطط الصوفي جانبا وبالتالي مضينا في الخط الصوفي المعتدل ، وجدنا الصوفية هدفا للخوارج يهاجمونهم ويعيبون مسلكهم ، ووجدنا المتصوفة بعيدين عن التشيع ، كما نجد الشيعة ينكرون التصوف لأن الحياة الصوفية تتمثل في طلب الرضا من غير توسل بالأئمة ، والإمامة على ما هو معروف تشكل عنصرا أساسيا في عقيدة الشيعة ومبادئهم . ووجدناهم أيضاً ينفرون من الاعتزال ويهاجمونه كما فعل المحاسبي في رسائله « الرد على المعتزلة » ، ومن قبله كان الحسن البصري يمثل بؤرة التفكير الديني المعتدل الذي عليه خرج المعتزلة وهجروا حلقته .

بل إننا لو أمعنا النظر في النشأة الأولى لكل صوفي كبير لوجدناه نشأفي حجر تفكير أهل السنة ونما وترعرع مفسراً أو محدثاً أو مفسرا محدثا معا أو آخذاً بمذهب أحد الأئمة الأربعة المشهورين ، فمالك بن دينار كان محدثا ورعا ، والمحاسبي كان فقيها عالما بالأصول والمعاملات . وأبو يزيد البسطامي مستمسك بالشريعة أولا رغم أنه في القمة بين من أخذ عليهم التصوف مجامع كيانهم . ومن أقواله الخالدة في هذا السبيل : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة . وعبد القادر الجيلاني كان فقيها محدثا أديبا . وابن عبدك مؤرخ صوفي عالم بالحديث ، والجنيد اعتبره العلماء شيخ مذهب التصوف ولكنه كان متصوفا في نطاق الكتاب والسنة وضبط سلوكه بهما ضبطا كاملا وكان يقول : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به ، والقشيري كان محدثا أشعري الفكر إذا تحدث في الأصول ، شافعي المذهب إذا تحدث في الفروع ، وأبو نصر السراج كان شيخ الصوفية على طريقة أهل السنة ، وهو صاحب كتاب « اللمع » المشهور ، والغزالي هو من نعرف صدق إيمان وفيض علم وقوة استمساك بالحديث والسنة ، وقد ناصب المذاهب التي لا تلتزم التمسك بالكتاب والسنة العداء ، وقد ألف بين الكثير الذي ألف كتابا بعنوان « فضائح المعتزلة » وكتابا آخر بعنوان « فضائح الباطنية » .

وعمر بن الفارض نشأ شافعي المذهب ، وكان له في علم الحديث شأن كبير فقد أخذ الحديث عن ابن عساكر ، وأخذ منه الحديث الحافظ المنذري ، وكان سليمان بن خلف الباجي الذي تصدى لابن حزم في بعض مزاعمه على تصوفه مالكي المذهب . وقد سبقت الإشارة إلى أن ابن عبد البر صاحب الاستيعاب كان أحد تلامذته .

فالصوفية إذن جماعة أو بالأحرى مدرسة من مدارس المجاهدة الإسلامية غلا بعضهم في مسلكه فنهض لهم من العلماء من ردوهم إلى الصواب أو أنشأوا حائطا من الفكر السليم والنهج القويم يحول بين أفكار هؤلاء الغلاة وبين أن يبلبلوا أفكار الجمهرة الإسلامية التي لم تلق من الثقافة الدينية ما يعصمها من تطرف القول واستبهام التعبير ، ولكن تبقى الصوفية بعد ذلك إذا ما تخلصت من تطرف القول وانحراف الفكر من مدارس الإيمان وطريقة للصفاء الروحي والمجاهدة النفسية التي تحتاج إليها كل نفس مؤمنة .

لقد فطن صفوة من خلفاء المسلمين وحكامهم إلى نقاء سريرة الزهاد والمتصوفة وصلتهم بالله واستقامة مسلكهم فكانوا يكرمونهم ويكبرون من شأنهم ويتقربون إليهم ويسألونهم العون والشورى في كثير من مشكلات الامور . فمن ذلك ما حدث لعمر بن عبد العزيز حينما آلت إليه خلافة المسلمين ورأى أن أقدر الناس على معاونته هم القريبون الى الله عملا وفكرا ، فاتجه نظره إلى

الحسن البصري يسأله أن يعينه في اختيار حكام أمناء ، وكتب إليه يقول : إني ابتليت بهذا الأمر فانظر لي أعوانا يعينوني عليه . فأجابه الحسن هذه الإجابة الرائعة المختصرة الجامعة قائلا : أما أبناء الدنيا فلا تريدهم ، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك ، فاستعن بالله . وليس ذلك بغريب عن الحسن البصري فقد كان على نسكه وتصوفه وبساطته وتواضعه يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم ، فإذا ما دخل المسجد وتسنم مقام الوعظ والتعليم والإرشاد صار كما يصفه الغزالي : أشبه الناس كلاما بالأنبياء وأقربهم هديا من الصحابة .

وكما تقرب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري وتقدم إليه يطلب عونه في شؤون الحكم فإن علي بن حمود في الأندلس فعل نفس الشيء مع عبد الرحمن بن مروان القنازعي وطلب إليه أن يكون مستشاره فرفض رغم ما كان عليه من فقر وفاقة وحرمان (١) .

وكان عبد الكريم القشيري صاحب « الرسالة » مكرما معظما لدى ألب أرسلان كما كان ولده عبد الرحيم محلا لاحترام الملك ، وقد أخذ نظام الملك جانبه وكرمه إبان الفتنة التي حدثت بسببه في بغداد بين الحنابلة والشافعية .

---

١ – المغرب ١/١٦٦ .

وكان لعمر بن الفارض نفس المنزلة من التكريم والإجلال عند الملك الكامل الذي كان ينزل بنفسه لزيارته إكباراً منه لشأنه واعظاماً لمنزلته .

والأمر فيما يتعلق بالسيد أحمد البدوي كان يفوق التكريم والاحترام فقد خرج الملك الظاهر بيبرس على رأس جنده لاستقباله عند وفوده إلى مصر من الحجاز وأنزله في ضيافته . فالقوم كانوا في مكانة من العلم والسلوك والوقار والوصول بحيث يستحقون تكريم الملوك فضلا عن تعلق عامة الناس بهم ، ولم يكن هذا التكريم لغير ما سبب ، أو لأسباب عابرة ، وإنما كان للقوم وزنهم وقيمهم وفضلهم وعلمهم الذي جعلهم أهلا للحب والتكريم والإجلال .

ولكن من هو الصوفي ؟ وكيف سمي هذا الطراز من السلوك نحو التعرف إلى الله والقرب منه والفناء في حبه تصوفاً ؟ وكيف عرّف المتصوفة بأنفسهم ؟

لقد كثرت التعليلات وكثر المعللون حول هذا التسمية ، فذهب بعض المؤرخين إلى أن كلمة الصوفية يونانية الأصل « سوفيا » بمعنى الحكمة ثم أخذت شكلا عربيا فصارت « صوفية » وهو تعليل خاطىء في منطقه يستهدف نسبة الكثير من المبادىء والقضايا والمسميات العربية الأصيلة إلى منبع أجنبي تماما كنسبة

الفسطاط إلى الكلمة الأجنبية فستاتم ***Fostatum*** ونسبة الدروز إلى اسم القائد الفرنسي ***De Rose*** .

وهناك من نسب الصوفية إلى العصر الجاهلي وفي مقدمة هؤلاء ابن الجوزي الذي ذهب إلى تبني هذا الرأي رغم جلال علمه ، فقال ان قوما في الجاهلية كان يقال لهم صوفة انقطعوا إلى العبادة حول الكعبة ونسبهم إلى الغوث بن مرّ الذي كان يعرف باسم صوفة ، أطلقته أمه عليه لأنها لم يكن يعيش لها أولاد فنذرت لئن رزقت بولد لتجعلن برأسه صوفة وتهبه للكعبة فولدت الغوث وعرف باسم صوفة وظلت الصفة عالقة بأولاده من بعده (١) وهو رأي يصعب الأخذ به لسذاجته .

وهناك من يعطي التسمية وجها إسلامياً ويربط بينها وبين الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الأكرمين عليهم الرضوان ، فقد نسب لبس الصوف إلى الرسول في عدة أقوال ، منها قول أنس فيما رواه ابن ماجة أن الرسول صلى الله عليه وسلم « أكل خشنا ولبس خشنا ، لبس الصوف واحتذى المخصوف » . ومنها الوصف الشريف الذي جاء على لسان عمر وهو يبكي الرسول ويصفه بالبساطة والتقشف على رغم كون الدنيا بين يديه « لقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف

---

١ – تلبيس ابليس ص ١٦١ .

وركبت الحمار وأردفت خلفك ». ونحن وإن سلمنا بصحة الخبرين فإن هذا التسليم تسليم جزئي لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لبس الصوف وغير الصوف . ومن ثم فإنهما لا ينهضان سببا لتسمية عريضة ولكنهما مجرد دلالة على ما بين لبس الصوف والتواضع والاخشيشان ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول « اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم » .

وقيل أن الصوفية نسبة إلى الصُفّة ، وأهل الصفة هم الفقراء الزهاد من الصحابة المهاجرين ، وكانوا يسكنون صفّة المسجد في المدينة ، وكانوا يقلون حينا ويكثرون حينا آخر ، فمن استقرت أحواله واستغنى ترك المسجد وذهب إلى مأواه ، ويذكر ابن تيمية أن الذين كانوا يأوون إلى الصفّة كان بينهم الغني والفقير والأعزب فالذي لا يتيسر له مكان يأوي إلى تلك الصفة التي في المسجد حتى يتأهل أو تتيسر له سبل الإقامة (١) .

والذين نسبوا الصوفية إلى الصفة استهدفوا أن يربطوا بين التصوف والمهاجرين من الصحابة غير أن الأمر على جانب كبير من الخطأ لأن النسبة إلى الصفّة صُفّيّ وليست « صوفي » .

وهناك من جعل الصوفية امتدادا للخط الصحابي الجليل لما أثر عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنهم كانوا يلبسون الصوف مثل أبي ذر الغفاري وسلمانالفارسي اللذين يعتبرهم بعض

---

١ – مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ١/٣٦ وما بعدها .

المتصوفة رائدين للتصوف ، غير أن هذين القطبين لم يكونا الوحيدين اللذين يلبسان الصوف بين صحابـــة الرسول ، فقد أثر عن الحسن البصري قوله : أدركت سبعين بدريا كـــان لباسهم الصوف ، والبدريون هم الذين حاربوا مع الرسول في بدر وكلهم يمثلون الصفوة الماجدة الرائدة من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والحقيقة أن الأخبار متواترة حول ارتداء صحابة الرسول الصوف ، فهذا أبوعبيدة الجراح الصحابي الجليل والقائد المظفر يظهر للناس وهو بالشام وعليه الرداء الخشن من الصوف فيطلبون منه إصلاح ذات شأنه واستبدال ملابسه بما هو أرق وأفخم لقربه من الأعداء الذين تؤثر المظاهر على معنوياتهم فيرفض قائلا : ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم (١) .

لقد أثرت أخبار أخرى عديدة عن لبس الصحابة والتابعين الصوف ، ولبس الصوف يحمل دون شك معنى التقشف والتواضع والبعد عن الزهو وتمثل الفقر إلى الله سبحانه ، ومن ثم فإن الزهاد والنساك الذين جعلوا حياتهم سعيا في مسالك الطريق إلى الله يبتغون رضاه وينشدون محبته ويعشقون كماله ويفنون في جلاله قد ارتضوا لأنفسهم هذه التسمية ، وأطلقوها عن رضى واقتناع .

وقال بعض الباحثين إن لفظ صوفي مشتق من الصفاء أو الصفو ، والمراد صفو قلوب المتصوفة وانشراح صدورهم ورضاهم بما يجريه

---

١ – مروج الذهب ١/٤١٨ .

الله عليهم ، ثم إنهم مع الله في صفاء لا يشوبه شاغل وهم بما أطلعهم الله عليه قد صفوا من كدر الجهل ، وكان اللفظ المشتق في الأصل « صفوي » فاستثقل فقيل « صوفي » (١) .

والحق أن كلمة صوفي قد أصبحت منذ زمن مبكر تعني الزاهد في حطام الدنيا الراضي بالقليل النافر من أسباب الزينة ومظاهر الحياة ، يؤيد ذلك قصة محمد بن واسع مع قتيبة بن مسلم الباهلي عامل خراسان ، فقد دخل محمد على قتيبة وعليه مدرعة صوف خشنة وربما بالية فقال له قتيبة : ما يدعوك إلى لباس هذه ؟ فسكت ولم يحر جوابا ، فقال له قتيبة فيما يشبه الغضب : أكلمك فلا تجيبني ؟ فأجاب محمد في خشوع وهدوء : أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي ، أو أقول فقرا فأشكو ربي (٢) .

لقد كان محمد بن واسع بإجابته هذه الصادقة ، معبرا خير تعبير عن هذا النمط من العباد الزهاد القانعين الذين يرغبون عن زينة الحياة الدنيا عن كامل رضى وصادق رغبة ، ومن ثم فإن اختيار المتصوفة لأنفسهم أو اختيار الناس لهم هذا الاسم قد جاء مشتقا من الصوف متصلا به اتصالا لفظيا ومعنويا لدلالة لبس الصوف على الزهد في الحياة والتقشف بعيدا عنها ، ومن ثم السعي إلى التقرب من الخالق ، وهو الرأي الذي ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته (٣) .

ولكن ليس معنى أن لبس الصوف علاقة القربى من الله أن

---

١ – دائرة المعارف الاسلامية مادة تصوف .

٢ – العقد الفريد ٦/٢٢٥،٢٢٦ .

٣ – المقدمة ٣/١٠٦٣ تحقيق الدكتور علي عبدالواحد .

يكون الجنوح عن لبسه بعدا عن الله وانغماسا في حب الدنيا ، فقد ذكر ابن عبد ربه أن القاسم بن محمد كان يلبس الخز وسالم بن عبدالله كان يلبس الصوف ومقعدهماواحد في مسجد المدينة فلا ينكر بعضهما على بعض شيئاً (١) ذلك أن التزين في وقار والتطيب في قصد والتأنق في غيرما إسراف أمور ترفع من قدر المرء في ظل دينه وخلقه ومروءته ، وقد أثرت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث عديدة في هذا السبيل ، فقد قال مرة لأم المؤمنين عائشة : مالي أراك شعثاء مرهاء سلتاء؟ قالت : يا رسول الله أولسنا من العرب ؟ قال : بلى . وربما أُنسيت العربُ الكلمة فيعلمنيها جبريل (٢) وفي حديث آخر قوله صلى الله عليه وسلم : إياكم والشعث حتى لو لم يجد أحدكم إلا زيتونة فليعصرها وليدّهن بها .

وإذن لم يكن لبس الصوف بمانع من اللباس الناعم لمن أراد ، ولكن القوم استحسنوا أن يجعلوه علامة للتقشف ورمزا للزهد ، وهم قد قصدوا الصوف الخشن قصدا فإن بين الألبسة الصوفية وبخاصة في زماننا ما يفضي أثمن الحرير لبهائه حياء .

على أن لبس الصوف ليس دائماً علامة على الخشوع والزهد والقرب الى الله ، فكثيرا ما كان بعض المنحرفين يتخذون من التصوف سترا يحجب رذائلهم ونفاقهم — ولا زالت هذه الظاهرة

١ — العقد الفريد ٦/٢٢٦ .
٢ — المصدر السابق نفس الصفحة . الشعثاء التي لاتدهن ، المرهاء التي لا تكتحل السلتاء التي لا تختضب .

قائمة حتى زماننا هذا — فقد ذكر صاحب العقد أن ابن السماك قال لأصحاب الصوف منذرا متهكما : والله لئن كان لباسكم وفقا لسرائركم لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها ، ولئن كان مخالفا لقد هلكتم . ثم يمضي صاحب العقد موردا بيتين لمحمود الوراق فيمن أسماهم — نفس الاسم السابق — أصحاب الصوف قائلا : (١)

تصوّفَ كي يُقالَ له أمينٌ ... وما يعني التصوُّفَ والأمانه
ولم يُرد الإلهَ به ولكن ... أراد به الطريقَ إلى الخيانه

ولا شك أن بعض المنحرفين عن الجادة قد أرادوا أن يخفوا عن الناس سوء سلوكهم فلبسوا الصوف حتى لا يفطن أحد إلى فسادهم ، وليس أدل على ذلك من أن الحسن البصري الذي روى أنه رأى سبعين بدريا يلبسون الصوف يقول عن أصحاب الأكسية أي لابسي الأكسية الصوفية : لقد أكنّوا الكبر في قلوبهم ، وأظهروا التواضع في لباسهم ، والله لأحدهم أشد عجبا بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه . وهذا سفيان الثوري الملقب بأمير المؤمنين في الحديث يقول : لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء (٢) .

وقد اعترض على لباس الصوف من قبل من ربطوا بينه وبين لباس النساك من النصارى الذين اعتادوا لبس الخشن من الصوف في الأديرة تقشفا وتعبدا ، فقد زار حماد بن سلمة البصرة فجاءه فرقد

١ — العقد الفريد ٦/٢٢٦ .
٢ — اللمع للسراج ص ٤٢ .

السبخي وعليه ثياب صوف فقال له حماد: ضع عنك نصرانيتك هذه. ومن الطريف أن بعض المستشرقين مثل نيكلسون ونولدكه وجيوم ذهبوا إلى أن النساك المسلمين الذين أخذوا لفظ المتصوفة اسما لهم إنما لبسوا الصوف محاكاة لرهبان المسيحيين [1] وأكثر من ذلك أن نفس هؤلاء المستشرقين قد ادعوا أن الإسلام حسّن العزوبة وشجعها وضربوا أمثلة ببعض لمتصوفة الذين لم يتزوجوا لسبب أو لآخر مستهدفين من وراء ذلك ربط التصوف الإسلامي بالتنسك المسيحي شأنهم في محاولات أخرى كثيرة في الدراسات الاسلامية من عقائدية وحضارية ، وكان ينبغي عليهم قبل إصدار حكمهم أن يزدادوا إلماماً بحياة الزهاد الحقيقيين من متصوفة المسلمين الذين عملوا فأكلوا من كسب أيديهم ، وعلموا فنقلوا علمهم إلى الناس فيضاً من المعرفة ووفرة من الكتب وسيلا من الرسائل على ما سوف نبين بعد قليل .

لقد ذكر لقب الصوفي إذن كمرادف للعابد الفقير المتقشف منذ وقت مبكر في الإسلام، وليس قبله ، فقد أثر عن الحسن البصري قوله : رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي، والحسن توفي سنة ١١٠ هـ على ما هو معروف ،وقد مرّ بنا قبل قليل ما ذكره سفيان الثوري عن أبي هاشم الصوفي وقوله لولاه أي لولا أبو هاشم ما عرف سفيان دقيق الرياء، ولقد توفي سفيان سنة ٢٠٠ هـ. وأما أبو هاشم فقد توفي سنة ١٠٥هـ. ومن هنا فإن كلمة صوفي بمدلولها المذهبي المتداول يمكن أن تكون

١ — في التصوف الإسلامي ترجمة أبي العلا عفيفي ص ٤٨،٤٩ .

قد طبقت لأول مرة في القرن الثاني للهجرة ويكون أول من عرف بهذه الصفة هو أبو هاشم الصوفي .

على أن أبا هاشم الصوفي بسلوكه الذي جعل أمير الحديث سفياناً الثوري يصفه بالرياء لا يستتبع بالضرورة أن يكون بقية المتصوفة من نسج أبي هاشم ، أو ربما كانت تهمة سفيان لأبي هاشم من قبيل العداوة التقليدية الجارية بين الفقهاء والصوفية ، ومن ثم فرأي سفيان في أبي هاشم لا يشكل قاعدة تنطبق على كل المتصوفة .

ويذهب الأستاذ ماسينيون[1] إلى أن أول من لقب بالصوفي هو عبدك الصوفي المتوفي حوالي ٢١٠هـ. وكان متشيعا يقول بأن الإمامة بالتعيين ، ويذهب مرة ثانية إلى أن لفظ « صوفي » ورد لقبا مفردا لأول مرة في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي كصفة لجابر بن حيان ، وجابر توفي سنة ٢٠٠هـ. ومعنى ذلك من وجهة نظره أن لقب صوفي قد أطلق في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، والواقع أن اسم جابر بن حيان ورد في كتب التراجم مقرونا بلفظ « الصوفي » كلقب له ، وليس لدينا في الحقيقة ما يدل على أن هذا اللقب يتصل بالمعنى الذي نعالجه ، فقد يكون لقبا عارضا لسبب آخر ونسبة مختلفة عن الصوفية الروحية ، ومن ثم فإننا نميل إلى أن أبا هاشم الصوفي هو أول من وصف بهذا الوصف على الحقيقة الموضوعية .

١ — ماسينون مادة تصوف في دائرة المعارف الاسلامية .

ولكن مهما كان الرأي حول التسمية وحول أول شخص لقب بالصوفي فإنه ينبغي أن نتساءل عمن هو الصوفي على وجه التحديد ؟ الواقع أن بين أيدينا عددا كبيرا من التعريفات المتفقة المختلفة ، ربما تكون فيها ألوان اتفاق معنوي أو مسلكي ولكنها مختلفة من حيث اللفظ ودقة المعنى ، وإذا كان تعريف المرء بنفسه يساعد طالب المعرفة كثيرا فإننا نحاول هنا أن نستعرض تعريفات بعض الصوفية لمن هو الصوفي .

يقول ذو النون المصري : الصوفي لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب (١) ويقول أبو تراب النخشبي : الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء (٢) ويقول سهل بن عبد الملك التستري : الصوفي من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر (٣) . ويقول الشبلي : الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق (٤) . ويقول أبو سعيد الخراز : الصوفي من صفى ربه قلبه فامتلأ نورا ومن حل في عين اللذة بذكره الله (٥) . ويقول الجنيد : أن يختصك الله بالصفاء ، فمن اصطفى من كل ما سوى الله فهو الصوفي (٦) .

هذه طائفة من تعريفات الصوفي كمفرد ، فإذا ما انصرف التعريف إلى الصوفية كجماعة فإنه لا يكاد يخرج عن مفهوم تعريف

١ – عوارف المعارف ص ٤٣ .
٢ – نفس المصدر ص ٤١ .
٣ – المصدر السابق ص ٤٣ .
٤ – الرسالة القشيرية ص ١٣٩ .
٥ – نيكلسون ٣٠ .
٦ – المصدر السابق ٣٣ .

المفرد مثال ذلك قول ذي النون المصري : الصوفية قوم آثروا الله على كل شيء فآثرهم الله عز وجل على كل شيء (١) . وكقول أبي الحسين النوري : الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفس وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا مع الحق ، فلما تركوا كل شيء ما سوى الله صاروا لا مالكين ولا مملوكين ، وقوله أيضا : التصوف كراهية الدنيا ومحبة المولى (٢) أو كقول الجنيد : التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتي ومفارقة أخلاق الطبيعة وإخماد صفات البشرية ومجانبة نزوات النفس .

إن رسالة القشيري وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار وغيرهما من كتب التصوف مليئة بمئات الصيغ التي تعرف بالصوفي والمتصوفة وهي جميعا على اختلاف وسائل التعبير وتشعب أسباب التناول تنتهي إلى مقصد واحد هو العزوف عن لذائذ الحياة ونشدان صفاء النفس والسعي إلى الحب الإلهي في نطاق السمو الروحي والمجاهدة النفسية .

على أن هذه التعريفات قديمها وحديثها لا تخلو من جنوح أحيانا إلى الغموض وتلاعب بالألفاظ يطمس وضوح المعاني ، وشاهدنا على ذلك الأقوال الكثيرة التي جرت على ألسنة الجنيد وفريد الدين والحلاج وغيرهم من القدامى ، فإذا عرضنا لأقوال بعض المحدثين من

١ – الرسالة القشيرية ص ١٣٩ .
٢ – نيكلسون ص ٣٢ .

أهل الطريق وجدنا صفة الغموض تلازمهم أيضا ، فهذا صوفي معاصر يعرف التصوف بأنه : اطراح الأستار النورانية الناشئة عن المعلومات والمعارف الحائدة عن طريق الحق في ذاته طلبا لتحقيق الحقائق الوجودية والإلهية على قدر الطاقة البشرية رجوعا إلى الحق في ذاته (١) .

إن التصوف في طبيعته شيء أيسر في التعبير من هذا الذي عبر عنه ممارسوه وهو أبعد ما يكون عن التعمية لفظاً والإلغاز معنى، إنه السمو والرياضة والمجاهدة والبعد عن أسباب الماديات الرخيصة والسعي الى معرفة الخالق والتقرب إليه والتحبب إلى ذاته ، وينبغي أن يكون التعبير عنه متمشيا مع سمو المسلك وسهولة المدرج ونقاء المنفذ وصفاء الطريق . وإننا لا نشك في أن التعبير عن التصوف بأقوال مستغلقة الفهم هي التي دفعت بالغربيين إلى تسميته بلفظ معناه الغموض ***Mysticism*** وتسمية الصوفي بلفظ معناه الغامض الخفي ***Mystic***.

على أن هناك خلافا قديما احتل مكانه بين الفقهاء الذين يعيشون بالحرف والمتصوفة الذين يغلون بالشطح ، وإن المتتبع لطبيعة العلاقة بين الفقه والتصوف أو بالأحرى بين الفقهاء والصوفية يلمس فارقا واضحا بين مفهوم كل من الفريقين للعبادة في نطاق الشريعة ، فجانب علم الشريعة الذي يهتم بالعبادات والأحكام والمعاملات من حدود وزواج وطلاق وبيع وشراء وفرائض وقصاص اصطلح على تسميته — على ما هو معروف — بعلم الفقه ، وعلماؤه هم الفقهاء

١ — المدخل إلى التصوف الإسلامي لأبي الفيض المنوفي ص ٩ .

وبالتالي فإن علم الفقه هو علم الظاهر والفقهاء بدورهم هم علماء الظاهر ، وأما الجانب الثاني من علم الشريعة فهو ذلك الذي يهتم بالباطن المتعلق بأعمال القلوب ، والذي اصطلح على تسميته بعلم التصوف ، وعلماؤه تبعا لذلك هم أرباب الباطن وأصحاب الحقائق. وأهل الظاهر يؤثرون الأحكام الدينية الواضحة المعالم وهم تبعا لذلك يسعون إلى تحصيل العلم ومداومة الاطلاع والدراسة، وأهل الباطن لا ينصرفون الى تحصيل العلم عن طريق الدراسة ولا يحرصون على ذلك كل الحرص ولكن الوسيلة إلى التحصيل تكون بطريق المجاهدة والإقبال على الله في نطاق طهارة النفس وصفاء الروح وتحرير الجسد ومحاسبة الضمير توقعا للتجلي الذي يمد المتصوف بأسباب المعرفة .

ومن باب إحقاق الحق ينبغي تقرير أن كبار المتصوفة من غير الغلاة كانوا ملتزمين دائماً بأحكام الشرع وإن تجاوزوا الصيغة الحرفية إلى المفهوم الكلي الذي هو في ذاته روح الشرع وكنه فلسفته ، بل إن بعضهم ألحوا على الالتزام بظاهر الشرع . فهذا أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ هـ وكان من كبار المتصوفة يقول : كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل . والقشيري صاحب الرسالة يطالب الصوفية في مستهل رسالته بالرجوع بالتصوف إلى سيرته الأولى لما لمس في الكثير منهم —أي من المتصوفة— من انحراف ظاهر في قضايا الشريعة متذرّعين بما أسموه الحقيقة .

ثم جاء حجة الإسلام الغزالي بعد القشيري بقليل وجدّ في السعي

إلى التوفيق بين التصوف وتعاليم الدين أو بين الحقيقة – المفهوم الصوفي – والشريعة – المفهوم الديني العام – فمزج عناصر التصوف بعناصر من الكتاب والسنةومن ثم أعاد إلى التصوف وقاره، وكسب إلى جانبه فئة من المسلمين كانت قد حاربته وانكرته . إن الغزالي يقول قولا قريبا من قول أبي سعيد الخرّاز في حتمية الربط بين الظاهر والباطن أو بلغة المتصوفة بين الشريعة والحقيقة : من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة والباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصولة . وأضفى الغزالي في مواطن شتى من «الإحياء» مسحة تصوفية على هذه القضية بقوله : الشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تعريف الحق . والشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهاه ؛ والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قدر وأخفى وأظهر (١) .

وعلى الرغم من أن الصوفية يفضلون أنفسهم على الفقهاء فإن سعة أفق أئمة أهل السنة قد غضت الطرف عن بعض سمات التحيز التي التزمها هؤلاء المتصوفة حيال تمييز أنفسهم على جمهرة الفقهاء ، فالسراج يصرّ على تفضيل المتصوفة على أهل الفقه والحديث فيقول : إن الصوفية ارتفعوا إلى درجات عالية وتعلقوا بأحوال شريفة ومنازل رفيعة من أنواع العبادات وحقائق الطاعات والأخلاق الجميلة ولهم في معاني ذلك تخصص ليس لغيرهم من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث (٢) .

١ – التصوف للدكتور عفيفي ص ١١٩ – ١٢١ .
٢ – المصدر السابق ١٣٠ .

يقابل هذا الحماس للمتصوفة سماحة من جانب المستنيرين من الفقهاء متمثلة في الإمام الشافعي من خلال هذه القضية . كان أحمد ابن حنبل عند الشافعي ذات يوم فمرّ أمامهما شيبان الراعي الصوفي فقال الإمام ابن حنبل موجها الحديث إلى الإمام الشافعي : أريد يا أبا عبدالله أن انبه هذا – يقصد شيبان – على نقصان علمه ليشتغل بتحصيل بعض العلوم ، فقال الشافعي : لا تفعل ، فلم يقتنع ابن حنبل واتجه إلى شيبان متسائلا : مـــا تقول فيمن نسي صلاة من خمس صلوات في اليوم والليلة لا يدري أي صلاة نسيها؟ما الواجب عليه يا شيبان ؟ وأرا د الإمام أحمد إجابة فقهية ، وتوقع أن يعجز شيبان عن إبداء أية إجابة ولكنه سرعان ما سمع من الصوفي العابد إجابة هي إلى الله أقرب وللوجدان أشفى . أجابه شيبان : يا أحمد هذا قلب غفل عن ذكر الله فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه ، فغشي على أحمد من روعة الإجابة وعمقها وسدادها ، فلما أفاق قال له الشافعي : ألم أقل لك لا تحرك هذا ؟ (١) .

وإذن فالاشتغال بالحقيقة في نطاق الإيمان وعدم إغفال الشريعة – وهو مسلك المتصوفة المستنيرة – مزج أصيل لتعاليم الشرع بروح العقيدة أو بعبارة أخرى هو المزج بين الفهم المادي والإحساس الروحي الذي تميز به الإسلام حين جعل عقيدته مصلحة من أمر الدنيامستهدفة ثواب الآخرة، وهذا يدفع بنا إلى تقرير أن الصادقين من المتصوفة كانوا أهل علم وعمل ، كانوا يكتسبون المعرفة ويأكلون من

١ – راجع الرسالة القشيرية ص ١٨١ .

عمل أيديهم ولم يكونوا عالة على أحد ، فالعامل الذي يعول عابدا ثوابه عند الله يرجح مرات ثواب العابد ، ولقد صور هذا المبدأ صوفي عظيم هو الحارث بن أسد المحاسبي ٢٤٣ ﻫ في قوله : خيار هذه الأمة الذين لاتشغلهم آخرتهم عن دنياهم ولادنياهم عن آخرتهم .

إنه في مجال العمل والكسب وعدم الاعتماد على الغير نستطيع أن نورد أكثر من مثل لصوفية عظام كانوا يأكلون من عمل أيديهم ، إن مالك بن دينار الناسك المحدث الورع كان يكتب المصاحف بالأجرة ويجعل من المهنة مصدراً للعيش ، والجنيد البغدادي ٢٩٧ ﻫ كان يعمل في الخز وهو لذلك قد عرف بالخزازي ، وغير خاف أنه معروف بين المتصوفة بشيخ مذهب التصوف ، والصوفي العظيم عبد القادر الجيلاني ٥٦١ ﻫ كان هو الآخر يأكل من عمل يده .

هذا ولم يكن المتصوفة -كما هي صورتهم في أذهان كثير من الناس- يهيمون في الطرقات على وجوههم أو يتقوقعون في التكايا ينشدون الراحة ويغرقون أنفسهم في التأمل وإنما كانت الكثرة الوافرة منهم تسعى وراء العلم ،تنشد المعرفة وتحصلها ثم تذيعها في مجالسها وفي عديد من الكتب التي تركوها والتي تشيع الحكمة في حواشيها ، فالحارث المحاسبي المتوفي سنة ٢٤٣ والذي مر ذكره قبل قليل ترك عددا من الكتب القيمة ، منها : الرعاية لحقوق الله ، والمسائل في الزهد ، والبعث والنشور ، والمسائل في أعمال القلوب والجوارح ، وأكثر كتبه كما هو واضح من عناوينها في الزهد ،غير أنه ألف كتبا أخرى تتسم بالموضوعية والفكر في الرد على المعتزلة .

والحلاج ٣٠٩هـ. الذي يلقب بشهيد الصوفية له العديد من الكتب التي تحمل عناوين على شيء من الغرابة ، ولا غرو في ذلك فقد كان الرجل نفسه غريب الأطوار ،فمن كتبه : الظل الممدود والماء المسكوب والحياة الباقية ، ومنها قرآن القرآن والفرقان ، ومنها علم البقاء والفناء ، ومدح النبي والمثل الأعلى ، والوجود الأول ، والوجود الثاني ، وكيف كان وكيف يكون ، وهو هو ، والقيامة والقيامات .

والقشيري الذي كان يلقب بزين الإسلام وشيخ خراسان ترك عدا رسالته النفيسة المشهورة تفسيره الذي جعل عنوانه التيسير في التفسير ، وكتابا آخر لا يزال مخطوطاً هو لطائف الإشارات .

وأما أبو حامد الغزالي ٥٠٥هـ. فهو غني عن التعريف من حيث الكنوز الفكرية التي خلفها فيما يقرب من مائتي كتاب أشهرها الإحياء ، وتهافت الفلاسفة ، والاقتصاد في الاعتقاد ، ومقاصد الفلاسفة ، والمنقذ من الضلال ، وبداية الهداية ، وإلجام العوام عن علم الكلام ، ومنهاج العابدين ، وعقيدة أهل السنة ، وفضائح المعتزلة ، وفضائح الباطنية .

وكان حجة الإسلام الغزالي باعتباره من منطقة طوس بخراسان من ذوي اللسانين فكان يجيد العربية والفارسية ، وكما ترك مؤلفات بالعربية ترك أيضا بعض المؤلفات بالفارسية .

وعلى نفس الشاكلة من حيث العطاء كان محيي الدين بن عربي مع بون شاسع وفارق واسع في فهم كل من العالمين الشهيرين للتصوف ،

لقد ترك ابن عربي نحواً من أربعمائة كتاب ورسالة خصّصها جميعا لتصوراته الصوفية أهمها الفتوحات المكية ، وفصوص الحكم ، ومفاتيح الغيب ، والتعريفات ، وكنه ما لا بد للمريد منه ، وروح القدس، والأنوار (في أسرار الخلوة)،والتجليات، وشجرة الكون وديوان شعره .

فإذا ما عدنا إلى الحديث عن موضوعات التصوف وجدنا أنها تتناول أربعة مباحث وذلك حسبما أحصاها الشيخ مصطفى عبد الرازق في استيفائه لمفهوم المذهب وإكماله للمادة التي كتبها الأستاذ ماسينيون في دائرة المعارف الإسلامية ، هذه المباحث هي [1] :

أولا : المجاهدات وما يحصل عنها من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصيل تلك الأحوال والترقي منها إلى غيرها .

ثانياً : الكلام في الكشف والحتمية المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والروح ...

ثالثاً : التصرف في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات .

رابعاً : ألفاظ ذوات باطن يختلف عن مدلول الظاهر اصطلح على تسميتها بالشطحات أو الشطحيات ، ويورد الشيخ مصطفى عبد الرازق بعض الأمثلة على هذه الشطحات منها ما يروى عن أبي اليزيد البسطامي أنه قال : رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي : يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك ، فقلت زيّني بوحدانيتك ، وألبسني

١ – دائرة المعارف الاسلامية ملحق مادة تصوف .

أنانيتك ، وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك . ويورد صاحب المادة كمثال آخر في هذا السبيل بيتا لابن عربي يقول فيه :

عقد الخلائق في الإلـه عقائـــدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوهُ

ونستطيع أن نضيف من جانبنا في هذا السبيل أبياتا لنفس الشاعر ابن عربي يقول فيها :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
أدين بدين الحب أنى توجهتْ ركائبه فالحبُّ ديني وإيماني

والحق أن هذه الشطحات التي صدرت عن المتصوفة وبخاصة ما يرتبط منها بالذات الإلهية هي التي دفعت المستشرقين – وأكثرهم مسيحيون – إلى أن يربطوا بين التصوف والمسيحية أو بينه وبين بعض الأديان الأرضية من هندوكية وزرادشتية، وهو ما يناقض مفهوم الإسلام مناقضة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام ، وبذلك يكون كثير من المتصوفة المسلمين مثل الحلاج وابن عربي وجلال الدين الرومي والبسطامي – على فضله– في مثل الشطحة التي ذكرناها قبل قليل قد هيأوا للدارسين الغربيين أسبابا وذرائع يخرجونهم من خلالها عن النطاق التعبدي الإسلامي الصحيح ويدفعون بهم إلى أحضان أديان أخرى ومن ثم يربطون بين التصوف وهذه الديانات في حذق ومهارة

ليست من صنعهم ولكنها من صنع بعض متصوفينا أنفسهم بغلوهم وشطحاتهم .

لقد تنبه إلى هذه المزالق المتصوف المعاصر السيد محمود أبو الفيض المنوفي فجعل يحدد معالم بذاتها للتصوف « الإسلامي » حتى لا يختلط الطريق وتتداخل الماهيات ، وهو من أجل ذلك اشترط لسالك طريق « التصوف الإسلامي الخالص » أن يكون على علم بالشرع الشريف وأن يعمل به وأن يخلص لله فيه ليكون على هدى من ربه ونور من قلبه ، وهذا لا يتم الا باتباع الشرع على شريطة صفاء النية والإخلاص في العمل وإحكام أمر المعتقد في التوحيد والتنزيه لله عز وجل ، فإذا طبق هذا العلم على العمل مع خلوص النية أفيض على العبد من أنوار الحق ما ينشرح به صدره ويكمل به إيمانه (١) .

هذا ويبقى التصوف بعد ذلك طريق مناجاة لله وحبا لذاته وعشقا لصفاته وسعيا إليه وفناء فيه وبين يديه يصوره قول ذي النون المصري وهو يساق إلى المطبق في بغداد وقد سعى به بعض القوم وبكى من أجله بعض القوم :

لك من قلبي المكان المصونُ ... كل لوم عليّ فيك يهونُ
لك عزم بأن أكون قتيلاً ... فيك والصبر عنك ما لا يكونُ

ويحسن تصويره أيضا في غير ما شطح ولا إلغاز ولا غموض ولا

١ ــ التصوف الاسلامي الخالص ــ المقدمة .

تهور ولا تعسف ولا تجسيد ولا حلول قول شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية :

أحبك حبين : حبَّ الهوى ... وحبـاً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حبُّ الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

القسم الثالث

حرب وقتال بسبب المذاهب

حرب المذاهب :

كان لتعدد المذاهب واختلاف الفرق أثر سيء خطير على الإسلام والمسلمين ، فالإسلام الموسوم بالسماحة ، الداعي إلى السلام قد تخضب أبناؤه دماؤهم بدماء بعض نتيجة للخلافات المذهبية وضيق الأفق الذي حل بهؤلاء المتعصبين لمذاهبهم ، وانتهى الأمر في كثير من الأحيان ولفترات طويلة من الزمان إلى القتال الدامي الذي ترك رواسب كثيرة في نفوس المسلمين من أبناء الطوائف المختلفة .

وقد ابتدأت دماء المسلمين تسيل أول الأمر على يد الخوارج الذين دعوا أنفسهم بالشراة ، ورأوا أن الإسلام لا يتم إلا بالجهاد وقتل باقي المسلمين ممن لا يعتنقون مذهبهم ، ومن بعد الخوارج قام القرامطة الذين أقضوا مضجع العالم الإسلامي وحل شرهم في كل بلد وأسالوا الدماء في كل صعيد وواد وانتشروا في العراق والشام والحجاز يوقعون الفزع ويبثون الرعب في قلوب المسلمين مع قتل ونهب وسلب حتى

أنهم كثيرا ما هاجموا حجاج بيت الله وقتلوهم وطموا بهم بئر زمزم ونهبوا ستائر الكعبة وهدموها ونقلوا الحجر الأسود إلى عاصمتهم هجر .

هذه الآلاف من أرواح المسلمين التي أزهقت بسيوف الخوارج والقرامطة لم يكن سبب إزهاقها إلا الأفق الضيق والتعصب الأعمى . والإسلام من كل ذلك براء .

ومع عجلة الزمان أخذ الخطر ينتشر من مكامنه وأخذ الصراع بين المذاهب المختلفة — بخاصة الشيعة والسنة — يحتل مكانا ظاهرا في حياة المسلمين والغلبة للقوي صاحب السلطان من الطرفين ، وهكذا نجد الشيعة حينا معتدين غالبين ، ثم ينتقل الأمر إلى السنة فنجدهم أيضا معتدين غالبين . ومن الغريب أن الأمر لم يكن قاصرا على معسكري الشيعة والسنة ، بل كثيرا ما وقع الخلاف بين أحزاب السنة أنفسهم .

على أننا نلاحظ أن أكثر الفرق الإسلامية خسارة أرواح وأنفس هم الشيعة أنفسهم وذلك لعدة أسباب أهمها عطف الناس عليهم أول الأمر باعتبارهم أهل البيت الكريم ، وشدة تعلقهم بهم الأمر الذي كان يرتعد منه الخلفاء الأمويون والعباسيون فرقا ، فكانوا يشددون عليهم النكير ويوقعون بهم الأذى ما كان إلى إيقاع الأذى بهم من سبيل .

وسبب آخر هو التفاف بعض الغلاة حولهم أولئك الذين كانوا يؤلهونهم حينا أو يرفعونهم إلى مراتب النبوة حينا آخر الأمر الذي

كان يجعل جمهور المسلمين ينفر منهم ويوقع الأذى بهم ، فالكيسانية والسبئية والإسماعيلية ، كل أولئك كانوا يثيرون المسلمين بما ينادون به من مبادىء هي أبعد ما تكون عن الإسلام .

والأمر الذي لا يقل عن السببين السالفين من حيث الأهمية هو ذلك التيار الشعوبي الذي كان يستتّر خلف التشيع ، فالذي لا شك فيه أن الشيعة — وأعني منهم المعتدلين — قوم طيبون يحبون الرسول وآل بيته ، ولكن جماعة الشعوبيين ممن كانوا يظهرون التحمس للإسلام ويبطنون له الشر والضر قد استتروا وراء أنصار آل البيت مما كان سببا في وقوع الأذى على آل البيت أنفسهم .

وإذا ما تتبعنا المصادمات والخلافات التي وقعت بين الشيعة والسنة ، سواء أكان المعتدون هؤلاء أم أولئك فإننا سنجد صفحات دامية سوداء لوثت أفق الحياة الإسلامية لبضعة قرون من الزمان .

فرجل فاضل مثل أبي عبد الرحمن النسائي — وكان متشيعا — يسأل في دمشق عن معاوية وفضائله فيرد ردا به مساس بالخليفة الأموي فإذا بالناس يدفعونه ويخرجونه من المسجد ويدوسونه حتى يموت بسبب ذلك .

وينشب في مصر في يوم عاشوراء سنة ٣٥٠هـ خلاف بين الجنود السنة من أتراك وسودانيين من جانب والشيعة من جانب آخر ، ويسير الجنود في الشوارع يسألون من يجدونه في الطريق: من خالك! فإذا لم يقل معاوية يلقى من الضرب والأذى ما لا طاقة له به [1] .

(١) متز ١١٢/١ .

وتقع فتن دامية أعوام ٤٠٨ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٩ هجرية ويجري قتال رهيب بين كل من الشيعة والسنة وتسيل الدماء — دماء المسلمين — من الطرفين أنهاراً وتخرج نساء الشيعة ناشرات شعورهن حزنا على من ماتوا من أزواجهن ويلهبن عواطف العامة فيشتد الأمر وتشتعل الحرائق إلى أن تأتي على الأخضر واليابس لغير ما سبب إلا أن فريقا من المسلمين يخالف فريقا آخر في الرأي [1] .

ويتربص الحنابلة في بغداد بالشيعة وينسبونهم إلى الكفر ويقفون في طريقهم ويترصدونهم ويمنعونهم من زيارة قبور الأئمة ويوقعون بهم الأذى ولا يزال الأمر كذلك حتى يتدخل الخليفة لإخماد الفتن ومنع أي اثنين من الحنابلة من الاجتماع في مكان واحد .

وفي مصر نقرأ في أحداث سنة ٣٥٣ هـ أن أحد كبار الشيعة يحبس لغير سبب فيموت في الحبس فيحمل إلى قبره ، ولكن يأبى التعصب الكريه أن يترك جثة الرجل تمر في أمان بل يلتحم الجند بأصحاب الشيخ وتقع بين الفريقين معارك دامية .

ويظل الشيعة عرضة للمطاردة في كل بقعة من بقاع المسلمين في العراق وفارس والحجاز ومصر وأفريقية وتركيا ولا زالت الدماء الشيعية التي أراقها السلطان التركي سليم الأول في مستهل القرن السادس عشر الميلادي نقطة سوداء في تاريخه لأن الدافع إلى هذا الانتقام لم يكن له من سبب معقول إلا التعصب في ظل المذهب ، فقد كان سنياً وأولئك شيعة .

---

(١) راجع ابن الأثير أحداث السنوات المشار إليها .

على أن بعض الشيعة أنفسهم كانوا مسئولين عما يصيبهم من الأذى في بعض الأحيان لإظهار تعصبهم ضد الصحابة الكرام ولعنهم جهارا ، الأمر الذي كان يثير عليهم جمهور المسلمين ، ففي أحداث سنة ٣٤٥ هـ قامت فتنة كبيرة في أصبهان — وكان سكانها سنيين — لأن رجلا من أهالي قم — وهم شيعة غلاة — قد سب صحابة رسول الله فوقع كثير من القتلى ونهبت أموال التجار من أهل قم .

وللسبب نفسه قتل عدد ضخم من الشيعة في القيروان رجال ونساء وأطفال ونهبت ديارهم وأحرقت بالنار وأحكم الحصار حولها فمات عدد كبير منهم جوعا ومن كان يخرج كانت السهام تتلقفه فيخر صريعا .

وإذا كانت حوادث الشيعة كلها تتخذ هذا الطابع الدامي الحزين ، فإن هناك حوادث لم تكن تخلو من طرافة رغم أن أسبابها هو التعصب ، فقد حدث أن تولى أمر « قم » وال جديد ، وكان الوالي سنيا متشددا ، وكان أهالي قم شيعة غلاة ، فبلغه أن القميين لشدة بغضهم للصحابة لا يوجد بينهم من اسمه أبو بكر أو عمر ، فجمعهم يوما وقال لهم بلغني أنكم تبغضون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنكم لشدة بغضكم لهم لا تسمون أولادكم بأسمائهم ، وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ويثبت عندي أنه أسمه لأفعلن بكم ولأصنعن ، فاستمهلوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم فلم يعثروا إلا برجل صعلوك

حافي القدمين عاري الجسم أحول أقبح خلق الله منظرا اسمه أبو بكر لأن أباه كان غريبا واستوطن البلدة وجاءوا به للوالي فما إن رآه حتى شتمهم وقال : جئتموني بأقبح خلق الله تتنادرون عليّ وأمر بصفعهم . فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير اصنع ما شئت فإن هواء قم لا يجيء منه من اسمه أبو بكر أحسن من هذا . فغلبه الضحك وعفا عنهم .

ويقال إن قم هذه كان يسكنها قوم من الغلاة هم الغرابية ، ومذهبهم أن المال كله للبنت فلما ولى أمرهم قاض حكم للبنت بالنصف هددوه بالقتل . وإنما يحكمون للبنت بكل المال تكريما للسيدة فاطمة الزهراء .

على أن الشيعة لم يكونوا المعتدى عليهم بصفة دائمة فكثيرا ما كانوا المعتدين خصوصاً إذا كانت الأمور في يد دولة شيعية كالبويهيين أو الفاطميين أو حيث يكثر تجمعهم ، فلم يكن إنسان يستطيع أن يذكر الصحابة بالخير في بعض الأزمنة في الكوفة لأن مصيره يكون القتل السريع ولذلك قيل : من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ « بالكوفة » وليقل رحم الله عثمان [1] .

وكان في القيروان قاض سني اسمه أبو سعيد فاستدعاه داعي الدعاة الفاطمي وطلب إليه أن يعتنق المذهب الشيعي فرفض القاضي قائلا : لو نشرتني إلى اثنين ما فارقت مذهب مالك . فأمر به داعي

(١) متز ١٠٢/١ عن تاريخ بغداد المخطوط .

الدعاة فقطع لسانه [1] .

وكان البويهيون لتعصبهم للتشيع يكرهون أهل السنة وكثيراً ما أوقع معز الدولة البويهي الأذى بالخلفاء من قتل أو سمل عيونهم لا لشيء إلا أنهم سنيون .

على أن أكثر ما حل بأهل السنة من أذى كان على يد الشيعة من الفاطميين فقد ضرب رجل في مصر وطيف به في القاهرة لأنهم وجدوا عنده الموطأ للإمام مالك ، وأمر الحاكم بأمر الله نائبه بدمشق بعقاب رجل مغربي ضُرب وطيف به على حماره ونودي هذا جزاء من أحب أبا بكر وعمر ، وبعد انتهاء الطواف ضربت عنقه .

وقد بالغ الفاطميون في مصر في إيذاء أهل السنة فعزلوا كل السنيين من المناصب الحكومية وحبسوا قاضي القضاة لأنه رفض أن يعترف بإمامة عليّ ، وسبوا الصحابة والخلفاء الراشدين بكتابات منقوشة على جدران المساجد وفي الشوارع ، واعنوا أهل السنة على المقابر إلى غير ذلك من أصناف الأذى التي أريق بسببها الدماء حينا أو حل الأذى والتحقير مكان الدماء حينا آخر .

ولم يقف أمر الخلاف الدامي بين المسلمين على السنة والشيعة وحدهم بل إنه جرى بين المعتزلة والسنة أيضاً ، ولعلنا لا زلنا نذكر فتنة خلق القرآن ، فقد أوقع المعتزلة بمساعدة بعض الخلفاء العباسيين كالمأمون والمعتصم الأذى والضر والقتل ببعض أهل السنة ممن رفضوا القول بخلق القرآن على ما مر بنا عند الحديث عن المعتزلة .

(١) حسن إبراهيم حسن – الفاطميون ص ٣٣٣.

ولعل أيادي خفية كانت حريصة على إذكاء نار الفتنة بين المسلمين حتى بين أبناء الطائفة الواحدة ، فقد جرت خلافات ومصادفات بين أهل السنة بعضهم وبعض ، ولقد كان الحنابلة (أنصار أحمد بن حنبل) على رأس المعتدين دائما واشتهروا بالعنف في معاملة خصومهم من أبناء المذهب الشافعي ، فقد ثاروا عليهم وألحقوا بهم الاعتداء وأرادوا أن يجعلوا لأنفسهم مركزا حصينا ينقضون منه على خصومهم فبنوا مسجدا في بغداد جعلوا منه وكرا للمشاغبة واستعانوا بفريق من العميان مسلحين بالهراوات كانوا يطلقونهم على الشوافع فيوسعونهم ضربا حتى يشرفوا على الموت [1] .

وبلغ الأمر بالحنابلة وعنف خصومتهم أن منعوا دفن ابن جرير الطبري فاضطر أصحابه أن يدفنوه في داره ليلا ، فقد استعانوا بالعامة في ذلك لا لشيء إلا أن الطبري لم يعترف بابن حنبل كفقيه واعتبره محدثا ليس غير [2] ، وكان ابن جرير قد أسس مذهبا خاصا وكان صاحب علم وفضل .

المذاهب أضعفت الإسلام :

هذه الفُرقة القاتلة ، وتلك الدماء المهراقة على مر القرون لم تفد الإسلام في شيء بل نخرت عظامه وأضعفت مقاومته لتيارات الغدر والاستعمار ، إن هذه الخلافات من الخطورة بحيث أن كل مسلم

(١) ابن الأثير ٨/٢٢٩ .
(٢) المصدر السابق ٨/٩٨ .

صحيح الإسلام غيور على دينه ووطنه لا بد وأن يتحمل جانبا من تلك المسئولية سواء أكان من السلف أو المسلمين المعاصرين .

لم يندك خنجر الفرقة في صدر الإسلام بأيدي المسلمين ولكن بأيدي قوم ادعوا الإسلام ليصلوا إلى هذه الغاية ، ولم يدخل الإسلام يوما إلى قلوبهم ، فالمجوسية والسبئية والشعوبية قد لعبت أدوارها بمهارة كاملة حين بذرت بذور الخلاف بين المسلمين منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا ، وكلما مرت عليه الأيام امتدت جذوره في الأرض قوة وثباتا ، وفي أيام الفاطميين لعب اليهود من أمثال ابن كلس ونشتكين الدرزي دورا خطيرا في تفتيت العقيدة الإسلامية وتمزيق وحدة المسلمين ، بل إنهم مكنوا لبعض الخونة من تولى الوزارة والتعلق بها حتى لم يجد بعضهم أية غضاضة في أن يستعين على خصومه من المسلمين بأعداء الإسلام من الصليبيين الذين كانوا مغتصبين لديار العرب والمسلمين في ذلك الزمان .

لا شك أن أول نتيجة مؤسفة لهذه الخلافات التي اتخذت مكانها في عمق مرير بين صفوف المسلمين أن ضاعت الأندلس وأجلي عنها أجدادنا من الصناديد الفاتحين بعد أن عشنا على أرضها ثمانية قرون أو تزيد .

ومن عجب أن الاستعمار الحديث أو بالأحرى الصليبية المعاصرة والصهيونية الماكرة التي يعتنقها كل المستعمرين ، كل أولئك الأعداء لا يزالون يستفيدون من تفرق المسلمين في مذاهبهم ، وهم من أجل ذلك يوسعون شقة الخلاف بين المسلمين من أبناء الوطن الواحد ففرقوا بين السني والشيعي في العراق ولبنان ، وبين السني والإباضي

في تونس والجزائر ، وساروا على نفس الطريقة في بقية بلاد المسلمين ، والفرقة تؤدي دائما إلى الضعف وضعف المسلمين يمكّن للمستعمرين أعداء الإسلام أن يثبتوا أقدامهم في أرض المسلمين ، وأرض المسلمين اليوم هي أغنى بلاد العالم بالمواد الخام التي تحتاج إليها الصناعات الضخمة المعاصرة ، ولا سبيل أمام المستعمر للوصول إلى هذه الثروات الضخمة إلا عن طريق تمزيق الشمل وتفريق الكلمة وتأليب المسلم على أخيه المسلم ثم تقريب بعض ضعاف النفوس من أبناء بعض الفرق الإسلامية وتشجيعهم والإغداق عليهم وبناء آمال لهم كذاب وبذلك يخرجونهم عن الصف ويتخذون منهم معاول هدم وأدوات تدمير .

وقد تمكن الاستعمار بهذه الطريقة الجبارة من أن يحرز بعض الانتصارات المؤقتة ، فكما ضاعت الأندلس في الماضي نتيجة الفرقة والتمزق فإن فلسطين قد ضاعت منذ بضعة عشر عاما لهذا السبب وطرد العرب من ديارهم وديار آبائهم وأجدادهم وسلبوا أموالهم ومرابعهم وأراضيهم ، ونخشى إذا استمر الأمر على تلك الفرقة أن تضيع الجزائر ثم يسقط الوطن الإسلامي بلدة إثر بلدة كأوراق الخريف في يوم عاصف شديد .

ومن أسف أن الاستعمار والصهيونية استطاعا أن يجدا أعوانا في بعض البلاد الإسلامية من أبناء المسلمين أنفسهم ، ففي الهند والباكستان كان ينادي ميرزا غلام القادياني علنا وفي مقالاته بمهادنة الإنجليز وتعطيل الجهاد من أجل بقاء الاستعمار في أرض يعيش فيها

أكثر من مائة وثلاثين مليون مسلم ، وفي سورية في الماضي استطاع الاستعمار الفرنسي أن يستخدم بعض أبناء المسلمين من العلويين وأن يستعين بهم في خلق فتنة بعد الاستقلال مباشرة ، وفي العراق كان الإنجليز يخلقون الوقيعة بين السنة والشيعة من أبناء الوطن الواحد حتى ينشغل المواطنون بخلافاتهم ويظل المستعمرون مغتصبين للبلاد ، وفي الجزائر وتونس حاول الاستعمار الاستعانة بالإباضية ولكنه فشل ، غير أنه بكل أسف استطاع الاستعمار الصهيوني أن يجتذب بعض الغافلين من إخواننا الدروز وضمهم إلى جيشه وهيأ لهم محاربة إخوتهم في العروبة والإسلام .

ومن عجب أن هذا الاستعمار لا يفرق بين الجماعة الإسلامية بالإغراء بالمال والآمال وحدهما ، بل إنه يزور بعض الوثائق التي تتعلق ببعض الفرق الإسلامية المعاصرة كالدرزية في سوريا ولبنان ، والعلويين في سوريا ويحاول بهذه الوسائل أن يباعد بين أصحاب المذهبين المذكورين وبين الإسلام الدين السمح الذي منه تفرعت هذه الفروع ، وكثيرا ما صدق بعض المخدوعين من الأطراف المعنية هذه المحاولات المسمومة فأصبحوا يتصورون أن السنيين هم حملة الأذى والعذاب .

قد يكون للعلويين – مثـلا – بعض الحق في تصورهم هذا بالنسبة إلى الماضي فلقد أوقع بهم الاستعمار التركي الكثير من الاضطهاد والأذى ، ولما كان الأتراك سنيين فقد تصور هؤلاء الإخوة العلويون أن الأذى بالنسبة إليهم كامن في كل سني يتقرب

منهم أو يختلط بهم ، والحق أن ما حل بهم من أذى في الماضي كان نتيجة لضيق الأفق التركي ولم يكن بسبب المذهب السني الذي كان يعتنقه الأتراك .

وإنصافا للحق نقول إن التركي المسلم ما كان ليوقع الظلم والأذى بإخوة له في الإسلام ولكن الذين لعبوا هذا الدور الخسيس جماعة من الأتراك الحاقدين على الإسلام تظاهروا باعتناقه واندسوا بين الحكام وأسلس أولو الأمر لهم قياد الأمور فعمدوا إلى تنفيذ مؤامراتهم الدنيئة وهي تفتيت الجماعة الإسلامية وتمزيق عرى الروابط بين شعوب دولة الخلافة . كان هؤلاء الحاقدون — ولا زالوا — من اليهود الذين تظاهروا بالإسلام وهم المعروفون بجماعة « الدونمة » وبالحيلة والمكر والخديعة والدس والدهاء والخيانة واستعمال الوسائل البعيدة عن الشرف تمكنوا من الوصول إلى أهدافهم في إضعاف الخلافة الإسلامية بادىء ذي بدء وتصويرها تصويرا مشوها أمام الدول ، ثم أنهوا مؤامراتهم الطويلة حين أغمدوا خنجرا ضخما مسموما في قلب الخلافة فقضوا عليها وتسلموا بعد ذلك زمام الحكم في الدولة الإسلامية العزيزة .

ومن عجب أن بعض ساسة تركيا الحديثة قد ساهم في طرد عرب فلسطين من ديارهم وتقديم الأرض العربية الطاهرة لقمة سائغة وهدية ثمينة للصهيونيين من شذاذ الآفاق . ولا زالت كلمات وزير خارجية تركيا الأسبق رشدي أراس تؤذي مسامع العرب والمسلمين حينما قال إنه لا يستطيع أن يخفي عطفه على اليهود لأن أجداده منهم . والذي

يقول مثل هذا الكلام ليس بمسلم عن عقيدة وإنما إسلامه مزيف ، إسلام المتآمرين على الإسلام الحاقدين عليه الهادمين لصرحه المدمرين لشامخ بنيانه .

فإذا كان بعض العلويين والدروز لا يزالون يربطون بين ظلم الأتراك لهم وبين المذهب السني ، فإن ذلك يعدو الحقيقة التاريخية في كثير من جوانبها ، ذلك أن الظالمين من الأتراك كانوا مدفوعين بغايات استعمارية حيناً وصهيونية حينا آخر وكان هدفهم المؤكد تشتيت صفوف المسلمين من أبناء المذاهب المختلفة بالرغم من الخلافة .

ومن ناحية أخرى نستطيع أن نقول إن ظلم الاستعمار التركي لم يقع على العلويين والشيعة دون السنيين ، فلقد لقي السنيون منه أفظع ألوان العذاب والقتل والتشريد فكم نصبت المشانق لأبطال الاستقلال في ساحة المرجة بدمشق ، وكم آلاف من العراقيين تنقلت رءوسهم بين السيف والمشنقة وكم من نساء محصنات أريد الاعتداء على عفافهن لأنهن زوجات أو أخوات الشهداء من الزعماء العراقيين ، فكانت المرأة العراقية تفر منهم بعرضها وتلقي بنفسها في عرض نهر دجلة حتى ابتلعت مياهه كثيراً من المحصنات العراقيات شهيدات للعرض والوطن .

فالاستعمار التركي السني شكلا البعيد عن الإسلام موضوعاً لم يفرق في أذاه بين علوي ودرزي وشيعي وسني ، ولذلك ينبغي للعقلاء من العلويين أن يضعوا هذه الحقيقة نصب أعينهم ولا ينظروا بريبة إلى

إخوانهم السنيين الذين لا يكنون لهم إلا كل عطف وحب ومودة وخير .

ولكن هناك كلمة حق ينبغي أن تقال عن الشعب التركي ، ففرق كبير بين الشعب التركي الذي يحب المسلمين في كل شبر من الأرض يعيشون فيه وبين بعض حكام الأتراك في بعض فترات التاريخ السالف واللاحق ، فمهما مال الحكام الأتراك عن الجادة وحاربوا الإسلام وتآمروا عليه حيناً أو تخلوا عنه وأعطوه ظهورهم حيناً آخر ، فإن الشعب التركي نفسه لا يزال على عقيدته المسلمة الصافية ، ولا يزال الأتراك من أبناء الشعب يؤمنون إيماناً فعليًّا بالحديث الشريف « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

تقريب المذاهب :

المذاهب التي تعرضنا لها بالحديث في هذا الكتاب بعضها مندثر وبعضها قائم وبعضها تداخل في مذاهب قائمة ، فأما المذاهب المندثرة فهي الأزارقة والصفرية والنجدات والبيهسية والعجاردة والثعالبة من الخوارج ولم يبق منهم إلا الإباضية الذين يعيشون الآن في عُمان وطرابلس وتونس والجزائر وشرق أفريقية ، وهؤلاء يغضبون ممن يطلق عليهم اسم الخوارج ، والمذاهب المندثرة من الشيعة كثيرة مثل السبئية والكيسانية والمغيرية والكاملية والمنصورية والنعمانية والخطابية والهشامية واليونسية ولم يبق منهم إلا الإمامية والزيدية والإسماعيلية والدروز والعلوية .

وأما المعتزلة فقد اندثر حزبهم كمذهب قائم بذاته ، فلم نعد في عصرنا الحديث نسمع عن الواصلية أو الهذيلية أو النظامية أو الجاحظية أو البشرية أو الجبائية إلى غير ذلك من المدارس الاعتزالية الفرعية ، وإنما ذاب المذهب في تعاليم الشيعة الإمامية والشيعة الزيدية بحيث أخذ المذهبان أطيب ما عند المعتزلة من أفكار واطرحا ما قد تورط فيه علماء الاعتزال من تطرف واندفاع .

وإذن نستطيع أن نعد من المذاهب الإسلامية المعاصرة أهل السنة والإباضية ، والشيعة الزيدية والشيعة « الاثنا عشرية » وغير الغلاة من الإسماعيلية والدروز والعلويين والأحمدية .

وإذا انعمنا النظر جيداً واطرحنا الأفكار البالية الجامدة خلف ظهورنا ، فإننا لن نجد كبير خلاف بين كل من مذهب السنة ومذهب الشيعة الإمامية ومذهب الشيعة الزيدية وكذلك لن نجد كبير خلاف بين السنة وبين الإباضية فالإمام أبو حنيفة السني كان تلميذا للإمام زيد بن علي الذي إليه ينتسب المذهب الزيدي ، أخذ عنه الفقه وأصول العقائد والإمام زيد تلميذ لواصل بن عطاء أحد رءوس المعتزلة وكان ملازماً له ، وقد ليم في ذلك لأن واصلا لا يوافق الشيعة في كل ما قالوه عن الإمامة ولكن زيداً صاحب الأفق الواسع والمدارك السمحة ضرب بكل ذلك عرض الحائط وظل مخلصاً لتعاليم واصل بن عطاء وأخذ عنه ، ولذلك فإننا نرى الكثير من سمات الاعتزال طافية واضحة على صفحة المذهب الزيدي ، وبذلك نرى كيف أخذ الإمام أبو حنيفة السني عن الإمام زيد الشيعي الزيدي عن واصل بن عطاء المعتزلي .

إخوانهم السنيين الذين لا يكنون لهم إلا كل عطف وحب ومودة وخير .

ولكن هناك كلمة حق ينبغي أن تقال عن الشعب التركي ، ففرق كبير بين الشعب التركي الذي يحب المسلمين في كل شبر من الأرض يعيشون فيه وبين بعض حكام الأتراك في بعض فترات التاريخ السالف واللاحق ، فمهما مال الحكام الأتراك عن الجادة وحاربوا الإسلام وتآمروا عليه حيناً أو تخلوا عنه وأعطوه ظهورهم حيناً آخر ، فإن الشعب التركي نفسه لا يزال على عقيدته المسلمة الصافية ، ولا يزال الأتراك من أبناء الشعب يؤمنون إيماناً فعلياً بالحديث الشريف « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

تقريب المذاهب :

المذاهب التي تعرضنا لها بالحديث في هذا الكتاب بعضها مندثر وبعضها قائم وبعضها تداخل في مذاهب قائمة ، فأما المذاهب المندثرة فهي الأزارقة والصفرية والنجدات والبيهسية والعجاردة والثعالبة من الخوارج ولم يبق منهم إلا الإباضية الذين يعيشون الآن في عمان وطرابلس وتونس والجزائر وشرق أفريقية ، وهؤلاء يغضبون ممن يطلق عليهم اسم الخوارج ، والمذاهب المندثرة من الشيعة كثيرة مثل السبئية والكيسانية والمغيرية والكاملية والمنصورية والنعمانية والخطابية والهشامية واليونسية ولم يبق منهم إلا الإمامية والزيدية والإسماعيلية والدروز والعلوية .

وأما المعتزلة فقد اندثر حزبهم كمذهب قائم بذاته ، فلم نعد في عصرنا الحديث نسمع عن الواصلية أو الهذيلية أو النظامية أو الجاحظية أو البشرية أو الجبائية إلى غير ذلك من المدارس الاعتزالية الفرعية ، وإنما ذاب المذهب في تعاليم الشيعة الإمامية والشيعة الزيدية بحيث أخذ المذهبان أطيب ما عند المعتزلة من أفكار واطرحا ما قد تورط فيه علماء الاعتزال من تطرف واندفاع .

وإذن نستطيع أن نعد من المذاهب الإسلامية المعاصرة أهل السنة والإباضية ، والشيعة الزيدية والشيعة « الاثنا عشرية » وغير الغلاة من الإسماعيلية والدروز والعلويين والأحمدية .

وإذا انعمنا النظر جيداً واطرحنا الأفكار البالية الجامدة خلف ظهورنا ، فإننا لن نجد كبير خلاف بين كل من مذهب السنة ومذهب الشيعة الإمامية ومذهب الشيعة الزيدية وكذلك لن نجد كبير خلاف بين السنة وبين الإباضية فالإمام أبو حنيفة السني كان تلميذا للإمام زيد بن علي الذي إليه ينتسب المذهب الزيدي ، أخذ عنه الفقه وأصول العقائد والإمام زيد تلميذ لواصل بن عطاء أحد رءوس المعتزلة وكان ملازماً له ، وقد ليم في ذلك لأن واصلا لا يوافق الشيعة في كل ما قالوه عن الإمامة ولكن زيداً صاحب الأفق الواسع والمدارك السمحة ضرب بكل ذلك عرض الحائط وظل مخلصاً لتعاليم واصل بن عطاء وأخذ عنه ، ولذلك فإننا نرى الكثير من سمات الاعتزال طافية واضحة على صفحة المذهب الزيدي ، وبذلك نرى كيف أخذ الإمام أبو حنيفة السني عن الإمام زيد الشيعي الزيدي عن واصل بن عطاء المعتزلي .

وليس ذلك وحسب بل إن إماماً سنياً آخر يأخذ عن إمام شيعي آخر . وذلك هو الإمام مالك بن أنس الذي كان تلميذاً للإمام جعفر الصادق رأس الشيعة الإمامية أو الجعفرية ، وكان إماماً فاضلاً ورعاً له من الإيمان والثقافة الدينية ما لم يتوفر لإمام آخر من معاصريه ، ولذلك فإن فقهه ونظراته محل احترام جميع أهل السنة . ومن هنا لا يبدو الأمر غريباً أن يتفقه الإمام مالك السني على الإمام جعفر الشيعي ويأخذ عنه هو وغيره من الأئمة الذين عرفوا فيما بعد باسم السنة .

وإذن فليس ثمة خلاف واسع بين السنة والشيعة الإمامية والشيعة الزيدية طالما أن أئمة هذه المذاهب قد ارتبط بعضهم ببعض في ثقافته وعقيدته وأفكاره على النهج الذي ذكرنا .

على أن الأمر لم يقف بنا في علاقات المذاهب بعضها وبعض عند هذا الحد ، بل إن الإمام البخاري حافظ السنة كان يجلس بين يدي عمران بن حطان الخارجي يتلقى عنه الحديث ويدونه ، فتكون هذه صلة جديدة بين الخوارج والسنة ، بل إن واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد رئيسي المعتزلة أخذا علمهما من الحسن البصري الذي يعتبره الشيخ محمد عبده شيخ السنة من التابعين ، والاعتزال في أول أمره وقبل أن يدخل عليه التطرف الذي جاءه من الثقافة اليونانية في عصوره المتأخرة لم يكن بعيداً عن السنة بعداً كبير ، حتى أن الحسن البصري يسأل عن عمرو بن عبيد رأس المعتزلة فيجيب سائله قائلاً : « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء

ربته ، إن قام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نُهي عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ، ولا باطناً أشبه بظاهر منه [1] » .

إن عالماً جليلاً مثل الحسن البصري لا يمكن أن يصف عمرو بن عبيد بهذه الأوصاف لو كان فيه قيد شعرة من انحراف في مذهبه واعتقاده ، وإنما الانحراف جاء فيما بعد وعلى يد خلفائه ممن تأثروا بالفلسفة اليونانية كما ذكرنا ، فالاعتزال إذن في أصله وروحه ليس بعيداً عن السنة ذلك البعد الذي ظهر فيما بعد .

وهكذا نجد تلك الروابط الأكيدة التي تجمع بين السنة والإمامية في شخصي مالك وجعفر ، وبين السنة والزيدية في شخصي أبي حنيفة وزيد ، وبين السنة والمعتزلة في أشخاص الحسن البصري وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ، وبين الزيدية والمعتزلة في شخصي زيد وواصل ، وبين الزيدية والإمامية في شخصي الأخوين زيد ومحمد الباقر ، وبين السنة والخوارج في شخصي البخاري وعمران ابن حطان الذي أملى الحديث على البخاري بل لأن الخوارج والإباضية — بصفة خاصة — هُم أول جمع الحديث الذي يعتبر المصدر الثاني لفقه السنة وعقائدها .

هي إذن روابط أكيدة متينة لها وزنها وقداستها تلك التي جمعت بين المذاهب سالفة الذكر التي يعتنقها عدد كبير من المسلمين ،

(١) الإسلام والنصرانية ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

أي السنة والإمامية والزيدية والإباضية ، وليس هناك ثمة تنافر في إمكان التقريب بين الإباضية والشيعة ، هذين المعسكرين اللذين يبدوان لأول وهلة أبعد ما يكون الواحد منهما عن الآخر ، ذلك لأن الإباضية لا يعتبرون أنفسهم خوارج ، بل إنهم يغضبون أشد الغضب ممن يطلق عليهم هذه الصفة ، وهم لا يلعنون علياً كما يشيع بعض الفقهاء ولكنهم يعتبرون التحكيم الذي جرى بينه وبين معاوية باطلاً ويقولون إن الإمامة لا ينبغي أن تكون مقصورة في بيت علي بل هي جائزة فيمن تتوفر فيه شروطها من عامة المسلمين .

فالخلاف إذن بين الإمامية والإباضية لا يكاد يبعد كثيراً عن الخلاف بين الإمامية والسنة ، وهو الخلاف على الإمامة ، وهو خلاف يمكن شجبه ، فليس هناك في الوقت الحاضر نظام لحكم المسلمين عن طريق الإمامة إلا في اليمن[1] والإمام هناك طالما توفرت فيه الشروط فهو يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية .

قد يثير سائل مسألة الإمام المستور الذي يعتقد الإمامية بظهوره ولا يأخذ برأيهم فيه بقية المذاهب الإسلامية ، ونحن نقول أن هذه أيضاً مسألة لا تدعو للخلاف وتفرقة صفوف المسلمين ما دام الإمام لم يظهر بعد ، وحين يظهر يمكن أن نتفق أو نختلف أما الخلاف على أمور لم تحدث بعد فإن ذلك أمر لا يتفق مع تفكير العقلاء ، هذا فضلاً عن أن عدم الاعتقاد بالإمام المهدي في رأي الشيعة أنفسهم لا يدفع بصاحبه إلى مزالق الكفر ومهاوي الضلال .

وهناك مسألة خلافية أخرى بين الشيعة الإمامية من ناحية وبين

(١) انتهى حكم الإمامة في اليمن منذ عام ١٩٦٢ م.

بقية المذاهب المشار إليها آنفاً من ناحية أخرى هي مسألة المتعة ونحن نقول إنها مسألة فقهية محضة ولهؤلاء حججهم من سنة رسول الله ولأولئك حججهم من سنة رسول الله وتشريع صحابته .

هذا بالإضافة إلى أمور أخرى ليست بأهل لأن توسع شقة الخلاف بين هذه المذاهب ، لأن الخلاف يقوم أحياناً بين أئمة المذهب الواحد نفسه فأبو حنيفة أقرب إلى الزيدية في بعض المسائل منه إلى الشافعي مع أن كليهما إمام من أئمة أهل السنة ، ولم يقل عاقل إن أحداً من الإمامين الفاضلين قد خرج عن الجادة أو انزلق عن الربقة ، ففي كثير من الحالات نجد إماماً سنياً أقرب في اجتهاده وتفكيره إلى إمام شيعي منه إلى زميل له من أئمة السنة .

فنحن نستطيع أن نقول إنه لا يوجد الخلاف الذي يؤدي إلى هذه الفرقة الطويلة الخطيرة بين السنة والإمامية والزيدية والإباضية اللهم إلا ما كان نتيجة الجهل والجمود والتعصب عند بعض من ينتسبون إلى واحد من هذه المذاهب ممن جعل العامة لهم مكانة دينية مرموقة .

فمن الميسور إذن أن تقترب هذه المذاهب الواحد من الآخر في سهولة ويسر وأن تلتقي في منتصف الطريق وأن تعقد الجلسات والمؤتمرات التي تظللها السماحة ويكون رائدها الخير للإسلام والمسلمين وإذا كانت وزارة الأوقاف بالإقليم المصري من الجمهورية العربية المتحدة قد بدأت الخطوة الأولى بمحاولة التقريب بين السنة والجعفرية فإن من الخير أن تبادر إلى توسيع الدائرة ودعوة الزيدية والإباضية إلى نفس الغرض ، ونحن نعتقد مخلصين أنه لو حسنت النيات وألقيت

رواسب الماضي البعيد جانباً لخرجنا من هذه المحاولات صفًّا واحداً لا يفرق جماعة عن جماعة إلا ما يحدث من خلاف بين أئمة المذهب الواحد .

فإذا ما انتهينا من هذه الخطوة الأولى كان علينا أن نسارع إلى الخطوة الثانية التي تشمل الدروز والعلويين والأحمدية والإسماعيلية. حقاً إن شقة الخلاف واسعة بين عقائد هذه المذاهب الأخيرة وبين مذاهب السنة والإمامية والزيدية والإباضية على الوضع الذي مر ذكره عند الحديث عن عقيدة كل فرقة من هؤلاء، ولكن القوم ينتسبون إلى الإسلام، والمنبع واحد، ولعل تيارات من الجهل والاضطهاد والمؤامرات هي التي باعدت بين جمهرة المسلمين وبينهم من الناحية المذهبية أو العقائدية ، أما من ناحية الوطنية فلا يستطيع عاقل أن يذكر الدروز إلا بكل خير وكل ثناء ، والأمر قريب من ذلك بالنسبة للعلويين ، وإن اختلف بالنسبة للأحمدية والاسماعيلية ، غير أن الأحمدية قد قدمت خدمات كبيرة للإسلام في أوربا بصفة خاصة ، ثم أنها هي والإسماعيلية تعتبران وجهاً بارزاً من وجوه الإسلام لشهرة كل من المذهبين في أوربا وأمريكا ، ومن هنا وجب السعي إليهم ومحاولة تصفية المذهبين من كل الشوائب .

والأمر فيما يتعلق بالدروز نستطيع أن نقول إنه وإن لم يكن غير ممهد من ناحية أركان العقيـــدة إلا أن لدى كثير من القوم رغبة أكيده في التفاهم ولم الشمل وتضييق شقة الخلاف، وإن كثيراً من

عقلائهم ينادي بذلك حتى يتخلصوا من سلطان بعض العقليات غير المستنيرة التي تجعل من نفسها قيّمة على هذا المذهب . وغير خاف أن كثيراً من الدروز الآن يتعبد على طريقة أهل السنة أو الشيعة غير الغالية .

وما يقال عن الدروز يقال في يسر تام عن العلويين في سوريا ؛ ذلك أن طبيعة الموقف بالنسبة للمذهبين واحدة وإن اختلف الأمر بالنسبة لتفاصيل المعتقدات ، ولدى عقلاء القوم استعداد تام للمناقشة والمقابلة على الطريق السويّ المؤمن الصافي .

بقي المذهب الإسماعيلي بفرعيه من أغا خانية وبهرة ، ثم المذهب الأحمدي، وهؤلاء يمكن الالتقاء معهم إن لم يكن سريعاً فمع مرور الزمن واطراد السعي ومداومة الإخلاص واستهداف الخير العام للإسلام والمسلمين حينئذ يستطاع ضمهم إلى الصف الإسلامي الموحد .

تلك هي فكرة «الإسلام بلا مذاهب» نادينا بها في ظل هذه الدراسة ، ولم يكن هناك من دافع إليها سوى ما لمسناه من الشر والضر والأذى الذي يقع على المسلمين متفرقين ، والخير والنفع والعزة التي يعيش في ظلها المسلمون ما كانوا متكاتفين متحدين ، هذا فضلاً عن أن لب العقيدة واحد ومصدرها واحد وإلهها واحد ورسولها واحد .

مراجع الكتاب

• القرآن الكريم

• الأئمة الأربعة

للدكتور أحمد الشرباصي ط دار الهلال مصر

• ابن حنبل

للأستاذ محمد رجب البيومي ط دار القومية مصر

• أبو حنيفة : حياته وعصره ــ آراؤه وفقهه

للشيخ محمد أبي زهرة ط دار الفكر العربي مصر

• إحياء علوم الدين

للإمام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي ط القاهرة

• الإسلام عقيدة وشريعة

للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ط الأزهر

• الإسلام والمرأة

للأستاذ سعيد الأفغاني ط دمشق

• الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية

للإمام محمد عبده منشورات المؤتمر الإسلامي

• أضواء على مسلك التوحيد « الدرزية »

للدكتور سامي مكارم ط صادر بيروت

• الأم
للإمام محمد بن إدريس الشافعي — ط القاهرة

• الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء
لابن عبد البر — ط القاهرة

• الباكورة السليمانية في أسرار الديانة النصيرية تأليف سليمان الأدني — ط بيروت

• بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب
لمحمود شكري الألوسي — ط مصر

• البيان والتبيين للجاحظ
تحقيق عبد السلام هارون — لجنة التأليف والترجمة والنشر

• بين الديانات والحضارة
لطه المدور — ط بيروت

• بين الدين والعلم
للدكتور محمد أحمد الغمراوي — سلسلة الثقافة الإسلامية

• التاج المذهب لأحكام المذهب «شرح الأزهار في فقه الأئمة الأطهار»
لأحمد بن قاسم العنسي اليماني — ط الحلبي مصر

• تاريخ آداب اللغة العربية
لجرجي زيدان — ط الهلال

• تاريخ الإسلام السياسي
للدكتور حسن إبراهيم حسن — ط النهضة المصرية

• تاريخ بغداد
لأحمد بلى علي بن ثابت الخطيب البغدادي — ط مصر

• تاريخ الدولة الفاطمية
للدكتور حسن ابراهيم حسن — ط النهضة المصرية

• تاريخ الشعر السياسي
للأستاذ أحمد الشايب — ط النهضة المصرية

• تاريخ العلويين
لمحمد أمين غالب الطويل
ط دار الأندلس ١٩٦٦ — بيروت

• ترياق القلوب
لميرزا غلام أحمد القادياني — ط الهند

• التصوف الإسلامي الخالص
للسيد محمود أبي الفيض المنوفي — ط نهضة مصر

• التصوف الإسلامي وتاريخه
لرينولد نيكلسون ، ترجمة أبي العلا عفيفي — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦

• التصوف التورة الروحية في الاسلام
للدكتور أبي العلا عفيفي — ط دار المعارف

• تلبيس إبليس
لعبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي — القاهرة ١٣٦٨هـ.

• الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة (مجموعة أبحاث)
للأستاذ محمد خلف الله أحمدوآخرين — ط القاهرة

• ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف
لعارف أبو شقرا — ط بيروت

• ثورة الشيخ صالح العلي
لعبد اللطيف اليونس
مطبوعات وزارة الثقافة السورية ، نشر دار اليقظة العربية بدمشق

• جمهرة خطب العرب
لمحمد زكي صفوت — ط الحلبي القاهرة

• حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
لعباس محمود العقاد — منشورات المؤتمر الإسلامي القاهرة

• حقوق الإنسان في الإسلام
للدكتور علي عبد الواحد وافي
منشورات وزارة الأوقاف المصرية

• دائرة المعارف الاسلامية ، مادة تصوف .

• الدروز ، ظاهرهم وباطنهم
لمحمد علي الزعبي — ط مكتبة العرفان بيروت

• الدروز ، وجودهم ومذهبهم
سليم أبو اسماعيل — ط بيروت

• ديوان عمر بن الفارض
شرح البوريني — ط مصر

• الرسالة
للإمام محمد بن إدريس الشافعي — ط مصر

• رسالة التوحيد
للإمام محمد عبده — منشورات المؤتمر الاسلامي بالقاهرة

• الرسالة القشيرية
لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري ط الحلبي مصر

• رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين
لمحيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف الدين النووي — ط القاهرة

• زعماء الإصلاح
للدكتور أحمد أمين — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة

• الشافعي ، حياته وعصره ، آراؤه وفقهه
للشيخ محمد أبي زهرة — ط دار الفكر العربي القاهرة

• الشيعة أصلها وأصولها
للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء — ط العرفان بيروت

- صور من الأدب الأندلسي
  للدكتور مصطفى الشكعه — دار مكتبة النهضة العربية بيروت
- ضحى الإسلام
  للدكتور أحمد أمين — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة
- طائفة الإسماعيلية
  للدكتور محمد كامل حسين — المكتبة التاريخية ط النهضة مصر
- طائفة الدروز
  للدكتور محمد كامل حسين — ط دار المعارف مصر
- طبقات الحنابلة
  لأبي الحسن محمد بن أبي يعلي — ط السنة المحمدية مصر
- طبقات الفقهاء الشافعية
  لأبي عاصم محمد بن أحمد العبادي — ط ليدن .
- العقد الفريد
  لأحمد بن عبد ربه — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر
- العلويون
  لمنير الشريف — ط دمشق

- العلويون فدائيو الشيعة المجهولون
  لعلي عزيز ابراهيم العلوي
  (طبع لحساب المؤلف)
- عوارف المعارف
  لعبد القاهر بن عبدالله البكري الصديقي السهروردي — ط القاهرة
- فجر الإسلام
  للدكتور أحمد أمين — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر
- فرق الشيعة
  لأبي محمد الحسن بن موسى النوبختي — ط استانبول
- الفرق بين الفرق
  لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي — ط المعارف مصر
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي
  للدكتور محمد البهي — ط القاهرة
- فن المنتجب العاني وعرفانه
  للدكتور أسعد أحمد علي
  ط . دار النعمان ١٩٦٨ م — لبنان

- فيض الخاطر
للدكتور أحمد أمين ط لجنة التأليف والترجمة والنشر
- الكامل في التاريخ
لأبي الحسين علي بن أبي الكرم الشيباني ط ليدن
- كتاب الصلاة والصيام وفق المذهب الجعفري
للشيخ عبد الرحمن الخيّر الطبعة الثانية مطبعة الإنشاء — دمشق
- ما بعد القمر
للشيخ أحمد محمد حيدر
(الناشر أو المطبعة غير معروفين)
- مالك بن أنس ، حياته وعصره -آراؤه وفقهه
للشيخ محمد أبي زهرة ط دار الفكر العربي القاهرة
- مجموعة الرسائل والمسائل
للإمام أحمد بن تيمية ط مصر ١٩٢٢
- المختصر النافع في فقه الإمامية
لأبي القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن الحلبي المتوفي ٦٧٦هـ. ط دار الكتاب العربي القاهرة
- المدخل الى التصوف الإسلامي
للسيد محمود أبي الفيض المنوفي ط الدار القومية للطباعة مصر

- المذاهب الإسلامية
للشيخ محمد أبي زهرة ط مكتبة الآداب القاهرة
- مذهب الموحدين « الدروز »
للأستاذ عبدالله النجار ط دار المعارف مصر
- المرأة في القرآن
للأستاذ عباس محمود العقاد ط القاهرة
- المراجعات
للشيخ عبد الحسين شرف الدين الموسوي ط بيروت ١٩٥٩
- مروج الذهب ومعادن الجوهر
لعلي بن الحسين المسعودي ط باريس
- المسند
للإمام أحمد بن حنبل ط القاهرة
- المعارف
لعبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ط القاهرة
- معجم الأدباء (أرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)
ياقوت الحموي ط دار المأمون مصر
- معرفة الله والمكزون السنجاري
للدكتور أسعد أحمد علي
ط . دار الرائد العربي ١٩٧٢ م — بيروت
- المغرب في حلى المغرب
للحجاري وابن سعيد وآخرين تحقيق دكتور شوقي ضيف
ط دار المعارف

- مقاتل الطالبيين
  لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني — ط الحلبي
- المقدمة
  لعبد الرحمن بن خلدون تحقيق الدكتور علي عبد الواحد — ط القاهرة
- الملل والنحل
  لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفي ٥٤٨هـ.
  تحقيق الدكتور محمد بن فتح الله بدران — ط الانجلو مصر
- من كنوز الإسلام
  للدكتور محمد غلاب — المكتبة الشرقية مصر
- المناقب الكَرْدَرِيّة في سيرة الإمام أبي حنيفة
  لمحمد بن محمد بن شهاب الكردري الشهير بالبزازي — ط القاهرة
- المنقذ من الضلال
  للإمام الغزالي — ط القاهرة
- الموطأ
  للإمام مالك بن أنس — ط القاهرة

النبأ اليقين عن العلويين
للشيخ محمود الصالح
(الناشر او المطبعة غير معروفين)

- نشأة التصوف الإسلامي
  للدكتور ابراهيم بسيوني — ط دار القومية للطباعة مصر
- نهضة الشعوب الإسلامية في العصر الحديث
  للأستاذ محمد حبيب أحمد — ط النيل مصر
- الواقع الدرزي وحتمية التطور
  مجموعة محاضرات لبعض المفكرين من الدروز — مطبوعات رابطة العمل الاجتماعي ببيروت
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
  لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان — ط النهضة مصر

بعض المراجع الأجنبية

- أحمد بن حنبل
  ل والتر باتون
  ترجمة عبد العزيز عبد الحق — ط دار الهلال
- تاريخ الدولة العربية
  يوليوس فلهاوزن
  ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبي ريده — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر

- تاريخ الفلسفة في الإسلام
  ا دي بور
  ترجمة الدكتور أبي ريدة — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر
- حقوق المرأة في الإسلام
  للكاتب الروسي أحمد آجايف
  ترجمة سليم قبعين — ط مصر
- الخوارج والشيعة
  ا يوليوس فلهاوزن
  ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي — ط النهضة مصر

- Arabic Thought and its Place in History,
  By De Lacy O'Leary, London, 1945.
- Encyclopedia of Islam.
- Islam,
  By Alfred Guillaume, Paperbacks, London.
- Medieval Islam,
  By Gustave E. Von Grunebaum, Chicago Univ. Pres
- Mohammedanism,
  By H.A.R. Gibb, N.Y., Oxford Press 1962.
- Modern Islam,
  By Gustave E. Von Grunebaum, University of California Press, 1962.
- The Social Structure of Islam,
  By Reuben Levy, Cambridge Univ. Press.
- The Spirit of Islam,
  By Sayed Ameer Ali, University Paperbacks, London.

الفهرس